أوقات عصيبة

الكتاب : أوقات عصيبة

الكاتب : تشارلز ديكنز.

الفئة : أدب - رواية .

رقـــــم الإيداع : 2025/19060

الترقيم الدولي : 978- 633- 8330- 21- 7

جميع الحقوق محفوظة للناشر©

وأي اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يُعرِّض صاحبه للمُساءلة القانونية،
والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

أوقات عصيبة

تشارلز ديكنز

الكتاب الأول: البـذر

الفصل الأول

الحاجة الوحيدة

كلُّ ما أبتغيه هو الحقائق العارية، والحقائق وحدها، فلا تُلقِّنوا هؤلاء الفتيان والفتيات سوى الحقائق؛ فهي وحدها عُدَّتهم في معترك الحياة. لا تزرعوا في عقولهم غيرها، واقلعوا من تربة أذهانهم كلَّ ما عداها؛ فإنّه لا يُرجى من غيرها نفع، ولا يُنتظر من سواها جدوى. بها وحدها تُصاغ العقول الناطقة، وتُشكَّل الأذهان، فلا سبيل إلى التهذيب إلا بها. هذا هو المنهاج الذي أنشّئ عليه أبنائي، وبه أُقوّم عقول هؤلاء الصغار. فالْزَمِ الحقائقَ، يا سيدي!

وكان مسرح هذا القول غرفةَ دراسةٍ خاويةً من كلِّ زينة، عاريةً من الجمال، متشابهةَ الزوايا، أشبهَ ما تكون بسردابٍ كئيب. وكان المتكلم يخطُّ بسَبّابتهِ المشهورة إشاراتٍ نافذة على كمّ المعلم، كأنّه يَسْطُر عليه أوامر لا تقبل الجدل، كلّما نطق بجملة. وكان جبينه العريض يسنده هذا التوكيد، كأنّه جدارٌ سميك من حجر، وذاك الجدارُ قد بُنِيَ على أساسٍ هما حاجباه، وتحت ظلّ هذا الجدار تستقرّ عيناه في محجرين مظلمين، ككهفين عميقين لا يبلغهما النور.

ويؤازر تلك النبرة الآمرة فمٌ عريضٌ ضيّق الشفتين، تنضح ملامحه بقسوة لا تخفى، يعزّزها صوته الجاف الصارم الذي يشي باستبدادٍ مقيم. ويزيدها رسوخًا ذلك الشعر الذي انتصب على حافة رأسه الأصلع كصفٍ من أشجار الشّربين،

تقف في وجه الريح، تحرس صفحة رأسٍ لماعةٍ ناتئةٍ تشبه قشرة فطيرة البرقوق، كأنّ الجمجمة توشك أن تنفجر بما اختزنته من وقائع متحجّرة.

كان كلُّ ما في هيئته يؤكّد عزيمته التي لا تلين: سترتهُ الصارمة الزوايا، وساقاه القائمتان كالعمودين، وكتفاه العريضان، بل حتى رباط عنقه الذي كان يخنقه خنقًا متقنًا، كأنّه الحقيقةُ ذاتها وقد انعقدت حول عنقه حبلًا لا يُفكّ، لا هوادة فيه ولا رخاوة — وكان كذلك حقًّا!

كلُّ ذلك أضاف إلى نبراته مزيدًا من الوطأة حين صاح:

— لسنا في هذه الحياة الدنيا بحاجةٍ إلى شيءٍ سوى الحقائق، الحقائق الواقعة، ولا شيء سواها!

ثمّ تراجع المتحدث، ومعه المعلم ورفيقهم الثالث من الكبار، خطوةً إلى الوراء، وأخذوا يُجيلون أبصارهم في تلك الصفوف المنظَّمة من الصغار، أولئك الذين بدا أنهم قواريرُ صغيرة، قد أُعدّت لتُملأ حتى الحافة بمكاييلٍ مترعة من الوقائع، تُصبُّ فيها صبًّا حتى تفيض.

الفصل الثاني

قتل الأبرياء

(توماس جراد جرايند)، يا سيدي، رجلُ وقائعٍ لا يحيد، وصاحبُ حقائقٍ لا يلين. رجلٌ لا يرى في الحياة غير أرقامٍ تتكلم، ومعادلاتٍ لا تقبل الشكّ، يؤمن أن اثنين واثنين تساوي أربعة، ولا يتزحزح قيد شعرة عن هذا اليقين، ولا يُقنعه سلطانٌ من البلاغة بأن هناك متسعًا لرقم خامس!

توماس جراد جرايند، ولا محيد عن توماس، هو الرجل الذي يحمل في جيبه جدول الضرب كمن يحمل خريطة العالم، ويمضي بين الناس بقاعدة وكفتي ميزان، يزن بها البشر كما توزن السلع، ويقيس طبائعهم كما تُقاس المسافات، ويمنحك مقدارهم، لا بالظنون، بل بالحساب القاطع.

في مذهبه أن الإنسان مجرد معادلة، لا لغز فيها ولا غموض، وأن العقل لا يحتاج إلى غير الحساب البسيط. فهل تأمل، يا سيدي، أن تُقنع ابنًا له يُدعى (جورج)، أو آخر يُدعى (أغسطس)، أو (جون)، أو (جوزيف) — وكلهم فرضيات لا وجود لها — بأن يتقبل فكرة غير قابلة للقياس؟ أما رأس توماس جراد جرايند ذاته، فهو مغلق بإحكام، محصّن ضد كل ما لا يمكن تدوينه في جدول!

بهذه العبارات يقدم السيد جراد جرايند نفسه في كل مجلس، سواء أكان لمعارفه أو للجمهور العريض. وبهذه النغمة نفسها — مستبدلًا "يا سيدي" بـ"يا

صبية ويا فتاة" — ها هو ذا يقف اليوم في حضرة الجرار الصغيرة، المتراصة أمامه، متهيئة لتُملأ حتى الحافة بالوقائع، وتفيض.

نعم، إنه يبدو الآن كمدفعٍ ضخم محشوّ حتى فوهته بالحقائق، موشك أن ينفجر بها دفعة واحدة ليقذفهم بعيدًا عن عالم الطفولة إلى فضاء الصرامة العقليّة. أو كأنه جهاز كهربائيّ مشحون بطاقة صارمة، يحلّ محل الأحلام الغضّة التي ينبغي — في نظره — أن تُجتثّ من الجذور.

أشار السيد جراد جرايند بسبابته المشهورة، وهي تشق الهواء بعنف، وقال:

— الفتاة رقم عشرين... لا أعرف هذه الفتاة. من هي؟

فنهضت رقم عشرين، ووجنتاها تتوهجان بالخجل، وانحنت قائلة:

— سيسي جيب، يا سيدي.

فقال مستر جراد جرايند بصرامة:

— "سيسي" ليس اسمًا. لا تطلقي على نفسك هذا الاسم. قولي "سيسيليا".

فقالت الفتاة، بانكسار صوتٍ وبانحناءة جديدة:

— أبي هو من ناداني بهذا الاسم، يا سيدي.

فردّ جراد جرايند دونما رحمة:

— إذن، لا حق له في ذلك. قولي له إن ذلك لا يجوز له. يا سيسيليا جيب، أخبريني: ما مهنة أبيك؟

— يركب الخيول، يا سيدي، إذا أذنت لي.

فانعقد جبين السيد جراد جرايند، ولوّح بيده كمن يطرد أمرًا مستهجنًا، وقال:

— لا نريد أن نسمع شيئًا عن هذا هنا. لا تتحدثي عن ذلك بعد الآن. إن والدك يروض الخيول، أليس كذلك؟

— عذرًا يا سيدي، إنهم إذا وجدوا خيولًا بحاجة إلى ترويض، روّضوها في الحلقة، يا سيدي.

— لا يجوز أن تأتي على ذكر "الحلقة" هنا. حسنًا. اكتفي بالقول إنه مروض خيول... وهل يداوي الخيول المريضة أيضًا؟

— أوه، نعم يا سيدي.

. حسنًا جدًّا، فهو إذن جرّاح بيطري، وبيطار، ومروّض للخيول. كيف تُعرّفين الحصان؟

)وقد اعتراها ذعر شديد ما إن سُمِع السؤال)، فالتفت السيد "جراد جرايند" نحو الجرار الصغيرة بوجه عام وقال:

. الفتاة رقم عشرين تعجز عن تعريف الحصان! الفتاة رقم عشرين لا علم لها بكائن هو من أكثر المخلوقات شيوعًا! فليتفضل أحد الصبية بتعريف الحصان... أنت، "بتزر"!

وإذا بالإصبع الجائل يتوقف بغتة عند "بتزر"، ولعل ما ساقه إليه أنه كان يجلس، مصادفةً، في ذات الشعاع الشمسي المنساب عبر نافذة عارية في تلك القاعة الناصعة البياض، متسلّلًا حتى استقرّ على "سيسي". كان الفتيان والفتيات مصطفّين على مقاعد مائلة، في صفّين متقابلين يفصل بينهما ممرّ ضيّق. وقد جلست "سيسي" في زاوية صف من الجهة المشرقة، بينما كان "بتزر" في الطرف المقابل، يسبقها ببضعة صفوف.

ولئن كانت "سيسي" ذات عينين حالكتين وشعر فاحم، فإن أشعة الشمس إذ تسلّلت عليهما زادتهما بريقًا وتألقًا. أما "بتزر"، فكان بلون باهت، عيناه كأنهما من زجاج، وشَعره فاتحًا على نحو يوشك أن يكون شفافًا، حتى لكأنّ الضوء الذي غمره قد سلخ منه ما بقي فيه من لون، فلا تُدرك موضع عينيه الباردتين إلا بما يحدّهما من أهداب قصيرة شاحبة. كان شعره امتدادًا لِنمش يغزو جبينه ووجنتيه، أقرب في لونه إلى الرمل، وبشرته نُزعت منها الحياة حتى يُخيّل إليك أنّه إن جُرح، سالت من عروقه دماء بيضاء!

قال "جراد جرايند":

. هات تعريفك للحصان، يا "بتزر".

فأجاب الصبي بنبرة رتيبة:

. من ذوات الأربع، آكل للحشائش، له أربعون سنًّا: أربع وعشرون منها طواحن، وأربع أنياب، واثنا عشر قاطعًا. يتساقط وبره في الربيع، ويبدّل حوافره في البيئات الرطبة. حوافره صلبة، لكنها تحتاج إلى حدوات من الحديد. ويُعرَف عمره بعلامات تظهر في أسنانه...

)ومضى يعدد تفصيلات أخرى من ذات الطراز)، فعلق "جراد جرايند":

. الآن، أيتها الفتاة رقم عشرين، ها قد عرفتِ ما هو الحصان.

وانحنت الفتاة، وقد تورد وجهها خجلًا، ولو كان للحمرة أن تتضاعف لما توانت عن ذلك. أما "بتزر"، فطرف بعينيه معًا نحو "جراد جرايند"، وانعكس الضوء على أهدابه، فكأنها قرون استشعار متوثبة، ثم رفع يده إلى جبينه المكلّل بالنمش، وجلس في مكانه.

عندها، تقدم الرجل الثالث إلى المقدمة؛ رجل طويل الباع في الجفاء والفظاظة، موظف رسميّ، لا يعرف للرحمة سبيلًا، يفرض أنظمته كما تُفرَض العلاجات المُرّة، وينطق في منصبه الضئيل كمن يتحدّى أمة بكاملها. وإن أردنا استعارة لغة المصارعة، فهو خصم يجيد الانقضاض، يضرب بيمينه، فيتبعها بيسراه، ثم يستعد من جديد ليُجبر خصمه . أيًّا يكن . على التقهقر إلى حبال الحلبة، ثم يهجم عليه هجومًا لا مهرب منه. وهو كذلك من أولئك الذين يملكون أن يُفسدوا كل فكر طازج، ويصمّوا الآذان عن نداء الفطرة، وهو مأمور من سلطة عُليا بإقامة مملكة الدواوين على هذه الأرض، مملكة لا سلطان فيها إلا للموظفين!

قال ذلك الرجل، مبتسمًا، وهو يعقد ذراعيه على صدره:

. حسنًا. هذا هو الحصان. والآن أيها الصبية والفتيات، هل يجوز لكم أن تكسوا جدران حجراتكم بورق عليه صور خيول؟

سادت لحظة صمت، ثم ارتفع نصف الأصوات قائلًا:

. نعم، يا سيدي!

لكن، إذ لاحظ النصف الآخر شراسة الملامح، سارعوا بتصحيح الإجابة:

. كلا، يا سيدي!

كما تجري العادة في مثل هذه الامتحانات.

قال الرجل:

. بالطبع لا. ولكن لماذا؟

ساد الصمت. ثم تطوّع غلام بدين، يتنفس بثقل، وقال بصوت متهدّج:

. لا أحب ورق الجدران يا سيدي، أفضّل طلاءها.

فقال الرجل بحزم:

. بل ينبغي أن تُغطّى بالورق!

وأردف "جراد جرايند":

. سواء رغبت أو لم ترغب، يجب أن تُغطّيها بالورق! لا تقل لنا إنك لا تريد ذلك! ماذا تعني بهذا؟

ثم قال الرجل بعد فترة صمت ثقيل:

. سأفسّر لكم الآن. هل رأيتم في حياتكم خيولًا تمشي صعودًا وهبوطًا على جدران الحجرات؟ في الواقع، هل رأيتم ذلك؟

فصاح نصف الأطفال:

. نعم، يا سيدي!

والنصف الآخر:

. كلا، يا سيدي!

فقال الرجل بازدراء للنصف الأول:

. كلا، بالطبع. إذن، لا يحق لكم أن تروا في مكان ما لا ترونه في الواقع، ولا يجوز أن تمتلكوا ما لا وجود له في الواقع. فما يُسمّى "الذوق" ما هو إلا اسم آخر للواقع!

وأومأ "جراد جرايند" موافقًا، فقال الرجل:

. هذا هو المبدأ الجديد. اكتشاف عظيم! والآن، سؤال آخر: لو أردتم فرش الحجرة ببساط، هل يجوز أن يكون عليه صور أزهار؟

وإذ ساد الاعتقاد بأن "لا، يا سيدي" هي الإجابة الصحيحة دومًا، علا صوت الأغلبية بذلك، ولم تقل "نعم" إلا قلّة، كان من بينهم "سيسي جيب".

قال الرجل وهو يبتسم:

. الفتاة رقم عشرين.

واحمرّ وجه "سيسي"، ووقفت، فقال:

. إذن، تفرشين حجرتك (أو حجرة زوجك، إن كنت امرأة بالغة ذات زوج) ببساط عليه صور أزهار. لماذا تفعلين ذلك؟

فقالت بتردد:

. لأنني أحب الأزهار، يا سيدي.

قال مستنكرًا:

. وهل لأجل ذلك تدوسينها بالأقدام وتضعين فوقها الموائد والمقاعد؟

أجابت بخجل:

. لا تؤذيها الأقدام، يا سيدي، لن تذبل أو تُهرَس، إن سمحت لي بالقول... إنها تظل صورًا لما هو جميل وعذب... ويخيل إليّ يا سيدي...

فصاح، وقد سرّه أن بلغ مراده:

. آه! آه! ليس لك أن تتخيّلي! هذه هي المسألة! لا مجال للتخيّل!

وردد "جراد جرايند" بوقار:

. لا ينبغي لكِ، يا "سيسيليا جيب"، أن تفعلي ذلك!

وقال الرجل:

. الواقع! الواقع! الواقع!

وردّد "جراد جرايند" وراءه:

. الواقع! الواقع!

وقال السيّد، بنبرة لا تعرف التردّد:

— يجب أن يكون نهجكم في كلّ شأن من شؤون الحياة منبثقًا عن دستور الواقع، ومنقادًا له انقيادًا كاملًا. ونحن نأمل، في المستقبل القريب، أن تتشكّل "هيئة للواقع"، مؤلّفة من مندوبين مختصّين بالواقع، يحملون الناس على أن يعيشوا للواقع، وبالواقع، ولا شيء غير الواقع!

فانبذوا، إذًا، لفظ "الخيال" نبذًا لا رجعة فيه؛ فليس لكم شأنٌ به، ولا ينبغي لكم أن تتعلّقوا بظلّه. لا يجوز لكم أن تسمحوا لأنفسكم، لا في أدوات المنفعة ولا في وسائل الزينة، بما يخالف الواقع أو يطعن في صلابته. أنتم لا تمشون على الزهور في دنيا الحقيقة، فلا تسيروا عليها في نقوش السجّاد. لا تطالعون طيورًا نادرة أو فراشات ملوّنة على صحافكم وأكوابكم، فلا ينبغي أن تروها هناك. أنتم لا ترون الكائنات ذوات الأربع تصعد الجدران وتهبط، فلا ترسموها على الجدران. ما عليكم، بدلًا من هذا العبث، إلّا أن تستخدموا التوليفات الهندسية، والتراكيب المُحكمة بالألوان الأولية، التي تخضع للحساب، وتُبرهن بالبراهين. هذا هو الاكتشاف الجديد... هذا هو الواقع... بل هو الذوق بعينه!

وانحنت الفتاة ثم جلست، وكانت بعدُ يافعة غضّة، فبان عليها أثر الروع، كأن صورة هذا العالم الصارم — عالم الواقع — قد اقتلعت ما تبقّى في روحها من الدهشة الطفولية.

ثم قال السيّد:

— والآن، إن تقدّم السيّد (متشو كمتشايلد) ليلقي درسه الأول هنا، فسيسعدني، يا مستر جراد جرايند، إن سمحتَ، أن أتابع طريقتَه في التعليم.

فأعرب مستر جراد جرايند عن شكره، ثم قال:

— نحن بانتظارك، يا مستر متشو كمتشايلد.

وشرع الرجل يمارس فنّه الذي أُعدّ له، على أتمّ وجه. فقد خَرَج من مصنعٍ تعليميٍّ ضخم، أنتج ما يناهز مئة وأربعين معلمًا دفعةً واحدة، وفق قالبٍ واحد، كما تُنحَت أرجل البيانو. دُرِّب على أنماطٍ من الخطو المضبوط، وأُرهق بإجاباتٍ عن مجلداتٍ من الأسئلة التي تُفتّت العقل. فقد حَفِظ الهجاء والاشتقاق، وأتقن النحو والصرف، وألمَّ بالعَروض والسير، وبالفلك والجغرافيا، وسكون الأجسام، وعلوم النسب المركّبة، والجبر، والمساحة وتسوية الأرض، والصوتيات، والرسم بالنماذج.

كلّ هذا حاضِر في أطراف أنامله المرتجفة من البرد. لقد شقّ طريقه الصخري حتى بلغ "القائمة باء" في المجلس الخاص الموقّر لدى جلالة الملكة، وقطف أزاهير المعارف العُليا في الرياضيات والفيزياء، واللغات الفرنسية، والألمانية، واللاتينية، واليونانية، وأحاط علمًا بكل مساقط المياه على ظهر الأرض — مهما كانت — وحفظ تواريخ الأمم، وأسماء الأنهار، وقمم الجبال، والمنتجات، والعادات، والأخلاق، وحدود البلاد، وسماتها على امتداد الدرجات الاثنتين والثلاثين للبوصلة.

لقد ذهب متشو كمتشايلد إلى المدى الذي لا يُحدّ، حتى إنّه، لو أنه تعلّم أقل من هذا، لكان تعليمه أجدى وأقوم!

وها هو الآن ينطلق في درسه التمهيدي، بأسلوب لا يكاد يختلف عن موجاته في حكايا الأربعين لصًا: ينحني على كل جرة مصطفّة أمامه، يطالعها واحدةً تلو الأخرى، ليفتش عمّا تحتويه.

لكن حدّثني، يا متشو كمتشايلد:

أتراك تظنّ، إذا ملأتَ كلَّ جَرّة من تلك الجرار حتى فاضت من مستودعك الحار، أنك قد قضيت قضاءً نهائيًّا على ذلك اللصّ المختبئ داخلها، المسمّى "الخيال"؟

أم إن غايتك القصوى أن تعيبه وتشوهه... إلى حين؟

الفصل الثالث

منفذ

سار السيد "جراد جرايند" في طريق عودته من المدرسة إلى منزله وقد غمره شعور بالرضى لا يُستهان به؛ فالمدرسة مدرسته، وهو قد نذر نفسه لأن يجعل منها أنموذجًا يُحتذى، ولأن يُخرِّج منها أطفالًا مثاليين، كما صنع من أطفاله الخمسة نماذج مضبوطة على قياس "الواقع" كما يراه ويؤمن به.

هؤلاء الصغار، أبناء "جراد جرايند"، كانوا جميعًا نسخًا متكررة من المثال المحض، قد وقعوا في قبضة أبيهم منذ أول وهلة تشكلت فيها أبجديات وعيهم، فطوردوا كما تطارد الأرانب البرية، وما إن قدر لهم أن يخطوا خطواتهم الأولى حتى دُفعوا نحو قاعة المحاضرات دفعًا. وهناك، كان أول ما طالع أعينهم سبورة سوداء ضخمة، أمامها مخلوق هزيل الجسد، يُشبه الغول، يرسم بالطباشير أشكالًا بيضاء تُثير الرهبة.

وليس المقصود أن أولئك الصغار قد عرفوا الغول أو سمعوا باسمه، معاذ الله! لكنني استعرتُ هذا الوصف لأجسّد وحشًا من نوع خاص، يقطن قلاع المحاضرات، له رؤوس بعدد لا يُحصى، قد التحم بعضها ببعض في رأس واحد، ذلك الرأس الذي يجرّ الطفولة من ناصيتها إلى كهوف الإحصاءات الجافة وأقبية الوقائع الجامدة.

ما من طفل من أبناء "جراد جرايند" نظر إلى القمر فرآه وجهًا باسمًا أو حزينًا، إذ سبق أن أُعطي تعريفه قبل أن يتعلم النطق السليم. ولم يغنِّ أحدهم تلك الأنشودة الطفولية الساذجة: "تلألأ، تلألأ، أيها النجم الصغير! كم أعجب لأمرك، وأيّ شيء أنت؟"، فما من عجب عرفوه، إذ كان كل واحد منهم قد أتم في سن الخامسة تشريح كوكبة "الدب الأكبر" كما لو كان عالم الفلك "أوين" ذاته، وقاد "بنات نعش" كما يقود سائق قاطرة بخارية موكبًا من الحديد واللهب.

وما من واحد منهم ربط بين البقرة الراعية في الحقل وتلك البقرة العجيبة ذات القرن المعقوف التي نطحت الكلب الذي أفزع القطة التي أجهزت على الفأر الذي التهم الشعير. ولا بينهم من سمع بتلك البقرة الأشهر، التي ابتلعت "عقلة الإصبع". فهذه الصور والأحاديث لم تكن لتجد طريقها إليهم. كل ما عرفوه أن البقرة: حيوان مجترّ من ذوات الأربع، يأكل الحشائش، وله عدة كروش.

وإلى ذاك المنزل المنيع المسمى بـ"ستون لودج"، والموغل في واقع صلد لا يتزعزع، اتجه "مستر جراد جرايند" بخطاه الثقيلة. وكان قد انسحب، لا بالاسم بل بالفعل، من تجارة المصنوعات المعدنية بالجملة، قبل أن يشيّد ذلك القصر الحجري، وهو اليوم يرقب اللحظة المناسبة ليغدو رقمًا من أرقام البرلمان؛ مجرد معادلة تُضاف إلى أرشيف الأرقام.

يقع "ستون لودج" على أرض بور خضراء، على بُعد ميل أو ميلين من مدينة كبرى تُدعى "كوكتاون"، كما ذكر "الدليل الأمين". وكان البيت سمة صارخة في ذلك الأفق، بارزًا في صلابته لا يحجبه شيء ولا يُقلّل من وقعه شيء، كما لا تحجب حاجباه الكثيفان عينيه إلا بظلال كثيفة.

ذلك البيت، مربع الشكل، شامخ البنيان، له رواق عظيم ذو أعمدة ضخمة، تُلقي بظلالها الداكنة فوق النوافذ الرئيسية كما تُلقي ظلال الجدّ على ضوء الطفولة. بُني على تأمّل وتمحيص، موزون الجوانب، لا ميل فيه ولا ارتباك. ست نوافذ تصطف على أحد جانبي الباب، وست تقابلها على الجانب الآخر، جملتها اثنتا عشرة نافذة، ومثلها في الجناح المقابل، وتمامها أربع وعشرون نافذة قبل أن نبلغ الأجنحة الخلفية.

أمام البيت تمتد حديقة منسقة، مفروشة ببساط من السندس، وممر للأطفال، خططت كل أجزائه بخطوط مستقيمة كأنها رسم دقيق في كراسة نباتات. أما نظام الغاز، والتهوية، والمجاري، ومصادر المياه، فكلها من الطراز الأول. وامتدّت قضبان الحديد والمشابك التي تدعم البناء من قمته حتى أساسه، مقاومة لكل ما قد يهددها. وفي الداخل، خصّصت مصاعد آلية للخدم، مجهّزة بالمكانس والفرش. كل ما قد يهفو إليه القلب، حاضر في ذلك البيت، مُعدّ بدقة، لا يترك لمتخيّل موضعًا ولا للدهشة منفذًا.

كل ما يشتهي القلب؟ أظن هذا.. فالصغار من آل جراد جرايند لهم أيضًا حجرات خاصة بكل أنواع العلوم. فلديهم حجرة صغيرة لدراسة مجموعات القواقع والأصداف، وحجرة صغيرة لدراسة المعادن، ومثلها لدراسة الأملاح. والنماذج جميعها مفَضدة مبوبة وذات بطاقات. وأجزاء الصخور والمعادن الغفل تبدو وكأنها قد انتزعت من مصادرها الأصلية بآلات صلبة شديدة البأس، هي أسماؤها الحادة الواقع: فلو أننا استعرنا تعبيرات الأسطورة البلهاء المعزوة إلى بطرس الزمار (بيتر بايبر) الذي لم يعرف طريقه قَطّ إلى مقام أولئك الصغار، وقلنا إن بني جراد جرايند الطماعين صبت نفوسهم إلى ما هو أكثر من هذا، فأي شيء بحق السماء وملكوتها الرحيم عسى صغار جراد جرايند أن تصبو نفوسهم

إليه؟! إن أباهم يمضي في سيره مستبشرًا ناعم البال، وهو أب عطوف على طريقته الخاصة، ولكن لعله حري أن يصف نفسه (لو أنه سيم تعريفًا كالذي سيمته سيسي جيب) بأنه أب (عملي بصورة ممتازة) فهو شديد الاعتداد بذلك التعبير الذي يراه منطبقًا على نفسه بصفة خاصة فأيًّا كان كنه الإجتماع العام المعقود في كوكتاون، وأيًّا كان موضوع ذلك الإجتماع، فلا بد لأحد المواطنين أن ينتهز الفرصة فيشير إلى (صديقه ذي الطابع العملي الممتاز جراد جرايند)، و ذلك حري أن يسر دائمًا الصديق ذا الطابع العملي الممتاز. فهو يعلم أنه لذلك الوصف أهل، لكن التنويه به دليل الإقرار المقبول.

وها هو قد وصل إلى الأرض الخلاء على أرباض المدينة، فلا هي من الحاضرة ولا هي من الريف، فكلاهما يهمل شأنها ويعيث فيها، فإذا بأنغام الموسيقى تقتحم أذنيه، فالطبل والزمر على أشده من الفرقة الصاخبة المرافقة لجماعة اللاعبين بالخيول التي ألقت مراسيها في كوخ خشبي هناك. وثمة راية تخفق فوق قمة ذلك (المعبد) معلنة للناس كافة أن جماعة (سليري) لألعاب الخيل تلتمس لديهم حسن القبول والتشجيع. و(سليري) نفسه عبارة عن (صنم) بدين عند مرفقه صندوق النقود وقد جلس في كنّة الكهنوتي المقام على الطراز القوطي الباكر يتلقى النقود. والآنسة (جوزفين سليري) - على حد ما ورد عنها في القصاصات المطبوعة المفرطة الطول والمسرفة الضيق - تقوم الآن بافتتاح التلهيات المعروضة للمشاهدة بألعاب رشيقة تؤديها على صهوة جوادها بالطريقة التيرولية. ومن بين المباهج الأخرى والمدهشات الملتزمة حدود الاحتشام التي لا يصدقها المرء إلا إذا رآها رأي العين، سيقوم (السنيور جيب) بعد ظهر اليوم بعرض الألاعيب المسلية التي يحذقها كلبه المدرب (مريلجز) (أي ذو الأرجل المرحة) وسيقوم كذلك بعرض (حيلته المذهلة، بأن يقذف في

حركات سريعة متلاحقة وبظهر يده خمسة وسبعين قنطارًا إنجليزيًّا فوق رأسه بحيث تتكون منها نافورة من الحديد الصلب معلقة في وسط الهواء، وهي حيلة لم يحاولها أحد من قبله في هذا القطر أو غيره من الأقطار، ولا يسمح التصفيق العاصف الذي استثارته من حشود المشاهدين بالعدول عنها رغم صعوبتها) وسيقوم السيد جيب المشار إليه أيضًا بإشاعة المرح بين الألعاب المختلفة بفواصل من نكاته ولواذعه (الشكسبيرية) العفيفة وسيختتمها أخيرًا بالظهور في شخصيته المفضلة، مستر وليم باتون، المقيم في شارع توتلي كما جاءت في الكوميديا الطريفة المضحكة للغاية المسماة (رحلة الخياط إلى برنتفورد).

ولم يلق توماس جراد جرايند باله إلى تلك التفاهات بطبيعة الحال، بل مرَ بها كما ينبغي لرجل عملي أن يمر بها، فهو إما أن يذب الحشرات الصاخبة عن أفكاره، وإما أن يسلمها إلى الإصلاحيات، ولكن منعطف الطريق أسلمه إلى مؤخرة الخيمة. وعند مؤخرة الخيمة تجمع فريق من الأطفال في أوضاع متلصصة، يحاولون اختلاس النظر إلى أمجاد المكان المحجوبة عنهم فاستوقفه ذلك وقال لنفسه:

- ها قد وصل الأمر بأولئك المتشردين إلى اجتذاب صغار الأوغاد من تلاميذ مدرسة نموذجية.

ولما كانت مسافة من الحشائش الضاوية والنفايات الجافة تفصله عن الأوغاد الصغار، فقد أخرج من جيب صداره منظاره؛ ليتبين من بينهم أيما طفل يعرفه باسمه كي يأمره بالانصراف، وإذا به يرى ظاهرة لا تكاد تصدق رغم وضوحها لعينيه.. فما وقع نظره إلا على ابنته (لويزا) المشتغلة بعلوم التعدين، وقد راحت تسترق النظر بكل قوتها من خلال ثقب في لوح من ألواح الجدار، وعلى ابنه توماس المشتغل بعلوم الرياضيات وقد انبطح أرضًا ليحظى بما لا

يزيد على نظرة إلى الحوافر من تلك الألعاب الفروسية الرشيقة على طرقة الأزاهير التيرولية.

وعبر مستر جراد جرايند وهو مذهول من فرط الدهشة تلك المسافة التي تفصله عن الموضع الذي لحق فيه الخزي بأسرته، ووضع يديه على طفليه الضالين وهو يقول:

- لويزا!! توماس!!

فنهضا كلاهما محمرين مروعين، بيد أن لويزا نظرت إلى أبيها وهي أثبت من توماس جنانًا، فتوماس في الواقع لم يرفع إلى أبيه بصره، بل أسلم له نفسه فاقتيد إلى البيت كالآلة وقال مستر جراد جرايند وهو يمضي بكل منهما في يد من يديه:

- بحق العجب، والكسل، والخبال، ماذا تفعلان هنا؟

فقالت لويزا بإيجاز:

- أردنا أن نرى كيف يكون ذلك....

- كيف يكون ذلك؟

- نعم يا أبي.

ساد الصمت الثقيل الجو، وخيّم وجومٌ مرهق على الاثنين، ولا سيّما على الفتاة، غير أن على ملامحها، رغم الاستياء المرتسم، كانت تلوح ومضة من ضوءٍ لا تجد ما تسطع عليه، ونارٌ لا تجد ما تأكله، وخيالٌ جائع يحتفظ بوجوده في ذاتها، فيتوهّج خافتًا كجمرةٍ تختبئ في رماد. كان في وجهها نورٌ لا يشبه نور الشباب المرح، بل ومضاتٌ مترددة، لهفانة، حائرة، تلمع فيها مسحة ألم، كالتغيرات التي تعتري ملامح ضريرٍ يتلمّس طريقه في عتمة العالم.

كانت في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمرها، وإنه ليُخيّل للناظر أنها في الغد القريب ستغدو امرأة دفعة واحدة، كما يبرعم الزهر على غفلة من العين. وكان أبوها ينظر إليها، غارقًا في أفكاره، متأملًا وجهها الجميل، وهو يقول في سره — بروحٍ عملية خالية من رومانسية الأبوة — إنها كانت لتغدو فتاة عصيّة الطبع، شديدة المراس، ذات رأي مستقلّ، لو لم تُشكَّل بهذه الطريقة من التنشئة.

قال بصوت فيه من التأنيب بقدر ما فيه من الدهشة:

— يا توماس! إني لأجد صعوبة في تصديق ما أراه أمامي بعينيّ. كيف لتربيتك وثقافتك أن تقوداك إلى أن تصطحب أختك إلى موضع كهذا؟

لكن لويزا سارعت بالرد، بصوت ثابت:

— أنا من طلب إليه أن يأتي، أنا من أتى به، يا أبي.

قال وقد أطرق بأسف:

— يؤسفني أن أسمع هذا... يؤسفني حقًّا. ذلك لا يُحسِّن موقف توماس، ويزيد من سوء موقفك، يا لويزا.

نظرت إليه نظرةً خالية من الدموع، وإن كانت عيناها تنطقان بما هو أبلغ من البكاء. فصاح السيد جراد جرايند:

— أنتِ؟ وتوماس أيضًا؟ أنتما اللذان فُتحت أمامكما أبواب العلوم؟ أنتما اللذان يُقال عنكما إنكما مترعان بالحقائق؟ أنتما اللذان تربيتما على الدقة الرياضية؟ أنتما هنا؟ في هذا الموضع الشائن؟! إنني لمندهش!

قالت لويزا، بصوت خافت يتهدّج تعبًا:

— لقد كنت متعبة يا أبي... متعبة منذ زمن بعيد.

فنظر إليها متعجبًا وسأل:

— متعبة؟ ومن ماذا؟

فأجابت وهي تطرق برأسها:

— لا أدري ممّ بالضبط... من كل شيء، فيما أظن.

فزجرها قائلًا:

— لا تقولي كلمة أخرى! لا تنسي أن فيك بقايا الطفولة، ولن أصغي إلى مزيد من هذا الكلام!

ثم ران صمتٌ مطبق، حتى إذا ما انقضى شطر الليل، انفجر يقول:

— ما الذي قد يقوله خيار أصدقائك في هذا يا لويزا؟ ألا يعنيك حسن رأيهم فيك؟ ماذا عسى أن يقول مستر باوندربي؟

وما إن ذكر الاسم، حتى اختلست لويزا نظرة خاطفة نحوه، نظرة متفحّصة، ثاقبة، غير أنّه لم يلحظها، إذ كانت قد أطرقت سريعًا حين التفت إليها. وكرّر أبوها، كمن يُحدّث نفسه أكثر مما يُخاطبها:

— ماذا عسى أن يقول مستر باوندربي؟

ومضى طوال الطريق إلى "ستون لودج"، يردّد بين الحين والحين، بنبرة مشبعة بالاستنكار، وهو يقود ولديه العائدين في موكب الخزي الصامت:

— ماذا عسى أن يقول مستر باوندربي؟

كأنما مستر باوندربي، في منظوره، هو السيدة جراندي بعينها.

الفصل الرابع

مستر باوندربي

أما وهو ليس السيدة جراندي، فمن تراه يكون إذن، هذا الرجل المسمّى مستر باوندربي؟

إن مستر باوندربي أقرب ما يكون إلى أن يكون الصديق الأثير لمستر جراد جرايند، بقدر ما يمكن لرجل خُلِع من صدره كلُّ أثر للعاطفة أن يرتبط برجل آخر منزوع المشاعر، منزّه عن الانفعال، منزوع الحنان. فقد كان أقرب ما يكون إليه... أو أبعد ما يكون عنه، وفق ما يتراءى للقارئ في خضم هذه الغرابة.

إنه رجل من أصحاب الثروة، مصرفيّ وتاجر وصاحب مصنع، وكل ما يمكن أن تخطر به البال من عناوين رجال الأعمال. ضخم الجثة، جهير الصوت، تتسمر عيناه الجاحظتان في محاجر لا ترمش، وضحكته كأنها صدى لمعدن خشن. إنه كُتلة من الطين القاسي صيغت بعنف، وكأنما فُردت ومدّت ليُصاغ منها هذا الجسد المتضخم.

رأسه منتفخ، وجبينه بارز، وعروق وجنتيه تنبض في وقاحة، وصفحة وجهه مشدودة الجلد، كأنها قناع مشدود على جمجمة، يحبس عينيه مفتوحتين وحاجبيه مرفوعين دائمًا في اندهاش مصطنع. إنّ منظره أشبه بمنطاد منفوخ، جاهز لأن يرتفع بأي لحظة، بغير هواء، بل بالتباهي.

أما تفاخره بنشأته العصامية فلا يعرف له حدّ، فهو لا يفتأ ينفخ صدره بصوته النحاسي الأجش، يحدّث كل من يلقاه عن جهله القديم، وعن فقره المطبق، كأنما يريد أن يجعل من البؤس السابق وسامًا على صدره، لا يضاهيه فيه أحد، فهو، بحق، من صناديد التواضع الاستعراضي.

ومع أنّه أصغر بعام أو عامين من صديقه العملي العظيم، إلا أنّ الزمن يبدو أنه قد ألقى عليه عباءته الثقيلة ضعف مرّتين؛ إذ تبدو سنوات عمره الثماني والأربعون كأنها تضاعفت دون أن يدهش أحد. شعره خفيف، يوشك أن يكون قد تلاشى، حتى ليخيل للمرء أن حديثه المتدفق، بقوته العاصفة، قد اقتلع ما تبقى منه. وما بقي من الشعر، بدا متناثرًا في فوضى، تقاذفه الريح كأنها تلهو برجل اعتاد النفخ حتى على ذاته.

وفي القاعة الرسمية لاستقبال الضيوف في "ستون لودج"، وقف مستر باوندربي منتصبًا أمام النار على بساط المدفأة، يتلقى دفء الحطب ويُفيض على مسز جراد جرايند حديثًا خطر له في مناسبة ذكرى ميلاده. وكان وقوفه هناك لثلاث علل: أولها أن النهار، وإن أشرقت شمسه، كان من نهارات الربيع الخانقة الرطبة؛ وثانيها أن "ستون لودج" تئن دومًا تحت وطأة الرطوبة المتسرّبة من جدرانها الإسمنتية؛ وثالثها، وربما أهمها، أنه أراد أن يتخذ من ذلك الموضع مركزًا للقيادة، يهيمن به على مسز جراد جرايند وهي جالسة قبالته، مستسلمة للتيار.

قال بصوته المتغطرس، نافخًا صدره:

— ما عرفت قدمي حذاءً في صغري. والجورب؟ لم أكن حتى أعرف مدلول هذه الكلمة! كنت أقضي النهار في الوحل، وأبيت ليلتي في حظيرة خنازير. هكذا قضيت عيد مولدي العاشر. ولم يكن الوحل جديدًا عليّ، فقد وُلدت فيه!

وكانت مسز جراد جرايند قد اكتنفتها طبقات من الشيلان والأغطية، تبدو من تحتها هزيلة، ضئيلة، شاحبة اللون، محمرة العينين، ضعيفة الجسد والعقل، لا تكف عن تعاطي الأدوية عبثًا، وإذا ما بدت عليها أمارات حياة، باغتها فورًا طيف من الواقع الثقيل، ينقض عليها كصخرة.

وحين سمعت من باوندربي عن ولادته في الوحل، قالت بصوت واهن، يتهدّج بين سعال وهمس:

— أرجو أن يكون وحلًا جافًّا يا سيدي...

فردّ، وهو يرسم على وجهه قناع الأسى المتفاخر:

— كلا! بل وحل كالثريد، وقد بلغ الماء فيه قدمًا كاملة!

فهمهمت، وهي تردّ بعينين مبللتين بالضعف:

— هذا كفيل بإصابة طفل بنزلة برد!

فأجابها مستر باوندربي قائلًا، بنبرة تنضح بالفخر:

— برد؟! لقد جئت إلى هذا العالم وأنا ملتهبٌ بالرئة، بل لعلني جئت مشتعلًا في كل ما يمكن أن تشتعل فيه نطفة حياة. كنت، يا سيدتي، من أشقى الصغار المنكوبين الذين تقع عليهم العين، نحيلاً متأوّهًا لا يهدأ لي أنين، قذرًا ممزق الهيئة، حتى إنك ما كنت لتقدمي على لمسي ولو بأطراف الملقاط.

ونظرت مسز جراد جرايند بإرهاق شاحب إلى ملقط المدفأة، وقد كان ذلك أنسب ما خطر لها أن تفعله من فرط بلاهتها. واسترسل باوندربي في حديثه:

— لا أدري، والله، كيف خرجت من تلك المحنة سالماً. لا بد أنني كنتُ ذا عزيمة فولاذية، كما أُعرف اليوم في أعين الناس، وأحسبني كنت كذلك منذ نعومة أظفاري. وها أنا أمامك يا مسز جراد جرايند كما ترين: رجل صنع نفسه

بنفسه، وما أنا مدين لأحد بما أنا عليه... لا لزوج ولا لأب، لا لمعلم ولا لمربٍّ... بل لنفسي وحدها، نفسي فقط.

فتنهدت مسز جراد جرايند بصوت خافت، وأعربت برقة باهتة عن أملها في أن تكون والدته...

فقاطعها باوندربي قائلًا:

— أمي؟! لقد هربت يا سيدتي!

فأذهلها هذا الجواب، على طريقتها المعهودة، وتهالكت بجسدها الهزيل، ونفضت كفها كأنما تود صرف الحديث، فمضى باوندربي في سرد مآسيه:

— تركتني أمي في عهدة جدتي، وتالله ما رأيت من النساء مثلها شراسةً وسوءًا. فإن صادفني الحظ بنعلٍ أو سترةٍ، نزعتها عني لتبيعها بثمن كؤوسها، وإن ذاكرتي لتحتفظ لها بجميلٍ لا يُنسى: كانت، وهي راقدة في مضجعها، تفرغ أربع عشرة كأسًا من الخمر قبل أن تبتلع أول لقمة من الإفطار!

وابتسمت مسز جراد جرايند في فتور، ولم تظهر على وجهها الهامد سوى تلك الابتسامة الواهنة، فبدت، كعادتها، كيانًا أنثويًّا ضئيلًا مشوبًا بشفافية باردة، لا نور خلفها ولا دفء في جنباتها.

ومضى باوندربي في تداعي اعترافاته:

— كانت جدتي صاحبة حانوت شموع، وكانت تضعني في صندوق بيض قديم... أجل، ذاك الصندوق العتيق كان مهدي الأول. وما إن اشتد عودي قليلًا حتى فررت بطبعي من جحيمها. صرت نهبًا في الطرقات، يركلني هذا ويشبعني جوعًا ذاك، وحق لهم ذلك! فقد كنت عبئًا، بل مصدر إزعاج وإعنات، وأقسم أنني كنت أعلم هذا عن نفسي تمام العلم.

وكان باوندربي لا يشبع من تكرار هذه الجملة الطنانة: مصدر إزعاج وإعنات، وكأنها شارة نصر على صدره لا ينفك يلمع بها أمام الناس.

— اجتزت، يا سيدتي، تلك المحنة. كان لا بد لي أن أعبرها، وقد عبرتها وحدي، دون يد تمتد أو كتف تساند. كنت مشردًا، ثم ساعيًا، ثم عتالًا، فبوّابًا، فموظفًا صغيرًا، ثم مديرًا، ثم شريكًا، حتى صرت: جوشيا باوندربي من أعيان كوكتاون. تلك كانت المراقي، وهذه هي القمة.

وتابع بنبرته الطنانة:

— جوشيا باوندربي، تعلم حروف الهجاء من واجهات الدكاكين، وتعلم الوقت من مزولة ساعة كنيسة القديس جايلز في لندن، على يد سكير مشلول كان لصًّا مشهودًا له باللصوصية ودجالًا لا يرجى له صلاح. فإذا جئت تحدثني عن مدارسك، وعن أقسامك، وعن معاهدك النموذجية، وعن حشدك الأكاديمي ذاك، فإنني — جوشيا باوندربي من أعيان كوكتاون — أقول لك بأعلى صوت وبكل صدق: لم أحظَ بشيء من تلك النِعم... ولا أرى في تربيتكم تلك إلا تمهيدًا لصنع شباب هشّ، بينما نحتاج نحن إلى رجال أصلب من الحديد، وأقوى قبضة من الفولاذ.

ثم خفف من صوته فجأة، وأضاف وقد علاه التوتر:

— أعلم أن طريقتي في الحياة ليست لكل أحد، وربما لم تكن لائقة بأحد سواي، لكنها طريقتي، ولا أبدلها. فإن أجبرتني على التنكر لها، فكأنك أجبرتني على ابتلاع الدهن المغلي!

وكان جوشيا باوندربي قد بلغ ذروة الحماسة في حديثه، فصمت فجأة، في اللحظة عينها التي دخل فيها الحجرة صاحبه العملي العظيم، وفي أثره جاء الطفلان المخطئان.

وتوقف القادم كما لو أنه صدمته قامة باوندربي، وألقى على لويزا نظرة صارمة، تقول بكل صراحة وجلاء:

- وهذا صاحبك باوندربي!

وهدر مستر باوندربي قائلًا:

- ما المسألة؟ فيم تعلو وجه توماس الصغير هذه الفترة؟

وكان حديثه عن توماس الصغير، أما نظراته فعلى لويزا، فغمغمت لويزا بتعالٍ من غير أن ترفع عينيها:

- كنا نسترق النظر إلى السيرك، وضبطنا والدنا.

وعندئذٍ قال مستر جراد جرايند في شموخ لزوجته:

- وأنا الذي لم أكن أتوقع يا مسز جراد جرايند منهما ذلك إلا بقدر ما أتوقع أن أضبط أحدًا من أبنائي يقرأ الشعر!

فهمهمت مسز جراد جرايند قائلة:

- ويحي كيف أقدمتما على ذلك يا لويزا وتوماس؟! إني لأعجب لأمركما، فما فعلتماه فيه الكفاية لإثارة الأسف على أن تكون للمرء ذرية إطلاقًا. وإني ليساورني أن أقول يا ليتني لم أنجب. ولست أدري ماذا كنتما فاعلين في هذه الحالة!

ولم يبد على مستر جراد جرايند أن تلك التقريعات الشديدة وقعت لديه موقع الاستحسان، فقطب جبينه مبديًا نفاد الصبر. واستطردت مسز جراد جرايند قائلة:

- كأنما رأسي وهو في حالته الراهنة من التصدع لم يكن حسبه ما به فتذهبان للنظر إلى القواقع والأصداف والأملاح المعدنية وسائر الأشياء المتاحة لكما بدلًا من ألاعيب السيرك، وأنتما تعلمان كما أعلم أنه ما من صغار لهم معلمو سيرك، أو لديهم سيركات في حجر دراستهم، أو يتلقون المحاضرات عن السيرك. فماذا عساكما تريدا أن تعرفا عن السيرك إذن؟ وأنا واثقة أن لديكما من العمل ما يكفي. إن كان العمل ما تنشدان، فرأسي بحالته الراهنة لا يسمح لي أن أتذكر ولو مجرد الأسماء من شطر من الوقائع التي ينبغي عليكما العكوف عليها.

فمطت لويزا شفتيها وقالت:

- وهذا هو السبب!

فقالت مسز جراد جرايند:

- لا تقولي لي إن هذا هو السبب. فالأمر لا يمكن أن يكون كذلك، بل اذهبي الآن فورًا واعكفي على أي مما لا أدري اسمه من تلك العلوم.

ولم تكن مسز جراد جرايند ذات طابع علمي. ولذا كان من عادتها أن تصرف بنيها إلى دراساتهم بمثل ذلك الإيماء الذي يترك لهم الخيار فيما يطلبون من علم.

والحق أن رصيد مسز جراد جرايند من الواقع بوجه عام كان ناقصًا بصورة محزنة، ولكن مستر جراد جرايند كان متأثرًا حين رفعها إلى مرتبتها الزوجية السامية بعاملين: أولهما أنها كانت مرضية جدًّا من حيث الشكل. وثانيهما أنها

خالية من (الهراء) وهو يعني بالهراء الخيال. والحقيقة أنها قد تكون مبرأة من كل زيغ من ذلك القبيل براءة أي مخلوق بشري لم يصل إلى الغاية القصوى من البلاهة المطلقة.

وما إن ألقت نفسها بمفردها مع زوجها ومستر باوندربي حتى كان ذلك كافيًا لتدويخها، من غير حاجة إلى مزيد من الاحتكاك بينها وبين الواقع... فإذا بهذه السيدة الفاضلة تتهالك على نفسها فلا يبالي بها أحد.

وقال مستر جراد جرايند وهو يجر إلى جوار المدفأة كرسيًّا:

- إنك يا باوندربي تبدي على الدوام اهتمامًا بأولادي، ولا سيما لويزا، ولذا لا أجد حرجًا في مصارحتك بأني تكدرت كثيرًا لهذا الاكتشاف. فقد وقفت نفسي بصورة محكمة كما تعلم على تربية أسرتي تربية عقلية. فالعقل كما تعلم هو الملكة الوحيدة التي يجب أن توجه إليها التربية، ومع ذلك قد يبدو يا باوندربي من حادثة اليوم غير المنتظرة - وإن كانت في حد ذاتها تافهة - كأن شيئًا لا أدري كيف أعبر عنه تعبيرًا أفضل من أنه شيء لم يكن من مقصودنا إطلاقًا أن نشجعه ونعمل على إنمائه، قد تسرب إلى ذهن توماس ولويزا، وذلك الشيء ليس لعقلهما فيه نصيب.

فرد عليه باوندربي قائلًا:

- ليس هناك بالتأكيد سبب معقول للنظر باهتمام إلى حفنة من المتشردين. فعندما كنت أنا شخصيًّا متشردًا لم يكن أحد فيما أعلم ينظر إليَّ باهتمام.

فقال الأب ذو الطابع العملي الفذ وعينه على النار:

- ومن هنا يأتي السؤال، ما منشأ هذا الفضول المبتذل؟

- سأقول لك ما منشؤه. إنه التخيل الضال.

فقال ذو الطابع العملي الفذ:

- أرجو ألا يكون الأمر كذلك. وإن كنت أعترف أن ذلك الارتياب قد خامرني وأنا في طريقي إلى البيت.

فأعاد عليه باوندربي القول:

- إنه التخيل الضال يا جراد جرايند، وهو شيء بالغ الضرر لأي إنسان ولكنه وبيل غاية الوبال على فتاة مثل لويزا. وإنه لينبغي عليَّ أن أستميح مسز جراد جرايند عفوها عن ذلك التعبير العنيف، لولا أنها تعلم تمام العلم أني لست بالرجل المصفي شمائله. فأيما إنسان ينتظر مني نقاوة الشمائل يمنى بخيبة الأمل؛ لأني لم أحظ بتنشئة مصفاة.

فقال مستر جراد جرايند مستأنيًا ويداه في جيبيه وعيناه الغائرتان على النار:

- أترى من الجائز أن يكون أحد... المعلمين أو الخدم قد أوحى لهما بشيء؟ هل ترى من الممكن أن لويزا أو توماس قرآ شيئًا؟ هل ترى من الممكن رغم جميع احتياطاتي أن يكون كتاب من كتب الأقاصيص الضالة قد تسرب إلى البيت؟ فالأذهان التي تشكل تشكيلًا عمليًا على أدق صورة من المهد فصاعدًا يستغرب صدور ذلك عنهما أشد الاستغراب ولا يستقيم فهمه.

فصاح باوندربي الذي ظل طيلة ذلك الوقت واقفًا كذي قبل فوق بساط المدفأة وهو يكاد ينفجر في أثاث الحجرة بما حشد فيه من مفرقعات تواضعه:

- على رسلك لحظة! إن لديك في المدرسة إحدى بنات أولئك الأفاقين.

فقال مستر جراد جرايند وهو ينظر إلى صديقه كمن حلت به نكبة:

- واسمها سيسيليا جيب.

ومرة أخرى صاح باوندربي:

- والآن على رسلك لحظة! كيف جاءت إلى هناك؟

- الواقع أني لم أرَ شخصيًّا الفتاة لأول مرة إلا منذ برهة، وكانت قد تقدمت بطلبها خصيصًا هنا في البيت كي نقبلها؛ لأنها لا تنتمي إلى مدينتنا بصفة مستقرة، و... أجل، أنت على حق يا باوندربي. أنت على حق.

وعندئذٍ صاح باوندربي مرة ثالثة:

- والآن على رسلك لحظة! هل رأتها لويزا عندما جاءت؟

- لا بد أن لويزا رأتها؛ لأنها ذكرت لي موضوع طلبها، ولكني واثق أن لويزا رأتها في حضور مسز جراد جرايند.

فقال باوندربي:

- من فضلك يا مسز جراد جرايند ما الذي حدث؟

فأجابت مسز جراد جرايند قائلة:

- يا لسوء صحتي! كانت الفتاة تريد الذهاب إلى المدرسة، ومستر جراد جرايند يريد للفتيات أن يذهبن إلى المدرسة، ولويزا وتوماس قالا كلاهما إن الفتاة تريد الذهاب إلى المدرسة، وأن المستر جراد جرايند يريد للفتيات أن يذهبن إلى المدرسة. فكيف كان يتسنى لي إذن أن أعارضهما إزاء ذلك الواقع؟!

فقال مستر باوندربي:

- الآن سأقول لك ماذا تصنع يا جراد جرايند! قل لهذه الفتاة (خلفًا در!) وبذلك تضع حدًّا للمسألة كلها.

- إني متفق معك في هذا الرأي.

فقال باوندربي:

- نفذ هذا فورًا. فالحسم كان دائمًا شعاري منذ طفولتي. وحينما رأيت أنه ينبغي عليَّ أن أفر من صندوق البيض ومن جدتي فعلت ذلك فورًا. فأحذ حذوي، وافعل ذلك فورًا!

فسأله صديقه:

- ألديك مانع في السير؟ عندي عنوان والد الفتاة، فلعلك لا تمانع في السير إلى المدينة في رفقتي؟

فقال باوندربي:

- ليس عندي مانع إطلاقًا، ما دمت ستفعل هذا فورًا!

وألقى مستر باوندربي بقبعته فوق رأسه - وهو دائمًا يلقيها على رأسه إلقاء شأن الرجل الذي كان دائمًا في شغل ببناء نفسه عن اكتساب العادات الأنيقة في ارتداء القبعة - وتهادى إلى البهو، ويداه إلى جيبيه، وقال على عادته:

- أنا لم أرتد القفازات في حياتي؛ لأني لم أرتق مدارج الحياة بقفازين، ولو أني ارتديتهما لما بلغت ذلك المرتقى.

وإذ صعد مستر جراد جرايند ليأتي بالعنوان خلا مستر باوندربي للتخطر بمفرده في البهو دقيقة أو دقيقتين، ففتح مكتب الأطفال وألقى نظرة على الحجرة الهادئة، وكانت تلك الحجرة على ما بها من خزائن الكتب والتقسيمات ومختلف الأجهزة العلمية والفلسفية شديدة الشبه في منظرها بالغرف المخصصة للحلاقة. وكانت لويزا متكئة بتراخٍ على إفريز النافذة تتطلع منها من غير أن تنظر إلى شيء معين. أما توماس الصغير فوقف ينشق ويزفر بغيظ أمام النار. أما آدم سميث ومالتوس وهما أخوهما الصغيران فكانا يتلقيان درسًا في الخارج تحت الحراسة. والصغيرة جين التي كانت قد لطخت وجهها بكمية كبيرة

من السناج الندي أحدثته بما اختلط بدموعها مع خطوط قلمها الإردوازي، فقد غلبها النعاس وهي مكبة على حل مسائل الكسور.

وقال مستر باوندربي:

- الأمر على ما يرام الآن يا لويزا، وعلى ما يرام يا توماس الصغير. إنكما لن تصنعا ذلك مرة أخرى. وأنا كفيل بتسوية الموضوع مع والدكما. والآن يا لويزا، ألا يستحق ذلك قبلة؟

فأجابته لويزا:

- لك أن تأخذها يا مستر باوندربي.

وكانت قد اجتازت الحجرة صوبه على مهل ورفعت إليه خدها على مضض وقد أشاحت بوجهها عنه.

وقال مستر باوندربي:

- أنتِ دائمًا الأثيرة عندي. أليس كذلك يا لويزا؟ إلى اللقاء يا لويزا!

ومضى في طريقه ولكنها ظلت واقفة في موضعها حيث تركها وراحت تحك بمنديلها الوجنة التي قبلها إلى أن توهجت من فرط احمرارها. وظلت ماضية في ذلك خمس دقائق، فهتف بها أخوها يوبخها في استياء:

- ما هذا الذي تصنعين يا لويزا؟ أنت موشكة أن تحدثي في صفحة وجهك خرقًا.

- بل لك أن تقتطع هذا الموضع بمبراتك إن شئت يا توم من غير أن أصرخ!

الفصل الخامس

طبقة النغمة

ومدينة كوكتاون التي يمضي إليها السيدان باوندربي وجراد جرايند على قدميهما الآن تعتبر انتصارًا للواقع، فليس فيها شائبة من الخيال أكثر مما في مسز جراد جرايند نفسها. فلنعزف طبقة النغمة (كوكتاون) قبل أن نواصل المقطوعة.

إنها مدينة من الآجر الأحمر، أو من الآجر الذي كان من الممكن أن يكون أحمر لو أن الدخان والرماد سمحا بذلك. ولكن واقع الحال جعلها مدينة يجتمع لها الأحمر والأسود بصورة غير طبيعية كأنها وجه متوحش ملطخ بالطلاء. وهي مدينة آلات ومداخن طوال تخرج منها أفاعٍ لا نهاية لها من الدخان دائبة دومًا على بسط أجسادها المطوية وهيهات تأتي على تلك الطيات. وفيها قناة سوداء، ونهر يجري ماؤه قرمزيًا لما يخالطه من أصباغ كريهة الرائحة. وفيها أبنية كبيرة متراصة ممتلئة بالنوافذ لا ينقطع فيها الضجيج والارتجاج طول النهار، ولا تفتأ أسطوانات الآلات البخارية فيها رائحة غادية أو صاعدة هابطة بصورة رتيبة كأنها رؤوس فيلة أطبق عليها اكتئاب مجنون. وفيها بضعة شوارع كبيرة كلها أشباه وفيها كثرة من الشوارع الصغيرة أشد تشابهًا، مأهولة بأناس كلهم متشابهون، يخرجون جميعًا ويدخلون في ميقات واحد. ولخطوهم على أرض الطريق الصلدة صوت واحد، وخروجهم ومآبهم إلى عمل واحد، والأيام لديهم

متشابهة، يومهم كأمسهم كغدهم، وأعوامهم ما حضر فيها عدل لما مضى منهم ولما هو آتٍ.

وخصائص كوكتاون الآنفة الذكر غير منفصلة في معظمها عن العمل الذي عليه قوامها وهي خصائص تتنافى مع مناعم الحياة التي وجدت سبيلها إلى كل مكان في العالم أجمع، ومع أناقة العيش التي جعلت لا ندري كم من السيدات المرفهات لا يطقن أن تذكر على أسماعهن تلك المدينة. وأما ما بقي من سماتها فقد أوتيته طواعية وهاكم هذه السمات: إنك لا ترى شيئًا في كوكتاون ما لم يكن ذا صلة صارمة بالجد في العمل. فإذا ابتنى أعضاء عقيدة دينية بيعة لهم هناك - الأمر الذي أقدم عليه أعضاء ثماني عشرة عقيدة دينية شتى - فإنهم يجعلون منها مستودعًا للتقوى من الآجر الأحمر يعلوه في بعض الأحيان (وهذا ما لا يحدث إلا في النماذج المفرطة الزخرف) ناقوس في قفص من أقفاص الطيور. والاستثناء الوحيد من هذا النمط هو (الكنيسة الجديدة)، فهي صرح مطلي بالملاط يعلو بابه برج مربع ينتهي بأربع ذؤابات قصار كأنها أربع قوائم خشبية مزخرفة. وسائر التسجيلات العامة في المدينة مدونة على نمط واحد بحروف مفرطة الوضوح باللونين الأبيض والأسود. والسجن كان من الممكن أن يكون ملجأ للمرضى والمقعدين، وملجأ المرضى والمقعدين كان من الممكن أن يكون السجن ومبنى البلدية كان من الممكن أن يكون هذا أو ذاك أو كليهما معًا أو أي شيء عداهما، فما من شيء في أشكال الأبنية يتنافى مع صلاحها لأي غرض من تلك الأغراض.

فالواقع، الواقع، الواقع هو رائد كل شيء له مظهر مادي في المدينة. والواقع. الواقع. الواقع هو رائد كل ما ليس ماديًّا هناك. فمدرسة متشو كمتشايلد كلها واقع.

ومدرسة التصميمات كلها واقع. والعلاقات بين السيد والمسود كلها واقع. والواقع أيضًا هو كل شيء بين مستشفى الولادة والجبانة. وكذلك كل ما لا يمكن أن تدونه بالأرقام أو تبرزه ليكون سلعة في أبخس الأسواق عند الشراء وفي أغلاها عند البيع لم يكن له هناك وجود، وليس ينبغي ألا يكون له على الإطلاق وجود. إلى انقضاء الدهر. آمين.

مدينة تقدس الواقع، وتصر على إحقاقه. أليس من الطبيعي أن تكون بخير حال؟ كلا، ليس حالها خير حال تمامًا. كلا؟ يا ويح لي!

كلا، إن كوكتاون لم تخرج من ابتلائها بنيرانها كما يخرج الذهب من البوتقة. فهناك أولًا ذلك اللغز المحير الذي يكتنف أهلها: أيهم ينتمي إلى كل طائفة من الطوائف الثمانية عشرة؟ فأيًّا كان المنتمون إليها فالجمهور الكادح لم يكن منهم. وإنه ليأخذك العجب إذ تسير في شوارع كوكتاون صباح يوم الأحد حين ترى أي قلة قليلة منهم استطاعت النواقيس المجلجلة المتجاوبة التي تثير أعصاب المرضى إلى حد الجنون أن تستخرجهم من مآويهم، ومن حجراتهم الضيقة، ومن زوايا شوارعهم التي يتسكعون فيها في تباطؤ ووناء، وهم يحملقون في جميع رواد الكنائس والبيع وكأنهم يرون أمورًا لا تعنيهم في شيء.

وليس الغرباء وحدهم هم الذين تسترعى أنظارهم هذه الظاهرة، فهناك منظمة أهلية في كوكتاون نفسها يسمع لأعضائها أثر واضح كلما انعقد مجلس العموم، مطالبين في استنكار شديد بصدور قرارات برلمانية تلزم أولئك الناس بالتدين قوة وقسرًا. وهناك أيضًا جمعية منع المسكرات التي تتذمر من إقدام هؤلاء الناس أنفسهم على الإفراط في الشراب. وأعضاء هذه الجمعية يثبتون بجداول بيانية أن من عادة أولئك الناس أن يسكروا، وفي حفلات الشاي التي تقيمها الجمعية يصر أعضاؤها على أن الإقناع والترغيب لا جدوى منهما في

إقلاع أولئك الناس عن السُّكر. سواء كان ذلك الترغيب مصدره البشر أو مصدره السماء (اللهم إلا أن يكون ذلك في صورة نوط). ثم هناك الكيماوي والصيدلي، فهما يقرران بجداول بيانية أخرى أن أولئك القوم إن لم يسكروا تعاطوا الأفيون، ويبرز كاهن السجن المحنك جداول بيانية غير هذه وتلك تجبها جميعًا وتثبت أن أولئك الناس أنفسهم يترددون على خلوات منحطة متوارية عن الأنظار العامة حيث يسمعون الغناء المنحط ويشاهدون الرقص المنحط، وربما اشتركوا فيه.

وفي مثل تلك الخلوات المنحطة اعترف ا. و. ب. وهو في الرابعة عشرة من عمره ومحكوم عليه بالحبس الانفرادي ثمانية عشر شهرًا (وإن كان لم يبرهن على جدارته بالتصديق)... اعترف على نفسه أن سوء منقلبه كانت بدايته هناك، وأنه واثق تمام الثقة بأنه لولا ذلك لكان نموذجًا للكمال الخلقي. ثم يأتي مستر جراد جرايند ومستر باوندربي، وهم السيدان اللذان يسيران في اللحظة الراهنة مخترقين كوكتاون، وكلاهما ذو طابع عملي فذ، وفي وسعهما عند الاقتضاء أن يبرزا مزيدًا من الجداول البيانية مستمدة من تجربتهم الشخصية موضحة بأمثلة من حالات رأياها وعرفاها وتدل بأجلى بيان على أن هناك بإيجاز أمر واحد محقق في هذا الموضوع، وهو أن هؤلاء الناس أنفسهم طغمة فاسدة برمتها أيها السادة. وأنكم مهما فعلتم من أجلهم فلن تجدوهم لكم شاكرين أيها السادة. فهم متذمرون دائمًا يا سادة، لا يعرفون ماذا يريدون، يعيشون خير معاش، ويشترون الزبد الطازج، ويصرون على أن تكون قهوتهم من بن مخا، ويأبون إلا أن يكون اللحم من القطع الممتازة. ومع هذا فهم أبدًا ساخطون لا يسلس لهم قياد. وقصارى القول إن حالهم شبيه بما جاء في تلك الأسطورة القديمة من أساطير الأطفال:

كانت هناك امرأة عجوز، وماذا تظنونه كان من أمرها؟

لقد كانت تعيش على طيبات الطعام والشراب.

فطيبات الطعام والشراب كانت كل غذائها،

ومع ذلك كانت تلك العجوز لا تشعر بالرضى بتاتًا.

فهل من الممكن يا ترى أن يكون هناك أي تماثل بين حالة سكان كوكتاون وحالة الصغار من آل جراد جرايند؟

يقينًا ما من أحد منا في كامل وعيه وتمام معرفته بالأرقام يمكن أن يصدق، ونحن في رائعة النهار أن أحد العمد الأساسية في كيان جمهور كوكتاون الكادح قد ذهبت جهوده في عشرات السنين هباءً، أو أن أي شائبة من الخيال يمكن أن توجد في أولئك الصغار تتطلب لنفسها تحققًا سويًا بدلًا من اشتباكها الدائم في صراع مضطرب. أو أنه بنفس المعدل الذي يكبون فيه على العمل الطويل الرتيب كان الشوق ينمو في داخلهم إلى شيء من الراحة البدنية... شيء من الاسترخاء والدعابة والمرح المنعش الذي يجدون فيه متنفسًا... إلى عطلة مسموح بها ولو لم تخصص إلا للرقص البريء على أنغام موسيقية مشجية... أو إلى فطيرة خفيفة بين الحين والحين لا يكون فيها لمتشو كمتشايلد أصبع... فمثل ذلك الشوق ينبغي ولا بد أن يجد شبعه السوي، وإلا فإنه حري لا محالة أن ينحرف، ما لم تنقض قوانين الخليقة نقضًا.

وقال مستر جراد جرايند:

- هذا الرجل يقيم في (بودز إند) وأنا لا أعرف بالضبط بودز إند. فأي شيء هو يا باوندربي؟

وكان مستر باوندربي يعلم أن ذلك المكان في موضع ما بأقصى المدينة، ولكنه لا يعرف أكثر من ذلك. فوقفا برهة يتلفتان حولهما، وفيما هما كذلك أقبلت من زاوية الشارع فتاة تجري على عجل وقد بدا عليها الارتياع، وعرفها مستر جراد جرايند فناداها:

- قفي! إلى أين أنت ذاهبة؟ قفي!

وعندئذٍ وقفت الفتاة رقم 20 وهي ترتجف وانحنت أمامه محيية. فقال لها مستر جراد جرايند:

- لماذا تجوبين الشوارع على هذه الهيئة المنكرة؟

فأجابته الفتاة وهي تلهث:

- كان... كان بعضهم يجري خلفي، فأردت أن أهرب.

فعاد مستر جراد جرايند يسألها:

- يجري وراءك؟ ومن هذا الذي يجري وراءك أنتِ؟

وجاء الرد على ذلك السؤال فجأة وعلى غير انتظار بظهور الغلام الشاحب اللون بتزر من منعطف الشارع وهو يجري بسرعة عمياء خالي الذهن من وجود أي عائق في طريقه، فارتطم بصدار مستر جراد جرايند وارتد إلى عرض الشارع، فقال له مستر جراد جرايند:

- ما هذا يا ولد؟ ماذا تصنع؟ وكيف تجسر على الاصطدام.. بكل إنسان... على هذه الصورة؟

والتقط بتزر قلنسوته التي كان الاصطدام قد أطاح بها وأخذ يتراجع وهو يطرق جبينه بسلامياته زاعمًا أن المسألة محض صدفة، فسأل جراد جرايند:

- هل كان هذا الولد يجري وراءك يا جيب؟

فأجابته الفتاة على مضض:

- نعم يا سيدي.

فصاح بتزر:

- كلا، لم أكن أجري وراءها يا سيدي! لم أجر وراءها إلا بعد أن هربت مني، ولكن لاعبي الخيول لا يبالون بما يقولون يا سيدي. ولهم في ذلك شهرة. (وتوجه إلى سيسي بقوله): أنتِ تعلمين أن لاعبي الخيول مشهورون بعدم المبالاة بما يقولون... (ثم اتجه بتزر إلى مستر باوندربي قائلًا): هذا أمر معروف في المدينة... من فضلك يا سيدي... مثلما أن جدول الضرب مجهول لدى لاعبي الخيول.

فقالت الفتاة:

- لقد أفزعني جدًّا بحركات سحنته المخيفة؟

فصاح بتزر:

- أوه! أوه! ألست منهم؟ ألست من لاعبي الخيول؟ إني لم أنظر إليها ألبتة يا سيدي لقد سألتها فقط إن كانت ستعرف غدًا تعريف الحصان، وعرضت عليها أن أعيده عليها، فهربت مني، فجريت وراءها يا سيدي كي يتسنى لها أن تعرف الإجابة إذا ما سئلت وأنت ما كنت لتفكري في التقول عليَّ بالسوء لو لم تكوني من لاعبي الخيول!

فقال مستر باوندربي:

- يبدو أن حرفتها معروفة بينهم تمام المعرفة. وفي مدى أسبوع سترى المدرسة كلها تسترق النظر في صف واحد.

فأجابه صديقه:

- أظن ذلك حقًّا، وأنت يا بتزر، خلفًا در وعد إلى دارك، وأنت يا جيب ابقى معي هنا لحظة. وإذا سمعت أنك عدت للجري بهذه الطريقة مرة أخرى أيها الفتى، فستأتيك أخباري عن طريق معلم المدرسة، وأنت تفهم ما أعني. والآن اذهب.

فكف الفتى عن تطريفه المتلاحق وطرق جبهته بأنامله مرة أخرى. ونظر إلى سيسي ثم دار على عقبيه وانصرف. وقال مستر جراد جرانيد:

- الآن يا فتاة خذيني وهذا السيد إلى مقر والدك، فنحن ذاهبان إلى هناك. وما الذي معك في القارورة التي تحميلها؟

فقال مستر باوندربي:

- جن!

- كلا يا سيدي! إنها الزيوت التسعة.

فصاح مستر باوندربي:

- ماذا!

- الزيوت التسعة يا سيدي، كي أدلك والدي بها.

وعندئذٍ قال مستر باوندربي وهو يطلق ضحكة قصيرة مدوية:

- ولماذا بحق الشيطان تدلكين أباكِ بتسعة زيوت؟

فأجابت الفتاة وهي تنظر من فوق كتفها لتستوثق من انصراف مطاردها:

- هذا ما يستخدمه قومنا دائمًا يا سيدي عندما يصابون برضوض في الحلقة.. وفي بعض الأحيان تكون رضوضهم شديدة جدًّا.

فقال مستر باوندربي:

- وإنه لجزاء وفاق لهم على تبطلهم العقيم.

فرنت الفتاة إلى وجهه بمزيج من الدهشة والبغضاء واستطرد باوندربي يقول:

- لعمري! عندما كنت أصغر منك بأربع سنوات أو خمس أصابتني رضوض لا تجدي معها عشرة زيوت، ولا أربعون زيتًا. ولم تصبني هذه الرضوض بما أتيت من حركات وأوضاع، بل بما نزل بي من ضرب متلف، لم أعرف الرقص على الحبل، بل كنت أتراقص على الأرض الجرداء وهم ينهالون عليَّ جلدًا بالحبل! ومستر جراد جرايند لم يكن على صلابته في مثل خشونة مستر باوندربي، فطبعه ليس قاسيًا بعد كل حساب: بل إنه كان حريًّا أن يكون رقيق الطبع جدًّا لو أنه أخطأ خطأً كافيًا في العملية الحسابية التي وازن بها طبعه منذ سنين.

وقال مستر جراد جرايند بلهجة قصد بها أن تكون مطمئنة وثلاثتهم يعطفون في طريق ضيقة:

- هذا هو بونز إند.. أليس كذلك يا جيب؟

- إنه هو يا سيدي. وهذا - إن لم يكن لديك مانع يا سيدي - هو البيت.

ووقفت وقت الغسق عند باب حانة صغيرة حقيرة تبدو بداخلها أضواء كابية حمراء، كأنما الحانة لفرط هزالها وزراية شأنها وافتقارها إلى التنسيق قد أدمنت الشراب وسلكت سبيل كل مدمن حتى أشرفت على نهاية ذلك المطاف.

- إننا سنعبر الحانة يا سيدي، ثم نصعد السلالم، إن لم يكن لديك مانع، ثم تنتظران هناك لحظة إلى أن آتي بشمعة، وإذا سمعتما نباح كلب يا سيدي فإن هو إلا (مريلجز)، وقصارى أمره أنه ينبح.

فقال مستر باوندربي وهو يدخل في المؤخرة ضحكته الرنانة:

- مريلجز والزيوت التسعة! كل هذا مليح بالنسبة لرجل عصامي!

الفصل السادس

المؤسسة

كان اسم الحانة «أذرع الحصان المجنّح»، وكان الأجدر بها أن تُسمّى «أرجل الحصان المجنّح»، لولا أنّ فوق اللافتة التي تعلو رسم ذلك الحصان الكائن بين الأجنحة، كانت الكلمات محفورة بحروف رومانية: «أذرع الحصان المجنّح»، وتحت الرسم خطّ الرسام بيدٍ حاذقة هذه السطور على درجٍ مرفرف:

«أجود الشعير يصنع منه أصفى الجِعَة،

فادخل هنا تُقدَّم إليك.

وأجود النبيذ يُستخرج منه أرقى البراندي،

تشرّف وستجده عندنا موفورًا».

وعلى الجدار خلف حاجز البار الوسخ إطارٌ يضمّ حصانًا مجنّحًا آخر كهيئة ذاك الذي يُستخدم في أروقة المسارح، جناحاه من حرير شفيف، وقد نُثرت على جسمه نجومٌ مذهّبة، وأما لجامه الأثيري فكان من حريرٍ قانٍ كدمٍ متوهّج.

ولمّا أسدلت العتمة ستارها خارجًا فلم تعد اللافتة تُرى، وكانت أضواء الداخل لم تبلغ بعدُ نصابًا يكشف الصورة، أفلت مستر جراد جرايند ومستر باوندربي من وطأة تلك الخيالات، وتبعا الفتاة صعودًا على درجٍ ضيّق يلتفّ في الركن، لم يلقيا في سبيلهما أحدًا، حتى إذا بلغا العتمة انتظرا هنيهة ريثما

انطلقت الفتاة تجيء بشمعة، يتوقّعان في كل نفسٍ أن يشهرا أذنيهما لصوت نباح مريلجز، غير أنّ الكلب المدّرب على ألوان الاستعراضات التزم الصمت حتى أقبلت الفتاة وفي يدها قبسٌ من نور، وعلى محيّاها سحابةُ دهشةٍ طافحة:

ـ والدي ليس في حجرتنا يا سيّديّ، فإن لم يكن لديكما مانعٌ من الدخول أتيتهما به من فورى.

فدخلا، ومضت سيسي بخطًى خفيفةٍ لاهثةٍ بعد أن دفعت إليهما مقعدين، وكانت الغرفة بالية الأثاث حقيرةً بائسة، يربض في ركنها فراشٌ رثّ، وتُعلّق على مسمار قلنسوةٌ بيضاء للنوم مطرّزة بريشتين من ريش الطاووس وضفيرةٍ من شعرٍ مرفوعةٍ كرمحٍ سامق. وبتلك القلنسوة كان السنيور جيب يغفو كل ظهيرة، ليبعث الحياة في روّاد الفرجة باستعراضاته المضمّخة بظلالٍ شكسبيريةٍ عفيفةٍ تنوس بين التهكّم والوقار. ولم يكن في الحجرة ما يدلّ على بقيّة ملبوساته أو يشير إلى أطواره ومسالكه، وأما مريلجز، الجدّ الوقور للكلب المروّض الذي اعتلى سفينة الفلك، فلعله انسحب مصادفةً أو أبعد عنه، فما من أثرٍ هنا لكلبٍ تبصره العين أو تسمعه الأذن تحت سقف «أذرع الحصان المجنّح».

كانا يسمعان أبواب الحجرات العلوية تُفتح وتُغلق كلما انتقلت سيسي تبحث عن أبيها، حتى سمعا أصواتًا تتردّد كأنّها دهشةٌ متحفّزة، ثم هبطت إليهما تتوثّب في عَجلٍ محموم، وأسرعت تفتح حقيبة شعرٍ ضخمةٍ باليةٍ بهت لونها من القدم، فما وجدتها إلا خاويةً على عروشها، فتلفّتت حولها وقد تعانقت راحتاها وارتسم الرعب على قسماتها، ثم قالت:

ـ لا ريب أنّ أبي مضى إلى خيمة الملعب يا سيّديّ، وما أدري أيُّ خاطرٍ ساقه إلى هناك، لكنّه هناك يقينًا، وسآتي به في طرفة عين!

وانطلقت على الفور حاسرة الرأس، شعرها الطفلي الداكن يرفرف من خلفها كظلٍّ حرون، فقال مستر جراد جرايند:

ـ ما الذي ترمي إليه حين تقول إنّها ستعود في دقيقةٍ واحدة؟ والمسافة تزيد على ميلٍ كامل؟

وقبل أن ينبس مستر باوندربي بحرف، أطلّ شابٌ عند الباب يقدّم نفسه بهذه الكلمات:

ـ بإذنكما أيّها السيّدان!

ثم دخل ويداه غائرتان في جيبيه، وجهه الحليق ناحلٌ مسفرٌ عن صفرةٍ مريضة، يظلّله شعرٌ كثيفٌ داكنٌ ملفوفٌ كإسطوانةٍ تحيط بالرأس مفروقٌ عند منتصفه، وساقاه قويّتان جدًّا غير أنّهما أقصر مما يستوجبه التناسق، وصدره وظهره أوسع مما يلزم، كأنّ خلقته قد نُحتت من مفارقاتٍ عجيبة، يرتدي سترة سباقٍ تُعرف بـ«نيو ماركت» وسروالًا ضيّقًا محكمًا، وقد لفّ عنقه بلفاعةٍ تفوح منها روائحُ المصابيح والزيت والقشّ وقشور البرتقال وعلف الخيول ونشارة الخشب، فيبدو خليطًا عجيبًا بين زريبةٍ وساحةٍ، ينتهي أحدهما حيث يبدأ الآخر، فلا حدّ يفصل بين الاثنين.

وهذا هو السيّد الذي عنت به الإعلانات ذلك اليوم، «أو. و. ب. تشيلدرز»، ذائع الصيت بقدرته المذهلة على القفزات الجريئة حين يجسّد هيئة الصيّاد المتأبّد في غابات أمريكا الشماليّة. ومعه غلامٌ ضئيل الحجم، وجهه وجه عجوزٍ يتقن دور ابن الصيّاد الصغير، يحمله أبوه مقلوبًا على كتفه، أو ينتشله من ناصيته ليقف رأسًا على عقب فوق راحة كفّه، على الطريقة الخشنة التي يلاطف بها الصيّادون صغارهم المتأبّدين، وذلك الغلام يحلّي رأسه بخصلٍ متموّجةٍ وضفائرَ وأجنحةٍ صغيرةٍ، ثم يلوّن وجهه بالبزموت الأبيض والقرمز،

فإذا به كيوبيدًا حيًّا يسرّ العين ويُبهج قلوب الأمهات في مقاعد الفرجة. أمّا في حياته الخاصّة، إذ ينخلع عنه الزيّ ويكتفي بسترةٍ عادية، فيبدو كمن شاخ قبل الأوان، وصوته الأجشّ يفضح قسوة السنوات، وهو بين مروّضي الخيل أشدّهم على الخيول ترويضًا!

قال مستر ا.و.ب تشيلدرز وهو يجيل في الحجرة بصره:

- بإذنكما أيها السيدان، أنتما فيما أعتقد اللذان أبديتما رغبتكما في مقابلة جيب؟

فقال مستر جراد جرايند:

- أجل، وقد ذهبت ابنته لتأتي به، ولكني لا أستطيع الانتظار، ولذا سأترك معك إن سمحت رسالة له.

وتدخل مستر باوندربي في الحديث قائلًا:

- إننا كما ترى يا صديقي طراز الناس الذين يعرفون قيمة الوقت، وأنتم طراز الناس الذين لا يعرفون قيمة الوقت.

فرد عليه مستر تشايلدرز بعد أن تفحصه من فرعه إلى قدمه:

- لم يحصل لي شرف معرفة من (أنت)...

ولكن إن كنت تعني أنك أقدر مني على جمع المال من وقتك، ففي مقدوري أن أحكم من مظهرك بأنك لم تجانب الصواب.

وأردف كيوبيد قائلًا:

- وإنك حين تجمع المال قادر فيما أعتقد على الاحتفاظ به.

فقال مستر تشايلدرز:

- حسبك يا كيدر منيستر!

(السيد كيدر منيستر هو الاسم الفاني لكيوبيد) فصاح السيد كيدر منيستر وقد ظهر عليه الغضب الشديد:

- ولماذا إذن أتى إلى هنا متصديًا لنا؟ إن كنت تريد التصدي لنا فعليك أن تدفع عند البوابة الرسم ثم هات ما عندك؟

فرفع مستر تشايلدرز صوته صائحًا به:

- كف عن هذا يا كيدر منيستر!

ثم إلتفتَ إلى مستر جراد جرايند قائلًا:

- سيدي لقد كنت أتوجه إليك بكلامي، ولعلك تعلم أو لا تعلم (لأنك ربما لم تكثر التردد على ملعبنا) أن جيب فشل في (قزحه) مرات كثيرة في المدة الأخيرة.

فقال مستر جراد جرايند وهو ينظر صوب صاحبه القدير باوندربي يلتمس منه العون.

- فشل في ماذا؟

- في (قزحه).

وقال السيد كيدر منيستر:

- قدموه عند (البيارق) أربع مرات في الليلة الماضية فلم يفلح فيها مرة واحدة، ثم أخطأ (القزح) في لعبة الألوية أيضًا وكان رخوًا فاشلًا في (التشقلب).

وتولى مستر تشايلدرز الترجمة قائلًا:

- لم يقم بما كان ينبغي أن يؤديه. كانت قفزاته أكثر مما يجب وكان هبوطه سيئًا.

فقال مستر جراد جرايند:

- أوه! هل هذا معنى (القزح)؟

فأجابه مستر ا.و.ب. تشايلدرز:

- هذا هو بصورة عامة معنى الإخفاق في (القزح).

وهتف باوندربي بضحكته الصاخبة:

- الزيوت التسعة: مريلجز، الإخفاق في (القزح)، (البيارق)، (الألوية)، (التشقلب)! يا لها من صحبة عجيبة لرجل ارتقى بنفسه.

فرد عليه كيوبيد:

- اخفض نفسك إذن، فإن كنت أيها السيد قد رفعت نفسك ما لا زيادة عليه لمستزيد فاهبط بنفسك قليلًا.

فقال مستر جراد جرايند وهو يلتفت إليه مقطبًا حاجبيه:

- هذا الولد في منتهى التطفل!

فرد عليه السيد كيدر منيستر غير مرعو:

- كنا حريين أن نعد لاستقبالك سيدًا مهذبًا شابًّا لو أننا علمنا أنك قادم، فمن المؤسف وأنت مدقق إلى هذا الحد أنك لم تقم بالحجز مقدمًا. إنك فيما يبدو على (حبل مشدود) أليس كذلك؟

فقال مستر جراد جرايند وهو يرمقه بنظرة من نفدت حيلته:

- ماذا يعني هذا الولد قليل الأدب (بالحبل المشدود)؟

فقال مستر تشايلدرز وهو يدفع صاحبه الصغير من الحجرة على طريقة صيادي المراعي العنيفة:

- هيا! اخرج، اخرج!... الحبل المشدود أو الحبل المرتخي تسميات لا ضير منها. فمعناها الحبل المشدود والحبل المرتخي... لقد كنت على وشك أن تعهد إليَّ برسالة لجيب؟

- نعم.

فاستطرد مستر تشايلدرز بسرعة:

- رأيي في هذه الحالة أنها لن تصل إليه. هل تعرف الكثير عنه؟

- بل إني لم أرَ الرجل في حياتي مرة واحدة.

- وأنا أشك في أنك يمكن أن تراه بعد الآن فمن الواضح لدي تمامًا أنه فرّ.

- أتعني أنه هجر ابنته؟

فقال مستر تشايلدرز وهو يومئ برأسه:

- إي! أعني أنه فرّ... فقد صفروا له الليلة الماضية، وصفروا له في الليلة قبل الماضية، وصفروا له اليوم، فقد وضح في المدة الأخيرة أن الصفير يحف بطريقه على الدوام، وهو لا قبل له بذلك.

فقال مستر جراد جرايند وهو يخرج الألفاظ بعناء على استكراه:

- ولماذا... أكثروا من حوله... (الصفير)؟

فقال تشايلدرز:

- لقد أخذت مفاصله في التصلب، واستهللت بنيته، ولم تزل له بعض المقدرة في دور (الكلمنجي) ولكنه لا يستطيع أن يعتمد في معيشته على ذلك.

فقال باوندربي:

- (كلمنجي)! ها نحن قد عدنا إلى تلك الألغاز.

فقال مستر ا.و.ب تشايلدرز باستعلاء وهو يلقي بالتفسير من فوق كتفه ويقرنه بهزة من شعره الطويل الذي ارتج بأجمعه:

- متكلم إن كان السيد يفضل هذا اللفظ والآن يا سيدي من الجلي أن الذي حز في نفس الرجل حزًّا أعمق من صفير الزراية هو علمه أن ابنته عرفت ذلك.

فقاطعه مستر باوندربي قائلًا:

- عظيم! هذا عظيم يا جراد جرايند! فالرجل مشغوف بابنته بحيث دفعه شغفه بها إلى الفرار منها! هذا كلام في منتهى العظمة! ها ها! والآن سأقول لك شيئًا أيها الشاب: إني لم أشغل دائمًا مركزي الراهن في الحياة، وأنا على علم بهذه الأمور التي تتحدث عنها، ولعله يدهشك أن تسمع مني أن أمي تركتني وهربت مني أنا!

فأجابه ا.و.ب تشايلدرز على التو أن سماع ذلك لا يدهشه إطلاقًا!

واستطرد باوندربي:

- كان مولدي في حمأة ثم هربت أمي مني فهل غفرت لها ذلك؟ كلا هل خطر لي أن أغفر لها ذلك في أي وقت؟ كلا وبماذا أنعتها بسبب هذا الذي فعلت؟ أنعتها بأنها قد تكون أسوأ امرأة عاشت على وجه الأرض، فيما عدا جدتي السكيرة، فأنا لا أعرف كبرياء الأسرة، وليس عندي شيء من تلك التهاويل الخيالية العاطفية. بل أسمي الأشياء بأسمائها، وأسمي والدة جوشيا باوندربي من أعيان كوكتاون بما كنت حريًّا أن أسميها به من غير شائبة تميز لها أنها كانت والدة ديك جونز من أهالي وابينج. وكذلك الأمر بالنسبة لهذا الرجل، فهو وغد هارب ومتشرد، هذه هي صفته الحقيقية بلسان إنجليزي مبين.

فرد عليه مستر ا.و.ب تشايلدرز وهو يواجهه بعناد:

- سيان عندي ما هو من صفته وما هو ليس من صفته سواءً كان ذلك بلسان إنجليزي أو بلسان فرنسي، فإني أسرد الواقع على مسامع صاحبك، فإن لم يرقك سماعه فلك أن تلتمس الاستمتاع بالهواء الطلق، لقد أغلظت القول بما فيه الكفاية. (ونمت لهجة ا.و.ب. عن سخرية لاذعة) ولكن على الأقل إن أردت أن تغلظ القول فليكن ذلك في دارك أنت أما في هذا البنيان فلا تفتح فمك إلا إن دعيت للكلام، وأحسبك تملك الآن بناءً خاصًّا بك. أليس كذلك؟

فأجاب مستر باوندربي وهو يعبث بالنقود فيرتفع صليلها وهو يضحك: (ربما).

فقال تشايلدرز:

- إذن أرجوك إن سمحت أن تجهر بما عندك في مبناك؛ لأن هذا البناء ليس بالغ المتانة وإذا أكثر فيه من إبداء ذات نفسك عرضته للسقوط!

وشمل مستر باوندربي بنظرة أخرى من فرعه إلى قدمه ثم أولاه ظهره شأن المفروغ من أمره، وقال لمستر جراد جرايند:

- بعث جيب ابنته في قضاء حاجة له منذ أقل من ساعة، ثم شوهد وهو يتسلل خارجًا وقبعته تغطي عينيه ولفافة مربوطة في منديل تحت إبطه، وهي لن تصدق فيه ذلك، ولكن الحقيقة أنه هرب وتركها.

فقال مستر جراد جرايند:

- ولكن لماذا من فضلك لن تصدق فيه ذلك؟

فقال تشايلدرز وهو يخطو خطوة أو خطوتين لينظر داخل الحقيبة الفارغة:

- لأن هذين الاثنين كانا شخصًا واحدًا، لم يفترقا من قبل مطلقًا؛ ولأنه حتى وقتنا هذا كان يبدي تعلقًا شديدًا بها.

ومستر تشايلدرز والسيد كيدر منيستر يسيران بأسلوب عجيب حقًّا، فالساقان لديهما أكثر انفراجًا مما لدى سواد الناس، ويبدو على مشيهما أنهما يشعران شعورًا قويًّا بتصلب في الركبتين، وهي مشية شائعة لدى جميع الذكور من أعضاء فرقة سليري. والمفهوم أنها تعبر عن الركوب المتصل على ظهور الخيل.

وقال تشايلدرز وهو يهز شعره مرة أخرى رافعًا نظره عن الحقيبة الخاوية:

- يا لسيسي المسكينة! كان أولى به أن يمرنها، ولكن ها هو ذا قد تركها من غير شيء تعول عليه.

فقال مستر جراد جرايند محبذًا قوله:

- مما تشكر عليه أن تقول هذا وأنت الذي لم تحظ بأي تمرين.

- أنا لم أحظ بأي تمرين؟ لقد مرنت وأنا في السابعة من عمري.

فقال مستر جراد جرايند باستياء شأن من اغتيل سداد رأيه:

- أوه! حقًّا؟ لم أكن أدري أن العادة جرت بتمرين الأحداث على...

فصاح مستر باوندربي وهو يقهقه:

- على التبطل، كلا لعمري! ولا أنا.

واستطرد تشايلدرز متصنعًا عدم الإحساس بوجود مستر باوندربي:

- كان أبوها يعتزم دائمًا أن تتلقى علم الأولين والآخرين، ولست أدري كيف استقرت هذه الفكرة في رأسه، وكل ما أستطيع الجزم به أنها لم تخرج من رأسه، فكان يجمع لها طرفًا من القراءة من هنا وطرفًا من الكتابة من هناك، وطرفًا من الترقيم من حيث ما يتفق له طيلة هذه السنوات السبع.

وأخرج مستر ا.و.ب تشايلدرز إحدى يديه من جيبه وأخذ يربت بها خده وذقنه ونظر في كثير من الشك وقليل من الرجاء صوب مستر جراد جرايند، فهو منذ البداية كان يجتهد في ترضية هذا السيد من أجل خاطر الفتاة المهجورة، واستطرد قائلًا:

- عندما دخلت سيسي المدرسة هنا كان سرور أبيها لا مزيد عليه، ولم أستطع إطلاقًا أن أعرف السر في ذلك شخصيًّا، فإقامتنا هنا ليست مستقرة لأننا قوم نغدو ونروح في كل مكان. وأحسب أن هذه الرغبة كانت تساور ذهنه من زمن... فقد كان على الدوام نصف مخبول، فلما تم لها ذلك خال أنها كفلت على خير وجه، فإن كنت بالصدفة قد حضرت الليلة إلى هنا لتقول لها إنك تزمع أن تؤدي لها خدمة ما...

وعاد مستر تشايلدرز إلى تربيت وجهه وتكرير نظرة التشكك والأمل قبل أن يستطرد:

- فذلك سيكون من حسن الطالع وفي أوانه المناسب، من حسن الطالع جدًّا وأنسب ما يكون أوانًا.

فأجابه مستر جراد جرايند:

- بل إني بالعكس جئت لأقول له إن اتصالاتها تجعلها موضعًا غير صالح للمدرسة، وإنها يجب ألا تحضر إليها بعد ذلك... ومع ذلك إذا كان أبوها قد تركها حقًّا دون أي تواطؤ من جانبها... يا باوندربي اسمح لي بكلمة معك على انفراد.

وعندئذٍ انسحب مستر تشايلدرز بكل أدب، واتجه بمشيته التي اكتسبها من ركوب الخيل فوقف خارج الباب يربت وجهه ويصفر صفيرًا خافتًا، وفيما هو منصرف إلى ذلك ترامت إلى سمعه عبارات من كلام مستر باوندربي، من قبيل:

- كلا، أقول كلا، لا أنصحك بذلك، أقول لك كلا بأي شكل من الأشكال.

وسمع كذلك من مستر جراد جرايند بعض ما قاله بنبرته وتعبيره الهادئين بالنسبة لنبرة تعبير صاحبه:

- بل إن هذا قد يصلح مثلًا للويزا لترى إلى أين أدت هذه الحرفة التي كانت هدفًا للفضول المبتذل. فكر في الموضوع يا باوندربي من هذه الناحية.

وفي هذه الأثناء كان سائر أعضاء فريق سليري قد تجمعوا شيئًا فشيئًا هابطين من المناطق العليا التي يقيمون بها ووقفوا يتبادلون الأحاديث بأصوات خافتة فيما بينهم ومع مستر تشايلدرز.

ثم تسللوا شيئًا فشيئًا وهو معهم إلى داخل الحجرة، وكانت بينهم شابتان أو ثلاث ذوات حسن، ومعهن أزواجهن وأمهاتهن وأطفالهن الصغار الثمانية أو التسعة الذين يقومون بأدوار صغار الجن عند الاقتضاء. وكان والد إحدى الأسرات من مألوفه أن يحفظ توازن والد أسرة أخرى فوق قمة عمود طويل، وكان أيضًا من مألوف والد أسرة ثالثة أن يكون هرمًا مع الوالدين الآخرين بحيث يكون السيد كيدر مينستر هو قمة ذلك الهرم، وهو شخصيًّا قاعدته، والآباء الآخرون يستطيعون أن يرقصوا فوق البراميل المتدحرجة، وأن يقفوا فوق القوارير، وأن يلتقطوا المدي والكرات من الهواء، وأن يلعبوا بعدد من الآنية يقذفونها ويلقفونها، وأن يركبوا فوق أي شيء، وأن يقفزوا فوق كل شيء، وألا يعجزهم شيء. وجميع الأمهات يستطعن (ويقمن فعلًا) بالرقص فوق الأسلاك المرتخية والحبال المشدودة، ويؤدين ألعاب الخفة والسرعة فوق ظهور الخيل

عارية، وما من واحدة منهن تكترث كثيرًا بمسألة تعرية ساقيها وتستطيع إحداهن بمفردها أن تقود ستة جياد في عنان واحد تجر عربة إغريقية تدخل بها كل بلدة تقدم إليها الفرقة. والجميع يدعون منتهى القحة والمعرفة، وليس لديهم شيء من التأنق في ثيابهم الخاصة ولا شيء على الإطلاق من الترتيب في أمورهم البيئية، وثقافة الفرقة كلها في مجموعها شيء هزيل جدًّا في أي باب من أبواب المعرفة، ومع هذا ففي أولئك الناس دماثة ملحوظة وطفولة وعدم قابلية خاصة للإقدام على أي فعلة خبيثة غادرة، واستعداد لا ينفد لتقديم العون والشفقة لأي واحد منهم، فهم في كثير من الأحيان جديرون بالاحترام على قدم المساواة مع أي طبقة من الناس في العالم، وهم على الدوام ذوو شمائل كريمة لا تقل عما لأي طبقة أخرى من كريم السجايا.

كان اسم الحانة (أذرع الحصان المجنح)، وكان أولى بها أن تسمى (أرجل الحصان المجنح)، لولا أنه كان مكتوبًا تحت رسم الحصان المجنح فوق اللافتة (أذرع الحصان المجنح) بحروف رومانية، وتحت تلك الكتابة أيضًا خط الرسام بعناية السطور الآتية فوق درج مرفرف:

(أجود الشعير تصنع منه أجود الجعة.

فادخل هنا ليقدموها إليك.

وأجود النبيذ يصنع منه أجود البراندي.

شرفنا وستجده لدينا ميسورًا).

وعلى الحائط خلف حاجز البار القذر إطار يتجلى منه حصان مجنح آخر كالذي يستخدم في المسارح، جناحاه من شفوف حقيقية، وقد ألصقت بجسمه كله نجوم ذهبية، وأما لجامه الأثيري فمن حرير أحمر.

ولما كانت العتمة قد سادت في الخارج بحيث لا تسمح برؤية اللافتة، وكانت الأنوار في الداخل لم تصل بعد إلى الحد الكافي لرؤية الصورة، فمستر جراد جرايند ومستر باودربي لم يلحق بهما التأذي من تلك المثاليات وتبعا الفتاة صعدًا فوق درج سلالم قائمة في الركن من غير أن يقابلا في الطريق أحدًا ثم وقفا في الظلام ريثما انطلقت الفتاة لتأتي بشمعة، وتوقعا في كل لحظة أن يسمعا مريلجز يطلق نباحه، ولكن الكلب المدرب تدريبًا عاليًا على الاستعراض لم ينبح طول الوقت الذي انقضى حتى ظهور الفتاة ومعها الشمعة، فقالت وعلى وجهها علائم دهشة شديدة:

- والدي ليس في حجرتنا يا سيدي، فإذا لم يكن لديكما مانع من الدخول ذهبت وجئت به فورًا.

فدخلا، وانطلقت سيسي بخطى خفيفة سريعة بعد أن قدمت لهما مقعدين. وكانت الحجرة حقيرة رثة الأثاث بها فراش، وقلنسوة النوم البيضاء المعلقة على مسمار هناك، كانت مزركشة بريشتين من ريش الطاووس وضفيرة من الشعر مشرعة إلى أعلى. وبهذه القلنسوة كان السنيور جيب ينعس بعد ظهر كل يوم، ويبعث الحيوية في الجمهور باستعراضاته المنوعة للواذعه الشكسبيرية العفيفة المفخمة ولم يكن ثمة في أي مكان من الحجرة أثر لسائر ملبوساته أو ما يدل على شخصه وما يشتغل به من أعمال وأما مريلجز ذلك الجد الموقر للحيوان المدرب الذي ركب متن الفلك، فلعله ذيد عنه صدفة، فما من أثر هناك ينم على كلب تراه العين أو تسمعه الأذن (في أذرع الحصان المجنح)

وكانا يسمعان أبواب الحجرات العليا تفتح وتغلق كلما انتقلت سيسي من حجرة إلى أخرى بحثًا عن أبيها ثم ما لبثا أن سمعا أصواتًا تنم على دهشة ونزلت

إليهما وهي تتواثب في عجلة بالغة، وأسرعت تفتح حقيبة شعر كبيرة متآكلة حائلة اللون عتيقة فوجدتها خالية، فأخذت تنظر فيما حولها وقد تشابكت يداها وارتسم الرعب على محياها، ثم قالت:

- لا بد أن أبي مضى إلى خيمة الملعب يا سيدي، ولست أدري ما الذي دعاه أن يذهب إلى هناك، ولكنه هناك بلا شك، وسآتي به في دقيقة واحدة!

وانطلقت على الفور بغير قلنسوة، وشعرها الطفلي الطويل الداكن يهتز من خلفها، فقال مستر جراد جرايند:

- ماذا تعني بأنها ستعود في دقيقة واحدة؟ إن المسافة تربو على ميل؟

وقبل أن يتمكن مستر باوندربي من الإجابة ظهر عند الباب شاب قدم نفسه بهذه الكلمات:

- بإذنكما أيها السيدان!

ثم دخل ويداه في جيبيه، وكان وجهه الحليق نحيلًا مصفرًّا تظله جمة كبيرة من شعر أدكن ملفوف على شكل أسطوانة تحيط برأسه، مفروق عند الوسط، وساقاه قويتان جدًّا، بيد أنهما أقصر مما يستلزمه تناسق الأعضاء، وكان صدره وظهره أعرض مما ينبغي، مثلما كانت ساقاه أقصر مما ينبغي، وهو مرتدٍ سترة للسباق مما يعرف باسم (نيو ماركت) وسراويل ضيقة محكمة على جسده وقد لف عنقه بلفاعة وتفوح منه روائح زيت المصابيح والقش وقشور البرتقال وعلف الخيل ونشارة الخشب، فبدا نموذجًا غريبًا جدًّا من حيوان خرافي هو مزيج من الإسطبل والملعب، فحيثما يبدأ هذا ينتهي ذاك، من غير أن يكون الحد الفاصل بينهما ممكن التحديد. وهذا السيد هو الذي كانت تشير إعلانات ذلك اليوم إليه باسم ا.و.ب. تشيلدرز المشهور عن جدارة بقدرته على القفزات

العالية الجريئة حين يمثل الصياد المتأبد في براري أمريكا الشمالية. وهو حين يؤدي ذلك المشهد الذي يلاقي لدى الجمهور قبولًا يستعين بغلام ضئيل الحجم له وجه عجوز وهو في صحبته الآن، فيقوم هذا الغلام بدور ابن الصياد الصغير، يحمله أبوه على كتفه مقلوبًا وقد أمسك بأحد قدميه، أو يحمله من يافوخه وعقباه إلى أعلى فوق راحة يده، على غرار الأسلوب الأبوي العنيف الذي قد يستخدمه الصيادون المتأبدون في تدليل ذراريهم، وهذا الغلام هو الذي يحلي رأسه بخصلات الشعر المتموج والجدائل والأجنحة، ثم يعالج وجهه بالبزموت الأبيض والقرمز، فإذا بذلك الفتى الواعي وقد غدا كيوبيدًا يطيب مرآه ويبعث أشد البهجة في قطاع الأمهات من جمهور المشاهدين. أما في حياته الخاصة حيث لا تعدو ملابسه أن تكون سترة عادية يبدو فيها وكأنه يسبق سنه، وظهر صوته أجش بصورة مسرفة، فهو بين مروضي الخيل أروضهم للخيل!

قال مستر ا.و.ب تشيلدرز وهو يجيل في الحجرة بصره:

- بإذنكما أيها السيدان، أنتما فيما أعتقد اللذان أبديتما رغبتكما في مقابلة جيب؟

فقال مستر جراد جرايند:

- أجل، وقد ذهبت ابنته لتأتي به، ولكني لا أستطيع الانتظار، ولذا سأترك معك إن سمحت رسالة له.

وتدخل مستر باوندربي في الحديث قائلًا:

- إننا كما ترى يا صديقي طراز الناس الذين يعرفون قيمة الوقت، وأنتم طراز الناس الذين لا يعرفون قيمة الوقت.

فرد عليه مستر تشايلدرز بعد أن تفحصه من فرعه إلى قدمه:

- لم يحصل لي شرف معرفة من (أنت)...

ولكن إن كنت تعني أنك أقدر مني على جمع المال من وقتك، ففي مقدوري أن أحكم من مظهرك بأنك لم تجانب الصواب.

وأردف كيوبيد قائلًا:

- وإنك حين تجمع المال قادر فيما أعتقد على الاحتفاظ به.

فقال مستر تشايلدرز:

- حسبك يا كيدر منيستر!

(السيد كيدر منيستر هو الاسم الفاني لكيوبيد) فصاح السيد كيدر منيستر وقد ظهر عليه الغضب الشديد:

- ولماذا إذن أتى إلى هنا متصديًا لنا؟ إن كنت تريد التصدي لنا فعليك أن تدفع عند البوابة الرسم ثم هات ما عندك؟

فرفع مستر تشايلدرز صوته صائحًا به:

- كف عن هذا يا كيدر منيستر!

ثم إلتفتَ إلى مستر جراد جرايند قائلًا:

- سيدي لقد كنت أتوجه إليك بكلامي، ولعلك تعلم أو لا تعلم (لأنك ربما لم تكثر التردد على ملعبنا) أن جيب فشل في (قزحه) مرات كثيرة في المدة الأخيرة.

فقال مستر جراد جرايند وهو ينظر صوب صاحبه القدير باوندربي يلتمس منه العون.

- فشل في ماذا؟

- في (قزحه).

وقال السيد كيدر منيستر:

- قدموه عند (البيارق) أربع مرات في الليلة الماضية فلم يفلح فيها مرة واحدة، ثم أخطأ (القزح) في لعبة الألوية أيضًا وكان رخوًا فاشلًا في (التشقلب).

وتولى مستر تشايلدرز الترجمة قائلًا:

- لم يقم بما كان ينبغي أن يؤديه. كانت قفزاته أكثر مما يجب وكان هبوطه سيئًا.

فقال مستر جراد جرايند:

- أوه! هل هذا معنى (القزح)؟

فأجابه مستر ا.و.ب. تشايلدرز:

- هذا هو بصورة عامة معنى الإخفاق في (القزح).

وهتف باوندربي بضحكته الصاخبة:

- الزيوت التسعة: مريلجز، الإخفاق في (القزح)، (البيارق)، (الألوية)، (التشقلب)! يا لها من صحبة عجيبة لرجل ارتقى بنفسه.

فرد عليه كيوبيد:

- اخفض نفسك إذن، فإن كنت أيها السيد قد رفعت نفسك ما لا زيادة عليه لمستزيد فاهبط بنفسك قليلًا.

فقال مستر جراد جرايند وهو يلتفت إليه مقطبًا حاجبيه:

- هذا الولد في منتهى التطفل!

فرد عليه السيد كيدر منيستر غير مرعو:

- كنا حريين أن نعد لاستقبالك سيدًا مهذبًا شابًّا لو أننا علمنا أنك قادم، فمن المؤسف وأنت مدقق إلى هذا الحد أنك لم تقم بالحجز مقدمًا. إنك فيما يبدو على (حبل مشدود) أليس كذلك؟

فقال مستر جراد جرايند وهو يرمقه بنظرة من نفدت حيلته:

- ماذا يعني هذا الولد قليل الأدب (بالحبل المشدود)؟

فقال مستر تشايلدرز وهو يدفع صاحبه الصغير من الحجرة على طريقة صيادي المراعي العنيفة:

- هيا! اخرج، اخرج!... الحبل المشدود أو الحبل المرتخي تسميات لا ضير منها. فمعناها الحبل المشدود والحبل المرتخي... لقد كنت على وشك أن تعهد إليَّ برسالة لجيب؟

- نعم.

فاستطرد مستر تشايلدرز بسرعة:

- رأيي في هذه الحالة أنها لن تصل إليه. هل تعرف الكثير عنه؟

- بل إني لم أرَ الرجل في حياتي مرة واحدة.

- وأنا أشك في أنك يمكن أن تراه بعد الآن فمن الواضح لدي تمامًا أنه فرّ.

- أتعني أنه هجر ابنته؟

فقال مستر تشايلدرز وهو يومئ برأسه:

- إي! أعني أنه فرّ... فقد صفروا له الليلة الماضية، وصفروا له في الليلة قبل الماضية، وصفروا له اليوم، فقد وضح في المدة الأخيرة أن الصفير يحف بطريقه على الدوام، وهو لا قبل له بذلك.

فقال مستر جراد جرايند وهو يخرج الألفاظ بعناء على استكراه:

- ولماذا... أكثروا من حوله... (الصفير)؟

فقال تشايلدرز:

- لقد أخذت مفاصله في التصلب، واستهللت بنيته، ولم تزل له بعض المقدرة في دور (الكلمنجي) ولكنه لا يستطيع أن يعتمد في معيشته على ذلك.

فقال باوندربي:

- (كلمنجي)! ها نحن قد عدنا إلى تلك الألغاز.

فقال مستر ا.و.ب تشايلدرز باستعلاء وهو يلقي بالتفسير من فوق كتفه ويقرنه بهزة من شعره الطويل الذي ارتج بأجمعه:

- متكلم إن كان السيد يفضل هذا اللفظ والآن يا سيدي من الجلي أن الذي حز في نفس الرجل حزًّا أعمق من صفير الزراية هو علمه أن ابنته عرفت ذلك.

فقاطعه مستر باوندربي قائلًا:

- عظيم! هذا عظيم يا جراد جرايند! فالرجل مشغوف بابنته بحيث دفعه شغفه بها إلى الفرار منها! هذا كلام في منتهى العظمة! ها ها! والآن سأقول لك شيئًا أيها الشاب: إني لم أشغل دائمًا مركزي الراهن في الحياة، وأنا على علم بهذه الأمور التي تتحدث عنها، ولعله يدهشك أن تسمع مني أن أمي تركتني وهربت مني أنا!

فأجابه ا.و.ب تشايلدرز على التو أن سماع ذلك لا يدهشه إطلاقًا!

واستطرد باوندربي:

- كان مولدي في حمأة ثم هربت أمي مني فهل غفرت لها ذلك؟ كلا هل خطر لي أن أغفر لها ذلك في أي وقت؟ كلا وبماذا أنعتها بسبب هذا الذي فعلت؟ أنعتها بأنها قد تكون أسوأ امرأة عاشت على وجه الأرض، فيما عدا جدتي السكيرة، فأنا لا أعرف كبرياء الأسرة، وليس عندي شيء من تلك التهاويل الخيالية العاطفية. بل أسمي الأشياء بأسمائها، وأسمي والدة جوشيا باوندربي من أعيان كوكتاون بما كنت حريًّا أن أسميها به من غير شائبة تميز لها أنها كانت والدة ديك جونز من أهالي وابينج. وكذلك الأمر بالنسبة لهذا الرجل، فهو وغد هارب ومتشرد، هذه هي صفته الحقيقية بلسان إنجليزي مبين.

فرد عليه مستر ا.و.ب تشايلدرز وهو يواجهه بعناد:

- سيان عندي ما هو من صفته وما هو ليس من صفته سواءً كان ذلك بلسان إنجليزي أو بلسان فرنسي، فإني أسرد الواقع على مسامع صاحبك، فإن لم يرقك سماعه فلك أن تلتمس الاستمتاع بالهواء الطلق، لقد أغلظت القول بما فيه الكفاية. (ونمت لهجة ا.و.ب. عن سخرية لاذعة) ولكن على الأقل إن أردت أن تغلظ القول فليكن ذلك في دارك أنت أما في هذا البنيان فلا تفتح فمك إلا إن دعيت للكلام، وأحسبك تملك الآن بناءً خاصًّا بك. أليس كذلك؟

فأجاب مستر باوندربي وهو يعبث بالنقود فيرتفع صليلها وهو يضحك: (ربما).

فقال تشايلدرز:

- إذن أرجوك إن سمحت أن تجهر بما عندك في مبناك؛ لأن هذا البناء ليس بالغ المتانة وإذا أكثر فيه من إبداء ذات نفسك عرضته للسقوط!

وشمل مستر باوندربي بنظرة أخرى من فرعه إلى قدمه ثم أولاه ظهره شأن المفروغ من أمره، وقال لمستر جراد جرايند:

- بعث جيب ابنته في قضاء حاجة له منذ أقل من ساعة، ثم شوهد وهو يتسلل خارجًا وقبعته تغطي عينيه ولفافة مربوطة في منديل تحت إبطه، وهي لن تصدق فيه ذلك، ولكن الحقيقة أنه هرب وتركها.

فقال مستر جراد جرايند:

- ولكن لماذا من فضلك لن تصدق فيه ذلك؟

فقال تشايلدرز وهو يخطو خطوة أو خطوتين لينظر داخل الحقيبة الفارغة:

- لأن هذين الاثنين كانا شخصًا واحدًا، لم يفترقا من قبل مطلقًا؛ ولأنه حتى وقتنا هذا كان يبدي تعلقًا شديدًا بها.

ومستر تشايلدرز والسيد كيدر منيستر يسيران بأسلوب عجيب حقًّا، فالساقان لديهما أكثر انفراجًا مما لدى سواد الناس، ويبدو على مشيهما أنهما يشعران شعورًا قويًّا بتصلب في الركبتين، وهي مشية شائعة لدى جميع الذكور من أعضاء فرقة سليري. والمفهوم أنها تعبر عن الركوب المتصل على ظهور الخيل.

وقال تشايلدرز وهو يهز شعره مرة أخرى رافعًا نظره عن الحقيبة الخاوية:

- يا لسيسي المسكينة! كان أولى به أن يمرنها، ولكن ها هو ذا قد تركها من غير شيء تعول عليه.

فقال مستر جراد جرايند محبذًا قوله:

- مما تشكر عليه أن تقول هذا وأنت الذي لم تحظ بأي تمرين.

- أنا لم أحظ بأي تمرين؟ لقد مرنت وأنا في السابعة من عمري.

فقال مستر جراد جرايند باستياء شأن من اغتيل سداد رأيه:

- أوه! حقًّا؟ لم أكن أدري أن العادة جرت بتمرين الأحداث على...

فصاح مستر باوندربي وهو يقهقه:

- على التبطل، كلا لعمري! ولا أنا.

واستطرد تشايلدرز متصنعًا عدم الإحساس بوجود مستر باوندربي:

- كان أبوها يعتزم دائمًا أن تتلقى علم الأولين والآخرين، ولست أدري كيف استقرت هذه الفكرة في رأسه، وكل ما أستطيع الجزم به أنها لم تخرج من رأسه، فكان يجمع لها طرفًا من القراءة من هنا وطرفًا من الكتابة من هناك، وطرفًا من الترقيم من حيث ما يتفق له طيلة هذه السنوات السبع.

وأخرج مستر ا.و.ب تشايلدرز إحدى يديه من جيبه وأخذ يربت بها خده وذقنه ونظر في كثير من الشك وقليل من الرجاء صوب مستر جراد جرايند، فهو منذ البداية كان يجتهد في ترضية هذا السيد من أجل خاطر الفتاة المهجورة، واستطرد قائلًا:

- عندما دخلت سيسي المدرسة هنا كان سرور أبيها لا مزيد عليه، ولم أستطع إطلاقًا أن أعرف السر في ذلك شخصيًّا، فإقامتنا هنا ليست مستقرة لأننا قوم نغدو ونروح في كل مكان. وأحسب أن هذه الرغبة كانت تساور ذهنه من زمن... فقد كان على الدوام نصف مخبول، فلما تم لها ذلك خال أنها كفلت على خير وجه، فإن كنت بالصدفة قد حضرت الليلة إلى هنا لتقول لها إنك تزمع أن تؤدي لها خدمة ما...

وعاد مستر تشايلدرز إلى تربيت وجهه وتكرير نظرة التشكك والأمل قبل أن يستطرد:

- فذلك سيكون من حسن الطالع وفي أوانه المناسب، من حسن الطالع جدًّا وأنسب ما يكون أوانًا.

فأجابه مستر جراد جرايند:

- بل إني بالعكس جئت لأقول له إن اتصالاتها تجعلها موضعًا غير صالح للمدرسة، وإنها يجب ألا تحضر إليها بعد ذلك... ومع ذلك إذا كان أبوها قد تركها حقًّا دون أي تواطؤ من جانبها... يا باوندربي اسمح لي بكلمة معك على انفراد.

وعندئذٍ انسحب مستر تشايلدرز بكل أدب، واتجه بمشيته التي اكتسبها من ركوب الخيل فوقف خارج الباب يربت وجهه ويصفر صفيرًا خافتًا، وفيما هو منصرف إلى ذلك ترامت إلى سمعه عبارات من كلام مستر باوندربي، من قبيل:

- كلا، أقول كلا، لا أنصحك بذلك، أقول لك كلا بأي شكل من الأشكال.

وسمع كذلك من مستر جراد جرايند بعض ما قاله بنبرته وتعبيره الهادئين بالنسبة لنبرة تعبير صاحبه:

- بل إن هذا قد يصلح مثلًا للويزا لترى إلى أين أدت هذه الحرفة التي كانت هدفًا للفضول المبتذل. فكر في الموضوع يا باوندربي من هذه الناحية.

وفي هذه الأثناء كان سائر أعضاء فريق سليري قد تجمعوا شيئًا فشيئًا هابطين من المناطق العليا التي يقيمون بها ووقفوا يتبادلون الأحاديث بأصوات خافتة فيما بينهم ومع مستر تشايلدرز.

ثم تسللوا شيئًا فشيئًا وهو معهم إلى داخل الحجرة، وكانت بينهم شابتان أو ثلاث ذوات حسن، ومعهن أزواجهن وأمهاتهن وأطفالهن الصغار الثمانية أو التسعة الذين يقومون بأدوار صغار الجن عند الاقتضاء. وكان والد إحدى

الأسرات من مألوفه أن يحفظ توازن والد أسرة أخرى فوق قمة عمود طويل، وكان أيضًا من مألوف والد أسرة ثالثة أن يكون هرمًا مع الوالدين الآخرين بحيث يكون السيد كيدر مينستر هو قمة ذلك الهرم، وهو شخصيًّا قاعدته، والآباء الآخرون يستطيعون أن يرقصوا فوق البراميل المتدحرجة، وأن يقفوا فوق القوارير، وأن يلتقطوا المدي والكرات من الهواء، وأن يلعبوا بعدد من الآنية يقذفونها ويلقفونها، وأن يركبوا فوق أي شيء، وأن يقفزوا فوق كل شيء، وألا يعجزهم شيء. وجميع الأمهات يستطعن (ويقمن فعلًا) بالرقص فوق الأسلاك المرتخية والحبال المشدودة، ويؤدين ألعاب الخفة والسرعة فوق ظهور الخيل عارية، وما من واحدة منهن تكترث كثيرًا بمسألة تعرية ساقيها وتستطيع إحداهن بمفردها أن تقود ستة جياد في عنان واحد تجر عربة إغريقية تدخل بها كل بلدة تقدم إليها الفرقة. والجميع يدعون منتهى القحة والمعرفة، وليس لديهم شيء من التأنق في ثيابهم الخاصة ولا شيء على الإطلاق من الترتيب في أمورهم البيئية، وثقافة الفرقة كلها في مجموعها شيء هزيل جدًّا في أي باب من أبواب المعرفة، ومع هذا ففي أولئك الناس دماثة ملحوظة وطفولة وعدم قابلية خاصة للإقدام على أي فعلة خبيثة غادرة، واستعداد لا ينفد لتقديم العون والشفقة لأي واحد منهم، فهم في كثير من الأحيان جديرون بالاحترام على قدم المساواة مع أي طبقة من الناس في العالم، وهم على الدوام ذوو شمائل كريمة لا تقل عما لأي طبقة أخرى من كريم السجايا.

وأخيرًا ظهر مستر سليري، وهو رجل ممتلئ الجسم كما ذكرنا آنفًا، إحدى عينيه ثابتة والأخرى متحركة، وله صوت (إن جاز أن نسميه صوتًا) كأنفاس منفاخ عميق مكسور، بشرته رخوة ورأسه مشوش فهو ليس في أي وقت من الأوقات كامل الصحو أو كامل السكر.

وقال مستر سليري الذي كان مرض الأزمة يزعجه فتخرج أنفاسه غليظة ثقيلة تشوه دائمًا حرف السين وما إليه وتجعل منه ثاءً أو شينًا:

- شيدي! أنا خادمك! وهذه المسألة في الحقيقة سيئة جدًّا، هل سمعت باختفاء مهرجي وكلبه؟

وكان يوجه كلامه إلى مستر جرايند فأجابه:

- نعم.

فاستطرد وهو يخلع قبعته ويحك بطانتها بمنديله الذي كان يحتفظ به داخلها لهذا الغرض:

- حشنًا يا شيدي، فهل في نيتك أن تصنع شيئًا لهذه البنت المشكينة يا شيدي؟

فقال مستر جراد جرايند:

- لدي ما أعرضه عليها عندما تعود.

- يشرني أن أشمع هذا يا شيدي، وليس ذلك لأنني أريد أن أتخلش (1) من الطفلة، بل أنا لا أريد أن أقف في شبيلها، فليش عندي مانع أن أتولى تدريبها، وإن كان هذا في مثل شنها يعتبر متأخرًا. وشوتي يا شيدي قد شار الآن أجش، وليش من الشهل أن يشمعه من لا يعرفوني. فلو أنك بردت وشخنت، وشخنت وبردت، وبردت وشخنت في الحلقة وأنت شغير بالكشرة التي حشلت لي، فلا شك أن شوتك لم يكن ليشتطيع الشبات يا شيدي أكثر من شوتي..

فقال مستر جراد جرايند:

- أعتقد ذلك.

فقال مستر سليري في سخاوة مضيافة:

- ماذا تحب يا سيدي أن تتناول ربما تحضر شري؟ اطلب ما تشاء يا سيدي!

فقال مستر جراد جرايند:

- لا أريد شيئًا، شكرًا لك.

- لا تقل لا شيء يا شيدي، وماذا يطلب شاحبك؟ وإذا كنتما لم تتناولا طعامكما بعد تناولا كأسًا من البيترز.

وعندئذ صاحت ابنته جوزفين، وهي فتاة مليحة شقراء الشعر في الثامنة عشرة من عمرها ربطت إلى ظهر جواد وهي في عامها الثاني وكتبت وصيتها وهي في الثانية عشرة وهي تحملها معها دائمًا أينما ذهبت وقد أوضحت فيها بأن يجرها إلى مثواها الأخير المهران الأرقشان:

- صه يا أبي! ها هي ذي قد عادت.

ثم دخلت سيسي جيب تجري إلى الحجرة بنفس السرعة التي كانت تجري بها وهي خارجة منها، فلما رأتهم كلهم مجتمعين، ورأت سحنهم ولم ترَ أباها بينهم انفجرت تبكي أفظع بكاء، ولاذت بصدر أبرع سيدة في المشي على الحبل المشدود (وكانت حبلى) فركعت السيدة على الأرض لتسري عنها وتبكي فوقها، فقال سليري:

- إن هذا لخزي كبير! أُقشم إنه كذلك!

- آه يا أبي العزيز، يا أبي الطيب العطوف، أين ذهبت؟ لقد ذهبت لتحاول شيئًا فيه خير لي، أعلم هذا! لقد ذهبت من أجلي، إني واثقة بذلك وكم ستكون شقيًّا لا حول لك من غيري يا أبي المسكين إلى أن تعود! وكان من الموجع أن يسمعها المرء تقول كلامًا كثيرًا من هذا القبيل ووجهها مرفوع إلى أعلى وذراعاها ممدودان، كأنها تحاول أن تستوقف طيفه الراحل وتعانقه، ولم ينطق أحد

بكلمة من شدة التأثر إلى أن نفد صبر مستر باوندربي، فأخذ بأزمة الأمور بين يديه، وقال:

- والآن أيها الناس الطيبون! إن هذه مضيعة عابثة للوقت، أفهموا الفتاة الأمر الواقع، بل دعوني أنا أخبرها إن شئتم يا من هرب الرجل منكم. سأخبرها بنفسي، اسمعي يا هذه! إن والدك قد اختفى، هجرك، ويجب عليك ألا تتوقعي أن تريه مرة أخرى ما عشت.

وكان هؤلاء الناس لا يبالون إلا أقل القليل بالوقائع المجردة، فهم في حالة تخلف شديد جدًّا من هذه الناحية، ولذا فبدلًا من أن يعجبوا أو يكبروا قوة تفكير المتحدث السليم سخطوا عليه سخطًا بالغًا، وأخذ الرجال يغمغمون (يا للعار!) وأخذ النسوة يهتفن (يا له من وحش!) وبسرعة قال سليري العبارة التالية لمستر باوندربي على حدة:

- اشمع يا شيدي، أقول لك بشراحة إن من رأيي أن تدع الكلام في هذه المشألة، فذلك خير لك وأولى. قومي أناس طيبون جدًّا، بيد أنهم حاولوا التسرع في حركاتهم، فإذا لم تعمل بنشيحتي فعليَّ اللعنة إن لم يلقوا بك فيما أعتقد من النافذة.

وفعل هذا الإيعاز (الرقيق) فعله في ردع مستر باوندربي، فوجد مستر جراد جرايند فرصة لعرض وجهة نظره العملية الفذة في الموضوع، قال:

- ليس بذي بال أن تكون عودة هذا الشخص متوقعة في أي وقت أو غير متوقعة، فالمهم أنه هرب وليس هناك في الوقت الحاضر أي توقع لعودته، وهذا فيما أعتقد أمر متفق عليه من الجميع.

فقال سليري:

- هذا متفق عليه يا محترم، هو ذاك!

- حسنًا إذن، وإني أنا الذي جئت إلى هنا لأبلغ والد هذه الفتاة المسكينة جيب أنه ليس من الممكن تقبلها في المدرسة بعد الآن بسبب بعض الاعتراضات العملية التي لا حاجة بي إلى الخوض فيها، وهذه الاعتراضات تحول دون قبول أطفال الأشخاص الذين يعملون في مثل هذه الحرفة، أرى نفسي مستعدًا على ضوء هذه الظروف الجديدة أن أتقدم باقتراح، فأنا على استعداد بأن أتكفل بك يا جيب وأربيك وأتولى أمرك. والشرط الوحيد فضلًا عن حسن مسلكك أن تقرري الآن فورًا هل تصحبينني أم تبقين هنا، وأنه من المفروغ منه إذا صحبتني الآن أن لا تتصلي بعد ذلك بأي من أصحابك الموجودين هنا الآن، وهذه هي خلاصة المسألة كلها.

فقال سليري:

- في الوقت نفسه يجب يا محترم أن أدلي بكلمتي حتى تكون وجهتا النظر واضحتين على الشواء. إذا كنتِ تحبين يا شيشيليا أن تتمرني على المهنة فأنت على علم بطبيعة العمل كما أنكِ تعرفين رفاقكِ فيها، فإما جوردون التي تشتلقين على حجرها الآن شتكون أمًّا لكِ وجوزفين شتكون أختًا لكِ. وأنا لا أدعي أنني شخشيًّا من شلالة الملائكة، فإذا فشلت في (قزحك) شتجدينني عنيفًا شيئ الطبع في هياجي، أشب وألعن، ولكني أؤكد لك يا محترم أنني شواء كنت شاخطًا أو راضيًا لا يمكن أن أوذي حشانًا بأكثر من كلمة شباب. ولا أعتقد أني شأغير الآن من طبعي في هذه الشن في معاملتي لراكب الحشان. ولم أكن في يوم من الأيام (كلمنجيًّا) ممتازًا يا محترم. فهذا كل ما عندي.

وكان الجزء الأخير من كلامه موجهًا إلى مستر جراد جرايند الذي تقبله بإيماءة وقور من رأسه، ثم قال:

- والملاحظة الوحيدة التي سأوجهها إليك يا جيب من باب التأثير على قرارك هي أنه من المستحسن جدًّا أن تحظي بتربية عملية سليمة، وحتى والدك نفسه يبدو كما فهمت أنه كان يرى ذلك الرأي ويحسّ بوجاهته بالنسبة لك.

وكان للعبارة الأخيرة أثر واضح في الفتاة، فتوقفت عن نحيبها الطامي وابتعدت قليلًا عن إما جوردون ورفعت وجهها إلى حاميها، فأدركت الجماعة كلها مدى ذلك التغير وشهقوا شهقة طويلة ترجمتها الواضحة: (أنها ستذهب!) فقال مستر جراد جرايند يحذرها:

- تأكدي أولًا من أنكِ تعرفين ما تريدين يا جيب. ولا أقول لكِ أكثر من هذا. تأكدي من أنكِ تعرفين ما تريدين.

فصاحت الفتاة منفجرة بالبكاء بعد دقيقة صمت:

- ولكن عندما يعود أبي كيف يمكنه أن يعثر عليَّ إذا أنا مضيت من هنا؟

فقال مستر جراد جرايند بهدوء من يعالج المسألة كلها وكأنها عملية حسابية:

- لكِ أن تطمئني كل الاطمئنان يا جيب بخصوص هذا الموضوع، ففي هذه الحالة أحسب والدك لا بد أن يأتي إلى مستر...

- شليري، هذا هو اسمي يا شيدي ولست أشعر منه بالخزي، فهو اشم معروف في إنجلترا كلها ويؤدي دائمًا ما عليه من الالتزامات.

- لا بد أن يأتي إلى مستر سليري الذي سيخبره عندئذٍ أين ذهبت، وليس في استطاعتي أن أستبقيك رغم إرادته، وسوف لا يجد أدنى صعوبة في أي وقت في العثور على مستر توماس جراد جرايند من أعيان كوكتاون، فأنا معروف تمام المعرفة.

وأمن مستر سليري على ذلك وهو يجيل عينه المتحركة:

- ... معروف جدًّا... فأنت يا شيدي واحد من أولئك الذين يمنحون مؤششتنا جانبًا لا يشتهان به من الإيراد، ولكن ما علينا من هذا الآن.

وسادت فترة صمت أخرى، ثم صاحت الفتاة منتحبة ويداها أمام وجهها:

- أعطوني ثيابي، أعطوني ثيابي، واتركوني أذهب من هنا قبل أن ينفطر قلبي!

وانصرفت النساء محزونات إلى جمع ثيابها، ولم تكن بالشيء الكثير، فلم يستغرق ذلك إلا برهة، ثم وضعنها في سلة كن يستخدمنها في أسفارهن، وظلت سيسي جالسة طيلة الوقت على الأرض تبكي وقد غطت عينيها بيديها، ووقف مستر جراد جرايند وصديقه باوندربي قرب الباب متأهبين للانطلاق بها، أما مستر سليري فوقف في وسط الحلقة أثناء قيام ابنته جوزفين باستعراضها، فلم يكن ينقصه لتطابق الصورتين إلا صوته.

وبعد تجهيز السلة في صمت أحضر النسوة لها قلنسوتها ورتبن لها شعرها المشعث وألبسنها إياها، ثم تكاثرن حولها متزاحمات وانحنين عليها في سلوك طبيعي جدًّا وأخذن يعانقنها ويغمرنها بالقبلات، وأحضرن الأطفال لتوديعها، فكن في مجموعهن نسوة رقيقات القلب ساذجات، وقال مستر جراد جرايند:

- الآن يا جيب إن كنت عازمة فهيا!

ولكنها لم تكن قد ودعت الذكور من أفراد الفرقة، فكان كل واحد منهم يفك ذراعيه (لأنهم جميعًا كانوا يقفون دائمًا في محضر سليري وقفة رسمية معقودي الأذرع) ويقبلها قبلة الفراق، فيما عدا السيد كيدر مينستر الذي كان طبعه ينحو به صوب النفرة، كما كان من المعروف عنه أنه يفكر في الزواج، فقد انسحب وهو واجم، وجاء في النهاية دور مستر سليري ففتح ذراعيه على سعتها وقبض على يديها وكاد أن يرفعها في الهواء ويخفضها على طريقة معلمي الركوب في

تهنئة السيدات عند ترجلهن على إثر لعبة سريعة لولا أن سيسي لم تظهر انقيادًا ووقفت أمامه تبكي فقال لها:

- وداعًا يا عزيزتي. وأرجو لكِ أن تنالي التوفيق وأنا كفيل بألا يزعجك أي إنشان من قومنا المشاكشين، وكنت أتمنى لو أن والدك لم يأخذ كلبه معه، فمن المؤشف أن نخرج الكلب من قائمة البرنامج، ولكني حينما أراجع نفشي أجد أن الكلب ما كان ليقوم بألعابه من غير أن يكون شاحبه حاضرًا، لهذا فالأمر شيان!

ثم نظر إليها بإمعان بعينه الثابتة وأجال عينه المتحركة في أعضاء فرقته، وقبلها ثم هز رأسه وسلمها إلى مستر جراد جرايند وكأنه يسلمها إلى حصان، وقال وهو يشملها بنظرة حرفية كأنها بصدد التمكن من السرج:

- ها هي يا شيدي، وشتجد منها كل خير، وداعًا ياششليا!

وتعالت الأصوات المتباينة من كل أرجاء الحجرة:

- وداعًا يا سسليا! وداعًا يا سيسي! باركك الله يا عزيزتي!

ولمحت عين معلم الركوب قارورة الزيوت التسعة في صدرها فاعترضها قائلًا:

- دعي الزجاجة يا عزيزتي، فهي كبيرة سوف يتعبك حملها، وسوف لا تكون ذات نفع لك الآن، أعطنيها!

فقالت وهي تنتحب ثانية:

- كلا، كلا! أرجوك أن تدعني أحتفظ بها لأبي إلى أن يعود، فسيحتاج إليها عندما يعود، فهو لم يكن يفكر في الرحيل عندما أرسلني لإحضارها، فلا بد أن أحتفظ بها، من فضلك!

فقال سليري وقد أخذ لهاثه يزداد كلما مضى في الكلام:

- ليكن لكِ ما تريدين يا عزيزتي (ها أنت ذا ترى حقيقة شعورها يا محترم) وداعًا يا شيشيليا! وكلمتي الأخيرة لكِ هي أن تفي بنشوش تعهداتك وأن تطيعي الشيد وتنشينا، ولكن عندما تكبرين وتتزوجين وتكونين بخير حال، ويتفق لكِ أن تمري بفرقة من فرق أي ألعاب الخيل أيًّا كانت، أوشيك ألا تقشي قلبك عليها أو تزوري عنها، واحجزي لك أمكنة بها إن استطعت، فلن يكون ذلك عملًا ثيئًا، فالناس يا محترم يجب أن يجدوا التسلية بطريقة ما، وليش في اشتطاعتهم أن يشتغلوا طول الوقت وأن يدرسوا طول الوقت فأحشن فينا الرأي ولا تشيء الظن، ولقد تكشبت معاش طيلة عمري من ألعاب الخيل، هذا ثحيح ولكني أعتبر أنني ألحش فلشفة كلها عندما أقول لكِ يا محترمة أحشني بنا الظن ولا تشيئيه!

وكان عرض فلسفة سليري على هذا النحو يجري وهم يهبطون السلم، وسرعان ما غابت الهياكل الثلاثة والسلة في ظلام الشارع عن عين الفيلسوف الثابتة، وعينه المتحركة أيضًا.

الفصل السابع

مسز سبارست

ولما كان مستر باوندربي رجلًا عَزَبًا، فقد أوكل تدبير شؤون بيته إلى سيدة تتقاضى لقاء ذلك مرتبًا سنويًا معلومًا. وكانت هذه السيدة تُدعى مسز سبارست، وقد اكتسب وجودها في عربة مستر باوندربي المهيبة وقعًا خاصًّا، حين تسير مختالة وهي تحمل بطل التواضع ذاك. فمسز سبارست لم تكن ذات ماضٍ كريم فحسب، بل كانت تربطها أيضًا قرابات ذات مقام رفيع؛ إذ لا تزال خالتها، والدة أمها، على قيد الحياة، وتُدعى ليدي سكادجرز. أما زوجها الراحل، مستر سبارست، فقد كان من جهة أمه ينتمي إلى أسرة آل باولر، وهي أسرة تفاخر بها مسز سبارست حتى يومنا هذا.

وكان اسم «باولر» يلتبس على ذوي العلم المحدود والذهن المطمور، فيتساءلون أحيانًا أهو اسم حرفة أم حزب سياسي أم نحلة دينية؟ أما أصحاب العقول الراقية فلم يكونوا بحاجة إلى من يُعَرِّفهم بأن «باولر» هو اسم سلالة عريقة يستطيع أفرادها، وهم يتتبعون جذورهم، أن يغوصوا بعيدًا في بطون التاريخ حتى ليضل بعضهم أحيانًا في تلك المتاهة السحيقة... وهو ما وقع فعلًا غير مرة، حتى صار فيهم من يبتزّ الناس قبل تمام العمل، ومن يُخشَى سوء عاقبة معاملته، ومن يقيمون في تجارة النقد صفقات غامضة، بل ومن أُحيل بعضهم على محاكم المدينين.

وكان المرحوم مستر سبارست يعدُّ من آل باولر من جهة أمه، وقد اقترن بهذه السيدة التي تنتمي من جهة أبيها إلى أسرة سكادجرز. وكانت ليدي سكادجرز – وهي امرأة هرمة، بدينة إسرافًا، نهمة إلى أكل اللحم، لها ساق غامضة السر، تأبى أن تغادر الفراش منذ أربعة عشر عامًا – هي من دبرت هذا الزواج في أول بلوغ سبارست سن الرشد. وكان مستر سبارست معروفًا على وجه الخصوص بنحافة جسده الشديدة، حتى ليبدو قائمًا على دعامتين نحيلتين لا يعلوهما رأس يُعتدّ به. وقد ورث مالًا وافرًا عن عمه، لكنه كان قد أرهق نفسه بالديون حتى قبل أن تطأ يده تلك الثروة، ثم أنفق ضعفها فور قبضها. فلما مات في الرابعة والعشرين من عمره – وكان موته في مدينة كاليه وسببه الإفراط في البراندي – لم يُخلف وراءه لأرملته، التي فارقها بعد شهر العسل، سوى بؤس مقيم.

وقد أدى ذلك في الحال إلى شقاق مرير بينها وبين قريبتها الوحيدة ليدي سكادجرز، فاندفعت للعمل بأجر لتغيظ فخامتها من جانب، ولتقيم أودها من جانب آخر. وها هي الآن، وقد تقدمت بها السن، تقوم صبيحة كل يوم بأنفها الروماني الشامخ وحاجبيها الأسودين الكثّين اللذين سحرَا قلب مستر سبارست من قبل، فتهيئ الشاي لمستر باوندربي وهو يتناول إفطاره.

ولو كان باوندربي فاتحًا، وكانت مسز سبارست أسيرةً ساقها الحظ لتزيّن موكبه، لما كان في استعلائه عليها أكثر مما هو في سلوكه معها كل يوم. فمن شِيَم غروره أن يُهوّن من شأن أصله، لكنه في الوقت عينه يُعلي من قدر نسب مسز سبارست، حتى إنه لا يسمح لصورته في شبابه أن تُشرق ببصيص أمل، فيما يحرص على تزيين صورة شبابها بأزهى الألوان وأطيب الصفات. وكان يلقي أمامها عرباتٍ حافلةً ببواكير الورود، ثم يقول ساخرًا:

«ثم ماذا كانت النتيجة يا سيدي؟ هاهي هنا، مقابل مائة جنيه في السنة (وأنا أعطيها هذا المبلغ الكبير في نظرها)، تُشرف على بيت جوشيا باوندربي، من أعيان كوكتاون!»

وكان يُجهر بهذا الفخر أمام الناس، حتى التقط بعضهم قوله هذا ورددوه خفيفي الظل أحيانًا. لكن مما كان يثير الحنق في سجايا باوندربي أنه لا يكتفي بأن ينظم مدائحه بلسانه، بل يُلزم غيره أن يتغنى بها أيضًا. فقد كان يملك قدرة على أن ينقل عدوى تضخيم الذات إلى من حوله. فالغرباء، على تواضعهم في مواضع أخرى، كانوا إذا اجتمعوا إلى موائد العشاء في كوكتاون يُسرفون في إطراء باوندربي إسرافًا يبلغ حدَّ جعله رمزًا للوطنية كلها: فهو عندهم الشعار الملكي، وعلم الدولة، والميثاق الأعظم، وقانون الحريات، ومبدأ «إن بيت الإنجليزي هو قلعته»، وهو أيضًا الكنيسة والدولة وحفظ الله للملكة... جميع ذلك في رجل واحد! وكم من مرة (بل مراتٍ كثيرة جدًا) يقوم خطيب من ذلك الطراز فيختم كلمته قائلًا: «الأمراء والكبراء، إن أشرق نجمهم أو خبا، ما هم في النهاية إلا بشر من تراب!»

فيكون من المفهوم عندئذٍ لدى الحاضرين، وعلى وجه اليقين، أنّ هذا المتكلّم يعرف تمام المعرفة قصة مسز سبارست.

وكانت مسز سبارست تقول بصوتٍ تغلّفه نبرة رقيقة من العتاب:

- إنك يا مستر باوندربي تتناول إفطارك هذا الصباح ببطءٍ غير معهودٍ يا سيدي.

فأجابها وقد بدت على وجهه مسحة تفكير متأمّل:

ـ ذلك يا سيدتي لأني أفكّر في نزوة توم جراد جرايند. (وكان يلفظ الاسم بلهجة مَن يُعرَض عليه رشوة كبيرة ليقول «توماس» ثم يأبى أن ينصاع لهذا الإغراء). نزوة توم جراد جرايند يا سيدتي في تنشئة هذه الفتاة البهلوانية.

فقالت مسز سبارست:

ـ إنّ الفتاة تنتظر الآن لتعرف هل تذهب مباشرةً إلى المدرسة أم تعود إلى البيت في ستون لودج.

فقال باوندربي وهو ينظر إليها نظرة الواثق:

ـ يجب عليها أن تنتظر يا سيدتي إلى أن أعرف أنا شخصيًا. وأحسب أنّ توم جراد جرايند سيحضر هنا بعد قليل؛ فإذا رغب في إبقائها يومًا أو يومين آخرين، ففي وسعها بالطبع أن تبقى يا سيدتي.

فقالت مسز سبارست وقد مالت برأسها قليلًا:

ـ في وسعها طبعًا أن تبقى ما دمت تريد ذلك يا مستر باوندربي.

قال باوندربي:

ـ لقد أخبرته أني سأمنحها مرقدًا مؤقتًا هنا الليلة الماضية لتنام عليه إلى أن يُبتَّ في مسألة مخالطتها لويزا.

فقالت مسز سبارست وقد ارتسمت على ملامحها دهشة مصطنعة:

ـ حقًا يا مستر باوندربي؟ هذه حصانة بالغة!

وانعقد حاجباها الأسودان وتحدّدت خياشيم أنفها الكوريولاني، وهي تتناول رشفةً من الشاي، فقال باوندربي:

ـ الأمر عندي واضح؛ فالهرة الصغيرة لن تجني من هذه الصحبة إلا قليلًا.

فسألته مسز سبارست وقد اتسعت عيناها:

ـ هل تقصد بذلك الآنسة جراد جرايند الصغيرة يا مستر باوندربي؟

قال باوندربي:

ـ نعم يا سيدتي، أقصد لويزا.

قالت مسز سبارست بهدوء:

ـ إنك كنت تبدي ملاحظاتك بخصوص (الهرة الصغيرة)، ولما كان في الأمر فتاتان صغيرتان، لم أستطع أن أعرف أيتهما تعني بهذا التعبير.

فأجابها باوندربي في شيءٍ من الضجر:

ـ بل لويزا، لويزا، لويزا.

فتناولت مسز سبارست مزيدًا من الشاي، وقطّبت حاجبيها مرةً أخرى وهي تنحني فوق فنجانها الذي يتصاعد منه البخار، وبدا وجهها الكلاسيكي وكأنما تستنزل به آلهة الجحيم، ثم قالت:

ـ إنك بمثابة أب آخر للويزا يا سيدي.

فقال باوندربي وقد لانت ملامحه قليلًا:

ـ لو قلتِ إنني بمثابة أب آخر لتوم... أعني توم الصغير لا صديقي توم جراد جرايند... لكنتِ أقرب إلى الحقيقة؛ فإني شارعٌ في إلحاق توم الصغير بمكتبي، وسأجعله يا سيدتي تحت جناحي.

فقالت مسز سبارست في شيءٍ من الحذر:

ـ حقًا؟ ألست تراه صغير السن بعض الشيء بالنسبة لهذا العمل يا سيدي؟

وكلمة «يا سيدي» التي تستخدمها مسز سبارست كانت تنطق بها لا إكرامًا له بقدر ما هي صادرة عن فرط احترامها لنفسها.

قال باوندربي:

ـ لن ألحقه بالعمل مباشرة؛ لأنه ينبغي أن يفرغ من حشو ذهنه عن طريق التعليم قبل ذلك. وإنه لعمري حريٌّ أن يغصَّ بذلك كله، وما أجدره أن يدرك مدى خواء صباي من أي تعليم في مثل سنه؛ ولعل الفتى قد سمع ذلك مرارًا حتى حفظه عن ظهر قلب. ولكن من العجيب أن ألقى مشقة في عشرات من تلك المسائل عندما أخوضها بلا مواربة مع أي إنسان. فأنا مثلًا كنت أتحدث إليكِ هذا الصباح عن البهلوانات، فماذا تعرفين أنتِ عن البهلوانات؟ في الوقت الذي كان فيه التقلّب في أوحال الطرقات بمثابة نعمة أو ورقة يانصيب رابحة بالنسبة لي، كنتِ أنتِ ترتادين الأوبرا الإيطالية. كنتِ تغادرين الأوبرا الإيطالية يا سيدتي، رافلةً في الحرير الأبيض والمجوهرات وهالةٍ من الأبهة، بينما لم أكن أملك بنسًا أشتري به شعلةً أضيء بها طريقكِ.

فأجابته مسز سبارست بوقار ممزوجٍ بأسًى هادئ:

ـ يقينًا يا سيدي أني كنت من روّاد الأوبرا الإيطالية منذ سنٍّ مبكرة جدًّا.

فقال باوندربي:

ـ لعمري يا سيدتي، وكذلك كنتُ أنا... ولكن من جانبها غير السليم، حينما كنت أجد فراشًا صلبًا فوق رصيفها تحت أقواس بنائها. فأمثالكِ يا سيدتي، ممّن اعتادوا منذ طفولتهم الرقاد على رياشٍ ناعمة، ليس لديهم أيّ فكرة عن مدى صلابة أحجار الأرصفة التي لم يجربوها قط. كلا، لا جدوى من حديثي إليكِ عن

البهلوانات، بل أولى بي أن أحدثكِ عن الراقصين الأجانب والحي الغربي من لندن، وعن اللوردات والسيدات وأصحاب الفخامة.

فقالت مسز سبارست بإذعان مهذّب:

ـ وأعتقد يا سيدي أنه ليس من الضروري أن تتحدث عن شيءٍ من هذا القبيل؛ لأني أرجو أن أكون قد تعلمت كيف أُكيّف نفسي مع تقلبات الحياة. وإن كنتُ قد اكتسبت اهتمامًا خاصًّا بسماع تجاربك المفيدة، ولا أشبع من حديثك عنها، فلا أدّعي في ذلك فضلًا لنفسي، لأنّ لهذا الاهتمام طابعًا عامًّا.

فقال مخدومها:

ـ حسنًا يا سيدتي، لعل بعض الناس يُسرّهم أن يقولوا إنهم يحبّون الاستماع إلى رواية جوشيا باوندربي من أعيان كوكتاون عما كابده، وبأسلوبه غير المنمّق، ولكنكِ يجب أن تعترفي أنكِ وُلدتِ شخصيًّا في أحضان البذخ، اعترفي يا سيدتي بأنكِ في حجر الترف وُلدتِ.

فأجابته مسز سبارست وهي تومئ برأسها:

ـ وأنا لا أنكر ذلك يا سيدي.

ثم اضطُرَّ مستر باوندربي إلى النهوض عن المائدة، ووقف وظهره إلى النار يتأملها، فهي بوجودها في خدمته تعلي من شأن مركزه أيما إعلاء، وقال وهو يدفئ ساقيه:

ـ وكنتِ أيضًا في مجتمع راقٍ، في المجتمع الراقي جدًّا.

فأجابته مسز سبارست في تواضعٍ متكلف، بدا نقيضًا لتواضعه فلا يتصادمان:

ـ هذا صحيح يا سيدي.

فقال مستر باوندربي:

- وكنت تنعمين بالذروة العليا من أناقة الزي وما إلى ذلك القبيل كله.

فأجابته مسز سبارست وقد ارتسمت عليها مسحة من سمات الترمل كما يراها المجتمع:

- أجل يا سيدي، هذا صحيح ولا مراء.

فثنى مستر باوندربي ركبتيه وطوق ساقيه بذراعه من فرط سروره وضحك ضحكة مدوية، وأعلن الخادم وصول مستر ومس جراد جرايند، فاستقبل الأول منهما بالمصافحة، واستقبل الثانية بقبلة.

وسألا مستر جراد جرايند:

- هل يمكن إحضار جيب إلى هنا يا باوندربي؟

وكان الجواب على ذلك ممكنًا يقينًا، وأرسل في طلب جيب، فلما دخلت انحنت لمستر باوندربي ولصديقه توم جراد جرايند، وللويزا أيضًا، ولكنها في غمرة اضطرابها أغفلت لسوء الحظ مسز سبارست، ولاحظ باوندربي الهادر ذلك فقال لها:

- سأقول لك الآن شيئًا يا فتاتي، إن اسم هذه السيدة التي بجوار إبريق الشاي مسز سبارست، وهذه السيدة تقوم بأعباء ربة هذا البيت، وهي سيدة ذات قرابة رفيعة وحسب، وعلى هذا إذا حدث أن دخلت أي حجرة في هذا البيت فإن مقامك فيها سيكون قصيرًا جدًّا إن لم تظهري نحو هذه السيدة أقصى ما لديك من احترام ومن جهتي أنا لا أبالي قيد أنملة بمسلكك نحوي، فأنا لا أزعم لنفسي أي مقام خاص، فما أبعدني من الحسب الرفيع أنا الذي لا حسب له على الإطلاق؛ لأني جئت من نفاية الأرض، أما مسلكك نحو هذه

السيدة فيعنيني جدًّا.. ويجب أن تبدي نحوها كل توقير وتبجيل وإلا فلن تدخلي هنا.

فقال مستر جراد جرايند مهدئًا من ثائرته:

- أحسب يا باوندربي أن ما حدث كان من قبيل السهو المحض.

فقال باوندربي:

- صديقي توم جراد جرايند يرى يا مسز سبارست أن ذلك كان من قبيل السهو المحض، وهو كذلك في الغالب، ولكني كما تدركين يا سيدتي لا أسمح حتى بأي سهو قد يمسك.

فقالت مسز سبارست وهي تهز رأسها في تواضعها الوقور:

- إنك لشديد الكرم حقًّا يا سيدي، وليست المسألة مما يستحق الكلام فيه.

وكانت سيسي طيلة هذا الوقت تعتذر بصوت خافت والدموع في عينيها، فحولها رب البيت إلى مستر جراد جرايند، فوقفت تنظر نحوه بإمعان، ووقفت لويزا إلى جواره وقفة تنم على البرود وعيناها إلى الأرض، وشرع أبوها يقول:

- لقد جمعت أمري يا جيب على أن آخذك إلى بيتي، وفي غير أوقات المدرسة ستقومين على رعاية مسز جراد جرايند فهي شبه مقعدة، وقد وضحت لمس لويزا - وهذه هي مس لويزا - النهاية التعسة وإن كانت نهاية طبيعية لنهج حياتك السابق، ويجب أن تفهمي بجلاء أن تلك المسألة برمتها صارت في ذمة الماضي ولا ينبغي الإشارة إليها من بعد. فمن هذه اللحظة تبدئين تاريخ حياتك، وأنت في الوقت الحاضر جاهلة فيما أعلم.

فأجابته وهي تنحني:

- أجل يا سيدي، جدًّا.

- سيكون من دواعي سروري أن أعمل على تربيتك بدقة، وستكونين دليلًا حيًّا لدى كل من يتصلون بك على مزايا التعليم الذي ستتلقين، إنك ستقومين وتشكلين.

واستدناها مستر جراد جرايند قبل أن يقول لها بصوت خفيض:

- كان من عادتك أن تقرئي لأبيك وللقوم الذين وجدتك بينهم. أليس كذلك؟

- كنت أقرأ لأبي ومريلجز فقط يا سيدي، أو على الأقل لأبي في حضور مريلجز.

فقال مستر جراد جرايند في تجهم عابر:

- دعينا من مريلجز يا جيب، فلست أسألك عنها، إنكِ إذن كنتِ متعودة على القراءة لأبيكِ؟

- أجل يا سيدي، آلاف المرات، وكانت هذه المرة أسعد الأوقات السعيدة التي قضيناها معًا يا سيدي!

وفي هذه اللحظة وقد تجلى أساها نظرت لويزا إليها، وقال مستر جراد جرايند بصوت أشد خفوتًا:

- وماذا كنت تقرئين لأبيك يا جيب؟

فقالت وهي تنشج بالبكاء:

- عن العفاريت يا سيدي، والأقزام والأحدب... والجن، وعن...

فقال مستر جراد جرايند:

- صه حسبك، ولا تنبسي بكلمة بعد الآن عن هذا الهراء الهدام، إن هذه يا باوندربي حالة تحتاج إلى تربية صارمة، وسوف أرقبها عن كثب واهتمام.

فأجابه مستر باوندربي:

- لقد قلت لك رأيي من قبل، وما كنت لأفعل ما تفعله، ولكن لا بأس لا بأس على الإطلاق، ما دمت قد عزمت.

وأخذ مستر جراد جرايند وابنته سيسليا جيب معهما إلى ستون لودج، ولم تنطق لويزا في الطريق بكلمة واحدة، خيرًا كانت أو شرًّا، وانصرف مستر باوندربي إلى شواغله اليومية، وتوارت مسز سبارست وراء حاجبيها وراحت تفكر معتصمة بذلك الملاذ العبوس طيلة المساء.

الفصل الثامن

إياك وأن تسأل

فلنُعِد النظر في طبقة النغم قبل أن نُعاود العزف على هذا اللحن الطويل.

حين كانت لويزا أصغر مما هي عليه بست سنوات، التُقِط صوتها وهي تهمس لأخيها قائلةً:

– إني لأتساءل يا توم...

وإذ بجراد جرايند، وقد تناهى إلى سمعه قولها هذا، يتقدّم إلى دائرة الضوء صارخًا:

– إياكِ والتساؤل يا لويزا!

وهنا تكمن العقيدة التي يدور حولها هذا البناء الآلي الجامد، وهنا يتجسّد سرُّ التربية التي تُنشئ عقلًا لا يعرف للعاطفة سبيلًا.

«إياكِ والتساؤل!»... فبالحساب والجمع والطرح والقسمة يجب أن تُسوى الأمور جميعها، دون أن يعتري المرء ظلال السؤال.

وكان متشو كمتشايلد يقول بثقة لا تعرف الشك:

– آتوني بطفل غضّ العود، حديث العهد بالمشي، أضمن لكم أن لا يعرف طعم التساؤل.

ولقد كان في كوكتاون، فضلًا عن أولئك الصغار حديثي العهد بالمشي، جموعٌ غفيرة من بشرٍ مضت بهم السنون عشرين أو ثلاثين أو أربعين أو خمسين عامًا وزيادة، وهم لا يزالون يخطون في دروب العالم اللانهائي ضد تيار الزمن. هؤلاء البائسون مفزعون إن تفشّوا في جسد أي مجتمع بشري؛ لذا لم تكفّ الطوائف الثمانية عشرة في المدينة عن التنازع والتلاكم وشدّ الشعور وخمش الوجوه، سعيًا للاتفاق على وسيلةٍ لإصلاح أحوالهم، فلم يصلوا إلى شيء، وهو لأمرٌ عجيب حقًّا حين نتأمّل اتساق وسائلهم مع غاياتهم المعلَنة.

وعلى اختلافهم في شتّى المسائل، عقلًا أو غير عقل، إلا أنّهم اتفقوا جميعًا في شيءٍ واحد: أن يُحال بين أولئك الصغار وبين التساؤل.

ففريقٌ قال إنه يجب تعليمهم كل ما يتصل بالائتمان، وفريقٌ ثانٍ رأى وجوب تلقينهم دروس الاقتصاد السياسي، وفريقٌ ثالث سطّر كتيّباتٍ ثقيلة الوطأة تُؤكّد أنّ الأطفال الأخيار لا بدّ أن يهرعوا إلى صناديق التوفير، وأنّ الأشرار منهم لا يطأونها إلا مكرهين. أما الفريق الرابع، فتستّر وراء فكاهةٍ جوفاء، لا تحمل من الضحك إلا اسمه، ليُضلّلهم عن دروب المعرفة، خشية أن تُفتنهم وتسحرهم.

لكنّهم، على كل اختلافهم، أطبقوا على مبدأ واحد: ألا يُسمَح لهؤلاء الصغار بالتساؤل أو العجب.

وكان في كوكتاون مكتبةٌ عامةٌ ميسورة الدخول، وكان مستر جراد جرايند يُعنى عنايةً كبيرة بما يقرأه الناس هناك. تلك المكتبة كانت تصبّ فيضًا متدفّقًا من القوائم والتقارير والبيانات في بحرٍ زاخر، لا يسلم من يغوص فيه عقلًا وروحًا. وكان مما يُؤسف له أن القرّاء، رغم ذلك، لم يكفّوا عن التساؤل: تساءلوا عن الطبيعة البشرية، عن المشاعر والأماني والمخاوف، عن الصراع، عن النصر والهزيمة، عن الأفراح والأتراح، عن الحياة والموت في حيوات رجالٍ ونساءٍ

عاديين؛ بل تساءلوا أيضًا في أوقات فراغهم النادر – بعد خمس عشرة ساعةً من الكدّ – عن أساطير بشرٍ يُشبهونهم أو يُشبهون أبناءهم في شيءٍ من الشبه.

فآثروا أن يُلازموا دانييل ديفو صاحب «روبنسون كروزو» على أن يُلازموا إقليدس صاحب الهندسة، ومالت نفوسهم إلى جولد سميث القاص أكثر مما مالت إلى كوكر مؤلّف كتب الحساب والتجارة.

وكان مستر جراد جرايند مشغولًا دائمًا، مطبوعًا أو منطوقًا، بهذه المعادلة الغريبة التي لا تُسفر، مهما اجتهد، عن نتيجةٍ تخضع لقوانين الحساب.

وفي ساعة الغسق، في حجرة الحلاقة، همس توماس جراد جرايند الصغير، المتمرّد، إلى أخته:

– لقد سئمت حياتي يا لو! أكرهها كلّها وأكره كلَّ إنسان... إلا أنتِ.

قالت لويزا:

– أَوَتكره سيسي أيضًا يا توم؟

أجاب توم مكتئبًا:

– أكره أن أُرغم على مناداتها بجيب... وأظنها هي أيضًا تكرهني.

– كلا يا توم، لا تكرهك، أنا واثقة من ذلك.

– بل لا بدّ أن تكرهنا وتبغض جماعتنا كلها. وأحسبهم سيُرهقونها حتى يفقدوها عقلها قبل أن يتركوها وشأنها. لقد بدأ لون وجهها يشحب، وصدرها يثقل... كحالي أنا.

قال توم ذلك وهو جالسٌ على المقعد أمام النار، كمن يمتطي جوادًا وهميًا، مسندًا ذراعيه إلى حافته، ووجهه العابِسُ مُسندٌ إليهما. وكانت أخته في ركنٍ

مظلمٍ قرب النار، تنظر إليه حِينًا، وإلى شَرَرِ الجمر المتساقط حِينًا آخر. أما هو، فراح ينكش شعره بيديه الغاضبتين في كل اتجاه، ثم قال:

– أما أنا فحمار! عنيدٌ كالحمار، وأشدّ غباءً منه، وحظي من المسرّة لا يفوق نصيبه... وكم أتوق أن أرفس كالحمار!

فقالت ضاحكةً في رقة:

– أرجو ألا تنوي رفسي أنا يا توم.

– كلا يا لو... ما كنت لأؤذيكِ أبدًا. لقد استثنيتُكِ منذ البدء... لا أدري ما عساه يكون هذا السجن الكئيب الأصفر...

وتوقف برهةً يبحث عن كلمةٍ تُرضيه في وصف بيتهم الأبوي فلم يجد، فاستأنف قائلًا:

– لا أدري ما كان ليكون من دونه... من دونكِ أنتِ.

– أحقًّا تقول هذا يا توم؟ صدقًا وحقًّا؟

فأجابها، وهو يحكّ وجهه في كم سترته كأنه يُؤلم جسده لعلّه يُذعن لروحه:

– أجل... صدقًا وحقًّا... وما نفع الكلام في ذلك؟

فقالت أخته بعد لحظة صمت جعلت ترقب فيها الشرر المتطاير:

- إني يا توم كلما تقدمت في السن واقتربت من النضج أكثرت من الجلوس هنا أتساءل وأفكر كيف أنه من نكد طالعي ألا أستطيع أن أصلح ذات بينك وبين البيت أفضل مما في وسعي أن أصنع. فلست أعرف ما تعرفه الفتيات الأخريات؛ ولذا لا أستطيع أن أعزف أو أغني لك. ولا أستطيع أن أحدثك الحديث الذي يرفه عن ذهنك لأني لا أرى المشاهد المسلية ولا أطالع الكتب المسلية التي

يمكن أن يكون الحديث عنها حين تشعر بالإعياء والكد مصدر سرور أو استرواح.

فقال توم في أسى بالغ:

- ولا أنا، فأنا وأنت سواء في البلوى من هذه الجهة.

ولكني فضلًا عن هذا بغل، وذلك شيء لا تشاركينني أنت فيه، وإذا كان أبي مصممًا على أن يجعل مني دعيًّا أو بغلًا، وبما أنني لست دعيًّا فمن البديهي أنني لا بد أن أكون بغلًا وهكذا أنا.

فقالت لويزا بعد برهة صمت أخرى، وبلهجة التفكر وهي جالسة في ركنها المظلم:

- إنها لخسارة كبرى يا توم. ومن نكد طالع كلينا.

فقال توم:

- أوه! أنتِ فتاة يا لو، والفتاة تضار بهذا أقل مما يضار الفتى، ولست أراكِ مفتقرة إلى شيء، فأنتِ مصدر السرور الوحيد لي، وباستطاعتكِ أن تشيعي البهجة حتى في هذا المكان، وفي وسعكِ دائمًا أن تقوديني كيفما يتراءى لكِ.

- إنك لأخ حبيب يا توم، وما دمت تظن أني أستطيع أن أقوم بكل هذه الأشياء فأنا لا آسي على ما أعجز عنه، وإن كنت أعلم يا توم أن ظنك بي في غير محله، وكم يؤسفني ذلك.

وقامت فقبلته ثم عادت إلى موضعها من الركن، فقال توم، وهو يصرف بأسنانه صريف البغضاء:

- كم أتمنى لو استطعت أن أجمع كل الوقائع التي نسمع الكثير جدًّا عنها، وكل الأرقام وكل الأشخاص الذين اكتشفوها، وأن أضع تحتهم ألف برميل من

البارود ثم أنسفهم جميعًا جملة واحدة! ولكني عندما سأذهب لأعيش مع العجوز باوندربي سأعرف كيف أنتقم.

- كيف تنتقم يا توم؟

- أعني أنني سأستمتع بعض الشيء، وأنطلق فأرى وأسمع أشياء فأعوض نفسي عن الأسلوب الذي تمت به تنشئتي.

- لا تتسبب في تخيب آمالك مقدمًا يا توم، فمستر باوندربي مفكر على نهج تفكير أبي، وهو أشد منه خشونة وأقل منه رقة بكثير.

فقال توم ضاحكًا:

- أوه! لستُ أُبالي بهذا، فسأعرف جيدًا كيف أروض وأذل العجوز باوندربي!

وكان ظلاهما مرتسمين بوضوح على الحائط، بيد أن ظلال الخزائن الموجودة في الحجرة كانت متداخلة على الجدار وعلى السقف، بحيث بدا الأمر وكأن الأخوين داخل كهف مظلم، وكانت أي مخيلة وثابة (لو أن مثل هذا الكنز كان موجودًا هناك) حرية أن تعتبر ظلال تلك الخزائن كناية عن ظلال موضوع حديثهما ومدى ارتباطه الوبيل بمستقبلهما.

- وما هي طريقتك العظيمة للتذليل والترويض يا توم؟ أسرٌ هي؟

فقال توم:

- أوه! إنها إن تكن سرًا فليس السر بعيد المزار، إنه أنت، فأنت أثيرته المدللة ذات الحظوة، وهو على استعداد للقيام بأي شيء من أجلك، فحينما يقول لي ما لا أحب، سأقول له: (شقيقتي لسوف يسوءها ذلك ويخيب أملها يا مستر باوندربي، فقد كانت دائمًا تقول لي إنها واثقة بأنك ستكون أكثر تساهلًا من هذا معي)، وهذا القول سيكون كافيًا كي يسلس القياد، وإلا فلن يسلس قياده شيء.

وانتظر توم أن يسمع تعليقًا على كلامه، فلما لم يحظ به انتكس في إعياء مرتدًا إلى الزمن الحاضر وأخذ يتلوى ويتثاءب حول قضبان ظهر مقعده ويثني رأسه مزيدًا فوق مزيد من التثني، إلى أن رفع نظره فجأة وسألها:

- هل نمت يا لو؟

- لا يا توم، بل أنظر إلى النار.

فقال توم:

- يبدو أنكِ ترين في النار ما لم أستطع في أي وقت من الأوقات أن أراه وتلك فيما أعتقد مزية أخرى للفتيات.

فسألته أخته ببطء وبلهجة غريبة، كأنها تطالع السؤال في ألسنة النار ولا تجد الجواب مسطرًا هناك بوضوح:

- قل لي يا توم، هل تتطلع بشيء من الرضى إلى انتقالك للإقامة لدى مستر باوندربي؟

فأجابها توم وهو يدفع عنه كرسيه وينهض قائمًا:

- هناك على كل حال أمر واحد محقق، هو إنني بذلك الإنتقال سأغادر البيت.

فأعادت لويزا ما سمعته منه بلهجتها السابقة:

- هناك شيء واحد محقق إنك بذلك الانتقال ستغادر البيت، هذا صحيح.

- وهذا لا يمنع أنني سأكون غير مستريح النفس لمفارقتك يا لو، ولتركي إياك هنا، ولكني يجب أن أذهب كما تعلمين سواءً أحببت أو لم أحب، وأن أذهب إلى حيث أستطيع الإفادة من نفوذك خير لي من أن أذهب إلى حيث لا نفوذ لك إطلاقًا، ألا ترين ذلك معقولًا؟

- بلى يا توم.

وقد أبطأت في الرد وإن جاء ردها خاليًا من التردد، مما حمل توم على الذهاب إلى ظهر مقعدها والاتكاء عليه كي يتأمل النار التي استولت على اهتمامها، عسى أن يرى وهو ينظر من زاويتها ما قد يكون فيها من تأثير، ثم قال:

- إنها تبدو لي - فيما عدا أنها نار - سخيفة خالية من المعنى كأي شيء آخر، فماذا ترين فيها أنت؟ سيرگا؟

- إني لا أرى فيها شيئًا خاصًّا يا توم، ولكني منذ شرعت أنظر إليها كنت أتساءل عنك وعني عندما نكبر.

فقال توم:

- ها أنتِ ذي عدتِ إلى التساؤل!

فأجابته أخته:

- إن لي أفكارًا لا يسلس لها قياد، فهي تأبى إلا أن تتساءل.

وعندئذٍ قالت مسز جراد جرايند، وقد فتحت الباب دون أن يسمعا وقع خطاها:

– إذنْ أرجوكِ يا لويزا ألا تفعلي شيئًا من هذا القبيل، بحق السماء أيتها الفتاة الطائشة! وإلا فلن يكون لاستياء والدكِ حدّ ولا نهاية. وأما أنتَ يا توماس! فإنه حقًّا لأمرٌ مخجل – ورأسي يكاد يصدّعني بأوجاعه – أن يُقدِم فتى نشأ على ما نشأتَ عليه، وتكلفت تربيته ما تكلفت، على تشجيع شقيقته على التساؤل، وهو يعلم يقينًا أن والدَه قد نهى عن ذلك نهيًا صريحًا.

وأنكرت لويزا أن يكون لتوم يد في هذا الذنب، غير أنّ والدتها عاجلتها بردٍّ لم يدع لها مجالًا للرد:

– لا تقولي لي مثل هذا الكلام يا لويزا، وأنا في هذه الحالة الصحية البائسة؛ فإنه من المستحيل ماديًّا ومعنويًّا أن تقدمي على ذلك ما لم تجدي تشجيعًا من أحد.

فقالت لويزا في هدوء متعب:

– لم يشجعني أحد يا أمي، اللهم إلا النظر إلى الشرر الأحمر وهو يتطاير من النار فيبيضّ ثم يخمد، مما جعلني أفكر – بعد كل شيء – في قصر حياتي وضآلة ما يمكن أن أتطلع إلى تحقيقه فيها.

فقالت مسز جراد جرايند، وقد أوشكت أن تستجمع ما بقي في صدرها من حماسة وقد استثارها ما سمعت:

– هراء! هراء! لا تقفي هنا لتقولي لي يا لويزا مثل هذا الكلام السخيف، وأنت تعلمين علم اليقين أن والدكِ – لو بلغ ذلك مسامعه – لما كفّ عن إظهار استيائه، بعد كل هذا الجهد الذي بذله في تربيتكِ، وبعد كل تلك المحاضرات التي ألقيت عليكِ، والتجارب التي شهدتِها! وبعد أن سمعتكِ بأذني، حينما كان جنبي الأيمن كله فريسة للخدر، وأنتِ تتعلمين على أستاذكِ موضوعات الاحتراق والتكليس وتوليد الحرارة وسائر تلك المعارف التي تدير رأس المريضة المسكينة... ثم تأتين بعد ذلك كله لتتحدثي بهذا الأسلوب السخيف عن الشرر والرماد!

ثم أردفت مسز جراد جرايند، وهي تُلقي بعبارتها الأخيرة قبل أن تنهار جالسةً فوق مقعدٍ رازحةً تحت ثقل الواقع:

– إني لأتمنى حقًّا لو أنني لم أنجب ذرية؛ فعندئذٍ كنتِ لتعرفي حقًّا مدى ضياعكِ من دون وجودي!

الفصل التاسع

سيسي تتقدم

لم تقضِ سيسي جيب وقتًا رخيًّا بين مستر متشو كمتشايلد ومسز جراد جرايند. ولم يخل الأمر من بواعث قوية خامرتها في الشهور الأولى من فترة اختبارها تدعوها للفرار. فالوقائع كانت تنهال طول النهار عليها بشدة بالغة، والحياة عمومًا تفتحت أمامها وكأنها سفر مكتوب بالشفرة حسب قواعد محكمة كل الإحكام حتى إنها كانت حرية أن تولي هاربة لولا حائل واحد.

وإنه لمن المؤسف أن يفكر المرء في ذلك الأمر، فذلك الحائل لم يكن ثمرة عملية حسابية، بل فرض نفسه متحديًا كل حساب ومناهضًا مناهضة المستميت كل جدول من جداول الاحتمالات التي كان أي محاسب حقيقًا أن يستخرجها من المقدمات. فالفتاة كانت تعتقد أن أباها لم يهجرها متخليًا عنها، فكانت تعيش على أمل عودته مؤمنة أنه مما يزيد في سعادته بقاؤها حيث هي.

وكان الجهل المطبق الذي حدا بجيب إلى التشبث بذلك العزاء ورفض الراحة السامية التي تتيحها معرفة قائمة على أساس رياضي سليم بأن والدها أفاق غير سوي، يملأ مستر جراد جرايند أسى. ولكن ما حيلته؟ وكانت تقارير مستر متشو كمتشايلد عنها أنها غليظة الذهن فيما يتعلق بالأرقام، فما إن حصلت على فكرة عامة عن الكرة الأرضية حتى صار اهتمامها بأبعادها الدقيقة أقل ما يمكن تصوره، وهي بطيئة إلى أقصى حد في استيعاب التواريخ، اللهم إلا

إذا اقترنت بها بعض الأحداث الداعية للرثاء، وقالت تقاريره أيضًا عنها إنها تنفجر باكية إذا ما طولبت بالإدلاء فورًا (عن طريق الحساب العقلي) بقيمة 247 قلنسوة من الحرير الموصلي (الموسلين) ثمن الوحدة 14.5 بنسًا. وأنها متخلفة في المدرسة غاية التخلف.

وأنها بعد ثمانية أسابيع من تزويدها بمبادئ الإقتصاد السياسي احتاجت بالأمس فقط إلى تصحيح قام به غلام صغير طول قامته لا يزيد على ثلاثة أقدام، لأنها حين سئلت (ما هو المبدأ الأول في هذا العلم؟) ردت بهذا الجواب السخيف: (عامل الآخرين بما تحب أن يعاملوك به)!

ورأى مستر جراد جرايند وهو يهز رأسه أن ذلك كله في منتهى السوء. وأنه يدل على ضرورة ممارستها ممارسة لا نهاية لها لدقائق المعرفة على حسب المنهج والجدول والكتاب الأزرق والتقرير والقوائم البيانية من الألف إلى الياء. وأنه ينبغي أخذ جيب (بإلتزام ذلك كله)، وفعلًا أخذت جيب بإلتزام ذلك، فرزحت تحت طائلته وخمدت روحها، ومن غير أن تجني مزيدًا من جراء ذلك.

وذات ليلة قالت للويزا عندما حاولت أن تعينها على تبين محجة الصواب في الأحاجي التي تنظرها في غدها:

- ما أجمل أن يكون المرء مثلك يا مِس لويزا!

- أتظنين ذلك؟

- لو كنتُ أنتِ لعرفتُ الكثير جدًّا من الأمور يا مِس لويزا، ولصار كل ما يشق عليَّ الآن يسيرًا كل اليسر.

- ولكنك ربما لم تغدي بذلك أحسن حالًا يا سيسي!

فقالت سيسي بعد تردد يسير:

- ما كنت لأغدو أسوأ على كل حال يا مس لويزا.

فأجابتها مس لويزا قائلةً:

- هذا ما لا علم لي به.

وكان الإتصال بين هاتين الفتاتين قليلًا جدًّا لسببين: أولهما أن الحياة في ستون لودج كانت تدور على وتيرة واحدة كأنها آلة، وذلك مما يجافي التدخل البشري. وثانيهما ذلك الخطر الناشئ عن حياة سيسي الماضية... لذلك ظلت الفتاتان شبه غريبتين.

وجعلت سيسي توجه عينيها السوداوين المتسائلتين صوب وجه لويزا وهي لا تدري هل تمضي في القول أم تلزم جانب الصمت. واستطردت لويزا تقول لها:

- أنتِ أكثر إفادة لأمي وألطف جانبًا مما يسعني أن أكونه معها، بل أنتِ ألطف جانبًا مع نفسكِ مني أنا مع نفسي.

فناشدتها سيسي قائلةً:

- ولكني من فضلك يا مس لويزا... أوه! غبية جدًّا!

فضحكت لويزا ضحكة أبهج من المألوف وقالت لها إنها ستغدو مع مرور الزمن أوفر حكمة.

فقالت سيسي نصف باكية:

- أنت لا تدرين أي فتاة غبية أنا، فطوال ساعات المدرسة أرتكب الأخطاء، ومستر ومسز متشو كمتشايلد يناديانى بالمرة بعد المرة لأرتكب الأخطاء بانتظام في كل مرة، ولا أجد في تجنبها حيلة، فكأنها تدانيني بطبيعتها.

- ومستر ومسز متشو كمتشايلد لا يرتكبان شخصيًّا أي خطأ، فيما أعتقد يا سيسي؟

فأجابت بلهفة:

- أوه كلا! فهما يعرفان كل شيء.

- نبئيني ببعض أخطائك.

فقالت سيسي على مضض:

- يكاد يمنعني الخزي. ولكن اليوم مثلًا كان مستر متشو كمتشايلد يشرح لنا موضوع الرخاء الطبيعي.

فاعترضت لويزا قائلةً:

- الرخاء القومي، أظن أن هذا لا بد أن يكون الموضوع؟ فسألتها سيسي على استحياء:

- نعم هذا هو الموضوع، ولكن أليس الاثنان شيئًا واحدًا؟

فأجابتها لويزا بتحفظها الجاف:

- من الأفضل أن تقولي القومي، ما دام هذا ما قاله.

- كان يشرح الرخاء القومي، فقال: (والآن قاعة الدرس هذه أمة. وفي الأمة مال قيمته خمسون مليونًا، أليست هذه إذن أمة ميسورة الحال؟ الفتاة رقم 20، أليست هذه أمة ميسورة الحال؟ وألستِ في حالة مزدهرة؟).

فسألتها لويزا:

- وماذا قلتِ؟

فأجابتها سيسي وهي تجفف عينيها:

- قلت يا مس لويزا إني لا أدري، فقد ظننت أنه لا يمكنني أن أعرف هل هي أمة ميسورة الحال أم لا وهل أنا في حالة مزدهرة أم لا ما لم أعلم من الذي يحوز

ذلك المال وهل جانب منه يخصني منه أم لا ولكن هذه المعلومات لم تكن لها علاقة بالسؤال ولم ترد في الأرقام المعطاة.

فقالت لويزا:

- كان هذا خطأً كبيرًا منكِ.

- أجل يا مس لويزا، إني الآن أعرف هذا. وبعد ذلك قال مستر متشو كمتشايلد إنه سيعاود اختباري. وقال لي: (قاعة الدرس هذه مدينة كبيرة، فيها مليون من السكان، ولا يتضور منهم جوعًا حتى الموت في الشوارع على طول السنة سوى خمسة وعشرين شخصًا، فما هو رأيك في هذه النسبة؟)، وكان رأيي الذي لم يخطر لي ما هو أفضل منه أن الأمر فيما أعتقد عصيب بالنسبة للمتضورين جوعًا سواءً كان الآخرون مليونًا أو مليون المليون وكان هذا خطأ أيضًا.

- طبعًا خطأ.

- وعندئذٍ قال لي مستر متشو كمتشايلد إنه سيختبرني للمرة الثالثة. وسألني: (ها هي ذي الإمساكيات...).

فقالت لويزا:

- الإحصائيات.

- أجل يا مس لويزا، ولكن هذه الكلمة تذكرني دائمًا بالإمساكيات وهذا خطأ آخر من أخطائي... قال مستر متشو كمتشايلد: (ها هي ذي إحصائيات الحوادث التي تقع في البحر، وقد وجدت أن بين كل ألف شخص ركبوا البحر في فترة معينة للقيام برحلات طويلة خمسمائة منهم فقط غرقوا أو احترقوا حتى

الموت، فما هي النسبة المئوية؟) فقلت يا آنسة (وهنا بكت سيسي وهي تعترف بانكسار بغلطتها الكبرى) إن النسبة المئوية لا شيء.

- لا شيء يا سيسي؟

فقالت سيسي:

- لا شيء يا آنسة لدى أقارب وأصدقاء الأشخاص الذين قتلوا. أنا لن أستطيع التعلم. وأسوأ ما في الأمر أنني رغم ما أعلم من رغبة أبي المسكين الشديدة في تعليمي ومع أنني شديدة اللهفة على التعلم بأن هذه رغبته، إلا أنني فيما أخشى لا أحب أن أتعلم.

ووقفت لويزا تنظر إلى رأس الفتاة المتواضع الجميل وهو يسقط أمامها مطرقًا إلى أن رفعته مرة أخرى لتنظر إلى وجهها فسألتها عندئذٍ:

- هل كان والدكِ يعرف الشيء الكثير شخصيًّا حتى إنه كان راغبًا في أن تتعلمي تعليمًا حسنًا يا سيسي؟

وترددت سيسي قبل أن تجيب، وكان ظاهرًا أنها تحس بدخول هذا الموضوع في حدود الدائرة الحرام، فأردفت لويزا:

- ما من أحد يسمعنا، وإن سمعنا أحد فأنا واثقة أنه لا ضرر من هذا السؤال البريء.

فأجابت سيسي بناءً على ذلك التشجيع وهي تهز رأسها:

- كلا يا آنسة لويزا، لم يكن أبي يعرف إلا القليل جدًّا، فقصارى أمره أن يستطيع الكتابة، وكان فوق ذرع سواد الناس أن يقرأوا ما يكتب، على وضوحه بالنسبة لي.

- ووالدتك؟

فقالت سيسي باضطراب:

- يقول أبي إنها كانت متبحرة في العلم. وقد ماتت عند ولادتي، وكانت... كانت راقصة.

فسألتها لويزا متابعة بذلك اهتمامها القوي الضاري الهائم على وجهها، ذلك الإهتمام الخاص بها، وأنه في انطلاقه وشطحاته لشبيه بمخلوق حل به النبذ فمضى يلتمس الملاذ في الأماكن المهجورة.

- وهل كان أبوكِ يحبها؟

- أوه، نعم، مثلما يحبني. وقد أحبني أبي في البداية من أجلها، فكان يحملني أينما ذهبت وأنا طفلة صغيرة ولم نفترق منذ ذلك الحين.

- ومع هذا فهو قد تركِكِ الآن يا سيسي؟

- لم يفعل ذلك إلا لِما فيه مصلحتي فما من أحد يفهمه كما أفهمه أنا، وهو إذ تركني من أجل مصلحتي - فما كان ليتركني من أجل مصلحته هو - لا شك في اعتقادي في أن قلبه كاد ينفطر لتلك المحنة ولن يشعر بدقيقة سعادة واحدة إلى أن يعود.

فقالت لويزا:

- أخبريني بالمزيد فلن أسألك بعد الآن، أين كنتما تعيشان؟

- كنا نتجول في البلاد فلم يكن لنا محل إقامة ثابت، فوالدي (وهبط صوت سيسي إلى مستوى الهمس وهي تنطق بالكلمة الفظيعة)... كان والدي... مهرجًا.

فقالت لويزا وهي تهز رأسها هزة الفهم:

- يُضحك الناس؟

- نعم، ولكن الناس كانوا لا يضحكون في بعض الأحيان، وعندئذٍ كان أبي يبكي وفي المدة الأخيرة كثيرًا ما كان الناس لا يضحكون، فكان يعود إلى البيت قانطًا ولم يكن أبي مثل معظم الناس، فالذين لا يعرفونه كما أعرفه ولا يحبونه حب الإعزاز كما أحبه قد يعتقدون أنه لم يكن سليم العقل، فكانوا أحيانًا يفعلون به الألاعيب، ولم يدركوا سوء وقعها عليه وكيف كان ينطوي مجفلًا منها عندما يكون بمفرده معي. فقد كان أشد حياءً بكثير جدًّا مما يظنون!

- وكنتِ أنتِ مصدر عزائه في كل تلك المواطن؟

فبكت سيسي وقالت والدموع تنهمر على صفحة وجهها:

- أرجو أن يكون الأمر كذلك، فقد كان أبي يقول هذا. ولأنه صار شديد الفزع والارتجاف، ولأنه كان يشعر بمبلغ فاقته وضعفه وجهله (فهذه كانت كلماته المعتادة) كان يريد لي من كل قلبه أن أتعلم الكثير وأن أكون على خلافه وكان من عادته أن أقرأ له كي أنعش همته وكان شديد الإقبال على ذلك الأمر وكانت الكتب التي أقرؤها له من النوع الذي أستطيع أن أتحدث عنه هنا كانت كتبًا من النوع الخاطئ، ولكننا لم نكن ندري أن بها بأسًا.

فسألتها لويزا وعيناها الفاحصتان مثبتتان عليها طول الوقت:

- وهل كان يحب تلك الكتب؟

- كان يحبها كثيرًا جدًّا! لأنها كانت تحول في كثير من الأحيان بينه وبين أشاء تضره ضررًا محققًا. وكم من ليلة كان ينسى فيها جميع متاعبه وهو يتساءل هل سيسمح السلطان للسيدة بالمضي في حكايتها أم أنه سيقطع رأسها قبل ختامها!

فسألتها لويزا خارقة بهذا التساؤل الكثير المبدأ العتيد:

- وهل كان أبوكِ عطوفًا على الدوام؟ ولأقصى حد؟

فأجابتها سيسي وهي تصفق بيديها:

- دائمًا وباستمرار! كان أرق وأحنى مما أستطيع أن أصوره لك، فلم يغضب إلا ليلة واحدة، ولم يكن غضبه موجهًا ضدي، بل ضد مريلجز. ومريلجز هو (وهبط صوتها إلى مستوى الهمس وهي تنطق بالحقيقة الفظيعة)... كلبه الاستعراضي.

فسألتها لويزا:

- ولماذا غضب على الكلب؟

- قال أبي لمريلجز بعد عودتهما مباشرة من الاستعراض أن يقفز فوق ظهر مقعدين وأن يقف عبرهما... وهي إحدى ألاعيبه، فنظر إلى أبي ولم ينفذ أمره على الفور، وكان كل شيء في تلك الليلة مما فعله أبي مجانبًا للتوفيق، ولم يحظ بإرضاء الجمهور على الإطلاق فأخذ يصيح بأنه حتى الكلب يعلم مدى فشله ولا يرثي لحاله ثم أخذ يضرب الكلب ففزعت وقلت له: (أبي أبي! أرجوك ألا تؤذي المخلوق الذي يهيم بحبك! سامحك الله يا أبي! كف عنه!) فكف عنه، وكان الدم يسيل من الكلب، فانطرح أبي على الأرض باكيًا والكلب بين ذراعيه يلعق وجهه.

ولاحظت لويزا أنها تبكي فاتجهت نحوها وقبلتها وتناولت يدها وجلست بجوارها، وقالت لها:

- اختمي روايتك بأن تخبريني كيف فارقكِ أبوكِ؟ فالآن وقد سألتك كل هذه خبريني بالنهاية، وإذا كان هناك لوم في هذا الأمر، فهو عليَّ لا عليك.

فقالت سيسي وهي تُغطي عينيها وتواصل البكاء:

- يا عزيزتي مس لويزا، إني عدت إلى البيت من المدرسة بعد ظهر ذلك اليوم فوجدت أبي المسكين قد عاد إلى البيت لتوه من السرادق، وجلس يتأرجح قرب النار كأنه يشعر بألم، فقلت له: (هل أصابك سوء يا أبي؟) فهو أحيانًا يصاب برضوض مثل سائر زملائه، فقال لي: (بعض الشيء يا حبيبتي) فلما ذهبت إليه و انحنيت لأنظر إلى وجهه رأيته يبكي، وكلما تحدثت إليه بشيء زاد إصراره على إخفاء وجهه. وظل في البداية يرتجف بكل بدنه ولا يقول لي شيئًا سوى (يا حبيبتي! ويا حبي!).

وعندئذٍ أقبل توم متهاديًا وأخذ يحدق في الفتاتين بفتور لا يتضح بصورة ظاهرة عن اهتمام بأيما شيء سوى نفسه، بل إن اهتمامه بنفسه في تلك اللحظة لم يكن كبيرًا، فقالت له أخته:

- إني ألقي على سيسي بعض الأسئلة يا توم، وليس من الضروري أن تنصرف، ولكن لا تقاطعنا لحظة يا عزيزي توم.

فأجابها توم:

- وهو كذلك، ولكن أبي أحضر إلى البيت العجوز باوندربي، وأنا أريد منك أن تذهبي إلى قاعة الاستقبال؛ لأنك إن ذهبت إلى هناك فثمة احتمال كبير أن يدعوني العجوز باوندربي للعشاء، أما إن لم تذهبي فلا دعوة.

- سأذهب حالًا.

فقال توم:

- سأنتظرك لأكون على يقين.

واستأنفت سيسي بصوت أكثر انخفاضًا من ذي قبل:

- وأخيرًا قال أبي المسكين إنه لم يحز حسن القبول مرة أخرى، وإنه لم يعد يظفر بذلك الآن، ولذا فهو مصدر خزي وعار، وإنني سأكون أحسن حالًا بدونه. فقلت له كل ما خطر بفؤادي من الكلام الرقيق، فهدأ على الفور وجلست بجواره ورويت له كل شيء عن المدرسة وكل ما قيل وما حدث هناك.

ولما فرغتُ مما عندي طوّق أبي عنقي بذراعيه وقبّلني قبلاتٍ كثيرةً جدًّا، ثم رجاني أن آتيه بشيء من المادة التي يستعملها لمعالجة الداء الذي أصابه، على أن أحرص أن أجلبها له من أحسن مكان.

وكان ذلك المكان في أقصى أطراف المدينة، وبعد أن قبّلني مرةً أخرى أطلقني لأذهب، فلما هبطتُ السلالم عاودني الشوق إليه فعُدتُ أصعد الدرج لأبقى في صحبته بعض الوقت، وأطللتُ عليه من الباب وقلت له: «هل آخذ معي مريلجز يا أبي العزيز؟» فهزَّ أبي رأسه وقال: «لا يا سيسي لا، لا تأخذي شيئًا يُعرَف أنه يخصني يا حبيبتي». وتركته جالسًا بجوار النار، ثم – لا بد أن الفكرة طرأت له – يا أبي المسكين! لقد خرج يحاول أمرًا من أجلي؛ فلما عدتُ وجدته قد رحل.

فقال توم مؤنبًا:

– اسمعي! لا تُهمِلي باوندربي العجوز يا لو!

قالت سيسي:

– ليس عندي ما أزيده يا مس لويزا، فأنا أحتفظ بالزيوت التسعة حاضرةً في انتظاره، وأعلم أنه سيعود. وكلُّ خطاب أراه في يد مستر جراد جرايند يخفق له قلبي وتعشى عيناي؛ لأني أظنه من أبي أو من مستر سليري بشأن أبي، فقد وعد

مستر سليري أن يكتب بمجرد أن يسمع عنه شيئًا، وأنا واثقة أنه صادق في وعده.

وقال توم، وهو يصفّر ضيقًا ونفاد صبر:

– لا تنسي باوندربي العجوز يا لو! سينصرف إن لم تهتمي به اهتمامًا كافيًا.

وبعد ذلك، كلما انحنت سيسي لمستر جراد جرايند في حضرة أسرته وسألته بصوت متلعثم: «عفوًا يا سيدي على إزعاجي، لكن أما وصل خطاب بشأني؟»، كانت لويزا تتوقف عن كل ما كانت مشغولةً به في تلك اللحظة، وتنتظر الجواب في لهفةٍ لا تقل عن لهفة سيسي. وعندما كان مستر جراد جرايند يجيبها على الدوام:

– لا يا جيب، لم يصلني شيء من هذا القبيل.

كانت ارتجافة شفة سيسي تجد صدى مماثلًا في وجه لويزا، ثم كانت لويزا تتبع سيسي بنظرات مشفقة حتى تخرج من الباب. وكان مستر جراد جرايند يُضيف عادةً بعد انصرافها كلامًا يُشبه أن يقول: إن جيب، لو خضعت للتدريب العقلي السليم منذ الصغر، لكانت أقدر على أن تثبت لنفسها وفق مبادئ صحيحة بطلان هذه الآمال الوهمية. لكن بدا – لا له، فهو لا يرى شيئًا من ذلك – وكأن هذه الآمال الوهمية قد تملك على النفس سلطانًا لا يقل في شدته عن سلطان الحقائق.

غير أن هذه الخاطرة لم تدر إلا في ذهن ابنته وحدها، أما توم، فكان يمضي في سبيله إلى ضربٍ لا مثيل له من انتصار العقلية النفعية التي لا تبتغي إلا المصلحة الخاصة. وأما مسز جراد جرايند، فإذا قالت في هذا الشأن شيئًا، فما تلبث أن تُخرج قليلًا من لفائفها، وتقول بصوتٍ ضعيف:

– لي الله! كم يؤلمني رأسي، وكم يُضنيني حرصي الدائم على مجاراة هذه الفتاة التي تعود فتسأل مرارًا وتكرارًا عن خطاباتها المزعجة! إني لعمري ولعمر شرفي كأنما كُتب عليَّ وقُسم لي أن أعيش في دوامةٍ من لغطٍ لا يُطاق. إنه لأمرٌ غريبٌ وعجيب! حقًّا إنني لا أفرغ من لغطٍ يُثيره أي شيء!

وحين تبلغ قولها هذا الحد، تقع عليها نظرةٌ صارمةٌ من مستر جراد جرايند، فتنتفض تحت ثقل هذه النظرة الجادة القاسية، وتعود إلى ضعفها وفتورها المعهود.

الفصل العاشر

ستيف بلاكبول

يخامرني الإعتقاد المتهافت بأن الشعب الإنجليزي مكدود بالعمل كأي شعب تشرق عليه الشمس. وإلى هذه الخاصية الشخصية أعزو ميلي إلى تمكينهم من المسرح واللهو.

وفي أشق أحياء كوكتاون عملًا، داخل التحصينات التي تكوّن صميم تلك القلعة القبيحة حيث الطبيعة تذاد بنفس الشدة التي تستوعب بها الغازات القاتلة في قلب ذلك التيه من الأفنية الضيقة فناء ضيقًا وراء فناء ضيق، والشوارع متقاربة الجدران الشارع منها تلو الشارع، استحدثت كلها فرادى في عجلة جامحة تحقيقًا للبانة إنسان فرد، فجاءت في مجموعها أسرة غير سوية يدافع بعضها بعضًا ويطأ بعضها بالأقدام بعضًا، ويخنق بعضها حتى الموت بعضًا وفي آخر ركن ضيق من ذلك المصب المكتظ حيث شيدت المداخن لافتقارها إلى مجاري الهواء في أشكال غاية في التباين بين مكفوفة النمو ومعوجة كأنما كل بيت من تلك البيوت قد رفع مدخنته على طراز الناس الذين ينتظر أن يولدوا فيه. في غمار هذا الزحام من أهل كوكتاون المعروفين اصطلاحًا باسم (الأيدي) - وهم سلالة كانت حرية أن تجد لدى الناس مزيدًا من النعمة لو أن العناية شاءت أن تصنعهم على صورة الأيدي فحسب، أو على غرار المخلوقات

البحرية المنحطة عبارة عن أيد وكروش فحسب - في هذا الموضع كان يعيش شخص يدعى ستيفن بلاكبول في الأربعين من عمره.

وكان ستيفن يبدو أسن من حقيقته، فقد كانت حياته شاقة، ولئن قيل إن كل حياة لها وردها وشوكها، فإن الأمر فيما يخص ستيفن كان على ما يلوح ضحية خطأ أو طامة، بحيث ذهب إنسان ما بما كان ينبغي أن يخص ستيفن من الورد في عمره كله، وأقام ستيفن على ما كان ينبغي أن يكون حظ سواه من الأشواك، فضلًا عن نصيبه الأصلي منها. لقد عانى على حد تعبيره ربوات من المتاعب، فكان يسمى في العادة ستيفن العجوز، على سبيل التنويه الخشن بتلك الحقيقة، فهو رجل بظهره انحناء واضح، وفي حاجبيه قطوب، وسحنته تنم على إطالة التفكير ورأسه بادي الصلابة والاتساع، يعلوه شعر خفيف طويل لونه الأشهب كلون الحديد. فكان من المستطاع أن يعتبر رجلًا خارق الذكاء بين أشباهه. ولكن الأمر لم يكن كذلك، فلم يظفر بمكان بين العمال (الأيدي) النابهين الذين أفلحوا في تجميع فترات فراغهم المتباعدة على مدى السنوات الطوال فأتقنوا علومًا شاقة واكتسبوا معرفة بأشد الأمور بعدًا عن البال. ولم يحتل مكانة بين (الأيدي) التي تقدر على الخطابة أو تخوض المناظرات، فثمة ألوف من رفاقه يستطيعون الكلام خيرًا مما يستطيعه هو في أي وقت. فقصاراه أنه نساج مجيد على النول الآلي، وأنه رجل تام النزاهة. فإن كان على شيء غير هاتين الصفتين فإليه وحده أمر إظهاره للعيان.

وكانت الأضواء في المصانع الكبرى - تلك المصانع التي تبدو حينًا تتلألأ أنوارها وكأنها القصور المسحورة على حد تعبير المسافرين بالقطار السريع - قد أطفئت جميعًا، وكانت النواقيس قد دقت مؤذنة بالانصراف عن العمل لتلك الليلة، ثم كفت عن الرنين، وأخذت (الأيدي) رجالًا ونساء، فتيانًا وفتيات في

الرواح إلى بيوتهم وقد ارتفع لرواحهم عجيج. وكان ستيفن العجوز واقفًا في الشارع وعلى سحنته سيما الإحساس المعهود دائمًا عند توقف الآلات عن الدوران، وهو الإحساس بأن دوران الآلة وتوقفها إنما تما في دماغه. وقال:

- ولكني لا أرى راشيل ظهرت بعد!

وكانت الليلة مطيرة، وجماعات كثيرة من الشابات كانت تمر به وقد وضعن أوشحتهن فوق رؤوسهن العارية وقبضن لصق أذقانهن اتقاء للمطر. وكان يعرف راشيل تمام المعرفة، فكفته نظرة واحدة إلى أي مجموعة من تيك العابرات ليعلم أنها لم تكن بينهن. ثم انقطع سيلهن، فدار على عقبيه وهو يقول في نبرة من خاب له رجاء:

- أراني إذن قد أفلتها!

بيد أنه لم يمض في سبيله قيد ثلاثة شوارع حتى رأى جماعة من تلك الوجوه المتدثرة بالأوشحة تتقدمه، فنظر إليهن نظرًا فاحصًا حتى إن ظلالهن المنعكسة انعكاسًا غير متميز على أرض الطريق البليلة كانت كافية لتعريفه من عساهن أن يكن، حتى ولو لم يستطع أن يتبين الوجوه نفسها وهي تمضي من مصباح إلى مصباح فتتداولها في مسيرها الأضواء والظلال. وأغذَّ سيره فصارت خطوته وحية خافتة، وانبرى قدمًا حتى كاد يسامت وجهًا من تلك الوجوه، وعندئذٍ ثاب إلى مشيته الأولى ونادى قائلًا:

- راشيل!

فإلتفتت. وكانت وقتئذٍ تحت ضوء مصباح، ورفعت غطاء رأسها قليلًا فأسفرت عن وجه بيضاوي هادئ أسمر اللون فيه رفاهة بينة، تشع منه عينان وادعتان للغاية، ويبرز ذلك كله تصفيف شعرها الأسود اللامع على أتم نسق.

ولم يكن ذلك الوجه في إبان نضارته، فهي امرأة في الخامسة والثلاثين من عمرها.

- ويحك يا فتى! أذاك أنت؟

قالت له ذلك بابتسامة كانت حرية أن تتجلى حتى ولو لم يرَ الرائي منها سوى عينيها اللطيفتين، ثم أعادت غطاء رأسها إلى موضعه وسارا معًا.

- كنت أحسبكِ متخلفة عني يا راشيل؟

- كلا.

- أخرجت الليلة مبكرة يا فتاة؟

- أخرج أحيانًا مبكرة قليلًا يا ستيفن، وأحيانًا أخرى متأخرة قليلًا. فلا يمكن التعديل عليَّ للرواح إلى البيت.

- ولا للرواح إلى وجهة أخرى أيضًا فيما يلوح لي يا راشيل؟

- كلا يا ستيفن.

فرمقها بنظرة تنم على خيبة أمل شاع في محياه، ولكن مع اقتناع ممزوج بالاحترام والصبر، إيقانًا بأنها تلتزم الصواب في كل ما تصنعه. ولم يذهب تعبير وجهه سدى؛ لأنها وضعت يدها برفق على ذراعه لحظة كأنما لتشكره له:

- إننا صديقان صدوقان يا فتى، ومن قدامى الأصدقاء أيضًا، وها نحن أولاء الآن وقد تقدمت بنا السن.

- كلا يا راشيل، إنك ما زلت شابة كما كنتِ.

فأجابته ضاحكةً:

- إنه لمما يحير أحدنا أن يتقدم بالعمر يا ستيفن من غير أن يتقدم العمر بصاحبه أيضًا، وكلاهما قيد الحياة... ولكننا على كل حال من قدامى الأصدقاء بحيث يكون إخفاء أحدنا عن الآخر كلمة حق صادقة بمثابة إثم يورث الندم. من الخير ألا نسير كثيرًا معًا، لا بأس بذلك أجل في بعض الأحيان، فمن العسير حقًّا ألا نحظى بذلك البتة.

وحاولت أن تكون لهجتها حافلة ببهجة تريد أن تنقلها إليه.

- بل إن ذلك لعسير على أي وجه يا راشيل.

- اجتهد ألا تعتقد ذلك فيبدو عسيره هينًا.

- لطالما اجتهدت في ذلك فلم يجدني ولكنكِ على حق؛ لأن ذلك قد يدفع الناس إلى التقول، حتى عليكِ. لقد كنتِ الصديق يا راشيل لي سنوات طويلة، وأسديتِ لي خيرًا كثيرًا، وشددت أزري بأسلوبكِ المبهج، فكلمتكِ عندي قانون. بلى يا فتاة! ويا له من قانون سديد! خير هو من بعض القوانين السائدة في الناس.

فأجابته على عجل وهي ترمق وجهه بنظرة لهفى:

- لا تعنِّ نفسك بتلك القوانين يا ستيفن. دعها لشأنها.

فقال وهو يؤمئ برأسه في أناة مرة أو مرتين:

- أجل... لندعها وشأنها، لندع كل شيء وشأنه.

ولندع تصاريف القسم وشأنها، فذلك كله معضل لا يستبين له وجه. وهذا قصارى القول...

فقالت راشيل وهي تلمس ذراعه لمسة أخرى حانية كأنما لتنبهه من استغراقه في خواطره حتى لقد راح يعض بنواجذه الأطراف الطليقة من لفاعته وهو ماضٍ في سيره:

- أهو على الدوام أمر معضل لا يستبين له وجه؟

فكان لهذه اللمسة أثرها على الفور، وترك أطراف لفاعته تسقط من فمه، ونظر إليها مشرق الوجه بالابتسام، وقال وهو ينطلق في ضحكة مرحة:

- أجل يا راشيل، يا فتاتي إنه على الدوام أمر معضل لا يستبين له وجه... وفي تلك المخاضة غارت قدماه، وكم من مرة بعد أخرى أعود إلى صميم المخاضة... أما الخروج منها وتجاوزها فليس لي إليه سبيل.

وكانا قد سارا شقة وباتا من بيتيهما قريبين، وكان بيتها أقرب المنزلين، وموقعه في شارع من تلك الشوارع الكثيرة الصغيرة التي أعد لها الحنوطي (2) المجدود (فهو قد جنى ثروة طيبة من تلك المواكب الكئيبة العجفاء التي أتاحها للمنطقة كلها) سلمًا أسود يستطيع من فرغوا من تلمس طريقهم اليومي صاعدين الدرج الضيق أو هابطين منه أن يتسللوا عن طريقه مغادرين دنيا العمل هذه من خلال النوافذ. ووقفت راشيل عند زاوية الشارع ووضعت يدها في يده وتمنت له ليلة سعيدة.

- طابت ليلتك يا فتاتي العزيزة. طابت ليلتك!

ومضت بقامتها الأنيقة وخطوتها الأنثوية الرزينة موغلة في الشارع المظلم ولبث هو واقفًا ينظر في أعقابها إلى أن دخلت بيتًا من البيوت الصغيرة ولعله لم يكن يصدر عن وشاحها أهون الرفيف إلا وله في عينه مكانة مرموقة، ولا يصدر عن فمها أخفت الأصوات إلا وله في سويدائه صدى.

ولما غابت عن ناظره واصل مسيره صوب داره ناظرًا في الحين بعد الحين صوب السماء التي كانت تمخرها السحب مجدّةً في سيرها المتدافع، وتبددت السحب شيئًا ما، وانقطع المطر وطلع القمر مطلًّا من مداخن كوكتاون العالية على الأتاتين العميقة من تحتها، وملقيًا ظلالًا جبارة لآلات البخار الساكنة على الجدران التي تضمها. وظهر على الرجل الإشراق والانشراح وهو ماضٍ تحت جنح الليل.

وكان بيته في شارع آخر شبيه بذلك الشارع الأول، بيد أنه أضيق منه. والبيت يعلو حانوتًا صغيرًا، وليس يعنينا في هذا المقام كيف يخطر لأحد من الناس أن يمني نفسه بشراء أو بيع الدمى الصغيرة الحقيرة التي تختلط في واجهة الحانوت بالصحف الرخيصة ولحم الخنزير (وكانت هناك رِجل خنزير ستباع بالقرعة في ليلة الغد). وتناول ستيفن عقب الشمعة من فوق رف فأوقده من عقب شمعة آخر موجود فوق حاجز الحانوت من غير أن يزعج ربته النائمة في حجرتها الصغيرة، ثم صعد إلى مسكنه.

ومسكنه حجرة ليست مقطوعة الصلة بالسلم المظلم الذي يستخدمه المستأجرون على اختلافهم، ولكنها في الوقت الحاضر حجرة أنيقة كآنق ما تكون حجرة على شاكلتها، ففوق خوان عتيق في الركن بضعة كتب وكتابات، والأثاث لائق يكفي بالحاجة، والحجرة نظيفة مع أن الجو ملوث بالأكدار.

واتجه صوب المدفأة ليضع الشمعة فوق منضدة مستديرة ذات ثلاثة أرجل قائمة هناك، فإذا به يتعثر بشيء فتقهقر ونظر تحت قدميه إلى ما تعثر به، فإذا بذلك الشيء ينهض قائمًا على صورة امرأة كانت في وضع جالس، فصاح وهو ينأى بنفسه عنها أكثر من ذي قبل:

- أعوذ بالله يا امرأة! هل عدت مرة أخرى؟

ويا لها من امرأة! فهي مخلوق سكير عاجز عن الحركة لا تكاد تحتفظ بوضعها الجالس إلا باعتمادها بيد قذرة على الأرض، في حين راحت يدها الأخرى تحاول عبثًا إبعاد شعرها المشوش عن وجهها، فلم تجن من ذلك سوى المزيد من العماية بما على يدها من الوضر فهي مخلوقة يتأذى المرء بالنظر إليها في أسمالها وقذاراتها وأوحالها بيد أنها أمعن في الإيذاء من ذلك كله بما في خلقها من رجس، حتى إن مجرد النظر إليها عار وخزي.

وبعد أن أطلقت السباب والشتائم نافدة الصبر وهي تتخبط بيدها التي لا تحتاج إليها في إقامة جسدها استطاعت آخر الأمر أن تزيح شعرها عن عينيها بما يكفي لمرآه، ثم جعلت تهتز في جلستها وتتأرجح جيئةً وذهابًا وهي تحرك ذراعها الواهن بإشارات يبدو أنها حركات مصاحبة لنوبة ضحك، مع أن وجهها بليد السحنة مهمومًا.

- إيه يا ولد؟ أأنت هنا؟

وكان الصوت الذي قصد أن يؤدي تلك الكلمات أجش النبرات متهكمًا. وما قالت ذلك حتى سقط رأسها على صدرها، وبعد بضع دقائق قالت في صوت كالصرير وكأنها لم تسمع ما قال في تلك اللحظة:

- هل عدت مرة أخرى؟ نعم عدت مرة أخرى، وسأعود على الدوام مرارًا كثيرة. هل عدت؟ نعم عدت. ولم لا؟

وأيقظتها الشدة العنيفة التي أطلقت بها هذه الكلمات، فجعلت تتشبث وتتعلق بالحائط إلى أن وقفت معتمدة بكتفيها عليه، وهي تطوح في إحدى يديها قلنسوة مهلهلة زرية تمسك بها من بعض خيوطها، وحاولت أن تنظر إليه بتحدٍ. وصرخت بطريقة وسط بين التهديد الهائج ومحاولة للرقص المتحدي:

- سأغدر بك المرة بعد المرة، مثنى وثلاث، وسأغدر بك عشرين مرة... هيا ابتعد عن الفراش (وكان جالسًا على طرفه مخفيًّا وجهه بيديه) ابتعد عنه إنه فراشي ولي الحق فيه!

فلما اقتربت منه مترنحة تحاشاها وهو يرتجف وانتقل ووجهه لم يزل مغطى إلى الجهة المقابلة من الحجرة. وألقت بنفسها على الفراش بحركة ثقيلة، وسرعان ما ارتفع غطيطها.. فغاص في مقعد ولم يتحرك طيلة تلك الليلة إلا مرة واحدة، وكانت تلك المرة لإلقاء الغطاء عليها كأنما يداه لم تكونا كافيتين لإخفائها عنه حتى في الظلام.

الفصل الحادي عشر

لا مخرج

اندلعت الأضواء في القصور المسحورة قبل أن تنم أنوار الصبح الحائلة عن أفاعي الدخان الفظيعة وهي تسعى فوق كوكتاون وأخذت النعال تصطك بأرض الشوارع وارتفع رنين الأجراس متلاحقًا. والفيلة ذات الحركة المحزونة الهائجة عادت إلى نشاطها مرة أخرى وقد تم تلميعها وتزييتها للعمل اليومي الرتيب.

وانحنى ستيفن فوق نوله هادئًا يقظًا ثابتًا. فكان هناك تباين خاص بين سائر الرجال العاملين في تلك الغابة من الأنوال حيث يعمل ستيفن، وبين الجهاز الآلي الصاخب المتلاطم الذي يقوم بتشغيله، فلا تخشوا البتة أيها القوم الطيبون ذوو العقول القلقة أن يلقي الفن بالطبيعة إلى زوايا النسيان فأينما وضعت جنبًا إلى جنب صنع الله وصنع الإنسان، فصنع الله إن لم يكن سوى فريق من (الأيدي) هينة الشأن لا بد أن تخرج من تلك المقابلة أرجح وزنًا.

في هذا المصنع كذا مائة من (الأيدي) وكذا مائة من أحصنة القوة البخارية. ومن المعروف مقدمًا، مقدرًا بالرطل الواحد، مبلغ ما ستنتجه كل آلة فيه. ولكن جميع الحاسبين في مؤسسة الدين القومي عاجزون عن إنبائي بمدى ما لدى أي واحد من تلك النفوس التي تبدو هادئة الوجه رتيبة الحركات في أي لحظة من اللحظات من القدرة على إتيان الخير أو الشر، والحب والكراهية، والوطنية والتذمر، والتحول من الفضيلة إلى الرذيلة أو العكس. وليس ذلك الأمر سرًّا؛ لأن

أحقر هؤلاء الناس شأنًا ينطوي أيضًا على سر لا يسبر له غور... الأمر الذي يدعو إلى قصر الأسلوب الحسابي على الأشياء المادية، ومحاولة سياسة هذه الكميات الفظيعة المجهولة بوسائل أخرى!

واشتد عود النهار فتبلج في الخارج، بل وعلى الرغم من الأضواء المشتعلة في الداخل، فأطفئت تلك الأضواء واستمر العمل، وسقط المطر، فعَنَتْ أفاعي الدخان للّعنة المصبوبة على ذلك الجنس كله وراحت تزحف على وجه الأرض. وفي فناء النفايات بالخارج كان البخار المنطلق من أنابيب التصريف، ونثار البراميل والحديد العتيق وأكداس الفحم اللامعة والرماد المتراكم فوق كل شيء كلها كانت مكفنة في غلائل من الضباب والمطر.

واستمر العمل إلى أن دق ناقوس الظهر، فخفقت النعال على الأرض مرة أخرى، وكفت الأنوال والدواليب و(الأيدي) عن العمل مدى ساعة.

وخرج ستيفن من المصنع الحار إلى الهواء البارد الرطب والشوارع البلية مجهدًا زائغ النظرات، وعزف عن أهل طبقته وعن حيه، ولم يتناول شيئًا سوى كسرة خبز وهو ماضٍ في طريقه صوب التل الذي يقيم فوقه مخدومه الأكبر في بيت أحمر اللون ذي مصاريع خارجية سوداء تبدو من الداخل خضراء اللون، له باب أسود يرتفع عن الشارع بدرجتين بيضاوين، واسم (باوندربي) مكتوب (بحروف تشبه شخصه كثيرًا) فوق لوحة نحاسية، ومقبض الباب النحاس المستدير من تحت تلك اللوحة يبدو وكأنه نقطة النهاية مكتوبة بالنحاس.

وكان مستر باوندربي جالسًا إلى مائدة غدائه، وذلك ما كان يتوقعه ستيفن فهل لخادمه أن يخبره أن واحدًا من (أيديه) يلتمس الإذن بالتحدث إليه؟ وجاء الرد بالسؤال عن اسم (اليد)، ستيفن بلاكبول. ولما لم يكن ضد ستيفن بلاكبول ما ينسبه إلى الشغب، فله أن يدخل.

ودخل ستيفن بلاكبول الإيوان، وكان مستر باوندربي (الذي كان يعرفه بالنظر فقط) جالسًا إلى غدائه من أضلاع اللحم وشراب الشرى. وكانت مسز سبارست تحبك خيوطًا بالقرب من النار في وضع من تمطى السرج من أحد جانبيه دون الآخر، وقد وضعت إحدى قدميها في ركاب من القطن. فمن مقتضيات مسز سبارست وكرامتها معًا ألا تتناول الغداء، فهي تشرف على تلك الوجبة بصفة رسمية، ولكنها تشعر في الوقت نفسه أن الغداء بالنسبة لشخصها المهيب ضعف.

وقال مستر باوندربي:

- والآن يا ستيفن ماذا وراءك؟

وانحنى ستيفن - لا انحناءة الخضوع - فأولئك (الأيدي) لا يفعلونها أبدًا! رعاك الرب يا سيدي، لن تضبطهم يفعلونها ولو مكثوا معك عشرين سنة! وتحية لمسز سبارست، دس أطراف لفاعته داخل صداره، وقال مستر باوندربي وهو يجرع شيئًا من الشرى:

- أنت تعلم أنه لم تحدث منك متاعب من قبل، ولم تكن في أي وقت واحدًا من الشواذ، فأنت لا تتطلع إلى امتلاك مركبة فارهة ذات ستة جياد وتقتات بحساء السلاحف ولحوم الصيد بملعقة من ذهب، كما يتطلع الكثيرون منهم!

وكان مستر باوندربي يصور دائمًا على هذا النهج الهدف الوحيد العاجل المباشر لأي (يد) لا يشعر بالرضى التام...

- ... ولذا فأنا أعلم سلفًا أنك لم تأتِ إلى هنا لتقديم شكاية، إني متأكد من ذلك مقدمًا.

- كلا بالتأكيد لم آتِ بشيء من هذا القبيل.

وبدت دهشة الاستحسان على مستر باوندربي رغم تأكيداته السالفة وأجاب:

- حسنًا جدًّا. أن من (الأيدي) الراسخة، ولم يخطئ ظني. والآن أود أن أسمع منك مسألتك ما دامت بعيدة عن التشكي. ماذا تريد أن تقول؟ انطلق يا فتى!

وحانت من ستيفن نظرة صوب مسز سبارست، فقالت تلك السيدة المضحية بذاتها وهي تتصنع رفع قدمها عن الركاب:

- في استطاعتي أن أخرج يا مستر باوندربي إذا شئت ذلك.

فاستبقاها مستر باوندربي بأن احتفظ في فمه بمضغة كبيرة من اللحم كان على وشك ابتلاعها، ورفع يده اليسرى، ثم سحب يده وابتلع مضغة اللحم وقال لستيفن:

- اعلم أن هذه السيدة الفاضلة وُلدت سيدة عالية المقام، فليس لك أن تظن، لأنها تشرف لي على بيتي، أنها لم تكن في الذؤابة العليا.

- آه! في الذؤابة العليا جدًّا! والآن، إن كان ما لديك من المقال لا يجوز أن يسرد على مسمع من سيدة عريقة، فهذه السيدة ستغادر الحجرة، أما إن كان ما لديك من المقال يجوز أن يسرد على مسامع سيدة عريقة، فهذه السيدة ستبقى حيث هي.

فأجاب ستيفن وقد احمرّ وجهه قليلًا:

- سيدي، أرجو ألا أكون منذ وُلدت تفوهت بأي كلمة لا تليق بمسامع سيدة عريقة.

فقال مستر باوندربي وهو يدفع عنه صحفته ويضطجع إلى الوراء:

- حسنًا جدًّا!... أفصح!

فقال ستيفن رافعًا عينيه عن الأرض بعد لحظة تفكر:

- لقد أتيت لأطلب منك النصح، ليس إلا. فقد كنت متزوجًا في يوم الإثنين غداة الفصح لتسعة عشر عامًا خلت، وكانت زوجتي حديثة السن مليحة يومئذٍ لها صفات حميدة، وإذا بها تحيد عن المسلك القويم... وبسرعة، ولم تكن لي يد في هذا فالله يعلم أني لم أكن زوجًا غير عطوف.

فقال مستر باوندربي:

- لقد بلغ هذا كله مسامعي من قبل، فقد أدمنت الشراب وهجرت العمل وباعت الأثاث، ورهنت الثياب وانقلبت شيطانة.

- وكنت معها صبورًا.

(فقال مستر باوندربي لكأس شرابه سرًّا: (أراك بهذه المصابرة قد أمعنت في الغفلة)).

- ... كنت معها صبورًا جدًّا، وحاولت مرارًا وتكرارًا أن أفطمها عن تلك الخصال، جربت هذه الوسيلة، وتلك، وثالثة. وكنت كثيرًا ما أعود إلى البيت لأجد كل ما أملكه على ظهر الدنيا قد تلاشى وأجدها مستلقية على الأرض الجرداء وقد فقدت كل وعي بنفسها. ولم يحدث هذا مرة ولا مرتين... بل عشرين مرة! وكان كل خط في وجهه يزداد عمقه وهو يقول ذلك، تأكيدًا قويًّا لما قاساه من العذاب.

- ... وظلت تنتقل من سيئ إلى أسوأ، ومن الأسوأ إلى ما هو أشد سوءًا، ثم تركتني، وألحقت بنفسها العار بكل وسيلة، عارًا يورث المضاضة والوجيعة. وكانت تعود، وتعود، وتعود، فما كنت مستطيعًا أن أصنع لأذودها؟ لقد جعلت أجوب الشوارع ليالي طوالًا تحاشيًا للعودة إلى الدار، بل وذهبت إلى القنطرة وفي

نيتي أن أُلقي بنفسي من فوقها لأتخلص من هذا كله، لقد تحملت الكثير، حتى صرت عجوزًا وأنا يومئذٍ في شرخ الشباب.

ورفعت مسز سبارست - وهي تواصل تحريك إبرتي الحبك في يسر - حاجبيها الكوريولانيين وهزت رأسها كمن تريد أن تقول:

- إن الأكابر يعرفون طعم المتاعب مثلما يعرفها الأصاغر، فليتكَ توجه نظرك المتواضع صوبي كي تعلم.

- ... وأعطيتها مالًا كي تظل مبتعدة عني، ولبثت هذه السنوات الخمس أؤدي لها ذلك المال، وقد استطعت أن أصلح من شأني مرة أخرى. وعشت حياة قاسية حزينة، ولكني برئت من المخاوف والخزي. وفي الليلة الماضية عدت إلى البيت، فإذا بها مستلقية هناك على بلاط المدفأة! لقد عادت!

وكان تحت تأثير مصيبته وقوة أساه قد لبث لحظة يلقي بالكلمات في كبرياء. وفي لحظات أخرى كانت وقفته كالعهد بها دائمًا: بانحناء قامته المعهود، ووجهه المتفكر صوب مستر باوندربي، وقد علته أمارات غريبة تجمع بين الحصافة والحيرة، كأنما يخامر ذهنه التصميم على اكتناه أمر جد عسير، وقد قبض بيده اليسرى المستقرة فوق فخذه على قبعته قبضًا شديدًا، وكانت ذراعه اليمنى تؤكد بكل عزيمة وقوة إخلاصه فيما يقول. ولم يكن هذا التأكيد ليقل في حالة توقف ذراعه عن الحركة، عندما كان يتوقف عن الكلام؛ لأن تلك الذراع كانت تسترخي عند صمته شيئًا ما ولكنها لا تهبط ولا تتراجع.

فقال مستر باوندربي:

- لقد بلغني هذا كله منذ زمن طويل، فيما عدا الفقرة الأخيرة، وإنها لمسألة سيئة، تلك هي الحقيقة وكان خيرًا لك أن تقنع بما كنت فيه فلا تتزوج ولكن هذا شيء فات أوانه على كل حال.

وسألته مسز سبارست:

- هل كان زواجًا غير متكافئ يا سيدي بحساب السنين؟

فقال مستر باوندربي:

- ها قد سمعت سؤال هذه السيدة، هل كان زواجك هذا زواجًا غير متكافئ بحساب السنين؟

- لم يكن كذلك، فقد كنت شخصيًّا في الحادية والعشرين، وكانت هي في العشرين تقريبًا.

فقالت مسز سبارست لمخدومها في وداعة عظيمة:

- حقًّا يا سيدي؟ لقد خطر لي من شدة تعاسة هذا الزواج أنه ربما كان زواجًا غير متكافئ بحساب السنين.

فنظر مستر باوندربي نظرة شديدة جدًّا بجانب عينه إلى السيدة الطيبة، فبدت نظرته طافحة بالتبلد، وتقوى بجرعة شرى، ثم قال لستيفن بلاكبول بشيء من الحدة:

- وبعد؟ لماذا لا تتكلم؟

فازداد في تعبير وجه ستيفن المتباين جانب الجد:

- لقد جئت لأسألك يا سيدي كيف أتخلص من تلك المرأة.

وأطلقت مسز سبارست صيحة تعوذ كأنما أصابتها في معنوياتها صدمة، وقال مستر باوندربي وهو ينهض ليسند ظهره إلى المدفأة:

- ماذا تعني؟ عن أي شيء تتحدث؟ ألست قد تزوجتها على السراء والضراء؟

- لا بد لي من الخلاص منها. لم أعد قادرًا على احتمال أكثر مما احتملت، لقد عشت في ذلك العذاب مدة طويلة، ولم يخفف عني سوى ما أبدته نحوي من شفقة وعزاء خير فتاة في العالمين الأحياء منهم والأموات ولعلني لولاها كنت عسيًّا أن أجن.

فقالت مسز سبارست همسًا وقد ساءها انحلال أخلاق القوم:

- إنه يريد أن يتخلص منها ليتزوج الأنثى التي يتحدث عنها، فيما أظن يا سيدي.

- ذلك ما أُريد، إن ما تقوله السيدة صحيح ذلك ما أريد وكنت بسبيلي إلى التصريح به فقد طالعت في الصحف أن كبراء القوم (وكلهم من خيار الناس! ولا أضمر لهم السوء!) لا يرتبط بعضهم ببعض على السراء والضراء ذلك الإرتباط الوثيق. ففي وسعهم أن يتحرروا من زيجاتهم العاثرة الجد، وأن يتزوجوا بعدها مرة أخرى. وعندما لا يكون بينهم وفاق لتباين الطبائع ففي بيوتهم حجرات من صنوف شتى يسعهم أن يعيشوا فيها منفصلين أما نحن فمساكننا من حجرة واحدة ولا نستطيع ذلك فإن لم تفلح هذه الخطة لديهم الذهب وسائر أنواع النقد وفي وسعهم أن يقولوا (هذا لك وهذا لي) ثم يذهب كل منهم في وجهته أما نحن فلا يسعنا ذلك. ورغم هذا كله يستطيعون هم التحرر بناء على عيوب وأخطاء أهون مما لدينا. ولذا ينبغي أن أتخلص من هذه المرأة. وأريد أن أعرف كيف السبيل إلى هذا؟

فقال مستر باوندربي:

- تريد أن تعرف السبيل؟

- إنني إن أصبتها بأذى يا سيدي، فثمة قانون يعاقبني؟

- بالطبع.

- وإن هربت من وجهها، فثمة قانون يعاقبني؟

- بالطبع.

- وإن تزوجت الفتاة العزيزة الأخرى فثمة قانون يعاقبني؟

- بالطبع.

- وإن عشت معها من غير أن أتزوجها (بفرض أن شيئًا من هذا ممكن وهو مستحيل وهي الفتاة الصالحة الفضلى) فثمة قانون يعاقبني عن كل طفل بريء أنجبه؟

- بالطبع.

فقال ستيفن بلاكبول:

- ناشدتك الله إذنْ أن تدلني على قانون يأخذ بيدي!

فقال مستر باوندربي:

- إحم! لهذه الصلة من صلات الحياة قداسة، ولذا... ولذا... ينبغي أن تظل قائمة

- لا، لا، لا تقل هذا يا سيدي، ما من قداسة تستقيم على هذا النحو بل هي على هذا النحو تنكس إني نساج وقد إلتحقتُ بمصنع منذ طفولتي ولكن لي عينين بهما أرى وأُذنين بهما أسمع، وقد قرأت في الصحف كل دورة من دورات

الانعقاد (وأعلم أنك أيضًا قرأت!) وبكل استياء، عن تلك الاستحالة المزعومة لفصم ارتباط الزوجين بأي ثمن وبأي وسيلة إنما هي مجلبة لسفك الدماء بما تحمل الكثيرين من العامة المتزوجين على القتل والقتال والموت المفاجئ، فليكن هذا مفهومًا جيدًا فيما بيننا، إن قضيتي محزنة، وأريد منك - إن تكرمت - أن تدلني على القانون الذي يأخذ فيها بيدي.

فقال مستر باوندربي وهو يدس يديه في جيبيه:

- سأدلك عليه! فثمة قانون بهذه الصفة.

وأومأ ستيفن برأسه وقد ثاب إلى الهدوء من غير أن يتشتت انتباهه، واستطرد باوندربي:

- ولكن هذا القانون ليس لك البتة، فهو يتكلف مالًا، يتكلف مالًا طائلًا.

فسأله ستيفن بهدوء:

- وكم عسى أن يكون ذاك؟

فقال مستر باوندربي:

- إنك يجب أن تتقدم إلى (فقهاء العموم) بعريضة، ثم تتقدم بقضيتك إلى محكمة (قانون العموم)، ثم إلى مجلس اللوردات كي تحصل على قرار من البرلمان يسمح لك بالزواج مرة أخرى. وذلك قد يكلفك (إذا سارت القضية سيرًا هينًا جدًّا) ما بين ألف وألف وخمسمائة جنيه فيما أعتقد، وربما ضعف هذا المبلغ.

- أليس ثمة قانون آخر؟

- كلا بالتأكيد.

فقال ستيفن وقد شحب وجهه مشيرًا بيده اليمنى تلك كأنما كل شيء قد ذهب أدراج الرياح:

- إذن يا سيدي فتلك معضلة لا يستبين لها وجه، إنها لكذلك من البداية إلى المنتهى. وكلما عوجلت بمنيتي كان خيرًا لي.

(ومرة أخرى تأذت مسز سبارست من قلة تقوى القوم).

وقال مستر باوندربي:

- مه! مه! لا تقل لغوًا يا صاح! فتلك أمور لا تفقهها ولا تصف أنظمة بلادك بالإعنات وإلا ألفيت نفسك ذات يوم رهين إعنات حق فأنظمة بلادك ليست من صنع يدك، وليس لك إلا أن توجه همك كله لصنع يدك. وأنت لم تتخذ زوجتك على التذبذب وتقلب الأهواء، بل اتخذتها على السراء والضراء، فلئن تكشفت عن مضرة، فكل ما يسعنا أن نقوله في هذه الحالة إنها كانت عسية أيضًا أن تتكشف عن مسرة.

فقال ستيفن وهو يهز رأسه متجهًا نحو الباب:

- إنها لمعنتة!

فقال مستر باوندربي مستطردًا بخطبة وداعية:

- اسمع ما أقوله لك! إنك بما أعربت عنه من آراء أنعتها بالاستهانة، قد صدمت مشاعر هذه السيدة التي تتصف كما قلت لك من قبل بعراقة المحتد. والتي - كما لم أقل لك من قبل - منيت في زواجها شخصيًّا بكوارث تصل إلى عشرات الألوف من الجنيهات... عشرات الألوف من الجنيهات! (وكان يكرر العبارة بتلذذ عظيم). وأنت كنت دائمًا حتى الآن من (الأيدي) الراسخة، ولكني أرى الآن، وأُصارحك القول، إنك بسبيل التحول إلى طريق الضلالة. وأحسبك

أصغيت لغريب من الغرباء الأشرار (وما أكثرهم على الدوام حولنا) وخير ما تصنعه أن تكف عن ذلك وأنا كما ينبغي أن تعلم (وفي هذه اللحظة دلت هيأته كلها على منتهى الحصافة) ثاقب النظرة في تلك المسائل، أكثر من معظم الناس، ربما كان ذلك لما عانيت من الشظف في حداثتي، وإني لأرى بوادر حساء السلاحف ولحم الصيد والملعقة الذهبية في هذه القضية. أجل إني لأرى هذا! (وجعل مستر باوندربي يصرخ ويهز رأسه بإصرار) إي وربي! إني لأرى هذا رأي العين!

وبهزة مختلفة جدًّا عن هزة مستر باوندربي، وبزفرة حري قال ستيفن:

- شكرًا لك يا سيدي، وأسعد الله يومك.

وهكذا غادر مستر باوندربي تنتفخ أوداجه وهو ينظر إلى صورته على الحائط كأنه يوشك أن ينفجر فيها، ومسز سبارست ماضية في غزلها الهوينا وقدمها على الركاب، وهي مغضية حسرى لما فشى في العامة من الرذائل.

الفصل الثاني عشر

العجوز

قالت العجوز وهي تُومِئ برأسها وتتشبث بسلتها كأنها تستبقي ذكرى غالية:

ـ أجل يا ولدي، لأراهم وحسب! إنما أجيء لأرى عظمة هؤلاء السادة... أراهم كيف يسيرون، كيف يرفعون رؤوسهم، كيف ينظرون في عيون الناس، كيف يأمرون فيُطاعون، وكيف يضحكون ملء قلوبهم وهم مطمئنّون لا يخشون شيئًا... لا أحد يشبههم في شيء، ولا يشبهون أحدًا في شيء!

ثم تنهدت تنهيدة عميقة وقالت بصوت خافت:

ـ أنا عجوز واهنة، ولكن قلبي ما زال يختلج حين أراهم... وما زلت حين أعود أدعو لهم بطول العمر ودوام الرفعة.

تأمل ستيفن وجهها المشرق ببهجة غريبة لا يراها عادة في الوجوه العابرة، وقال لها:

ـ وهل تعرفينهم معرفةً شخصية؟ أعني هل تكلمينهم حين تأتين؟

أجابت وهي تضحك ضحكةً قصيرة فيها مسحة خجل:

ـ كلّا يا ولدي... لا أكلمهم ولا يرونني أصلًا... إنما أراهم من بعيد، أو ألتقط لهم نظرةً عابرة من شق باب، أو ألمحهم من نافذة عربة أو وراء زجاج نافذة بيتهم... وهذا يكفيني.

فسألها ستيفن بدهشةٍ تفيض أسىً خفيًّا:

ـ أتجشّمتِ عناء أربعين ميلًا ذهابًا وأربعين ميلًا إيابًا، ومشيتِ تسعة أميال ذهابًا وتسعةً إيابًا، وكل ذلك لتظفري بنظرةٍ عابرة؟!

قالت العجوز، وصوتها يتهدج بشيء من العناد المشوب بالعاطفة:

ـ نعم! وهل في العمر متّسع لأكثر من ذلك؟! تلك هي بهجتي الوحيدة يا ولدي... عامٌ كاملٌ أعيش على ذكرى تلك النظرات، وأدخر بعض قوتي لأجلها... تلك لحظتي الصغيرة التي أهرب فيها من شيخوختي وفقر الريف ووحدته.

ثم أسندت ظهرها إلى جدار قريب، وأردفت وقد ران على عينيها ضباب من الذكريات:

ـ صدّقني يا ولدي، ما من ثراءٍ في هذه الدنيا يُساوي عندي متعة هذه الرحلة... إنني أراهم فأشعر أني لستُ غريبةً تمامًا عن هذا العالم العظيم... وكأن في روحي جذوةً تتوهّج مرةً في العام فلا تنطفئ كليًّا.

سكتت قليلًا ثم ابتسمت ابتسامةً رقيقة وقالت:

ـ ولكن أخبرني عن نفسك يا ولدي... ألستَ أنت أيضًا واحدًا من «الأيدي»؟

أومأ ستيفن برأسه إيماءة قصيرة، ثم قال بصوت هادئ فيه نبرة خفيفة من المرارة:

ـ بلى... لستُ إلا يدًا تعمل... ولا يراني أحد من السادة.

رمقته العجوز بنظرة طويلةٍ فيها حنان، ثم تمتمت كأنها تحدث نفسها:

ـ نعم... ولكنكم أنتم صانعو كل هذا المجد... لولاكم لما بقي للمدينة مجدٌ ولا للسادة سلطان...

ثم اعتدلت في وقفتها وقالت كأنما تذكّرت شيئًا:

ـ سامحني يا ولدي على تطفّلي وكثرة كلامي... لكن قل لي: هل السيد الذي جئتَ من عنده...

كان في حال طيبة اليوم؟ أكان مطمئنًّا راضيًا؟

أجابها ستيفن، وفي قلبه شيءٌ من الشفقة الممزوجة بالاستغراب:

ـ أجل يا سيدتي... كان راضيًا مسرورًا يأكل ويشرب ولا يُبالي بشيء.

أضاء وجهها بنور صادق وقالت في لهفة:

ـ الحمد لله... الحمد لله! هذا كل ما جئتُ لأعرفه.

وسكتت العجوز لحظةً ثم مالت برأسها نحو ستيفن وسألته:

ـ ألستَ ترى أنني مجنونةٌ قليلًا يا ولدي؟

أجابها ستيفن وهو يبتسم ابتسامةً شاحبة:

ـ لا يا سيدتي... لستِ مجنونة... ولكن قلبكِ لا يزال حيًّا... وذلك شيء لا يُسمّى جنونًا.

فأجابته في إخلاص عميق ولهفة صادقة:

– ذلك حسبي، ولا أطمع في أكثر من ذلك! لقد كنتُ أطوف حول البيت من هذا الجانب من الطريق، علّني أظفر برؤيته – وأدارت رأسها إلى الوراء حيث بيت مستر باوندربي – لكنه تأخر هذا العام عن عادته فلم يخرج، وبدلًا منه خرجتَ أنت، والآن، إن قُدّر لي أن أعود أدراجي دون أن أراه – وكل ما أبتغي هو لمحة واحدة – فها أنا قد رأيتُك، وأنت قد رأيته، وبهذا أكتفي.

قالت ذلك ونظرت إلى ستيفن نظرةً كأنما تحفر ملامحه في ذاكرتها، لكن عينيها لم تعدا تلمعان كما كانتا من قبل.

ومهما بلغ التسامح مع اختلاف الأهواء، ومهما بلغ الخضوع لرموز كوكتاون، بدا الأمر في نظر ستيفن أمنيةً غريبة تستحق كل هذا العناء، فاستولى عليه حيرة صامتة. وكانا إذ ذاك يمران بكنيسة، فالتفتت عيناه إلى الساعة وحثّ خطاه.

وسألته العجوز، وهي تسابقه بخطى خفيفة: أإلى عملك تمضي؟ فأجابها أن وقته قد حان. ولما علمت أين يعمل، ازدادت غرابة أمرها وسألته:

– ألستَ سعيدًا؟

فأجابها بنبرة مزيجة بالروغان، إذ خُيّل إليه أنها تعتقد يقينًا أنه أسعد الناس، فلم يشأ أن يخيّب رجاءها:

– لا يكاد يوجد إنسان في هذه الدنيا يا سيدتي يخلو من همّ.

وكان يعلم علم اليقين أن في الدنيا من الهموم ما يكفي الخلق جميعًا، فإن كانت هذه العجوز قد طوت عمرها على ظنٍّ أن نصيبه من تلك الهموم ضئيل، فلتنعم بهذا الوهم، فما هو بضاره.

فقالت العجوز:

– آي، آي! لعلك تعني أن همّك في بيتك؟

فأجابها في لهجة ميسّرة:

– أحيانًا... بين الحين والآخر.

– لكن تلك الهموم لا تلاحقك وأنت تعمل في مصنعٍ لسيد مثل هذا؟

فقال لها ستيفن إن همومه لا تلاحقه هناك حقًا، فكل شيء في مكانه، وكل شيء على ما يرام (ولم يُرِد أن يدّعي إرضاءً لها أن شيئًا من الحق الإلهي يسود هناك، وإن كان قد سمع في الأعوام الأخيرة أقوالًا تدّعي مثل ذلك.)

وكانا قد بلغا الطريق الجانبي المظلم قرب المصنع، وكان «الأيدي» يتدفقون إلى الداخل والجرس يدقّ دقاته، والأفعى قد استحالت أفاعيَ متشابكة، والفيل يتأهب بحمله الثقيل. وكانت العجوز الغريبة متهللة لما تسمعه من رنين الناقوس، فقالت إنه أجمل جرس سمعته في حياتها، وأشدها وقْعًا في النفس.

وقبل أن يدخل المصنع، وقفا قليلًا ليشدّ على يدها في ودّ صادق، فسألته:

– كم مضى عليك وأنت تعمل هنا؟

فقال لها:

– اثنتا عشرة سنة.

فقالت في حنوّ:

– إذن ينبغي لي أن أقبّل اليد التي عملت في هذا المصنع الرائع اثنتي عشرة سنة!

ورفعت يده إلى شفتيها رغم محاولته منعها. ولم يفهم ستيفن سرّ هذا التناسق الذي يحيط بها، فضلًا عن سنّها وبساطتها. حتى في هذا الفعل الغريب، كان ثمة شيء لا ينبو عن الزمان أو المكان؛ شيءٌ ما لم يكن لأحدٍ غيرها أن يفعله بتلك الجدية وتلك الطبيعة المؤثرة.

وبينما كان يعمل أمام نوله، استغرق نصف ساعة يفكر فيها. ثم إذ التفت ناحية النافذة القريبة، رآها ما تزال واقفة تتأمل البناء، كأنها مأخوذة بروعةٍ

صامتة؛ لا تعبأ بدخانٍ ولا طينٍ ولا بللٍ، ولا برحلتيها الطويلتين. كأن ذلك الطنين العاتي المنبعث من أدوار البناء له في أذنيها وقع موسيقى شامخة.

ثم انصرفت بعد قليل، ومضى النهار في إثرها، ثم أقبل الليل بضيائه المصطنع، وانطلق القطار السريع على الأقواس القريبة، فبدت القصور المسحورة في أوج بهائها. لم يشعر ستيفن بمروره وسط هدير الآلات، ولم يكن لصوته أثر في ضجيجها العاتي.

وقبل ذلك بوقتٍ طويل، كانت أفكاره قد عادت إلى تلك الحجرة الصغيرة الكئيبة فوق الدكان الحقير، وإلى تلك الهامة الثقيلة المنكّسة على السرير، وإن ثقلها على قلبه لأشد وقعًا وأقسى.

ثم خفّ إيقاع الآلات كنبضٍ يتباطأ، حتى توقفت. ودقّ الجرس من جديد، فتبدّد وهج الضوء والحرارة، واستسلمت المصانع لليل الرطب الكئيب، ومدخناتها الطويلة قائمة في العراء كأبراج بابل تتنافس في العلوّ.

بالأمس فقط، نعم، كان حديثه مع راشيل، وسار معها بعض الطريق، لكن ذلك الجرح الذي ينزف في صدره لم يكن لأحدٍ سواها أن يسريه عنه لحظة. ولذا، ولأنه وجد في نفسه حاجةً ماسّة إلى ذلك العزاء الهادئ الذي لا تمنحه إلا كلماتها، رأى ما يسوّغ انتظاره لها، على الرغم مما حرمته عليه من ذلك الانتظار. غير أنها تفادت لقياه، وانصرفت، وما من ليلةٍ كانت أشدّ عليه من هذه الليلة حرمانًا من وجهها الوادع بالصبر.

آهٍ، لو أن له بيتًا يأوي إليه برأسه المُثقَل! لقد كان أهون عليه ألا يكون له بيت، من أن يكون له بيتٌ يكره الرجوع إليه لما فيه من بلاء. أكل وشرب لأنه كان مرهقًا، دون أن يدري ما أكل ولا ما شرب، ثم خرج يهيم تحت المطر الغزير، يفكر ثم يفكر، ويسلمه الصمت إلى صمتٍ أعمق.

لم يحدث بينهما قط حديث عن زواج جديد، غير أنّ راشيل قد ملكتها منذ سنين شفقة عميقة عليه؛ ولها وحدها أفصح قلبه المغلق طوال تلك المدة عن أسباب بؤسه ومكابدته. وكان يعلم علم اليقين أنّه لو استطاع أن يطلب يدها لما توانت عن قبولها، ولما تأخرت عن أن تجعله زوجًا لها. وأخذ يتأمل في البيت الذي كان آنذاك يلوذ به قرير النفس، مزهوًّا بفرحته، وكيف كان من حقّه أن يكون في تلك الليلة رجلًا آخر، تغمر صدره الطمأنينة التي أثقلته الهموم وأهلكته الكروب. وخيّل إليه كم كان جديرًا أن يسترد كرامته واحترامه لذاته وسكينة قلبه التي مزقتها الأقدار شرّ ممزق. وتفكّر في ضياع أعزّ سنوات عمره، وكيف غدت أخلاقه كل يوم تنحدر من سوء إلى أسوأ. واستعرض بشاعة حياته وهو مقيد بامرأة ميتة قلبًا وجسدًا، لا يزيده شيطانها المتقمص وجهها إلّا عذابًا فوق عذاب.

ثم فكّر في راشيل نفسها، وكيف كانت يوم التقاها لأول مرة فتًى غريرة القلب، وكيف صارت اليوم امرأة ناضجة حكيمة، ثم كيف سيمرّ عليها الدهر بعد حين فتغدو عجوزًا موهَنة الجسد. وفكّر كم من فتيات ونساء رآهن يقترنّ، وكم من بيوت شاهد فيها الأطفال يكبرون ويملأون الأرجاء بالحياة، وكيف بقيت هي ماضيةً في دربها الخاص، راضيةً صابرةً لأجله وحده، لا تطلب جزاءً ولا شكورًا. واستحضر في ذهنه تلك الظلال العابرة من الحزن التي كان يبصرها أحيانًا تلوح على محياها الوادع، فكانت تلسعه بلسعات ندمٍ موجعٍ ويأسٍ مرير. ثم قرن صورتها النقية بصورة تلك البائسة المزرية التي رآها في الليلة الماضية، فساءل نفسه في حيرة: كيف يكون مصير تلك المرأة الوديعة الطاهرة الخفيّة رهنًا لمشيئة هذه الشقية المنكودة؟!

وامتلأ صدره بهذه الخواطر حتى كاد من فرط ما اعتملت في جوانحه أن يشعر كأن صدره قد ضاق ذرعًا بها حتى بلغ حدّ الاختناق، وخيّل إليه أنّ إدراكه للأشياء من حوله قد انقلب انقلبًا مقلقًا سقيمًا، وأنّ الهالات الباهتة حول الأضواء أمام عينيه قد احمرّت بلونٍ يثير الفزع. فأسرع إلى بيته ملتمسًا في عتمته سكينةً وملاذًا يقيه غوائل الهموم.

الفصل الثالث عشر

راشيل

كانت ثمة شمعة تحترق بشعلة خافتة في النافذة التي كثيرًا ما رُفع إليها السلم الأسود كي يتسرب منه أثمن ما في العالم الزوجة المكافحة والشرذمة من الأطفال الجياع. وأضاف ستيفن إلى خواطره الأخرى خاطرًا جهمًا عن عوارض الحياة وأنه ما من عارض من بينها جميعًا يوزع توزيعًا شديد التفاوت كالموت، فتفاوت المولد ليس بالقياس إليه شيئًا مذكورًا فهب أن طفلًا وُلد لمَلِكٍ وطفلًا وُلد لنسّاجٍ في هذه الليلة في لحظة واحدة، فأي تفاوت بين هذين المولدين بالقياس إلى التفاوت بين ممات أي إنسان ذي نفع لغيره أو محبوب منه وبين بقاء تلك المرأة المنبوذة على قيد الحياة!

واجتاز مكتئبًا من خارج داره إلى داخلها، معلق الأنفاس بطيء الخطو. وصعد إلى بابه وفتحه ثم دخل الحجرة.

كان السلام والهدوء سائدين هناك؛ لأن راشيل كانت هناك جالسة بجوار الفراش.

وحولت إليه وجهها، فأضاء إشراقه ديجور بلباله، وهي جالسة بقرب الفراش ترقب زوجته وترعاها، أي أنه تبين شخصًا راقدًا هناك. وكان يعلم علم اليقين أنها لا بد أن تكون هي، وإن كانت راشيل قد وضعت بيديها هناك ستارًا حجبها عن عينيه. وكانت ثيابها الزرية قد رفعت، وحلت بعض ثياب راشيل في الغرفة،

وكان كل شيء في موضعه وعلى النسق الذي يلتزمه دائمًا. وثمة نار يسيرة قد أعدت لساعتها، وحرم المدفأة مكنوس. وخيّل إليه أنه رأى ذلك كله في وجه راشيل، فلم ينظر إلى شيء سواه. وكانت نظرته إلى وجهها تغشيها دموع الحنان التي ملأت عينيه، ولكن بعد أن تبين عمق نظرتها إليه وقد امتلأت عيناها أيضًا بالدموع.

وحولت وجهها مرة أخرى صوب الفراش، فلما اطمأنت إلى أن كل شيء هناك هادئ، تكلمت بصوت خافت ثابت بهيج:

- يسرني أنك أتيت أخيرًا يا ستيفن، لقد تأخرت جدًّا.

- كنت أزرع الطرقات.

- هذا ما خطر ببالي. ولكن جو الليلة من السوء بحيث لا يستطاب فيه التجوال، فالمطر ينهمر بشدة والريح عاصف.

- الريح؟ هذا حق. وإن هبوبها لعنيف. أصغ السمع إليها قاصفة في المدفأة بضجة مائجة! فكيف المسير في تلك الريح ولا يدري بهبوبها!

- لقد جئت إلى هنا مرة قبل هذا اليوم يا ستيفن لأن صاحبة الدار جاءتني في وقت العشاء وقالت لي إن شخصًا هنا بحاجة إلى الرعاية وكانت على حق في ذلك فعلًا، فهي تهذي غائبة الرشد يا ستيفن، وهي مصابة أيضًا بجراح ورضوض.

واتجه ببطء نحو مقعد وجلس فوقه مطرقًا برأسه أمامها.

- ... فجئت لأصنع لها اليسير الذي يسعني يا ستيفن أن أصنعه. أولًا من أجل زمالتها القديمة في العمل عندما كنا كلتانا فتاتين، ثم لأنك خطبتها وتزوجتها عندما كنت صديقتها...

فوضع جبينه المقطب فوق يده وهو يئن أنة خافتة.

- وثانيًا لأنني أعرف قلبك، وأنا جد واثقة وموقنة أن قلبك أرحم من أن يدعها تموت، بل وأرحم من أن يدعها تتعذب لافتقارها إلى العون وإنك لتعلم من هو القائل: (من كان منكم بلا خطيبة فليرمها بحجر أولًا!) وما أكثر من رموها بأول حجر ولست أنت الرجل الذي يرميها بآخر حجر يا ستيفن، وقد بلغت هذا الحضيض.

- أوه. راشيل! راشيل!

فقالت بنبرات حانية:

- إنك قاسيت عذابًا شديدًا، أحسن الله جزاءك عنه! وإني صديقتك الضعيفة بكل قلبي وفكري.

وكانت الجراح التي ذكرتها على ما يبدو عند عنق تلك التي جرت على نفسها النبذ، فأقبلت راشيل عليها تضمدها من غير أن تظهرها له وضعت قطعة من القماش في وعاء صبت فيه سائلًا من قارورة ثم بسطتها برفق فوق موضع الإصابة. وكانت المنضدة ذات الأرجل الثلاثة قد قربت من الفراش وعليها قارورتان، تلك إحداهما.

ولم تكن القارورة بعيدة، فاستطاع ستيفن وهو يتتبع يديها بعينيه أن يقرأ ما كان مكتوبًا عليها بحروف كبيرة، فاكفهر لونه جدًّا وطغى عليه إحساس مفاجئ بالرعب، وقالت راشيل وهي تجلس بهدوء:

- سأبقى هنا يا ستيفن إلى أن تدق الساعة الثالثة، إذ يجب إعادة الكرة في الثالثة، ثم يتسنى تركها حتى الصباح.

- ولكن لديك عمل غدًا يا عزيزتي!

- كان نومي في الليلة الماضية عميقًا، وأستطيع أن أسهر ليالي كثيرة حينما يلزم الأمر، بل أنت المحتاج للراحة... فما أشد شحوبك وإعياءك فاجتهد أن تنام في ذاك المقعد وأنا ساهرة فأنت لم تنم الليلة الماضية فيما أعتقد. وسيكون العمل غدًا أشق عليك بكثير مما سيكون عليَّ.

وصك سمعه الهدير والهزيم في الخارج، وخيّل إليه أن ثورة غضبه السابقة تحوم جاهدة كي تصل إليه، ولكنه يركن إليها في حمايته من نفسه.

- إنها لا تعرفني يا ستيفن، وإنما تتمتم وتحملق وهي مهومة وقد كلمتها مرارًا فلم تفطن لكلامي! وفي هذا خير عندما تثوب إلى رشدها سأكون قد فعلت ما في وسعي وهي لا تدري عن ذلك شيئًا.

- وكم ينتظر أن تطول يا راشيل حالتها هذه؟.

- قال الطبيب إنها ربما ثابت لوعيها غدًا.

ووقعت عيناه مرة أخرى على القارورة وسرت فيه رجفة جعلته يرتعد من فرعه لقدمه، فخطر لها أن البلل أصابه ببرد ولكنه قال لها إن الأمر ليس كذلك وإنما هو فزع.

- فزع؟

- نعم. نعم! عندما دخلت، فحينما كنت سائرًا، وكنت أفكر... كنت...

تملكته الرعدة مرة أخرى، فوقف متشبثًا برف المدفأة وجعل يضغط شعره المبلل المقرور بيد ترتجف كأن بها فالجًا.

- ستيفن!

واتجهت صوبه، بيد أنه بسط ذراعيه يستوقفها:

- لا! أرجوك لا! دعيني فقط أنظر إليك جالسة بجوار الفراش. دعيني أنظر إليك في كل طيبتك وتسامحك. دعيني أنظر إليك كما رأيتك عندما دخلت. فلن يتسنى لي أن أراك على خير من ذلك النحو لن ولن ولن!

وأصابته نوبة ارتجاف عنيفة ثم تهاوى في مقعده، وبعد برهة تمالك نفسه. واستطاع وهو معتمد بمرفقه على ركبته معتمدًا برأسه على تلك اليد أن ينظر صوب راشيل، فبدت له في ضوء الشمعة الحائل من خلال عينيه النديتين وكأنما تحيط برأسها هالة من نور. وكان حقيقًا أن يصدق بهذا، إنه صدق به، والضجة في الخارج تهز النوافذ وتصك الباب السفلي وتدور حول البيت صارخة معولة.

- عندما تتحسن حالتها يا ستيفن نرجو أن تدعك لشأنك مرة أخرى، ولا تمعن في إيذائك، هذا على كل حال ما نرجوه الآن، وسألتزم الآن الصمت لأني أريد لك أن تنام.

وأغمض عينيه إرضاءً لها أكثر مما أغلقهما لإراحة رأسه المكدود. بيد أنه شيئًا فشيئًا انقطع عن سماع الضجة العظيمة التي تحدثها الرياح بعد أن كان مصغيًا لها، أو لعلها استحالت إلى صوت دوران نوله، أو إلى أصوات النهار (بما فيها صوته هو) تسرد ما قيل بالفعل، ثم لم يلبث هذا الوعي الناقص أن تلاشى أخيرًا ورأى حلمًا طويلًا مضطربًا خيّل إليه أنه هو وامرأة كان قلبه متعلقًا بها منذ زمن طويل - ولكنها لم تكن راشيل، وقد أدهشه هذا وهو في عنفوان سعادته المتخيلة - واقفان في الكنيسة لعقد قرانهما، وأثناء إجراء المراسم، وفيما هو يتعرف بين الشهود على بعض ممن يعلم أنهم أحياء، وعلى كثيرين ممن يعلم أنهم موتى، سادت الظلمة ثم أعقبها انبلاج ضوء هائل منبثق من أحد سطور لوح الوصايا فوق المذبح، فأضاء البناء بكلماته. ورنت الكلمات من جنبات

الكنيسة أيضًا، كأنما ثمة أصوات في حروفه النارية. وعندئذٍ تغير المنظر كله فيما أمامه وما حوله ولم يبقَ شيء ما على حاله عداه هو والكاهن، فوقفا في ضوء النهار أمام حشد حاشد، حتى لو جمع أهل الدنيا برمتهم معًا في موضع واحد لما بدوا - فيما يعتقد - أكثر عددًا، وكانوا كلهم يبغضونه، فليس في ملايين العيون المسلطة على وجهه عين واحدة تبدي له الشفقة والمودة، وكان واقفًا فوق نصب مرتفع تحت نوله، يتطلع إلى الشكل الذي يتخذه النول ويستمع إلى صلاة الجنازة تتلى بوضوح، إذ كان يعلم أنه واقف هناك ليذوق الموت، وفي لحظة واحدة تهاوى من تحته ما كان واقفًا فوقه فقضى.

وهو لا يدري بأي وسيلة خفية ثاب إلى حياته المألوفة، وإلى أماكن كان يعرفها، ولكنه ثاب إلى تلك الأماكن بوسيلة ما، وقد حاقت به لعنة الحرمان ما عاش - سواءً في هذه الدنيا أو في الحياة المقبلة على مدى آماد من الأبدية لا يحيط بها التصور - من النظر إلى وجه راشيل أو سماع صوتها، ومضى هائمًا جيئةً وذهوبًا بغير انقطاع وبغير أمل ينشد ما لا يدري فكل ما يدريه أنه قد ضرب عليه نشده فريسة فزع مروع ليس له اسم، وخوف مميت من شكل واحد معين تتخذه جميع الأشياء فكلما نظر إلى شيء استحال الشيء إلى تلك الصورة إن عاجلًا أو آجلًا، فكل همه في وجوده الشقي أن يحول دون تعرف أحد من الكثيرين الذين يلتقي بهم على هذا الشكل المفزع، ولكن هيهات! فهو حين يقتادهم خارج الحجرات التي يكون فيها، وحين يغلق الأدراج والخزائن التي يوجد بها، وحين يخرج الفضوليين من الأماكن التي يعلم أنه يستخفي فيها، ويمضي بهم إلى الطرقات، يجد مداخن المصانع قد اتخذت ذلك الشكل، ومن حولها يرى الكلمة المطبوعة.

وعادت الريح للهبوب، وأخذ المطر يضرب سطوح البيوت، وتقلصت المسافات الشاسعة التي هام فيها، فانكمشت داخل جدران حجرته الأربعة، وحسب أن النار خمدت فإذا بها كما كانت عندما أغلق عليها عينيه، ويبدو أن راشيل استغرقت في النعاس فوق مقعد بجوار الفراش، فهي ساكنة تمامًا ملتفة في جلستها بوشاحها، والمنضدة قائمة في موضعها بالقرب من السرير، وعليها - ولكن في المظهر والنسب الحقيقيين - ذلك الشكل الذي تكرر كثيرًا.

وخيّل إليه أنه يرى الستار يتحرك، فألقى نظرة أخرى وتأكد أنه يتحرك ورأى يدًا تمتد وتتحسس ما حولها قليلًا، ثم تحرك الستار بصورة أوضح، وأرخته المرأة الراقدة في الفراش ثم جلست.

وبعينيها المنكودتين الزائفتين الضارتين الثقيلتين الواسعتين راحت تنظر في أرجاء الحجرة وتجاوزت الركن الذي ينام فيه على مقعده، ثم عادت عيناها إلى ذلك الركن وظللتهما بيدها وهي تحقق النظر، ومرة أخرى جالت العينان في الحجرة غير منتبهتين تقريبًا إلى وجود راشيل ثم رجعتا إلى ذلك الركن، وجال بخاطره وهي تظللهما مرة ثانية - لا لتنظر إليه بل على الأرجح لتبحث عنه بما لديها من إحساس غريزي حيواني أنه موجود هناك - أنه لم يعد هناك أثر واحد في تلك الملامح الشائهة ولا في ذلك العقل المقرون بها لتلك المرأة التي تزوجها لثمانية عشر عامًا خلت ولولا أنه رآها تصل إلى ذلك الدرك إصبعًا إصبعًا لما استطاع أن يصدق أنها هي وكان طيلة ذلك الوقت كمن ران عليه سحر فلم يتحرك ولم يقدر على شيء سوى مراقبتها وجلست برهة قصيرة تهوم ببلاهة أو تِسارُّ نفسها العاجزة في لا شيء ويداها على أذنيها، ورأسها مستقر فوقهما، وبعد قليل استأنفت التحديق في أرجاء الحجرة، وعندئذٍ وقفت عيناها لأول مرة عند المنضدة وعليها القارورتان.

وعلى الفور ردت عينيها إلى ركنه وفيهما تحدي الليلة الماضية. ثم بحركة شديدة الحذر والخفوت مدت يدها الشرهة وجرت إلى الفراش كوزًا وجلست برهة تفكر أي القارورتين تختار. وأخيرًا ألقت قبضتها المخبولة على القارورة التي فيها الموت العاجل المحقق. وأمام عينيه نزعت السداد بأسنانها.

حلمًا كان أم حقيقة، لا صوته أسعفه، ولا القدرة على الحركة واتته، فإن كان حقيقة؛ ولم يكن أجلها المقسوم قد حان، فيا راشيل استيقظي!

وفكرت هي في ذلك أيضًا فنظرت صوب راشيل، وببطء وحذر شديدين صبت محتويات القارورة، وها هي الجرعة على شفتيها. وإن هي إلا لحظة حتى تكون قد عدت كل غوث ولو انبرت الدنيا بأسرها لذلك بكل ما تملك من طاقة. ولكن في هذه اللحظة أطلقت راشيل صيحة مكتومة، وقاومتها المرأة ولطمتها وشدت شعرها، ولكن راشيل استولت على الوعاء.

وانطلق ستيفن من كرسيه يقول:

- أيقظان أنا أم حالم يا راشيل بهذه الليلة الفظيعة؟!

- كل شيء على ما يرام يا ستيفن، كنت أنا أيضًا نائمة.

- الساعة الآن قاربت الثالثة، صه! ها أنا ذا أسمع الأجراس.

وحملت الرياح أصوات ساعة الكنيسة إلى النافذة، وأنصتوا، فإذا هي تدق ثلاثًا، ونظر إليها ستيفن فرأى مبلغ شحوبها ولاحظ تشعث شعرها والآثار الحمراء التي تركتها الأصابع على جبينها، فتأكد لديه أن حواس النظر والسمع عنده كانت يقظانة، بل ها هي ذي لم تزل قابضة على الوعاء في يدها.

وقالت وهي تسكب ما في الوعاء بهدوء في الآنية وتدلي فيها القماش كذي قبل:

- كنت أظن الساعة قرب الثالثة حتمًا، وإني لأحمد أني بقيت، ومتى فرغت من هذا سيكون كل شيء قد تم هاك! والآن ها هي قد ثابت للهدوء. وأما القطرات الباقية في الآنية فسألقي بها، فليس من الخير ترك شيء من هذا السائل، مهما قل.

وألقت، وهي تتكلم، بما في الآنية في رماد النار وكسرت القارورة فوق حاجز المدفأة، ولم يبق أمامها عندئذٍ سوى أن تُغطي نفسها بوشاحها قبل أن تخرج إلى الرياح والمطر.

- ألا تدعيني أسير معك في هذه الساعة يا راشيل؟

- لا يا ستيفن في دقيقة واحدة سأبلغ البيت.

فقال لها بصوت منخفض وهو يوصلها إلى البيت:

- ألا تخافين أن تتركيني وحدي معها؟!

فلما نظرت إليه قائلة:

- ستيفن!

ركع على ركبته أمامها على درجات السلم الحقيرة ورفع هدب وشاحها إلى شفتيه قائلًا:

- أنت ملك. باركك الله، باركك الله!

- إني كما قلت لك يا ستيفن صديقتك الضعيفة، فالملائكة لا تشبهني، وبينها وبين امرأة عاملة حافلة بالنقائص هوة سحيقة، إن أختي الصغيرة منهم، ولكنها تغيرت.

ورفعت عينيها برهة وهي تقول تلك الكلمات، ثم حطتهما بكل ما فيهما من لطف ووداعة فوق وجهه:

- أنتِ تحولينني من الشر إلى الخير، وتحثينني على التشبه بكِ، خوفًا من أن أفقدك عندما تنتهي هذه الحياة وتتكشف الغمة. أنت ملك، ولعلك أنقذت روحي!

فنظرت إليه وهو جاثٍ على ركبتيه عند قدميها، ويده لم تزل قابضة على وشاحها، فماتت الملامة على شفتيها عندما أبصرت انفعال وجهه.

- ... لقد عدت إلى البيت قانطًا، عدت إلى البيت بلا أمل، أكاد أجن كلما فكرت أنني حين أطلق كلمة شكاة أُعتبر (يدًا) مختلًّا، لقد قلت لك إني فزعت، وكان ذلك بسبب قارورة السم التي رأيتها على المنضدة إني لم أوذِ مخلوقًا حيًّا في حياتي، ولكني إذ فوجئت بها قلت في نفسي: (ترى ماذا عسيت أن أصنع بنفسي، أو بها، أو بكلينا؟!).

ووضعت يديها على فمه، وقد ارتسم الذعر على وجهها، لتكفه عن الاسترسال، فأمسك بهما في يده الخالية، ويده الأخرى قابضة على هدب وشاحها، وقال على عجل:

- ولكني رأيتكِ يا راشيل جالسة بجانب الفراش، وظللت أراك طيلة هذه الليلة. وحتى في نومي المضطرب كنت أعلم أنكِ ما زلتِ هناك. وسأظل أراكِ هناك إلى الأبد. ولن أراها أو أفكر فيها إلا وتمثلتك بجوارها. ولن أرى شيئًا يسخطني أو أفكر فيه إلا وتمثلتك فيه - يا من تفضلينني بآماد كثيرة - ماثلة بجواره. وهكذا سأجتهد أن أنظر إلى الزمن، وبذلك سأحاول أن أطمئن إلى مجيء الأوان الذي أمشي فيه أنا وأنت معًا منطلقين إلى بعيد، متجاوزين الهوة السحيقة إلى المملكة التي فيها شقيقتك الصغيرة.

وقبّل هدب وشاحها مرة أخرى ثم أطلقه. وألقت عليه تحية الليل بصوت متكسر ثم خرجت إلى الشارع.

وكانت الريح تهب من الحي الذي سيبزغ منه النهار بعد قليل، ولم تزل عنيفة في هبوبها، فكشفت السماء أمامها. ونضب معين المطر أو لعله انتجع مكانًا آخر وتلألأت النجوم. ووقف ستيفن عاري الرأس في الطريق يرقب اختفاءها السريع. وكما كانت النجوم الوضاءة بالقياس إلى الشمعة الكليلة في النافذة، كذلك كانت راشيل - في مخيلة ذلك الرجل العاصفة - بالقياس إلى التجارب المألوفة في حياته.

الفصل الرابع عشر

الصانع العظيم

والزمن في كوكتاون يمضي كما تمضي آلاتها: قدر كبير من المادة يُشكل، وقدر كبير من الوقود يستهلك، وقدر كبير من القوى يستنفد، وقدر كبير من المال يستحدث. بيد أن الزمن أقل من الحديد والفولاذ والنحاس صرامةً، فهو يأتي بفصوله المتباينة إلى قلب تلك البرية من الدخان والآجر، وبذلك يقيم مركز المقاومة الأوحد في ذلك المكان ضد رتابته الفظيعة.

قال مستر جراد جرايند:

- ها هي ذي لويزا أوشكت أن تغدو شابة وكان الزمن بقواه التي لا تُحصى ماضيًا في وجهته غير مبالٍ بما يقول أي إنسان، فسرعان ما أطال قامة توماس الصغير بمقدار قدم زيادة على آخر مرة فطن فيها أبوه إليه بصفة خاصة.

قال مستر جراد جرايند:

- ها هو ذا توماس أوشك أن يغدو شابًا.

وفيما كان أبوه يفكر في ذلك استأنف الزمن إزجاء توماس بين دواليبه، وها هو ذا قائم في سترة طويلة الذيل وياقة قميص منشاة.

وقال مستر جراد جرايند:

- الحقيقة أن الأوان قد أزف كي يذهب توماس لدى باوندربي.

وقام الزمن وهو ماضٍ في تشبثه به - بدفعه إلى مصرف باوندربي، وجعله من خلطاء بيت باوندربي، وحتم عليه شراء أولى مواسيه، ومرسه تمريسًا دائبًا بعملياته الحسابية المتصلة بالمصلحة الخاصة.

وقام ذلك الصانع العظيم - الذي تحفل يداه دائمًا بشتى ضروب العمل في سائر مراحل النمو - بإزجاء سيسي قدمًا بين دواليبه وصنع منها قطعة بالغة الحسن حقًّا. وقال مستر جراد جرايند:

- أخشى يا جيب أن يكون استمرارك في المدرسة لا جدوى منه بعد الآن.

فأجابته سيسي وهي تنحني له:

- أخشى أن يكون الأمر كذلك يا سيدي.

فقال مستر جراد جرايند مقطبًا جبينه:

- ولا يسعني أن أخفي عنك يا جيب أن نتيجة تجربتك هناك خيبت أملي... خيبت أملي كثيرًا، فلم تحصلي تحت إشراف مستر ومسز متشو كمتشايلد أيما شيء من المعلومات الدقيقة التي كنت أتطلع إليها... ودرايتك بالأرقام محدودة جدًّا. إنك متخلفة بوجه عام، ودون الحد المطلوب.

فأجابته:

- إني آسفة يا سيدي، وأعلم أن هذا حق. ولكني بذلت جهدي يا سيدي.

فقال مستر جراد جرايند:

- أجل. أعتقد أنك بذلت جهدك. وقد راقبتك، ولا أجد عليك تقصيرًا في هذا الصدد.

فقالت سيسي بخجل شديد:

- شكرًا لك يا سيدي، وقد خطر لي في بعض الأوقات أنني ربما حاولت أن أتعلم أكثر مما ينبغي ولو أنني طلبت أن يُسمح لي بأن تكون محاولتي أقل من ذلك بعض الشيء، ربما... فقال مستر جراد جرايند وهو يهز رأسه بأعمق وأقوى أسلوب عملي لديه:

- لا يا جيب. لا. إن منهج الدراسة الذي إلتزمته، إنما إلتزمته على حسب النظام المقرر... وليس هناك ما يُقال في هذه المسألة بعد هذا. وقصاراي أن أحسب ظروف حياتك الأولى كانت غير مواتية لنمو ملكاتك العقلية وأننا بدأنا متأخرين، ومع هذا فإنني كما قلت لك من قبل شعرت بخيبة أمل.

- أتمنى يا سيدي لو أنه كان في استطاعتي أن أكون أكثر عرفانًا لعطفك على فتاة مسكينة قُطِع بها ولا حقوق لها عليك فمنحتها حمايتك.

فقال مستر جراد جرايند:

- لا تذرفي العبارات، أنا لا أتشكّى منك، فأنت شابة ودود جادة طيبة، وعلينا أن نقنع بهذا.

فقالت سيسي وهي تنحني ممتنة:

- أشكرك يا سيدي شكرًا جزيلًا.

فقال مستر جراد جرايند:

- أنت نافعة لمسز جراد جرايند، وذات نفع أيضًا (بصورة عامة) للأسرة كلها. هذا ما فهمته من الآنسة لويزا، وهو مصداق لما لاحظته بنفسي. وعلى هذا آمل أن تنعمي بالحياة في تلك الحدود.

- ما كنت لأتمنى شيئًا يا سيدي لو أن...

فقال مستر جراد جرانيد:

- أدرك ما ترمين إليه. إنك ما زلت تشيرين إلى والدك، وقد سمعت من الآنسة لويزا أنك ما زلت محتفظة بتلك القارورة. حسنًا! لو أن تعليمك الخلوص إلى النتائج الصائبة اقترن بمزيد من التوفيق، لكنت الآن أحجى نظرة إلى هذه الأمور. ولا أريد أن أزيد.

وكان في الحقيقة يحبُّ سيسي حبًّا صادقًا لا يسمح لقلبه بازدرائها، ولولا ذلك الحبّ لكان استخفافه بقدراتها الحسابيّة كفيلًا بأن يدفعه إلى تلك النتيجة القاسية. غير أنّ فكرةً ما استبدّت به – على نحوٍ غامض – مؤدّاها أنّ في تلك الفتاة شيئًا لا تستطيع القوائم البيانيّة تفسيره أو الإحاطة به. صحيح أنّ قدرتها على الشرح متواضعةٌ جدًّا، وأنّ معرفتها بالحساب لا تُعتدّ بها، ومع ذلك لم يكن واثقًا أنّه لو طُلِب إليه أن يوزّعها مثلًا على جداول تقريرٍ برلمانيّ، لأحسن تصنيفها أو عرف موضعها الحقّ.

إنّ عمل الزمن في بعض مراحل صناعته للبشر سريعٌ للغاية؛ ولما كان كلٌّ من توماس الصغير وسيسي في تلك المرحلة المتقلبة من التشكل الإنساني، فقد طرأت عليهما تغيرات بالغة في عامٍ أو عامين، في حين ظلّ مستر جراد جرايند غارقًا في حاله، لم يتغير منه شيء، إلّا أمرٌ وحيدٌ لا يمسّ جوهره، إذ ساقه الزمن إلى آلةٍ صاخبة جانبية كثيرة الأوضار، فصاغت منه عضوًا في البرلمان عن دائرة كوكتاون؛ فغدا واحدًا من أولئك الأعضاء العارفين بالموازين والمكاييل، وممثّلًا أمينًا لجدول الضرب، وانضمّ إلى طائفة السادة الصمّ الموقرين، والبكم الموقرين، والعمي الموقرين، والعرج الموقرين، والموتى الموقرين، كلّما تعلّق الأمر بأي شأن سوى تلك الجداول والمقاييس. وإلّا، فما معنى العيش في بلدٍ مسيحيٍّ مضى عليه نيّف وثمانية عشر قرنًا منذ الميلاد؟

وكانت لويزا، طَوال ذلك الوقت، تمضي في نموّها هادئةً متحفظة، مولعةً بمراقبة الرماد المتوهج عند الغسق إذ يهبط في المدفأة فيخبو. حتى إنّ أباها، منذ أن قال ذات يومٍ إنّها تغدو شابّة – وكأنّ ذلك كان بالأمس القريب – لم يلحظ نموها إلا حين وجدها أمامه وقد صارت شابّةً بالفعل، فهتف متفكرًا:

– شابة تمامًا! وي!

وبعد ذلك الاكتشاف بقليل بدا لبضعة أيامٍ أكثر تفكيرًا مما اعتاده، كأنّ ذهنه مشغولٌ بأمرٍ واحدٍ ملحّ. وفي ليلةٍ إذ همَّ بالخروج، جاءت لويزا لتودّعه قبل انصرافه – فهو لن يعود إلا متأخرًا بعد نومها – فاحتواها بذراعيه ونظر إليها نظرةً رقيقة غير مألوفة منه وقال:

– يا عزيزتي لويزا، لقد صرتِ امرأةً الآن!

فأجابته بتلك النظرة الفاحصة السريعة التي رمقته بها قديمًا ليلة ضبطها عند السيرك، ثم أطرقت وقالت:

– أجل يا أبي.

فقال مستر جراد جرايند:

– ينبغي يا عزيزتي أن أتحدث إليكِ حديثًا جادًّا على انفراد، فهل تأتين إليّ في غرفتي بعد الإفطار غدًا؟

– نعم يا أبي.

– إنّ يديكِ باردتان يا لويزا، ألستِ بخير؟

– بخير تمامًا يا أبي.

– ومنشرحة الصدر؟

فنظرت إليه مرةً أخرى وابتسمت ابتسامتها الخاصة وقالت:

– إني منشرحة الصدر يا أبي، انشراحي الذي تعرفه دائمًا، في كل وقت.

فقال مستر جراد جرايند:

– حسنٌ جدًّا.

ثم قبّلها وانصرف. وعادت لويزا إلى جناحها الهادئ الذي يشبه في طابعه دكاكين الحلاقين، واستندت بمرفقها إلى راحتها، وأخذت تتأمّل الشرر المتصاعد في المدفأة، الذي لا يلبث أن يخبو في رماده.

وبينما هي كذلك، أطّل شقيقها من الباب قائلًا:

– أأنتِ هنا يا لو؟

وكان قد صار الآن شابًّا مكتملًا، ليس اللطفُ أبرز خصاله. فأجابته وهي تنهض وتعانقه:

– عزيزي توم، لقد طال غيابك عن زيارتي!

– ذلك لأنّ عندي من الشواغل ما يكفيني كلّ مساء يا لو. وفي النهار يشغلني العجوز باوندربي بمهامّه. ولكني أستعين بكِ لتليين شدّته عندما يغلو، وهكذا نجد وسيلةً للتفاهم. أخبريني! هل قال لكِ أبونا شيئًا خاصًّا اليوم أو البارحة يا لو؟

– لا يا توم، لكنّه أخبرني الليلة أنّه يودّ أن يكلمني في أمرٍ ما صباح الغد.

فقال توم باهتمام بالغ:

– آه! هذا ما قصدته. أتدرين أين هو الليلة؟

– لا.

– سأخبركِ إذن: إنّه مع العجوز باوندربي، يسمران معًا في المصرف. وهل تعلمين لماذا هناك تحديدًا؟ سأخبركِ أيضًا: كي لا تصل مسز سبارست إلى ما يقولان بآذانها الفضولية.

وكانت لويزا واقفة، يدها على كتف أخيها تنظر إلى النار، فنظر إليها توم باهتمامٍ غير معهود، ثم طوّق خصرها بذراعه وضمّها إليه في ودٍّ وقال:

– أنتِ شديدة التعلّق بي يا لو، أليس كذلك؟

– بل إني أحبك يا توم حبًّا صادقًا، حتى وإن مضت أيامٌ طوال لا تأتي لرؤيتي.

فقال توم:

- يا أختي أنا! عندما تقولين هذا تقتربين من أفكاري. إنه لينبغي أن نكون معًا أكثر مما نحن الآن بكثير جدًّا أليس ينبغي ذلك؟ أليس ينبغي أن نكون دائمًا معًا؟ إن ذلك سيجدي عليَّ كثيرًا إن أنت حزمت أمرك على ما أعلمه يا لو، سيكون ذلك شيئًا عظيمًا بالنسبة لي، شيئًا بديعًا بصورة خارقة!

ولكن استغراقها في التفكير راغ بها من تفحصه الماكر، فلم يستطع أن يستنتج من سحنتها شيئًا، فضمها بين ذراعيه وقبل وجنتها وبادلته القبلة وهي لم تزل شاخصة البصر إلى النار.

- اسمعي يا لو! لقد ظننت أنني ينبغي أن آتِ وأُلمح لك بما يجري، وإن كنت أحسبك حرة في أن تحسمي المسألة، حتى ولو لم يكن لديك علم بها. ولكني لا أستطيع البقاء معك لارتباطي ببعض الصحاب الليلة. ألن تنسي مبلغ تعلقك بي؟

- لا يا عزيزي توم. لن أنسى ذلك.

فقال توم:

- أنت فتاة عظيمة. إلى اللقاء يا لو.

وألقت عليه تحية حارة وخرجت معه إلى الباب حيث تتراءى نيران كوكتاون ملقية على الأفق مسحة من الكآبة. ووقفت هناك تمعن إليها النظر وتصغي لوقع خطواته وهو يبتعد منطلقًا بسرعة وكأنه سعيد بابتعاده عن ستون لودج. ولم تزل واقفة هناك عندما اختفى وساد السكون. ويبدو أنها كانت تحاول، وهي تنظر أولًا إلى نار حجرتها داخل البيت، ثم الآن وهي تنظر إلى الأفق المتوهج في الخارج، أن تكتشف أي نوع من النسيج سيقوم الزمن - وهو أعظم الغزالين وأقدمهم على الإطلاق - بنسجه من تلك الخيوط التي غزلها من قبل حتى صارت امرأة. ولكن مصنع الزمن مكان محفوف بالأسرار، وعمله خافت الجرس، ويديه خرساوان.

الفصل الخامس عشر

أب وبنت

ومع أن مستر جراد جرايند لم يكن يشبه ذلك الرجل ذي اللحية الزرقاء، إلا أن حجرته كانت زرقاء بحق لما تكتظ به من كتب زرقاء الغلاف. وأيًّا كان ما تثبته هذه الكتب . وهي تثبت في العادة كل ما يُراد منها . فإنها تثبته في تلك الحجرة بتعزيز لا ينقطع، إذ ترفدها على الدوام أمداد جديدة تزيدها ثباتًا. ففي هذا الجناح المسحور كانت أعقد المسائل الاجتماعية تُجمع شتاتها، ويُستخرج حاصل جمعها في صرامة، وأخيرًا تُسوّى — لو قُدِّر لتلك الأطراف المعنية أن يبلغها نبأ تلك التسوية. وكما أن المرصد الفلكي لا يحتاج إلى نوافذ ليرصد منها الفلكي النجوم، بل يكفيه أن يضبط نظام العالم بقلمه وحبره وأوراقه، كذلك كان مستر جراد جرايند في مرصده العقلي — وهناك مراصد كثيرة شبيهة بمرصده — لا يرى حاجةً لأن يطل ببصره على حشود البشر الزاخرة حوله، إذ يكفيه أن يبتّ في مصائرهم على لوح، وأن يمسح دموعهم جميعًا بمسحةٍ واحدةٍ من قطعة إسفنج قديمة.

وإلى هذا المرصد، تلك الحجرة الجافة التي تئِنّ في ركنها ساعة إحصائية لا تكلّ، تقيس كل ثانية بضربة كأنها تُقرع على غطاء تابوت، جاءت لويزا في الصباح الموعود. كان ثمة نافذة تُشرف على كوكتاون؛ فرأت من حيث جلست بجوار

منضدة أبيها تلك المداخن الشاهقة، وشرائط الدخان المترامية تنسج في الفضاء البعيد نسيجًا كئيبًا خانقًا.

قال أبوها:

— يا عزيزتي لويزا، لقد هيأتك البارحة لأن تُصغي إليّ اليوم إصغاءً جادًّا في أمرٍ هامّ. لقد تلقيتِ تربيةً حَسَنة، ويسعدني أن أقول إنكِ أنصفتِ تلك التربية أحسن إنصاف. وإذ أعلم مقدار حكمتك في تقدير الأمور، فأنتِ لستِ من أولئك النزقين ولا من أسرى العواطف الحالمة، بل تعوّدتِ أن تنظري إلى كل شيء على أساس متين من العقل والحساب. وعلى هذا الأساس وحده، أعلمُ أنكِ ستستمعين وتُقدّرين ما سأبوح لكِ به.

ثم توقف لحظةً، كأنما ينتظر منها أن تقول شيئًا، لكنها لم تتكلم.

قال:

— لقد صرتِ يا عزيزتي لويزا موضوع خطبة زواج قُدّمت إليّ.

ثم توقف ثانية، ولمّا لم تردّ عليه بشيء، أدهشه سكوتها، فكرّر:

— خطبة يا عزيزتي.

فأجابته بهدوء خالٍ من أي أثر للدهشة أو الاضطراب:

— سمعتُ يا أبي. إني أُصغي إليك بكل انتباه، فاطمئن.

بدت عليه علامات الارتباك لبرهة، ثم ارتسمت على وجهه ابتسامة باهتة، وقال:

— حسنًا! لقد فقتِ حتى ما توقعتُه من رباطة جأشكِ أمام هذا الخبر... أو لعلكِ لم يخطر ببالك أصلًا ما سأُخبركِ به.

قالت لويزا:

— لا يسعني أن أقول ذلك يا أبي حتى أسمع ما عندك. خالية الذهن كنتُ أو غير خالية، فأنا أحب أن أسمع الأمر كله منك، وأحب أن تُوضحه لي بنفسك.

والعجيب أن مستر جراد جرايند بدا أقلّ رباطةً منها في تلك اللحظة، فمدّ يده إلى فتّاحة رسائل أمامه، قلّبها في يده ثم وضعها، ثم عاد فأمسك بها، وأخذ يتفحّص حدَّها بنظرات مترددة، كأنما يهيّئ نفسه للمضيّ في حديثه، وقال:

— كلامكِ معقول للغاية يا عزيزتي لويزا. وقد حان أن أخبركِ أن... باختصار... أن مستر باوندربي قد أفضى إليّ منذ زمن طويل أنه يراقب نشأتكِ باهتمام خاص يقترن بالسرور، وأنه أيضًا منذ زمن طويل يتمنى أن يحين يومٌ يستطيع فيه أن يعرض عليكِ يده للزواج. وها قد أزف ذلك اليوم الذي طال شوقه إليه في إصرارٍ شديد، فتقدّم بخطبته إليّ، ورجاني أن أُبلّغكِ إياها، وأن أُعرب لكِ عن أمله في أن تنظري في الأمر بعين الاعتبار والقبول.

ساد بينهما صمت ثقيل، حتى بدت دقات الساعة الإحصائية جوفاء لا روح فيها، وتكاثف الدخان البعيد حتى غدا أسودَ حالكًا كستارٍ مطبقٍ على الأفق.

قالت لويزا بهدوء متحفظ:

– أتظن يا أبي أنني أحب مستر باوندربي؟

فأربكه هذا السؤال غير المتوقع، حتى غلب عليه الارتباك وقال:

– حسنًا يا ابنتي... في الحقيقة... لا أستطيع أن أقطع في أمر كهذا برأي.

فاسترسلت لويزا بنبرتها الهادئة ذاتها:

– وهل تطلب مني يا أبي أن أحب مستر باوندربي؟

– لا يا عزيزتي لويزا، لا... لست أطلب منك ذلك.

– وهل مستر باوندربي يا أبي يطلب مني أن أحبه؟

– الحق يا ابنتي أن الإجابة عن سؤالك ليست سهلة...

– ليكن الجواب عسيرًا، ولكن هل هو نعم أم لا يا أبي؟

عندئذ وجد مستر جراد جرايند في هذا السؤال متنفسًا للعودة إلى منطقه المألوف، فقال وقد بدا عليه شيء من الثبات:

– يقينًا يا عزيزتي؛ لأن الجواب يعتمد اعتمادًا حقيقيًا على المعنى الذي تستخدمين فيه هذا اللفظ. ومستر باوندربي لا يجور عليك ولا يدّعي شيئًا خياليًا أو موهومًا أو (وأنا أستعمل هنا ألفاظًا متقاربة) عاطفيًا. ولعله كان ليراك تكبرين أمامه بلا طائل لو أنه نسي ما يجب من تقديرك للأمور، فضلًا عن تقديره هو لها، فيخاطبك على أساسٍ كهذا. ولهذا فإن التعبير نفسه – وأكتفي بالإشارة – في غير موضعه.

– وبماذا تنصحني يا أبي أن أستبدل هذا التعبير ليكون في موضعه؟

فقال مستر جراد جرايند وقد استعاد رباطة جأشه تمامًا:

– إني أميل إلى أن أنصحك يا لويزا (ما دمت سألتني) أن تنظري في هذا الأمر كما اعتدت النظر في سائر الأمور: بوصفه مسألة واقعية ملموسة. فالجهّال والمتهورون قد يفسدون مثل هذه المسائل بأوهام لا صلة لها بالحقيقة، وبسخافات لا وجود لها أصلًا إذا ما نظرنا إليها نظرة عقلانية – لا وجود لها بالفعل – ولست أجاملك إذا قلت إنك أرفع من أن تنخدعي بذلك.

ثم واصل حديثه قائلاً:

– والآن، ما هي الحقائق في هذه القضية؟ إنكِ تبلغين – إذا قربنا الكسر – العشرين من العمر، بينما يبلغ مستر باوندربي – إذا قربنا الكسر كذلك –

الخمسين، فهنا يظهر تفاوت في السن. أما في الموارد والمركز الاجتماعي، فلا تباين، بل على العكس ثمة توافق واضح. والسؤال الذي ينبغي أن نطرحه هو: هل هذا التفاوت في السن وحده كافٍ ليحول دون إتمام هذا الزواج؟

ثم استرسل بروح الإحصائي الذي يلوذ بالأرقام:

– وعند النظر في إحصاءات الزواج في إنجلترا وويلز، نجد أن نسبة كبيرة من الزيجات عُقدت بين أزواج تفاوتت أعمارهم تفاوتًا ملحوظًا، بل إن الزوج هو الأكبر سنًا في ثلاثة أرباع هذه الحالات. ومن الجدير بالذكر أن التقارير التي جلبها الرحالة تشير إلى نتائج مماثلة لدى رعايانا في الهند، وفي أجزاء واسعة من الصين، بل وحتى بين قبائل الكالموك في بلاد التتار. فيكاد هذا التفاوت في السن أن يفقد أثره، أو يكاد يتلاشى ضمنًا.

ومع ذلك كله، سألت لويزا دون أن تفارقها نبرة التحفظ والهدوء:

– فبماذا ترشدني يا أبي أن أستبدل ذلك اللفظ الذي استعملته منذ قليل؟ ذلك التعبير الذي رأيته في غير موضعه؟

فأجابها أبوها:

- ما من شيء يا لويزا يبدو لي أوضح من هذا. إلتزمي حدود الواقع الصارمة. والسؤال عن الواقع الذي ستوجهينه لنفسك هو: هل مستر باوندربي يطلب إليَّ أن أتزوجه؟ نعم. هو يطلب إليَّ ذلك. فيكون السؤال الأوحد الباقي أمامك عندئذٍ: هل أتزوجه؟ وأظن أنه ما من شيء يمكن أن يكون أوضح من ذلك.

وردت لويزا السؤال بأناة شديدة:

- هل أتزوجه؟

- بالضبط. ومن دواعي رضائي باعتباري أباك يا عزيزتي أن أعلم أنك لا تُسفِّين إلى النظر في هذه المسألة بالعادات العقلية والعادات الحيوية السالفة التي تجري عليها الكثيرات من الشابات.

فأجابته:

- لا يا أبي. لست فاعلة شيئًا كهذا.

فقال مستر جراد جرايند:

- الآن أتركك لتبتي في الأمر بنفسك. لقد عرضت القضية على نحو ما تعرض عادة مثل هذه القضايا بين ذوي العقول العملية. عرضتها على نحو ما عرضت قضية أمك وقضيتي في حينها. أما الباقي يا عزيزتي لويزا فإليك.

وكانت منذ البداية جالسة لا تحول طرفها عنه، فلما اضطجع الآن في كرسيه، ووجه عينيه الغائرتين صوبها بدوره، لعله كان حريًّا أن يرى لمحة من الوهن تعتريها وقد ساورها أن تلقي بنفسها على صدره وتفضي إليه بمكنونات قلبها. ولكن كان ينبغي عليه كي يفطن إلى ذلك أن يتسور تلك الحواجز المصطنعة التي ظل سنوات طويلة يقيمها بينه وبين تلك الماهيات الإنسانية الدقيقة التي تظل فوق ذرع أرقى مستويات الجبر إلى يوم ينفخ في الصور فيطاح بكل شيء ولو كان الجبر. ولكن تلك الحواجز كانت أكثر وأعلى من أن يتسورها. وبوجهه الصلد النفعي المتشبث بالواقع قَسَّى قلبها مرة أخرى، ووثبت تلك اللحظة ملقية بنفسها في أغوار الماضي التي لا تسبر حيث تختلط بسائر الفرص الضائعة الغارقة هناك.

وحولت طرفها عنه وجلست برهة طويلة تنظر صامتة صوب المدينة، حتى أنه قال في النهاية:

- أتستشيرين مداخن مصانع كوكتاون يا لويزا؟

فأجابته وهي تلتفت إليه بسرعة:

- يبدو أنه لا يوجد هناك سوى الدخان العبوس المتشابه. ولكن عندما يأتي الليل تندلع النيران يا أبي!

- إني أعلم هذا طبعًا يا لويزا. ولست أرى وجه انطباق هذه الملحوظة على موضوعنا.

وإنصافًا له نقول إنه فعلًا لم يكن يرى ذلك الوجه على الإطلاق. فصرفت الموضوع بإيماءة يسيرة من يدها، وركزت انتباهها فيه مرة أخرى وقالت:

- إني يا أبي كثيرًا ما فكرت في شدة قِصَر الحياة...

وكان هذا بالذات من الموضوعات التي يقحمها في كلامه:

- وإنها لقصيرة بلا شك يا عزيزتي. ولكن معدل الحياة البشرية قد ثبت أنه تحسن في السنوات الأخيرة. وحسابات أعمال التأمين على الحياة وإدارات المعاشات المتباينة، فضلًا عن أرقام أخرى لا يمكن أن تخطئ، كل ذلك يؤيد تلك الحقيقة.

- إني أتحدث عن حياتي أنا يا أبي.

فقال مستر جراد جرايند:

- حقًّا؟ ومع هذا لست بحاجة أن أبين لك يا لويزا أن حياتك أيضًا تسيِّرها نفس القوانين التي تسيِّر حياة المجموعة كلها.

- إنني أريد أن أفعل في هذه الفترة القليل الذي أستطيعه والقليل الذي أصلح له فما قيمة هذا

ويبدو أن مستر جراد جرايند انتابته الحيرة الشديدة في فهم الكلمات الثلاث الأخيرة، فأجابها:

- أي قيمة؟ وكيف يا عزيزتي؟

فواصلت كلامها لا تلوي على شيء غير ملقية بالها إلى سؤاله:

- إن مستر باوندربي يطلب إليَّ أن أتزوجه والسؤال الذي يجب أن ألقيه على نفسي هو: هل أتزوجه؟ هذا هو السؤال يا أبي أليس كذلك؟ إنك قلت لي إنه كذلك يا أبي. ألم تقل لي هذا؟

- بلى يقينًا يا عزيزتي.

- ليكن ذلك وما دام مستر باوندربي يريد أن يتخذني زوجة فإن نفسي تطيب بقبول خطبته فبلغه يا أبي بأسرع ما يتراءى لك أن هذا هو جوابي كرره عليه كلمة كلمة إن استطعت؛ لأني أود أن يعرف ما قلت.

فأجاب أبوها موافقًا:

- من الخير يا عزيزتي أن يكون المرء دقيقًا، وسأراعي مطلبك الوجيه بدقة. فهل لديك أي رغبة بخصوص موعد زواجك يا طفلتي؟

- إطلاقًا يا أبي، فما قيمة ذلك؟

وكان مستر جراد جرايند قد أدنى كرسيه قليلًا منها وتناول يدها. ولكن تكريرها لهذه الكلمات وقع فيما يبدو على أذنه وقعًا غير مستحب بعض الشيء، فتمهل لينظر إليها، وقال لها وهو لم يزل ممسكًا بيدها:

- إني لم أجد من الجوهري يا لويزا أن أوجه إليك سؤالًا معينًا؛ لأن الاحتمالات التي ينطوي عليها بدت لي مسرفة في البعد. ولكن لعله ينبغي أن أوجه إليك ذلك السؤال: ألم تضمري في يوم من الأيام التفكير في خطبة أخرى؟

فقالت له بما يكاد يشبه التصدي:

- أي خطبة يا أبي كان من الممكن أن توجه إليَّ (أنا)؟ من الذين رأيتهم؟ وأين ذهبت؟ وما هي تجارب قلبي؟

فأجاب مستر جراد جرايند وقد رضي واطمأن:

- إنك يا عزيزتي لويزا تنبهينني بحق إلى خطأي، وإنما كنت أريد أن أؤدي واجبي فحسب.

فقالت لويزا بأسلوبها الهادئ:

- ماذا أعرف أنا يا أبي عن الأذواق والأحلام والأشواق والعواطف وعن كل ذلك الجانب من طبيعتي الذي كانت هذه الأشياء الخفيفة عسية أن تزدهر فيه؟ أي مفر تيسر لي من المسائل التي يمكن البرهنة عليها والحقائق التي يمكن إدراكها؟

وفيما هي تقول ذلك أطبقت يدها وهي لا تدري وكأنها تطبقها على شيء صلد، ثم فتحتها ببطء كأنما تلقي بما فيها من تراب ورماد.

وقال والدها ذو الطابع العملي الفائق موافقًا:

- هذا صحيح يا عزيزتي. صحيح تمامًا.

واستطردت لويزا قائلة:

- ما أعجبه يا أبي من سؤال توجهه إليَّ (أنا)! إن أهواء الأطفال التي بلغ من أمرها أن وصل حتى إلى مسامعي أنا شيوعها بين الأطفال لم يكن لها مستقر بريء في صدري، لقد كانت عنايتك بي بالغة بحيث لم يكن لي في يوم من الأيام قلب طفلة لقد علمتني بإتقان شديد بحيث لم أحلم في يوم من الأيام حلم

طفولة لقد عاملتني يا أبي بكل حكمة منذ كنت في مهدي إلى هذه الساعة بحيث لم تكن لي في يوم من الأيام عقيدة طفل أو مخاوف طفل.

وتأثر مستر جراد جرايند كثيرًا بتوفيقه هذا وبهذه الشهادة له فقال:

- إنك يا عزيزتي لويزا إنك تجزين رعايتي أوفى جزاء. قبليني يا فتاتي العزيزة.

وقبلته ابنته فاستبقاها في أحضانه وقال: - أستطيع الآن أن أؤكد لك يا طفلتي الأثيرة أن قرارك السديد الذي وصلت إليه قد أسعدني فمستر باوندربي رجل جدير بالاعتبار وما قد يقال عن وجود تفاوت قليل بينكما - إن كان ثمة تفاوت - إنما يعد له أو يرجح عليه النهج الذي اكتسبه عقلك في التفكير وقد كان هدفي دائمًا أن أربيك على هذا المنوال بحيث تستطيعين وأنت بعد في باكورة شبابك أن تكوني (إن جاز لي هذا التعبير) في أي سن، قبليني مرة أخرى يا لويزا. والآن هيا بنا نذهب للقاء والدتك.

وعلى هذه النية هبطا إلى قاعة الاستقبال حيث كانت السيدة الموقرة المبرأة من الهراء متكئة كالعادة، في حين انصرفت سيسي بجوارها إلى العمل وأبدت أمارات يسيرة تنبي عن عودة الحيوية إليها حينما دخلا. وسرعان ما اتخذت شفافيتها الشاحبة وضعًا جالسًا. وقال زوجها الذي كان ينتظر الفراغ من هذه الخطوة بشيء من نفاد الصبر:

- يا مسز جراد جرايند اسمحي لي أن أقدم إليك مسز باوندربي.

فقالت مسز جراد جرايند:

- أوه! إذن قد سويتما الموضوع! إني أتمنى لك قطعًا أن تكون صحتك جيدة يا لويزا؛ لأن رأسك إذا شرع ينفلق بمجرد زواجك- كما كان الحال معي - فلا أستطيع أن أعتبرك تغبطين على شيء، وإن كان لا يساورني الشك في أنك

تعتقدين مثل سائر البنات أنك جديرة بأن تغبطي. وإني على كل حال أهنئك يا عزيزتي وأتمنى لك أن تحسني الآن الإفادة من دراساتك الشتى، وإني لموقنة من هذه الأمنية! ويجب أن أمنحك قبلة التهنئة يا لويزا، ولكن لا تلمسي كتفي الأيمن لأن هناك شيئًا يسري فيه طول النهار.

ونهنهت مسز جراد جرايند من عبراتها وهي تصلح وضع وشاحها بعد الفراغ من ذلك الإجراء العاطفي وقالت:

- والآن كما تريان سأظل مكدودة الخاطر صبحًا وظهرًا ومساءً لأعرف ماذا ينبغي أن أدعوه!

فقال زوجها بجد:

- ماذا تعنين يا مسز جراد جرايند؟

فقالت مسز جراد جرايند بمزيج من التهذيب والشعور بالإهانة:

- ماذا ينبغي أن أدعوه يا مستر جراد جرايند بعد أن يتزوج لويزا؟ يجب أن أدعوه بصفة ما فمن المستحيل أن أثابر على مخاطبته من غير أن أناديه باسم من الأسماء ولا أستطيع أن أناديه باسم جوشيا، فذلك الاسم لا أطيقه وأنت نفسك لا تطيق سماع اسم جو كما تعلم ذلك جيدًا، فهل ينبغي أن أنادي صهري (يا مستر)؟ إن هذا فيما أعتقد لن يكون إلا إذا كان الوقت قد حان كي يطأني أقاربي - أنا المقعدة المريضة - بأقدامهم.

فبأي اسم إذن ينبغي أن أدعوه؟

ولما لم يكن في الحاضرين من أدلى برأي في هذه المشكلة الطارئة، فلقد غادرت مسز جراد جرايند بصفة مؤقتة بعد أن صدرت الملحق التالي لملاحظاتها السالفة:

- أما بخصوص الزفاف فكل ما أطلبه يا لويزا - وأنا أطلبه وفي صدري خفقان يمتد فعلًا إلى عقبيّ - أن يتم وشيكًا. وإلا فأنا أعرف أنه سيكون من الموضوعات التي لن أخلص من لغطها.

وكانت سيسي عندما قدم مستر جراد جرايند مسز باوندربي قد إلتفتت برأسها فجأة ونظرت في دهشة ورثاء وأسى وارتياب وحشد حاشد من الانفعالات صوب لويزا. وأدركت لويزا ذلك وأبصرته من غير أن تنظر صوبها. ومنذ تلك اللحظة وهي جامدة متكبرة باردة تباعد بينها وبين سيسي مزورة عنها.

الفصل السادس عشر

زوج وزوجة

كان أول ما أقلق خاطر مستر باوندربي حين لاح في الأفق تحقيق سعادته، أن يُبلغ هذا النبأ إلى مسز سبارست؛ إذ وقف حائرًا لا يهتدي إلى أسلوب يُلائم وقع الخبر عليها، ولا يتنبأ بما قد يُثيره في نفسها من عواقب ونتائج. فقد تساءل في نفسه: تُراه يدفعها ذلك إلى الرحيل فورًا بأمتعتها إلى السيدة سكادجرز، أم تراها تأبى أن تُغادر البيت بكل إباء؟ أتراه يغلب عليها التبرم أم الشكوى أم البكاء أو حتى الغضب العارم؟ وهل الذي سينكسر قلبها أم تُحطم هي المرآة بيدها؟

ومهما يكن من أمر فقد أيقن أنه لا مفر له من إطلاعها، وأن لا خيار أمامه في ذلك، فبعد أن عكف على كتابة رسائل عدة لم يفلح في أي منها، عزم أخيرًا على أن يُلقي إليها النبأ وجهًا لوجه.

وفي مساء اليوم الذي اختاره ليُفصح فيه عن أمره الجلل، استوقف خطاه عند دكان صيدلاني، واشترى زجاجةً من أشد الأملاح المفوقة أثرًا، وقال لنفسه بتجهم:

– والله إن لجأت إلى حيلة الإغماء لأصفعنها صفعة ترد أنفها إلى مكانه!

ومع ذلك كله، وبرغم ما أعد من استعداد، فقد دخل داره متوجسًا، فاقد الشجاعة ككلب خَرج لتوه من مخدع الطعام يجر في قلبه شعورًا بالذنب.

قالت مسز سبارست بصوت هادئ:

– مساء الخير يا مستر باوندربي!

فأجابها متلعثمًا:

– مساء الخير يا سيدتي... مساء الخير.

وجذب كرسيًّا ليجلس قرب المدفأة، فتراجعت هي إلى الخلف قليلًا في كرسيها، كأنها تُقرّ له صامتةً بأن تلك المدفأة له، وله أن يتربع أمامها إن شاء.

فقال لها:

– لا تُمعني في الانسحاب نحو القطب الشمالي يا سيدتي!

فقالت في هدوء:

– شكرًا لك يا سيدي.

ثم جلس مستر باوندربي يتأملها وهي تُنفذ سنَّ مقصّ حادّ في قطعة تطريز دقيقة من نسيج رقيق، تغوص فيه كما يغوص صقر بمخالبه في عين طائر وديع؛ فقد انحنت على عملها بجدّ حتى انقضت دقائق قبل أن ترفع عينيها. فلما فعلت، أشار إليها إشارة طفيفة برأسه، ثم أخرج يديه من جيبه، وقد أحكم قبضته على سدادة القنينة تحسبًا، وقال بصوت مُتحسّب:

– مسز سبارست، يا سيدتي... لستِ فقط امرأة ذات أصل نبيل ونسب عريق، بل فوق ذلك تُعرفين برجاحة العقل بصورة تُثير الإعجاب.

فأجابته بوقار:

– ولستُ يا سيدي أول مرة أسمع منك مثل هذا الثناء الذي يُشرفني.

قال مترددًا:

– مسز سبارست... يا سيدتي، إنني بسبيل أن أدهشكِ.

فقالت في هدوء تام وهي تنظر إليه نظرة ثابتة:

– نعم يا سيدي.

وكانت قد اعتادت ارتداء قفازات بلا أصابع، فوضعت شغلها جانبًا وسوت القفازين على كفّيها. عندئذ قال مستر باوندربي:

– إني سأتزوج... سأتزوج من الآنسة لويزا ابنة توم جراد جرايند.

فأجابته السيدة سبارست:

ـ نعم يا سيدي؟ إني أتمنى لك السعادة يا مستر باوندربي... بل إني حقًّا أتمنى من قلبي أن تهتدي إلى السعادة، يا سيدي!

قالت ذلك بنبرة تنم عن عطف بالغ، وتواضع جمّ، حتى ارتبك باوندربي ارتباكًا لم يكن ليصيبه لو أنها ألقت بصندوق أشغالها على المرآة، أو أغمي عليها فوق بساط المدفأة. وجعل يُحكم سدادة قارورة الأملاح في جيبه وهو يتمتم في نفسه:

ـ تبًّا لهذه المرأة! من كان يظنّ أنها ستتناول الأمر بهذا الشكل!

ثم أردفت السيدة سبارست، وقد علت في صوتها نبرة استعلاء شديد، وكأنها في تلك اللحظة اكتسبت حق الشفقة الأبدية عليه:

ـ إني أتمنى من أعماق قلبي، يا سيدي، أن تنعم بالسعادة التامة من جميع الوجوه.

فأجابها باوندربي، وفي صوته نبرة خفيّة لم يألفها من قبل، وإن خرجت منه على كره:

ـ حسنًا يا سيدتي... أشكرك، وأتمنى حقًّا أن أجد السعادة.

فقالت السيدة سبارست، في لهجة يغمرها السرور:

ـ حقًّا يا سيدي؟ لا بدّ أنك تتمنى ذلك بطبيعة الحال.

ثم خيّم صمت ثقيل مشوب بالارتباك على باوندربي، فيما عادت السيدة سبارست إلى عملها في هدوء، لا تقطع سكونها إلا بسعال خفيف بدا كسعال يصدر عن صلابة العزيمة وجلد النفس. ثم استأنف باوندربي حديثه قائلًا:

ـ حسنًا يا سيدتي... في ظل هذه الاعتبارات، يبدو لي أن بقاءك هنا لن يكون لائقًا بمقامك، وإن كانت لك هنا دائمًا رحابة المكان.

فأجابته السيدة سبارست وهي تهز رأسها في تعالٍ ظاهر، معدّلة من سعالها ليغدو أشبه بسعال نبوءة يحبسها صدرها:

ـ أوه، كلا بالطبع يا سيدي! لا يمكن لي بأي وجه من الوجوه أن أفكر في ذلك!

فقال باوندربي:

ـ هناك في المصرف حجرات مخصصة تستطيع سيدة ذات حسب ونسب أن تشرف عليها وتدبر أمرها، فتكون بذلك مصدر نفع مؤكد. وإذا كانت شروط...

فقاطعته السيدة سبارست في أدب:

ـ أستميحك عذرًا يا سيدي... لقد تفضّلت عليّ فوعدت أن تستعمل دائمًا تعبير «هدية سنوية».

ـ حسنًا يا سيدتي، هدية سنوية إذن... فإذا كانت تلك الهدية تجد لديك القبول، فلا أرى ما يمنع اتفاقنا، إلا إذا رغبتِ أنتِ في غير ذلك.

فأجابته السيدة سبارست في وقار:

ـ يا سيدي، إن اقتراحك يدلّ على كرم خُلقك. فإذا كان المنصب في المصرف لا يحطّ من مكاني بين طبقات المجتمع...

فقاطعها باوندربي:

ـ إنه كذلك بلا ريب يا سيدتي، ولولا ذلك لما عرضته على سيدة مثلك عرفت مواقعها في تلك الطبقات. لا لشيء يهمّني أنا في تلك الطبقات، كما تعلمين، بل لأنها تعنيك أنتِ.

فقالت السيدة سبارست:

ـ أنت نافذ البصيرة يا مستر باوندربي.

فقال باوندربي:

ـ ستكون لك حجراتك الخاصة، وفحمك وشموعك، وستجدين مرافقةً تخدمك، وساعيًا يحميك، وكل ما أراه من أسباب الراحة التي لا تُقدّر بثمن.

فقالت السيدة سبارست في رفق:

ـ لا تُكمل يا سيدي... إنني وإن تركتُ مهامي هنا، فلن أتحرر من اضطراري لأكل «خبز الحاجة»...

وكان الأجدر بها أن تقول: «أطايب الحاجة»، فما كان يعجبها من العشاء إلا الكلى والطحال في صلصة بنية شهية...

ـ ... وأُفضّل أن أتناول ذلك الخبز من يدك الكريمة، لا من يد سواك. ولهذا، يا سيدي، أقبل عرضك شاكرة ومعترفة بفضلك السابق، وأتمنى لك من قلبي (وهنا احتدت نبرتها دفعة واحدة) أن تجد في الآنسة جراد جرايند كل ما تشتهي وكل ما تستحق!

ومن بعد تلك اللحظة، لم يستطع شيء أن يزحزح السيدة سبارست عن موقفها. ذهبت سدىً محاولات باوندربي المنفعلة لإثبات نفسه أمامها؛ فقد بقيت مصممة على الشفقة عليه كأنه ضحية عاجزة. كانت في غاية التهذيب والبشاشة، لكن كلما زادت لطفًا ورقّةً ومرحًا، بدا في نظرها فريسةً أشدّ ضياعًا. وكان حنانها هذا يسري في دمها بنبرة نكد خفيّ، فتجعله يتصبب عرقًا باردًا رغم احمرار وجهه المفرط حين تنظر إليه.

وفي تلك الأثناء، حُدد موعد عقد الزواج بعد ثمانية أسابيع، وصار مستر باوندربي يذهب كل ليلة إلى «ستون لودج» بصفته خطيبًا «مرضيًّا». وتجسّد الحب في تلك الزيارات في شكل أساور وهدايا. وكانت الخطبة كلها في جوّ صناعي صرف: صُنعت الملابس، وصُنعت الحليّ، وصُنعت الفطائر والقفازات، وأُنجزت الإجراءات الرسمية، وأُعدت مشاهد شتى لإعلاء شأن العقد المرتقب. فالأمر برمّته كان واقعًا في واقع منذ بدايته حتى نهايته، فلا الساعات تغيّرت وتيرتها كما يُخيَّل للشعراء الحمقى، ولا دقّات الساعة أسرعت أو أبطأت عن عادتها، وظلّت ساعة المسجلة الإحصائية في مرصد جراد جرايند تدقّ بثبات ورتابة كل ثانية، لتولد اللحظة ثم تطمرها في صمت معتاد.

وحلّ اليوم الموعود كما تحلُّ سائر الأيام عند قومٍ لا يؤمنون إلا بالعقل ولا يقدّسون سواه. وفي تلك الكنيسة ذات المنائر الخشبية المزخرفة – وهي الطراز الشائع في البناء – عُقِد قرانُ جوشيا باوندربي المحترم، أحد أعيان كوكتاون، على لويزا الابنة الكبرى لتوماس جراد جرايند المحترم، صاحب ستون لودج وعضو البرلمان عن تلك الدائرة. وما إن ارتبطا برباطٍ مقدّسٍ حتى مضيا لتناول الإفطار في ستون لودج نفسه.

وكان في القاعة جمعٌ من القوم الصالحين الذين حضروا لتلك المناسبة الميمونة، وكلهم من أصحاب العقول التي تُدرِك ممَّ صُنِع كل ما يؤكل ويُشرب، وكيف يُستورد ويُصدّر، وبأي مقدارٍ وبأي سفنٍ أهليةٍ أو أجنبيةٍ، وكل ما يتصل بذلك. أما وصيفات العروس، حتى الصغيرة جين جراد جرايند، فكلهنَّ كنَّ حاذقات الذهن، يليق بهنَّ أن يكنَّ في صحبة الفتى الحاسب؛ إذ لم يكن في ذلك الجمع من يهوى العبث أو يُلقي الكلام على عواهنه.

وبعد الإفطار، وقف العروس يخاطب القوم قائلًا:

– سيداتي وسادتي، إنني جوشيا باوندربي من أعيان كوكتاون. وما دمتم قد تكرّمتم بشرب نخب سعادتنا، أرى من الواجب أن أُبادلَكم التحية بمثلها. غير أنكم، إذ تعرفونني حقَّ المعرفة، لا تنتظرون مني خطبةً طويلة؛ فأنا رجلٌ صريحٌ أسمي الأشياء بأسمائها، وأقول للعمود: عمود، وللمضخة: مضخة، ولا يمكن أن أغريني أحد بأن أُسمي العمود مضخةً أو المضخة عمودًا أو أخلط هذا بذاك. فإن كنتم تشتهون الخطابة فصديقي وحميَّ توم جراد جرايند عضوٌ في البرلمان، وهو أوفى لهذا المقام، أما أنا فلست صاحبها.

ثم توقّف لحظة وأكمل، وقد بدا في صوته مسحةٌ من التأثّر:

– ومع ذلك لا أنكر أنني أشعر اليوم بشيءٍ من التحرّر حين أتأمل هذه المائدة وأسترجع ذكريات أيامي الأولى؛ إذ لم يخطر ببالي قطُّ وأنا صبيٌّ أشعثُ أغبرُ، يقتات من بقايا السُّبُل ولم يكن يُسعفه الحظ ليغسل وجهه إلا عند مضخةٍ عامةٍ لا يتيسر له بلوغها إلا مرةً كل أسبوعين، أن أتزوّج يومًا ابنة توم جراد جرايند! ورجائي أن تغفروا لي هذا الشعور، بل وتتقبلوه بقبولٍ حسنٍ؛ فإن أبيتم، فما حيلتي؟! لقد ذكّرتكم وذكّرتُ نفسي أنني اليوم قد تزوّجت ابنة توم جراد جرايند، وإني لذلك لفي غبطةٍ صادقة. فمنذ زمنٍ بعيد كانت تلك أمنيتي،

وقد رَقَبتُ نشأتها يومًا بعد يوم واعتقدت أنها جديرةٌ بي. وأُصارحكم – حتى لا أخدعكم – أنني أعتقد أيضًا أني جديرٌ بها. وأشكر لكم جميعًا ما أبديتموه لنا من الدعاء الطيّب، وأطيب دعاءٍ أتمناه لكم أن يجد كل عازبٍ زوجةً صالحةً كزوجتي، وأن تجد كل عانسٍ زوجًا صالحًا كالذي وجدته زوجتي.

وبعد هذه الخطبة القصيرة، غادر الزوجان السعيدان إلى محطة السكة الحديد، فقد رتّبا السفر في رحلة العرس إلى ليون، ليغتنم مستر باوندربي الفرصة ويرى كيف يعمل «الأيدي» هناك، وهل هم أيضًا يتطلّعون إلى أن يأكلوا بملاعق من ذهب.

وعند مرور العروس في الطابق الأرضي وقد ارتدت ثياب السفر، التقت بتوم الذي بدا وجهه محمرًّا إمّا من التأثّر وإمّا ممّا شربه في الإفطار، فاقترب منها وهمس قائلًا:

– يا لكِ من فتاةٍ ذات بأسٍ! لتكوني شقيقةً تُعتمد عليها يا لو!

فتعلقت به كما قد تتعلق – لو شاء القدر – بمن هو أطهر قلبًا وأرقّ وجدانًا. فقال لها توم:

– باوندربي العجوز ينتظر، والوقت أزف. وداعًا!

ثم أضاف وقد ارتعشت نبرته قليلًا:

– سأكون مشتاقًا لرؤيتك عند عودتك... آه يا عزيزتي لو، ما أطيب العيش الآن!

الكتاب الثاني: الحصاد

الفصل الأول

أحداث في المصرف

يوم مشرق من أيام منتصف الصيف، ويحدث أن يأتي مثل هذا اليوم أحيانًا، حتى في تلك البلدة الكالحة المسماة «كوكتاون».

وحين يطالعها الناظر عن بعد في مثل هذا الطقس، يراها راقدةً بين طيات ضباب خاص بها، كأن ضوء الشمس يضيق ذرعًا بمحاولة النفاذ إليها، فلا يبلغ منها إلا علمه بأنها هناك؛ إذ ليس ثمّة ما يمكن أن يشوّه صفحة الأفق بذلك الكدر العابس سوى مدينة قائمة. إنها لطخة من السناج والدخان تتحرك في غموض: تارةً تنساق في هذا الاتجاه، وتارةً في ذاك، ثم ترتفع نحو قبة السماء حينا، أو تهبط داكنةً لتزحف على وجه الأرض حينا آخر، بحسب ما تهبُّ الريح أو تسكن أو تغيّر مسارها... كتلة كثيفة، مشوَّشة، لا ملامح لها، تتقاطع فيها أشعة الضوء، فلا تكشف إلا عن ركام من الظلمة؛ فكوكتاون لا تُرى لبنةً منها، ومع ذلك توحي من بعيد بوجودها.

والأعجب أنها، على الرغم من كل ما اعتراها من خرابٍ ودمارٍ متعاقب، ما زالت قائمةً على أي حال؛ حتى ليعجب الناس كيف لها أن تحتمل كل تلك الصدمات. فليس ثمّة نوع من الخزف أشد هشاشةً من رجال مصانع كوكتاون أنفسهم، فهم يتحطمون إذا طُلب منهم إرسال الأطفال العاملين إلى المدارس، ويتحطمون إذا شرع المفتشون في فحص أعمالهم، ويتحطمون إذا تطرّق الشك

إلى نفوس هؤلاء المفتشين في أن لهم الحق في خداع الناس بآلاتهم، ويتحطمون تهشّمًا كاملًا إذا ألمح أحد إلى أنه قد لا يكون ثمّة ما يبرّر كل هذا الدخان المتصاعد أبدًا. ولم تعرف كوكتاون صناعةً من صُنَع الخيال، إلا ملعقة مستر باوندربي الذهبية التي حظيت هناك بالقبول العام، فغدت وسيلةً للتلويح والتهديد؛ إذ ما أن يساور أحد أعيان كوكتاون الشعور بالإساءة – أي حين يُحرم من تركه وشأنه كل الترك، ويخطر بالبال أن يُسأل يومًا عن نتائج أفعاله – حتى يبادرهم بذلك التهديد الفظيع، بأنه لا يبالي فيلقي بممتلكاته في البحر، وقد أرعب هذا الوعيدُ وزيرَ الداخلية مرارًا حتى أشرف به على الهلاك.

ومع ذلك، كان رجال كوكتاون من حبهم لأوطانهم بحيث لم يُقدِم واحدٌ منهم قط على إلقاء ممتلكاته في لجج البحر، بل على العكس، عنَوا بها ورعوها حق الرعاية، وظلّت هناك، في تلك الغشاوة، تنمو مع الأيام وتربو أضعافًا.

وفي ذلك اليوم الصائف، كانت الشوارع حارةً مغبرةً، والشمس تلتمع بشدةٍ حتى اخترقت البخار الكثيف المخيم فوق كوكتاون، فلم يعد في طاقة العين أن تتلقّاها مباشرةً. وراح الوقادون يخرجون من أبواب سراديبهم الوطئية إلى أفنية المصانع، فيجلسون على العتبات، أو يسندون ظهورهم إلى الأعمدة والأسوار المثقلة بالأوتاد، يجففون وجوههم الملوّحة بالنار، وأبصارهم شاخصةٌ إلى أكوام الفحم. وكأن البلدة برمتها كانت تُقلى في قدرٍ يغلي بالزيت، إذ امتدّت في الأجواء رائحة خانقة لزيت ساخن. فالآلات البخارية تقطر زيتًا، وثياب العمال مشبَّعةٌ به، والمصانع بأطباقها المتعددة تُفرز وتنفث الزيت بلا انقطاع. وكان هواء تلك القصور المسحورة يلهب الأنفاس كرياح السموم، وسكّانها يذوون تحت لفح الحر وهم يكدحون لاهثين في صحراء لا ظلّ فيها.

غير أن الحرارة مهما اشتدت لم تؤثر في تلك الفيلة الكئيبة المجنونة التي لا يزيدها الحر إلا دوامًا في سيرها الرتيب، فرؤوسها المتعبة ترتفع وتنخفض في حركة ثابتة لا تعرف فتورًا، في القيظ والبرد، في الندى والجفاف، وفي صفو الجو وكدره على السواء. وحركة ظلالها المنعكسة على الجدران كانت هي البديل الذي تكتفي به كوكتاون بدلًا من همس الغابات وحفيفها. وأما أزيز الحشرات في الصيف، فقد عوّضته على مدار السنة، من فجر الاثنين حتى ليل السبت، هدير المحاور والدواليب المتواصل بلا كلل.

وإنها لتهدر في ذلك النهار المشمس هديرًا متعاقبًا يزيد عابر السبيل ميلًا إلى النعاس، ويضاعف إحساسه بحرارة القيظ وهو يمر بجدران المصانع التي يطنّ هواؤها. وكانت الظلائل ورشاشات الماء تلطف شيئًا من لهيب الحر في الشوارع والحوانيت، فيما بقيت المصانع والأفنية والأزقة تتلظى تحت وطأة القيظ المستعر. وعلى صفحة النهر الأسود الكثيف الذي لوّثته الأصباغ، كان نفرٌ من غلمان كوكتاون الأحرار – وذلك مشهد نادر الحدوث هناك – يجدفون في زورق قد أكلت الصدوع جوانبه، فيترك تجديفهم أثرًا مزبدًا في الماء كلما اندفعوا قدمًا، وكانت كل ضربة مجداف تثير في الجو أنكر الروائح. فالشمس، على سخائها الفيّاض، لم تكن أرحم بكوكتاون من صقيعها القارس؛ قلّما تتمعن في ركن من أركانها الضيقة إلا رأيت فيها مبعثًا للموت أكثر مما تبعثه للحياة. وهكذا تنقلب عين السماء نفسها إلى عين شريرة إذا ما اعترضتها الأيدي العاجزة أو الشحيحة، فحالت بينها وبين ما تطلع إليه لتفيض بركتها.

وفي جناحها المخصص لمقامها بعد الظهر في المصرف، جلست مسز سبارست في الجهة الظليلة من الشارع الملتهب. وكانت ساعات العمل قد انقضت، وفي تلك الفترة من النهار، حين يسخن الجو، اعتادت أن تزين

بحضورها الأنيق حجرة مجلس الإدارة التي تعلو مكتب الجمهور المفتوح. أما حجرة جلوسها الخاصة ففي طابق أعلى، وكانت تتخذ مكانًا عند نافذتها كل صباح، لتراقب منها الطريق وتحيّي مستر باوندربي بلفتة موحية بالعزاء الذي يليق بضحية، فقد مضى عام على زواجه، ولم تكفّ مسز سبارست عن إسباغ شفقتها الصارمة عليه طرفة عين.

والمصرف لم يكن يقتحم بسحنته الرتيبة نسق المدينة العام، بل كان بناءً من الآجر كسائر الأبنية، بمغاليق خارجية سوداء وأخرى داخلية خضراء، وباب أسود يعلوه درجتان بيضاوان، ولوحة نحاسية لامعة، ومقبض نحاسي على شكل نقطة الانتهاء. كان المصرف أضخم من بيت مستر باوندربي، أما بقية البيوت فكانت أصغر منه بدرجات تتفاوت بين ذلك الفرق وبين ستة أضعافه، وإلا فهو لا يخرج عن الطابع المعهود في صرامته ورتابته.

وكانت مسز سبارست تدرك تمامًا أنها حين تجلس في المساء بين المكاتب وأدوات الكتابة، تضفي على المكان مسحة أنثوية، بل مسحة أرستقراطية أيضًا. فإذا جلست عند النافذة تمارس أشغال الإبرة أو حياكة الصوف، أحست بالرضا لما تضفيه هيئتها الرفيعة وسمتها المهذبة من تلطيف لتجهم المظهر العملي للمكان. وبفضل شعورها هذا بمكانتها، كانت مسز سبارست ترى نفسها – على نحو ما – جنية المصرف؛ أما أهل المدينة الذين يمرّون بها في ذهابهم وإيابهم، فكانوا يرون فيها تنين المصرف الساهر على كنوز المنجم.

أما هذه الكنوز فما كانت مسز سبارست تعرف عنها إلا ما يعرفه سواها: نقود من ذهب وفضة وأوراق مالية ثمينة، وأسرار خطيرة إذا كُشف عنها الغطاء جلبت الدمار لأشخاص مبهمين – وهم غالبًا ممن لا تحبهم. عدا هذا، كانت تعلم أنها بعد انتهاء الدوام تصبح الحاكمة المطلقة على كل أثاث المكتب، وعلى

غرفة حديدية مغلقة بثلاثة أقفال، يطوي عليها الليل سرَّه حتى يصيح الديك فينكشف الغطاء. وفوق ذلك كانت المسؤولة عن بعض الأقبية في أسفل المبنى، المحروسة من كل اعتداء أو سرقة، وما بقي من فتات اليوم من حبر ولوازم أبلاها الاستعمال وقطع شمع وقصاصات ممزقة إلى حدٍ لا يتيح لأي عين أن تفك رموزها. وكانت أيضًا القيّمة على الترسانة الصغيرة من البنادق القصيرة والقواضب المصطفة فوق رف أحد المدافئ في ترتيب يبعث الرهبة، وكذلك على الدلاء المعدّة لإطفاء الحرائق، التي لم توضع يومًا لتستعمل، بل لتترك أثرًا نفسيًا في النفوس، لا يقل في رهبة منظره عن سبائك الذهب.

وكانت تلك المملكة الصغيرة تضم معها امرأة صمّاء تقوم بالخدمة، تشكّل مع الساعي حدود إمبراطورية مسز سبارست. وقد شاع بين أهل كوكتاون أن هذه الخادمة الصماء موسرة الحال، حتى شاع في أوساط الطبقة الدنيا منذ زمن أنها ستُقتل يومًا ما طمعًا في مالها، وكان الظن أن أجلها قد حل منذ زمن بعيد، وأنه كان ينبغي أن تلاقي حتفها منذ أمد؛ غير أنها ظلت حيّة في عناد غير محمود، يثير في الناس شيئًا من الضيق وخيبة الأمل.

وقد أُعدّت لمِسِز سبارست مائدةُ شايٍ صغيرة، ذاتُ ثلاثة أرجلٍ خفيفة، اعتادت أن تُقرّبها إلى جوار مائدة مجلس الإدارة الطويلة المهيبة، التي تفترش وسط القاعة بسطحها الجلدي المتجهّم، وذلك بعد ساعات العمل. فأقبل الساعي بتزر، فوضع إبريق الشاي على تلك المائدة، ثم طرق جبهته بأنمله تحيّةً لها، فقالت مِسِز سبارست:

– شكرًا لك يا بتزر.

فأجابها الساعي بأدبٍ جمّ:

– بل الشكر لكِ أنتِ يا سيدتي.

وكان هذا الساعي رشيقًا في أداء ما يُؤمر به، كما كان رشيقًا من قبل حين قدّم الحصان للفتاة رقم عشرين، وهو يطرف بعينيه.

وسألته مِسِز سبارست:

– هل أتممت إقفال كل شيء يا بتزر؟

– كل شيء يا سيدتي.

ثم صبّت لنفسها الشاي، وسألته:

– وما الجديد اليوم؟ أهناك ما يُذكر؟

– لا أستطيع أن أقول يا سيدتي إني سمعت شيئًا ذي شأن. إن قومنا قومٌ من شرار الخلق، يا سيدتي... لكن هذا ليس بجديدٍ، للأسف.

فتساءلت مِسِز سبارست:

– وماذا يفعل هؤلاء المتقلبون المناكيد الآن؟

– ماضون في دأبهم يا سيدتي: يتكتّلون، ويتعصّبون، ويتعاهدون على التساند.

فعقدت مِسِز سبارست حاجبيها، وازداد أنفها صرامةً رومانية، وقالت بلهجة تفيض حزمًا:

– إنه لمما يؤسَف له شديد الأسف أن يسمح السادة المتحدون بمثل هذه التكتلات الطبقية.

فقال بتزر:

– أجل يا سيدتي.

قالت مِسِز سبارست:

– بما أنهم اتحدوا، فكان الأجدر بهم أن يمنعوا استخدام كل رجلٍ يجرؤ على الاتحاد مع غيره.

– لقد فعلوا ذلك يا سيدتي، ولكنه لم يُثمر شيئًا يُذكر يا سيدتي.

عقدت مِسِز سبارست حاجبيها بحدّة، وقالت:

– لا أزعم أني أفهم هذه الأمور فهمًا عميقًا، فقد كان حظي في الحياة يدور في فلكٍ مختلفٍ كل الاختلاف عن هذه الشئون... أما مستر سبارست، بما أنه من آل باولر، فهو أيضًا بعيد عن مثل هذه الشقاقات. وكل ما أعلمه أن هؤلاء الناس يجب أن يُقهروا، وقد آن الأوان لحسم هذا الأمر نهائيًّا.

فقال بتزر، وهو يُظهر احترامًا بالغًا لقدرتها على التكهّن:

– أجل يا سيدتي، وما كان في الإمكان أن تُعبّري عن الأمر أصدق مما فعلتِ. وإني على يقينٍ من ذلك يا سيدتي.

وكانت هذه ساعةً اعتاد فيها أن يُساجلها حديثًا تغلب عليه المسارّة، وقد بدا له من نظرتها أنها تُضمر أن تطلب إليه أمرًا، فشرع يُنسّق المساطر والمحابر وما إليها، في حين استمرت السيدة ترشف شايها، وعيناها ترنوان من خلال النافذة المفتوحة إلى الشارع تحتها.

وسألته:

– هل كان يومكم مزدحمًا بالعمل يا بتزر؟

– لم يكن شديد الازدحام يا مولاتي، بل كان قريبًا من المعدل المعتاد.

وكان بين الحين والحين يستبدل كلمة «سيدتي» بـ«مولاتي»، كأنما ليُشيد بعفويةٍ بمقام مِسِز سبارست وجلالها.

ثم قالت، وهي تنفض بعناية فتاتًا دقيقًا لا تراه العين من على قفاز يدها اليسرى:

– الكتبة عندكم أهل ثقة، مواظبون على المواعيد، مجتهدون في أعمالهم، أليس كذلك؟

– بلى يا سيدتي، لا بأس بهم يا سيدتي... باستثناء ذلك الاستثناء المعهود.

كان يشغل منصبًا مُعتبرًا في المؤسسة: منصب الجاسوس العام والواشي؛ فمقابل هذه الخدمة الطوعية كان يتلقّى في عيد الميلاد منحةً علاوةً على أجره الأسبوعي. وقد شبّ بتزر فصار شابًّا حذورًا كتومًا، صافي الذهن، مُؤهَّلًا لأن يرقى ذرى النجاح في الحياة. لقد بلغ عقله من دقة الحساب مبلغًا جعله متجردًا من العاطفة والهوى، وصار كلُّ ما يصدر عنه ثمرة أبرع العمليات الحسابية وأبردها.

ولم يكن بلا مبرر أن تقول عنه مِسِز سبارست عادةً إنه من أكثر من عرفت في حياتها ثباتًا على المبدأ؛ فقد آمن بعد وفاة أبيه بأن لأمه حقًّا في الإقامة بكوكتاون، وأثبت لها هذا الحق بإصرارٍ لا يلين، حتى آلت إلى ملجأ الفقراء منذ ذلك الحين. ومع ذلك لا بد من الاعتراف بأنه خصّص لها نصف رطلٍ من الشاي في كل عام؛ وكان هذا موطن ضعفه الوحيد: أولًا لأن كل هدية تُشير حتمًا إلى أن المُهدى إليه معدم؛ وثانيًا لأن التصرف الاقتصادي المعقول في شأن هذه السلعة الكمالية هو أن يبتاعها بأرخص ما يمكن، ثم يبيعها بأعلى ثمنٍ يستطيعه. وهذا بالضبط ما أكّد الفلاسفة أنه خلاصة واجب الإنسان بأسره؛ ليس بعضه، بل كله.

وأعاد بتزر كلامه قائلًا:

– لا بأس بهم يا سيدتي، سوى ذاك الاستثناء المعتاد يا سيدتي.

فهزّت مسز سبارست رأسها فوق فنجان شايها، ثم ارتشفت رشفة طويلة أتبعتها بزفرة عميقة وقالت:

– آه!

قال بتزر:

– إنه ذلك الشخص يا سيدتي. إن في نفسي ريبةً كبيرةً نحوه، ولا أستريح إلى تصرفاته البتّة.

فقالت مسز سبارست بنبرة مؤثرة تطفح بالتحفظ والوقار:

– بتزر، هل تذكر ما قلته لك بشأن الأسماء؟

– ألتمس عذركِ يا سيدتي، فأنتِ محقّة؛ لقد نهَيتِني عن ذكر الأسماء، ورأيتِ أنّ الأولى دائمًا تجنّبها.

قالت مسز سبارست في شيء من الاعتداد بمقامها:

– أرجو أن تذكر دومًا أنّ لي هنا مسئوليات جسامًا؛ فأنا أتولى عملًا يا بتزر بتكليفٍ مباشرٍ من مستر باوندربي. ومهما يكن من غير المتصوَّر في نظر مستر باوندربي وفي نظري معًا، أنّ ذلك الشخص قد يصبح يومًا صاحب سلطان عليّ مقابل تحية سنوية يؤديها إليّ، فلا يسعني إلّا أن أضعه موضع الاعتبار. لقد غمرتني عناية مستر باوندربي بكل تقديرٍ يليق بمركزي الاجتماعي، بل زادني فوق ما أطمح إليه بمراحل... ولهذا سأظل أمينةً لمخدومي إلى أبعد الحدود. ولن أراني – ولن أستطيع أن أراني – مقصّرةً في هذا الإخلاص. (قالت مسز سبارست ذلك وهي تستمدّ قوتها من رصيدٍ زاخرٍ بالشرف ومكارم الأخلاق). وإن سمعت تحت

هذا السقف بذكر أسماء لا ريب أنها – وللأسف الشديد – موصولةٌ باسمه هو، فلا عذر لي في الصمت.

فأطرق بتزر جبينه بأصابعه مرةً أخرى، وتمتم معتذرًا، ثم تابعت مسز سبارست تقول:

– كلا يا بتزر... قُل «شخصًا ما» وأنا أصغي إليك. أمّا أن تقول «مستر توماس»، فلا تؤاخذني إن تجاهلت قولك.

فقال بتزر، مكرّرًا بحذر:

– ما عدا الاستثناء المعتاد يا سيدتي... أعني باستثناء «شخصٍ ما».

وعادت مسز سبارست لتطلق زفرتها الطويلة «آه!» وتهزّ رأسها بأسف، ثم قالت لتمضي في سماع كلامه، فقال بتزر:

– هذا الشخص يا سيدتي، ما كان منذ حلوله هنا على ما ينبغي أن يكون؛ فهو متهاون، مبذّر، متلافٍ. صدّقيني يا سيدتي، إنه لا يساوي حتى ما ينفقه من ملح. ولولا أنّ له صديقًا قريبًا من أهل السلطان، ما كان له أن ينال ما ناله!

فأومأت مسز سبارست برأسها هزّةً ملؤها الحسرة، وقالت:

– آه!

ثم استطرد بتزر:

– وكل ما أرجوه يا سيدتي ألا يظل هذا الصديق والقريب يمدّه بما يعينه على التمادي في طريقه ذاك. ونحن نعلم يا سيدتي من جيب مَن يأتي «هذا» المال...

وزفرت مسز سبارست مرةً أخرى «آه!» وأومأت برأسها بأسًى جديد.

وتابع بتزر:

– إنه حقًا لمن دواعي الرثاء يا سيدتي... هذا الشخص الذي ألمحتُ إليه آنفًا، حقيقٌ بالرثاء.

فقالت مسز سبارست:

– نعم يا بتزر... لطالما رثيتُ للمخدوعين.

فقال بتزر، وقد خفض صوته واقترب منها قليلًا:

– أمّا ذلك الشخص بعينه يا سيدتي، فهو من أشدّ أهل هذه البلدة نزقًا وطيشًا... وأنتِ أدرى الناس بما في طبعهم من نزق، فما من أحدٍ أحقّ بمعرفته من سيدة رفيعة القدر مثلك.

فأجابته مسز سبارست:

– يُحسنون صنعًا إن اتخذوك قدوةً لهم يا بتزر.

– شكرًا لكِ يا سيدتي. ولكن بما أنّكِ ذكرتِني، فانظري إليّ يا سيدتي... لقد جمعتُ شيئًا قليلًا بالفعل؛ فأنا لا أمسّ ما أُعطاه في عيد الميلاد يا سيدتي، بل ولا أنفق راتبي كاملًا، وإن لم يكن كبيرًا يا سيدتي... فلماذا لا يصنعون كما أصنع؟ إنّ ما يستطيعه امرؤٌ، فهو في متناول غيره.

وكانت تلك واحدةً من خرافات كوكتاون: فما إن يفلح أحد الرأسماليين في جمع ستين ألف جنيه من ستة بنسات، حتى يظلّ يتساءل متعجبًا: لماذا لم يجمع الستون ألف عاملٍ الأقرب إليه المبلغ ذاته بالطريقة نفسها؟ حتى يكاد يلومهم فرادى لأنهم لم يحققوا هذه المعجزة الصغيرة. وما صنعته، أليس في وسعكم أن تصنعوه؟ فلماذا لا تفعلون؟

قال بتزر:

– أما حاجتهم إلى الاسترواح يا سيدتي فمجرد هراء... (أنا) لا أحتاج إلى استرواح، لم أحتج إليه يومًا، ولن أحتاج. ثم إنّ تكتلهم معًا، فليس بعيدًا أن يكون بعضهم يراقب البعض ليظفر بقليل من المال أو العطف أو الرضا، فيحسّن بذلك مستوى معيشته. فلماذا لا يفعلون يا سيدتي هذا التحسين؟ وهو أول ما يحرص عليه العاقل. وهو أيضًا ما يزعمون أنه هدفهم.

قالت مسز سبارست:

– يزعمون حقًّا!

– نسمع شكاواهم المتكررة حتى يكاد الضجر يخنق نفوسنا: زوجاتهم وأسرهم! ألا تنظرين إليَّ يا سيدتي؟ (أنا) لا أريد زوجةً ولا أسرة... فلماذا يريدونها هم؟

– لأنهم طائشون!

– نعم يا سيدتي، ذلك هو القول السديد. ولو أنّهم كانوا أبعد نظرًا وأقل طيشًا، أما كان أجدر بأحدهم أن يقول: «أما وأسرتي لا تتعدى أن تكون شخصًا واحدًا – رجلًا كان أو امرأة – هو أنا، فلست مطالبًا سوى بإطعام هذا الشخص الأوحد، وهو أحبّ شخصٍ عندي»!

وأقرّته مسز سبارست على قوله وهي تأكل قطعةً من الكعك، قائلةً:

– يقينًا...

فقال بتزر وهو ينقر جبهته بأنامله مرة أخرى ردًّا على تفضل مسز سبارست بالإسهام في الحديث:

- شكرًا لكِ يا سيدتي أتحبين أن آتيك بمزيد من الماء الساخن يا سيدتي؟ أهناك أي شيء في وسعي أن آتيك به؟

- لا شيء في الوقت الحاضر يا بتزر.

فقال بتزر وهو يمط رقبته ليطل على الشارع من حيث وقف:

- شكرًا لكِ يا سيدتي وما كان ينبغي لي أن أزعجكِ أثناء طعامكِ يا سيدتي، ولا سيما أثناء الشاي وأنا أعلم مبلغ إيثاركِ إياه... ولكني أرى سيدًا ظل منذ دقيقة أو نحوها يتطلع إلى هنا يا سيدتي، ثم اجتاز الشارع كمن يهم بطرق الباب. ها هي طرقته يا سيدتي ولا ريب.

وخطا نحو النافذة وأطل منها، ثم ارتد برأسه عنها وأكد ما قاله آنفًا بقوله:

- أجل يا سيدتي. أتحبين أن أُدخل هذا السيد يا سيدتي؟

فقالت مسز سبارست وهي تمسح فمها وتنسق قفازيها العاريّ الأصابع:

- لست أدري من عساه يكون.

- غريب يا سيدتي يقينًا.

فقالت مسز سبارست:

- وماذا عسى أن ينشد غريب لدى مصرف في هذه الأونة من المساء، اللهم إلا إذا كان حضوره في عمل وتأخر عن الموعد. لا أدري. ولكني أتولى هنا مهمة في هذه المؤسسة من قبل مستر باوندربي، ولن أنكص عنها. فإن كان استقبال هذا الغريب جزءًا من الواجب الذي قبلت الاضطلاع به، فسأقابله. فاستخدم كياستك الخاصة في هذا الأمر يا بتزر.

وعندئذٍ كان الزائر - جاهلًا كلمات مسز سبارست السمحة - قد كرر الطرق بصوت مرتفع جدًّا فأسرع الساعي بالنزول ليفتح الباب. في حين انصرفت مسز سبارست إلى التحوط بإخفاء نضدها الصغير بكل ما عليه من أجهزة داخل

صوان، ثم ارتحلت إلى الطابق العلوي كي يتسنى لها أن تظهر - عند الاقتضاء - في هالة أكبر من المهابة.

وقال بتزر وعينه الفاجرة على ثقب باب حجرة مسز سبارست:

- بإذنك يا سيدتي يريد السيد أن يقابلك.

وعلى هذا حملت مسز سبارست - التي أفادت من هذه الفترة في إصلاح شأن قلنسوتها - ملامحها الكلاسية إلى الطابق الأسفل مرة أخرى، ودخلت قاعة مجلس الإدارة في هيئة ربة الأسرة الرومانية حين تهم بالخروج من أسوار المدينة للتفاوض مع قائد الغزاة.

وكان الزائر قد تهادى إلى النافذة، وانصرف إلى النظر منها بلا مبالاة، فلم يحدث هذا الدخول المؤثر صدى لديه وهو واقف هناك يصفر لنفسه بأقصى هدوء يمكن تصوره. وقبعته لم تزل على رأسه، وعليه مسحة خاصة من الإعياء، يرجع بعضها إلى حرارة الصيف المسرفة، ويرجع بعضها الآخر إلى عراقة محتده المسرفة. فقد كان جليًّا لمن له نصف عين أنه سيد عريق المحتد عراقة خالصة، على الغرار السائد في زمنه: فهو متعَب من كل شيء وليس لديه من الإيمان بأي شيء أكثر مما لدى إبليس. فقالت مسز سبارست تخاطبه:

- أعتقد يا سيدي أنك رغبت في مقابلتي.

فاستدار نحوها وقال وهو ينزع قبعته:

- أستميحك العفو. أرجو أن تصفحي عني.

فقالت مسز سبارست في نفسها وهي تنحني له في وقار:

- م م...! خمس وثلاثون. وسيم. حسن القامة. أسنانه بحالة جيدة. حسن الصوت. حسن النشأة. حسن الملبس. أسود الشعر. جريء العينين.

وكل ذلك سجلته مسز سبارست بطريقتها الأنثوية - كالسلطان حين يغمس رأسه في دلو الماء - فيما بين انحنائها وانتصاب قامتها. وقالت:

- أرجوك أن تتفضل بالجلوس يا سيدي.

- شكرًا لكِ. اسمحي لي...

وقدم لها كرسيًّا، ولكنه شخصيًّا بَقِيَ واقفًا متكئًا بلا اكتراث إلى المائدة:

- لقد تركت خادمي في المحطة ليعني بأمر حقائبي - فالقطار كان مزدحمًا جدًّا وعدد الحقائب في عربة البضائع كبير جدًّا - ومشيت إلى هنا لألقي نظرة على ما حولي. وإنه لبلد عجيب للغاية. فهل تسمحين أن أسألك هو هو دائمًا بهذا السواد؟

فقالت مسز سبارست بأسلوبها الذي لا مداورة فيه:

- بل هو في العادة أشد سوادًا بكثير.

- هذا مستحيل! عفوك. أنت لست من أهل هذا البلد فيما أظن؟

- لا يا سيدي. فقد كان من حسن طالعي أو سوئه - ليكن ذلك ما يكون - أنني قبل أن أترمل كنت أدور في فلك مختلف عن هذا تمامًا. فقد كان زوجي (باولر).

فقال الغريب:

- أستميحك العفو حقًّا! كان....؟

فأعادت مسز سبارست القول:

- (باولر).

فقال الغريب بعد لحظات من التفكير:

- من آل باولر....

فأومأت مسز سبارست برأسها إيجابًا، وبدا على الغريب أن إعياءه قد ازداد عن ذي قبل. وكان تعليقه على هذا الذي سمعه منها:

- لا بد أنك تشعرين بسآمة شديدة هنا؟

فقالت مسز سبارست:

- أنا خاضعة لظروفي يا سيدي. وقد رضت نفسي على مسايرة القوة المهيمنة على حياتي.

فأجابها الغريب قائلًا:

- هذا موقف فلسفي جدًّا، ونموذجي جدًّا، وجدير بالثناء. و....

وبدا أن إتمام العبارة لا يستحق ما يقتضيه من جهد، فراح يعبث بسلسلة ساعته في رخاوة. وقالت مسز سبارست:

- هل تسمح لي يا سيدي أن أسأل عن السبب الذي أدين له بفضل...

فقال الغريب:

- طبعًا. وأنا شاكر لك جدًّا تذكيرك إياي. فأنا أحمل خطاب تقديم إلى مستر باوندربي المصرفي. وإذ كنت سائرًا في طرقات هذا البلد المسرف السواد ريثما يعدون لي عشائي في الفندق، سألت شخصًا قابلته - وهو من العمال - وقد بدا لي أنه أخذ حمامًا بالرشاش من مادة كثيرة الزغب، أظنها المادة الأولية...

وأحنت مسز سبارست رأسها.

- سألته أين عسى أن يكون مقر مستر باوندربي المصرفي، ويبدو أن كلمة (المصرفي) استغلقت عليه فأرشدني إلى المصرف. والواقع أني أعتقد أن مستر باوندربي المصرفي لا يقيم في هذا المبنى الذي أتشرف فيه الآن بتقديم هذا الإيضاح؟

فأجابت مسز سبارست:

- لا يا سيدي. إنه لا يقيم هنا.

- شكرًا لكِ. ولم يكن في نيتي أن أسلم إليه خطابي في اللحظة الراهنة. وليس ذلك في نيتي الآن. ولكني أثناء مسيري المتمهل نحو المصرف قتلًا للوقت، رفعت لحسن الحظ نظري إلى النافذة (وأشار في رخاوة إلى النافذة بيده ثم انحنى انحناءة يسيرة) فلمحت بها سيدة ذات مظهر سام لطيف وخطر لي أني لا أستطيع ما هو أفضل من الاجتراء على سؤال تلك السيدة أين يقيم مستر باوندربي المصرفي، وهذا ما اجترأت على الإقدام عليه، مع كل ما يناسب ذلك العمل من الاعتذار.

واغتفر له تراخي سلوكه وشروده في نظر مسز سبارست ما أبداه من ظرف يسير في تكريمها، فها هو ذا في هذه اللحظة مثلًا يكاد يقتعد المائدة، ولكنه مع هذا منحنٍ عليها كأنه يعترف لها بجاذبية فيها تجعل لها فتنة... على طريقتها.

وقال الغريب الذي كانت تروق خفة حديثه ونعومته على السواء، بحيث يوحي للسامع أن طوايا كلامه مغازي ودعابات أكثر مما فيه حقيقة. وهي حيلة حصيفة من منشئ هذه الطائفة الكثيرة الأفراد، كائنًا ما كان اسم هذا الرجل العظيم.

- أنا أعلم أن المصارف سريعة إلى الارتياب دائمًا، وكذلك ينبغي لها رسميًّا أن تكون. ولذا أذكر لك أن خطابي - وهاك هو - صادر من نائب هذا الموضع - جراد جرايند - الذي كان لي حظ التعرف إليه في لندن.

وعرفت مسز سبارست الخط، فقالت إن ذلك التأكيد لا موجب له. وأعطته عنوان مستر باوندربي مع سائر الإرشادات التي تعينه على الوصول إليه. فقال الغريب:

- ألف شكر... أنت طبعًا تعرفين المصرفي معرفة جيدة؟

فقالت مسز سبارست:

- أجل يا سيدي. فإني أعرفه عن طريق علاقة التبعية له منذ عشر سنوات.

- يا له من دهر طويل، أظنه متزوجًا من ابنة جراد جرايند؟

فقالت مسز سبارست وهي تزمّ فمها فجأة:

- أجل.. لقد نال هذا... الشرف.

- وتلك السيدة فيلسوفة كبيرة.. كما قيل لي؟

فقالت مسز سبارست:

- حقًّا يا سيدي؟ أكذلك هي؟

فاستطرد الغريب حانيًا على حاجبي مسز سبارست بنظرة استعطاف:

- اغفري لي فضولي السمج. ولكنك تعرفين الأسرة، وتعرفين الدنيا.. وأنا بسبيلي إلى معرفة الأسرة. وقد تكون لي بهم علائق كثيرة. فهل السيدة مروعة كثيرًا جدًّا؟ إن والدها يضفي عليها سمعة فظيعة في صلابة الرأس، حتى إني أتحرق إلى معرفة الحقيقة. فهل هي وعرة كل الوعورة حقًّا؟ وحاذقة بصورة كريهة مدوخة؟ إني أرى من ابتسامتكِ ذات المغزى أنكِ لا ترين ذلك الرأي. لقد صببت بلسمًا على نفسي القلقة. والآن ماذا عن سنها؟ أربعون! خمسة وثلاثون؟

فانطلقت مسز سبارست ضاحكةً وقالت:

- بل هي بنية صغيرة... لم تكن قد بلغت العشرين عندما تزوجت.

فرد عليها الغريب وهو ينأى بنفسه من المائدة:

- أقسم لكِ بشرفي يا مسز باولر أني لم أدهش لأمر في حياتي كما دهشت الآن!

وكان يبدو حقيقته أن هذا الأمر أثر في نفسه إلى أقصى ما في وسعه من قابلية للتأثر، وظل ينظر إلى مصدر معلوماته ربع دقيقة بأكمله، وبدا عليه أن الدهشة ظلت قائمة في ذهنه طيلة الوقت، ثم قال في إعياء شديد:

- أؤكد لكِ يا مسز باولر أن لهجة الوالد أعدت ذهني لملاقاة امرأة متجهمة بلغت من النضج حد التحجر. وأنا شاكر لكِ أكثر من كل شيء تصويبكِ مثل هذا الخطأ السخيف، وأرجو أن تغفري لي تطفلي. شكرًا جزيلًا. وطاب يومكِ!

وانحنى منصرفًا، ورأته مسز سبارست وهي متوارية في ستار النافذة يتهادى مبتعدًا في الشارع، على الجانب الظليل من الطريق، تحيط به لحاظ المدينة كلها. وسألت الساعي عندما جاء لرفع خوان الطعام:

- ما رأيك في السيد يا بتزر؟

- إنه ينفق مالًا جزيلًا على ملبسه يا سيدتي.

- لا مفر من الاعتراف أن ملبسه حسن الذوق جدًّا.

فقال بتزر:

- أجل يا سيدتي. إن كان هذا يستحق ما ينفق فيه من مال.

واستطرد بتزر وهو يلمع النضد:

- ويُضاف إلى هذا يا سيدتي أنه فيما يبدو لي مقامر.

- المقامرة منافية لمكارم الأخلاق.

- وهي سخف أيضًا لأن الحظوظ تناهض اللاعبين.

وسواء كان الحر هو الذي عاق مسز سبارست عن العمل، أو كانت يدها تؤلمها، فهي على كل حال لم تقم تلك الليلة بعمل، بل جلست إلى النافذة عندما بدأت الشمس تتوارى خلف الدخان. وكانت جالسة هناك والدخان يتوهج من فرط الاحمرار، ثم عندما نصل لونه. وعندما بدت الظلمة وكأنها تتصاعد من الأرض شيئًا فشيئًا، وتمضي صاعدة حتى سقوف المنازل، ثم حتى قبة الكنيسة، ثم ذرى مداخن المصانع، ثم حتى السماء. وبدون شمعة في القاعة ظلت مسز سبارست جالسة إلى النافذة، ويداها أمامها، لا تلقي بالها كثيرًا إلى أصوات الماء: من صياح الغلمان، ونباح الكلاب، وضجيج العجلات، وأصوات السابلة ووقع خطاهم، وصيحات المارة الحادة، ودقهم الثقيل والوطأة على أرضه عندما تحين ساعة مرورهم فيه، وصوت إغلاق مصارع الحوانيت. ولم تتنبه مسز سبارست من شرودها إلا عندما آذنها الساعي بأن أطايب عشائها قد أعدت، فعندئذٍ انتقلت بحاجبيها الكثين السوداوين - وقد عقد ذات بينهما التفكر العميق حتى باتا وكأنهما بحاجة إلى أن يبسطا بالمكواة - إلى الطابق العلوي.

وقالت عندما صارت بمفردها على مائدة عشائها: (يا لك من أبله!) ولم تفصح عمن تعنيه بهذا القول. ولكن ليس من المرجح أنها كانت تعني الطعام.

الفصل الثاني

مستر جيمس هارتهاوس

كان حزب جراد جرايند بحاجة إلى معونة على قطع رقاب عرائس الفن والخيال. فراح أعضاء الحزب يجندون الأعوان، وأين عساهم يجدون أعوانًا تنعقد عليهم الآمال أكثر ممن يوجدون بين صفوف السادة الرقاق الذين تكشف لهم أنه ما من شيء له قيمة. فهم على أهبة تقبل أي شيء بغير مفاضلة بين الأشياء؟

يُضاف إلى هذا أن العقول الرجيحة التي ارتقت إلى تلك الذرى العالية في إدراك الأمور تتمتع بجاذبية لدى الكثيرين في مدرسة جراد جرايند. فهم يحبون السادة الرقاق، ويتظاهرون بأنهم لا ينطوون لهم على حب. وهم لهم محبون... فالإعياء ينتابهم تقليدًا لهم، ويتصنعون في حديثهم الثؤباء مثلهم. ويقدمون في مظهر واهن أزوادهم القليلة العفنة من الاقتصاد السياسي التي يكرمون بها حوارييهم. فلم يكن على وجه الأرض من قبل هؤلاء سلالة على هذا النحو المغرب من الهجنة.

ومن بين السادة الرقاق الذين لا ينتمون إلى مدرسة جراد جرايند بصورة منتظمة سيد من أسرة طيبة هيئته أفضل من أسرته، وفيه ميل إلى الدعابة لَقِيَ نجاحًا كبيرًا لدى أعضاء مجلس العموم عندما أمتع ذلك المجلس بوجهة نظره (وهي أيضًا وجهة نظر مجلس الإدارة) في إحدى حوادث سكة الحديد،

وبحسب تلك الوجهة في النظر كان الموظفون أكثر مَنْ خلق الله تدقيقًا بين الموظفين، وقد استخدمهم أكثر المديرين تحررًا فيمن سُمع بهم من المديرين، وهم يستعينون في أداء عملهم بأدق المبتدعات الآلية التي استحدثها المبتكرون. وما قتلوا خمسة أشخاص وجرحوا اثنين وثلاثين إلا بعارض لولاه لما اكتمل لذلك النظام في مجموعه تفوقه المحكم. وكانت من بين القتلى بقرة، ومن بين الحطام الذي لم يعرف له صاحب قلنسوة أرملة. وقد دغدغ العضو المحترم جنوب المجلس (الذي يتمتع بروح دعابة مرهفة) بأن وضع القلنسوة على رأس البقرة، حتى لم يبق للمجلس صبر على أي استعراض جاد لتحقيقات المحققين وبرأوا ساحة سكة الحديد بين الضحك والهتاف.

وكان لهذا السيد أخ أصغر منه سنًّا، وأحسن منه منظرًا، جرب الحياة حامل علم في فرقة فرسان (الدراجونز) فوجدها مسئمة، فجربها في بطانة وزير إنجليزي في الخارج، فوجدها مسئمة أيضًا، فراح يجوب أصقاع الدنيا على ظهور اليخوت فأدركه السأم أينما حل. ولذلك الأخ قال عضو البرلمان الموقر المفراح بلهجة أخوية ذات يوم:

- أي جيم، ثمة فرصة مواتية بين صفوف أنصار الواقع الجامدين، وهم بحاجة إلى رجال، ألا تجرب الاشتغال بالإحصائيات..؟

وأخذ (جيم) بطرافة الفكرة، وكان متلهفًا على أي تغيير يُتاح له، فأنس في نفسه استعدادًا للاشتغال بالإحصائيات كاستعداده لأيما شيء آخر. وعلى هذا قرر اعتناق ذلك الاتجاه. واستوعب كتابًا أزرق أو كتابين، وروج له أخوه بين أنصار الواقع الجامدين، فقال:

- إن كنتم تريدون الحصول في أي موضع على فرخ حسن يحسن أن يلقي لكم خطبة متقنة غاية الإتقان، فعليكم بشقيقي (جيم) فهو ضالتكم!

وبعد أن أخذ ورد يسيرين على الطريقة المعهودة في الاجتماعات العامة وافق مستر جراد جرايند ولجنة من حصفاء السياسة على اختيار (جيم). واستقر الرأي على إرساله إلى كوكتاون كي يُعرف في ذلك البلد وفي المنطقة المحيطة به. ومن هنا كان ذلك الخطاب الذي أبرزه (جيم) في الليلة الماضية لمسز سبارست، والذي يحمله مستر باوندربي الآن في يده، معنونًا على النحو التالي:

(إلى جوشيا باوندربي المحترم، المصرفي ببلدة كوكتاون، خصيصًا لتقديم جيمس هارتهاوس المحترم. من لدن توماس جراد جرايند).

وفي غضون ساعة من تسلم هذه الرسالة وبطاقة مستر جيمس هارتهاوس، ارتدى مستر باوندربي قبعته وتوجه إلى الفندق. وهناك وجد مستر هارتهاوس مطلًّا من النافذة وهو في حالة نفسية واجمة، بحيث لم يكن تام القابلية للاهتمام بأي أمر آخر. وقال الزائر:

- اسمي يا سيدي جوشيا باوندربي، من أعيان كوكتاون.

وقال مستر جيمس هارتهاوس إنه سعيد حقًّا (وإن لم يبد مصداق ذلك على محياه) إذ يحظى بذلك السرور الذي كان يتوقعه منذ زمن طويل. وقال باوندربي في إصرار وهو يتخذ لنفسه مجلسًا:

- كوكتاون يا سيدي ليست من طراز البلدان التي ألفتها. ولذا إن سمحت لي - بل وسواء سمحت لي أو لم تسمح، لأني رجل صريح - سأقول لك شيئًا عنها قبل أن نمضي في موضوعنا.

وقال مستر هارتهاوس إن ذلك يسره جدًّا.

فقال باوندربي:

- لا تعوِل سلفًا على السرور بما ستسمع، فلست أعدك بشيء من هذا. فها أنت ذا أولًا ترى دخاننا، وهو لنا بمثابة الطعام والشراب، فهو أصح شيء في العالم من جميع الوجوه، وللرئتين خاصة. فإن كنت من أولئك الذين يريدون منا أن نقطع دابره، فأنا وأنت في هذا على خلاف. ولسنا مستعدين لإبلاء قعور مراجلنا بأسرع مما نبليها الآن، مهما علت للدعاوى العاطفية المزعومة ضجة في بريطانيا العظمى وإيرلندا.

وعلى سبيل (الانغماس) إلى أقصى مدى، قال مستر هارتهاوس:

- أؤكد لك يا مستر باوندربي أني متفق معك في طريقة التفكير كل الاتفاق، وعن اقتناع.

فقال باوندربي:

- يسعدني أن أسمع هذا القول. والآن، لا شك في أنك سمعت الكثير عن العمل في مصانعنا. سمعت؟ حسن جدًّا، سأضع أمامك صورة لذلك الواقع، إنه أجلب عمل للسرور، وهو أخف عمل، وأحسن عمل أجرًا، بل أكثر من هذا، ليس في وسعنا أن نحسن المصانع نفسها، اللهم إلا إذا فرشنا الأرض بالأبسطة التركية... وهو ما لا ننوي أن نفعل!

- هذا صحيح تمامًا يا مستر باوندربي.

فقال باوندربي:

- وأخيرًا... بخصوص الأيدي العاملة، ليس من يد عاملة واحدة في هذه البلدة يا سيدي، سواءً كانت تلك اليد العاملة رجلًا أو امرأة أو طفلًا إلا ولها غاية واحدة قصوى في الحياة، ألا وهي أن تقتات بحساء السلاحف ولحوم الأيائل بملاعق من ذهب... ولن يتسنى لهم - ولا لأي واحد منهم - أن يغتذي بحساء

السلاحف ولحوم الأيائل بملاعق من ذهب... وها أنت ذا الآن قد عرفت أي مكان حللت.

وأقر له مستر هارتهاوس بأنه قد عرف منه أوفى المعرفة حقيقة المسألة الكوكتاونية في جملتها بفضل ذلك البيان الموجز المفيد. وأجابه مستر باوندربي بقوله:

- لا عجب! فإني امرؤ يوافق سجيتي أن أتفاهم تفاهمًا تامًّا مع أي رجل، ولا سيما الرجل العام، عندما أتعرف إليه. ولم يعد عندي بعد هذا إلا شيء واحد أقوله لك يا مستر هارتهاوس قبل أن أؤكد لك مبلغ سروري الذي أستجيب به - إلى أقصى ما في طاقتي المحدودة من قدرة - لخطاب التقديم الذي جاءني من صديقي توم جراد جرايند. أنت من أبناء البيوتات، فلا تخدعن نفسك طرفة عين بتوهم أنني من أبناء البيوتات، فأنا من فتات نفاية الخلق، وقطعة من صميم حثالتهم وهملهم...

فلو أن شيئًا يمكن أن يُربى اهتمام جيم بمستر باوندربي، فهو تلك المعلومة بالذات، أو هكذا قال له، فقال باوندربي:

- والآن إذن في وسعنا أن نتصافح على قدم المساواة. وأقول على قدم المساواة لأني وإن كنت أعلم خيرًا مما يعلم أي امرئ من أنا، ومدى الهوة السحيقة التي استنقذتُ نفسي من أغوارها، إلا أني فخور بذلك مثل فخرك بأصلك. أجل ومزهوّ مثل زهوك تمامًا. وأما وقد أكدتُ لك استقلالي كما ينبغي، فإني آخذ في سؤالك عن حالك، وأتمنى أن تكون على خير ما تحب.

وأفهمه مستر هارتهاوس وهو يشد على يده أن الفضل في ذلك للتحسن الذي استحدثه فيه هواء كوكتاون الصحي، وتقبل مستر باوندربي ذلك الرد بقبول حسن وقال:

- لعلك تعلم أو لا تعلم أني متزوج من ابنة توم جراد جرايند، فإن لم يكن لديك ما تصنعه أفضل من اختراق البلدة سائرًا في صحبتي، سيسعدني أن أقدمك إلى ابنة توم جراد جرايند.

فقال جيم:

- إنك يا مستر باوندربي تسبقني إلى أعز رغائبي.

وانطلقا معًا من غير أن يتجاذبا مزيدًا من أطراف الحديث. وقاد مستر باوندربي صاحبه الجديد الذي يباينه أشد المباينة إلى المقر الخاص بالمبنى الآخر الأحمر، ذي المصاريع السوداء من خارج، الخضراء من الداخل، وباب الدخول الأسود الذي يعلو الدرجتين البيضاوين. وفي حجرة استقبال ذلك القصر سرعان ما دخلت عليهما أبهى من رأى مستر جيمس هارتهاوس في حياته من الفتيات، كانت متحفظة وإن تكن غير مكترثة. ومحتجزة وإن تكن فطنة. فاترة متكبرة وإن تكن ظاهرة الخزي مما يبديه زوجها من تواضع وقح، كانت تجعل منه كأنما كل قطعة منه طعنة أو ضربة تصيبها، فكانت مراقبتها مصدر استرواح جديد له. ولم يكن محياها أقل استرعاءً للنظر من شمائلها، فملامحها وسيمة بيد أن تعبيرها الطبيعي معتقل حتى ليستحيل أن تحزر مدلوله الصحيح. فهي غير مكترثة إطلاقًا، تركن إلى نفسها كل الركون، لا تشعر بالارتباك أو الحيرة بتاتًا، إلا أنها ليست على سجيتها في أي وقت. فهي بمظهرها في رفقتهما هناك، ولكنها بمعزل عنهما تمامًا بذهنها. فلم تكن ثمة جدوى من (الدخول) حاليًا في محاولة تفهم تلك الفتاة، لما فيها من روغان يحبط كل استكناه.

ونقل الزائر طرفه من ربة البيت إلى البيت نفسه، فلم يجد فيه آية واحدة من الآيات الصامتة التي توحي بوجود امرأة في الحجرة. فما من طنفسة من

صغار الزخارف المحببة، أو بدعة من مبتدعات الخيال، مهما هان أمرها، تدل على أثر لها في أي موضع. بل إن الحجرة لتبدو خلوًا من البهجة، عاطلة في أسباب الراحة، وكأنها ببذخها الصارخ المتحدي تحملق في شاغليها تلك الساعة غير متخلية عن شيء من صرامتها وجهامتها بفعل أيسر دلائل النشاط النسوي، وكما وقف مستر باوندربي وسط آلهة بيته، كذلك وقف أولئك الأرباب الشداد في مواضعهم من حول مستر باوندربي، فكان الطرفان كل منهما جدير بصاحبه، كفؤ له...

وقال باوندربي:

- هذه يا سيدي هي زوجتي، مسز باوندربي، وابنة توم جراد جرايند الكبرى. وهذا يا لو هو مستر جيمس هارتهاوس. وقد انضم مستر هارتهاوس إلى قائمة مجندي أبيك. فإن لم نره زميلًا لوالدك قبل طول أمد، ففي اعتقادي أننا على الأقل سنسمع قريبًا عن اقتران اسمه بإحدى بلادنا المجاورة. وزوجتي - كما ترى يا مستر هارتهاوس - أصغر مني سنًّا، ولست أدري ماذا رأت فيَّ حتى تزوجتني. ولكن أحسبها رأت فيَّ شيئًا ما، وإلا لما تزوجتني. فهي ذات معلومات مستفيضة باهظة التكاليف يا سيدي، في السياسة وفي غيرها أيضًا. فإن أردت أن تعد نفسك لأي موضوع على عجل، فلست أوصيك بمصدر أفضل من لو باوندربي.

وأجاب مستر هارتهاوس أنه ليس من الممكن أن يجد منهلًا للمعرفة أحظى من هذا المنهل، ولا ما هو أجدر أن يفيد منه علمًا... فقال مضيفه:

- ويحك! إن كنت ممن يميلون إلى الإطراء فستجد المجال هنا ذا سعة؛ لأنك لن تلقى منافسًا لك في هذا الاتجاه. فإني لم أوجه نفسي لتعلم الإطراء، ولست أفهم لإسدائه وجهًا. بل إني في الواقع أزدريه. ولكن نشأتك كانت على خلاف نشأتي، فإن نشأتي كانت لعمري عسيرة حقًّا! وأنت سيد مهذب، وأنا لا

أزعم نفسي كذلك. فأنا جوشيا باوندربي من أعيان كوكتاون، وذلك حسبي! ولكن لم تهذبني الآداب والمكانة، فلعلهما صنعتا للو باوندربي شيئًا؛ لأنها لم تحظ بما حظيت به من المزايا - وقد تدعوها أنت مساوئ ولكني أدعوها مزايا - ولذا لن يضيع جهدك معها سدى فيما أرى...

فقال جيم وهو يلتفت نحو لويزا باسمًا:

- مستر باوندربي حيوان نبيل في مرحلة فطرية نسبيًا، فهو متحرر من اللجم التي يرسف فيها حصان جر مثلي مقيد بالمواضعات.

فأجابته بهدوء قائلة:

- أنت تحترم مستر باوندربي كثيرًا جدًّا. وهو أمر طبيعي.

وأخذ أخذًا غير مستحب بالنسبة لسيد عرك الدنيا. وقال لنفسه:

- ترى على أي محمل آخذ هذا القول؟

وقالت لويزا، وهي لم تزل واقفة أمامه حيث كانت منذ دخولها، على حالها من التناقض الفريد الذي يجمع بين رباطة الجأش وعدم ترك النفس على السجية:

- إنك، على ما فهمت من كلام مستر باوندربي، بسبيل أن تقف نفسك على خدمة وطنك، فقد قررت أن تدل الأمة على طريق الخلاص من كل أوصابها.

فأجابها ضاحكًا:

- لا وشرفي يا مسز باوندربي. لن أزعم لك شيئًا من هذا، لقد جربت الحياة قليلًا، هنا وهناك، وفي هذا المستوى وذاك فتكشف الأمر لي في النهاية عن عدم جدوى أي شيء... وهامًا يفطن إليه كل إنسان يُعمل عقله. وإن كان بعضهم يعترفون بذلك، والبعض الآخر لا يعترفون. ولئن كنت قد انتويت اعتناق آراء

والدك المحترم، فما ذلك في الحق إلا لأني لا أوثر رأيًا بعينه، وسيان عندي أن أؤيد تلك الآراء أو سواها...

فسألته لويزا:

- أليست لك آراؤك الخاصة؟

- ليس لدي أدنى تفضيل لشيء منها. وأؤكد لك أني لا أعلق أقل أهمية على أي رأي من الآراء. وأن ثمرة ألوان السأم التي عانيتها هي الاقتناع (اللهم إلا إذا كانت لفظة الاقتناع تدل على توقد لا يتمثل في الإحساس الفاتر الذي لدي إزاء الموضوع) إن أية مجموعة من الأفكار يمكن أن تسدي من الخير ما تسديه أية مجموعة أخرى منها، أو أن تحدث من الشر ما تحدثه. وثمة أسرة إنجليزية لها شعار إيطالي بديع هو: (ما قدر سيكون). وهذه هي الحقيقة الوحيدة السائدة في اعتباري!

وشعر أن هذه الدعوى الخبيثة، دعوى الاستقامة في الاعوجاج - وتلك رذيلة غاية في الخطورة، وغاية في الفتك، وغاية في الشيوع - قد أحدثت لديها فيما يلوح أثرًا حسنًا، فتابع ذلك التقدم الذي أحرزه بأن قال بأعذب أسلوب يستطيعه، وهو أسلوب في وسعها أن تحمله من المغزى الكبير أو الضئيل ما يروقها:

- إن الجانب الذي يستطيع أن يثبت أي شيء عن طريق الآحاد والعشرات والمئات والآلاف يبدو لي يا مسز باوندربي أحفل بالطلاوة وأقدر على إتاحة حفظ التوازن. وأنا على أتم أهبة للخوض مع هذا الجانب إلى أقصى المدى الذي كنت حريًا أن أبلغه لو أني أومن به حقًا... وماذا كنت عسيًا أن أصنع أكثر من هذا لو أني به مؤمن؟!

فقالت لويزا:

- إنك لسياسي فريد في بابك.

- عفوك! ولا هذه المزية أتمتع بها أيضًا فمن على شاكلتي أكبر طائفة في الدولة يا مسز باوندربي - أؤكد لكِ - لو أننا خرجنا من الصفوف التي انضوينا تحتها وأقيم لنا عرض واحدًا معًا...

وهنا تدخل مستر باوندربي الذي كان على شفا الانفجار بصمته، فاقترح تأجيل موعد عشاء الأسرة إلى منتصف السابعة، ريثما يصحب مستر جيمس هارتهاوس في جولة لزيارة أصحاب الأصوات وذوي الأقدار من أعيان كوكتاون وما جاورها. وتمت الجولة، وخرج منها مستر جيمس هارتهاوس ظافرًا بفضل استخدامه اللبق لما وعاه من (الكتب الزرقاء) وإن خرج مع الفوز بنصيب إضافي من السأم.

وفي المساء ألفى مائدة العشاء معدة لأربعة أشخاص، بيد أنهم جلسوا إليها ثلاثة فقط. وكانت فرصة مواتية لمستر باوندربي كي يناقش نكهة ثعابين الماء المطبوخة التي اشتراها بنصف بنس وهو في الثامنة من عمره، وليناقش أيضًا ذلك الماء الكدر الذي يستخدم عادةً لتسكين ثائرة الغبار، وكيف استقى منه ليبلع تلك الوليمة. وأتحف ضيفه أيضًا على الحساء والسمك بحسبة تثبت أنه (أي باوندربي) قد أتى في حداثته على ثلاثة من الخيول على الأقل في صورة مآكل حقيرة مبتذلة وكان جيم يتلقى هذه المقطوعات بكلمة (بديع!) يقولها بأسلوب واهن بين الحين والحين وكان ما سمعه حريًّا أن يحمله منذ الغد على الانضمام إلى (مملكة أورشليم) مرة أخرى، لو أن فضوله فيما يتعلق بلويزا كان أوهى مما هو وقال في نفسه، وهو يرمقها في جلوسها على رأس المائدة، حيث بدا محياها

الشاب في صغره وخفته وشدة وسامته غاية في الجمال، وغاية في نبوه عن ذلك المكان:

- أليس ثمة شيء يمكن أن يهتز له هذا المحيا؟

أجل وحق جوبيتر! ها هو ذا شيء بهذا الوصف. وفي صورة غير منتظرة! فها قد ظهر توم. فتغيرت أساريرها عندما انفتح الباب، وأشرقت بالابتسام.

وإنها لابتسامة جميلة، وما كان مستر جيمس هارتهاوس ليعلق عليها كبير أهمية، لولا أنه شغل ذهنه طويلًا بالتساؤل عن جمود محياها. ومدت يدها - وهي يد صغيرة بضة - وأطبقت أناملها على أنامل أخيها وكأنها تود لو رفعتها إلى شفتيها. فقال الزائر لنفسه:

- آي! هذا الجرو هو الشخص الوحيد الذي تكترث له! هكذا. هكذا!

وقُدم الجرو، ثم اتخذ مجلسه. ولم يكن هذا النعت منطويًا على إطراء. ولكنه ليس بلا مبرر. وقال باوندربي:

- عندما كنت في سنك يا توم الصغير كنت أُحافظ على مواعيدي بدقة، وإلا لم أظفر بالعشاء!

فأجابه توم:

- عندما كنت في سني لم يكن لديك ميزان حسابي مغلوط عليك أن تصححه. ولم يكن عليك أن ترتدي ثيابك بعد ذلك.

فقال باوندربي:

- ما علينا من ذلك الآن.

فغمغم توم:

- إذنْ لا تبادئني بالإثارة...

وقال هارتهاوس وقد سمع بوضوح ذلك التعليق المكظوم:

- وجه أخيك مألوف لي جدًّا يا مسز باوندربي. فهل تراني رأيته في خارج البلاد؟ أو ربما في إحدى المدارس العامة...؟

فأجابته باهتمام واضح:

- لا. لم يتيسر له السفر إلى الخارج بعد. وقد تلقى علومه هنا، في البيت... توم يا حبيبي، كنت أقول لمستر هارتهاوس إنه لم يرك في الخارج إطلاقًا.

فقال توم:

- لم يواتني ذلك الحظ يا سيدي.

وما أقل ما كان فيه من دواعي إشراق محياها، فهو فتى عبوس غير دمث في أسلوبه حتى معها، فلا شك في أن وحشة فؤادها كانت من الجسامة بحيث تفتقر إلى أي إنسان تفتح له قلبها، وقال مستر جيمس هارتهاوس لنفسه وهو يقلب ذلك الأمر في سريرته مرارًا وتكرارًا:

- وهذا أدعى إلى القول بأن هذا الجرو هو المخلوق الوحيد الذي اكترثت له... هذا أدعى...

ولم يعنّ الجرو نفسه - سواءً في محضر أخته أو بعد مغادرتها الحجرة - بإخفاء ازدرائه لمستر باوندربي كلما وجد فرصة لشفاء غليله من غير أن يفطن الرجل العصامي، وذلك بقلب ملامح سحنته أو إغلاق إحدى عينيه. وكان مستر هارتهاوس يشجعه أثناء السهرة من غير أن يرد على تلك الإشارات البرقية، ويظهر له ميلًا غير عادي. وأخيرًا، عندما نهض ليعود إلى فندقه أظهر ارتيابه في

معرفته الطريق ليلًا، فانتهز الجرو ذلك وعرض عليه في التو خدماته ليكون مرشده، وخرج معه، ورافقه إلى هناك.

الفصل الثالث

الجـــرو

مما يسترعى النظر حقًّا أن سيدًا شابًّا رُبِّيَ على نظام متصل من الكبح غير الطبيعي يشب منافقًا. ولكن هذا يقينًا كان شأن توم. ومن الغريب جدًّا أن سيدًا شابًّا لم يترك له قياد نفسه خمس دقائق تباعًا يشب عاجزًا في النهاية عن التحكم في نفسه، ولكن هكذا كان حال توم. ومن العجيب جدًّا أن سيدًا شابًّا جندلت مخيلته في مهده لا تنفك أشباحها تقضه بدبيب الغواية ولكن هذا المسخ بلا شك كان توم.

وسأله مستر جيمس هارتهاوس عندما وصلا إلى الفندق:

- هل تدخن؟

فقال توم:

- طبعًا!

ولم يكن في وسعه ألا يطلب إلى توم الصعود إلى حجرته ولم يكن في وسع توم ألا يصعد، وبشيء من الشراب المنعش المناسب لحالة الجو - وإن لم يكن ذلك الشراب ضعيفًا بقدر ما هو منعش - وبشيء من طباق من نوع أندر مما يُباع في تلك الأصقاع - سرعان ما أمسى توم على درجة عالية من الطلاقة وهو

جالس على سجيته في الجانب الذي يحتله من الأريكة، وقد زادت قابليته للإعجاب بصديقه الجديد الذي يحتل الجانب الآخر منها.

ونفخ توم دخانه جانبًا بعد أن لبث يدخن برهة يسيرة، ثم ألقى باله إلى صديقه وقال في نفسه:

- لا يبدو عليه الاهتمام بملبسه ومع هذا فملبسه ممتاز، ما أيسر أناقة المظهر على مثله!

واتفق أن إلتقت عين مستر جيمس هارتهاوس بعين توم، فقال له إنه لا يراه يشرب شيئًا وملأ له كأسه بيده الرخوة. فقال توم:

- أشكرك. أشكرك. والآن يا مستر هارتهاوس، أخالك قد حظيت الليلة بجرعة كافية من باوندربي العجوز.

قال توم تلك العبارة وهو مغلق إحدى عينيه ناظرًا من فوق كأسه نظرة ذات مغزى صوب مضيفه. فأجابه مستر جيمس هارتهاوس:

- إنه شخص طيب للغاية فعلًا!

فقال توم وهو يغلق عينه مرة أخرى:

- أتظن هذا؟

فابتسم مستر هارتهاوس ونهض من فوق جانب الأريكة الذي كان يحتله واتكأ بظهره في استرخاء على رف المدفأة بحيث صار وقوفه قبالة الحجرة الخاوية، وهو يدخن وتوم في مواجهته، وألقى نظره عليه ثم قال:

- أي صهر مضحك أنت!

- بل أحسبك تعني أي صهر مضحك هذا العجوز باوندربي.

فأجابه مستر جيمس هارتهاوس:

- يا لك من لاذع اللسان يا توم.

وكان ثمة شيء مستحب جدًّا في أن يكون المرء على صلة حميمة بمثل هذا الصدار وأن ينادى باسم توم بهذه الطريقة الخالية من التكليف وبمثل هذا الصوت وأن تصل العلاقة إلى مثل هذه الألفة مع مثل هذا الرجل. ولذا شعر توم بالرضى عن نفسه بصورة غير مألوفة. وقال:

- أنا لا أبالي بالعجوز باوندربي. إن كان هذا ما ترمي إليه. وهكذا كنت أدعو العجوز باوندربي على الدوام عندما أتحدث عنه. وهكذا كنت دائمًا أفكر فيه. وليس في نيتي أن أبدأ الآن بتحري التهذيب فيما يمس باوندربي العجوز. فقد فات أوان هذا الآن.

فأجاب جيمس:

- لا عليك من هذا معي. ولكن خذ حذرك عندما تكون زوجته حاضرة.

- زوجته؟ شقيقتي لو؟ أوه. حقًّا!

وضحك، وتناول مزيدًا من الشراب المنعش. ولبث جيمس هارتهاوس على استرخائه وهو متكئ في نفس الموضع وعلى نفس الوضع، يدخن سيجاره بطريقته الخاصة الهينة، وهو ينظر بانشراح إلى الجرو، وكأنه يأنس في نفسه نوعًا من أنواع الجن ذوي الكياسة حتى أن حسبه أن يحوّم من فوقه كي ينزل له عن روحه إن اقتضاها منه. وكان يبدو مؤكدًا أن الجرو واقع تحت ذلك التأثير فعلًا، فهو ينظر إلى أنيسه في تقرّب وضيع تارة، وينظر إليه تارة أخرى بإعجاب، ثم ينظر إليه باجتراء، ثم ها هو ذا يرفع إحدى ساقيه فوق الأريكة، ويقول:

- أُختي لو؟ إنها لم تبالِ في يوم من الأيام بالعجوز باوندربي.

فأجابه مستر جيمس هارتهاوس وهو ينفض الرماد من سيجاره بخنصره:

- إنك تستخدم الفعل الماضي في عبارتك هذه يا توم. ونحن الآن في الزمن الحاضر.

فأجابه توم قائلًا:

- لا تبالي فعل محايد. غايته الإخبار بشيء. والزمن الحاضر فيه لضمير المتكلم أنا لا أبالي، وللضمير المخاطب أنت لا تبالي، ولضمير الغائبة هي لا تبالي.

فقال صاحبه:

- عظيم! في منتهى الظرف! وإن كنت لا تعني ذلك طبعًا.

فصاح توم:

- بل أعنيه! أقسم بشرفي! ولا أخالك تريد أن تزعم لي يا مستر هارتهاوس أنك تحسب حقًّا شقيقتي لو مهتمة بأمر العجوز باوندربي.

فقال الآخر:

- يا صاحبي العزيز، وما المفروض أن يدخل في روعي عندما أجد زوجين يعيشان في وئام وسعادة؟

وكان توم في تلك الأثناء قد رفع ساقيه معًا فوق الأريكة، ولو أن الساق الثانية لم تكن مرفوعة من قبل فوقها عندما ناداه محدثه يا صاحبي العزيز لكان حريًّا أن يرفعها، وقد بلغ الحديث ذلك المستوى العالي، ولأنه شعر بضرورة الإتيان بصنيع ما عندئذٍ، فقد راح يتمطى تمطيًا طويلًا جدًّا واضطجع بمؤخرة دماغه على طرف الأريكة، وشرع يدخن في تصنع للتراخي لا حد له، وهو متجه

بمحياه الشائع وعينيه غير الصاحيتين تمامًا صوب الوجه الذي يشرف عليه من فوقه في عدم اكتراث بالغ، وفي سلطان بالغ في الوقت نفسه وقال توم:

- أنت تعرف والدنا يا مستر هارتهاوس ولذا لا حاجة بك إلى الدهشة من أمر زواج لو بالعجوز باوندربي ولم يكن لها محب من قبل، فلما اقترح عليها الوالد العجوز باوندربي تزوجته.

فقال مستر جيمس هارتهاوس:

- هذا امتثال محمود من شقيقتك المرموقة للواجب.

فأجاب الجرو قائلًا:

- أجل. ولكنها ما كانت لتمتثل على هذا النحو الواجب، وما كان الموضوع ليفلح بهذه السهولة لولاي أنا.

واكتفى المغوي برفع حاجبيه. بيد أن الجرو تحتم عليه المضي في كلامه، فقال بلهجة التعالي والشموخ:

- (أنا) الذي أقنعتها. فقد كنت مغروسًا في مصرف باوندربي (ولم تكن بي رغبة إطلاقًا في ذلك) وكنت أعلم أن النوائب ستحط عليَّ هناك إن هي ردت باوندربي العجوز خائبًا، فبينت لها رغبتي، فنزلت عندها. وهي مستعدة أن تصنع أي شيء من أجلي. وكانت تلك شهامة كبيرة من جانبها. أليس كذلك؟

- شيء بديع حقًّا يا توم.

واستطرد توم بفتور:

- وليس معنى هذا على كل حال أن الأمر كان يعنيها كما يعنيني. فحريتي وراحتي وربما تحسن وضعي، كل ذلك كان متوقفًا على ذلك الزواج، أما هي فلم يكن لها محب آخر وكان البقاء في المنزل أشبه بالبقاء في السجن... ولا سيما

بعد أن غادرته أنا، فليس الأمر سواء لو أنها كانت تخلت عن محب آخر في سبيل العجوز باوندربي. ولكنه صنع جميل منها على كل حال.

- هذا شيء رائع للغاية. وهي ماضية في حياتها بكل ثبات.

فأجاب توم في تعالٍ ينم على زراية:

- أوه! إنها فتاة سوية. والفتاة تستطيع أن تمضي قُدمًا على أي وضع وهي قد استقرت في هذه الحياة، ولذا فهي لا تبالي فحياتها هذه سيان لديها وأي حياة سواها أضف إلى هذا أن لو، وإن تكن فتاة، فهي ليست من النمط الشائع بين الفتيات، ففي استطاعتها أن تنطوي على نفسها، وأن تفكر - على نحو ما آنستها مرارًا كثيرة تجلس لترقب النار - ساعة بأكملها بلا انقطاع.

فقال هارتهاوس وهو يدخن بهدوء:

- آه! لها إذن خواطرها الخاصة بها.

فأجابه توم:

- ليس على النحو الذي قد يخطر ببالك؛ لأن والدنا حشا ذهنها بشتى صنوف العظام الجافة ونشارة الخشب، فتلك طريقته.

فاستوضحه هارتهاوس قائلًا:

- هل صاغ ابنته على غِراره؟

- ابنته فقط؟ بل وكل إنسان آخر. فعلى هذه الطريقة المشار إليها صاغني أنا أيضًا.

- مُحال!

فقال توم وهو يهز رأسه:

- بل إنه هكذا صنع بي. أعني يا مستر هارتهاوس أنني عندما غادرت البيت لأول مرة لأقيم لدى العجوز باوندربي كنت غُفلًا غرًّا، ولم أكن أدري من شؤون الحياة أكثر مما تدريه محارة!

- ما هذا الذي تقول يا توم؟ لا أكاد أصدق هذا، وللمزاح حدود على كل حال.

فقال الجرو:

- أقسم لك بروحي أني جاد، جاد حقًّا!

وأخذ يدخن بجد ووقار برهة يسيرة ثم استطرد يقول في لهجة ظاهرة التودد:

- ولكني تمرست بالحياة قليلًا منذ ذلك الحين. لست أنكر هذا. بيد أني حققته لنفسي ولا فضل فيه للوالد.

- وشقيقتك الذكية؟

- شقيقتي الذكية ظلت حيث كانت تقريبًا. وكان من عادتها أن تشكو لي من عدم وجود ما تركن إليه في حياتها شأن الفتيات عادةً. ولست أدري كيف تغلبت على ذلك الضيق فيما بعد. (وأضاف بحصافة وهو ينفخ سيجاره) ولكنها لا تبالي، ففي استطاعة الفتيات أن يمضين قدمًا بصورة من الصور.

وقال مستر جيمس هارتهاوس وهو يلقي بعيدًا بآخر بقية صغيرة من السيجار الذي دخنه:

- عندما توجهت إلى المصرف مساء أمس للسؤال عن عنوان مستر باوندربي لقيت هناك سيدة عتيقة يبدو أنها تكنُّ لشقيقتك إعجابًا عظيمًا.

- الأم سبارست؟ عجبًا! هل رأيتها فعلًا؟

فهز صديقه رأسه، وأخرج توم سيجاره من فمه ليغلق عينه (وقد تعذر عليه ذلك) ليقوِّي تعبيره، وليطرق أنفه بإصبعه بضع مرات. ثم قال:

- إن شعور الأم سبارست نحوه هو أكثر من الإعجاب فيما أعتقد. قل إنه شعور بالإعزاز والتعلق. فالأم سبارست لم توجه همها إلى اقتناص باوندربي عندما كان أعزب. أوه. لا!

وكانت هذه آخر كلمات تفوه بها الجرو قبل أن تستولي عليه سِنَة مضطربة أعقبتها غيبوبة تامة استفاق منها بحلم مزعج فحواه أن أحدًا هزه بطرف الحذاء. وأن صوتًا أهاب به: (قم. لقد تأخر الوقت، هيا انصرف!) وقال وهو ينحدر عن الأريكة:

- حسنًا! يجب أن أستأذنك الآن في الانصراف. آه طباقك جيد جدًّا ولكنه هادئ جدًّا.

فقال مضيفه:

- هادئ جدًّا فعلًا.

- إنه... إنه هادئ بصورة مضحكة. أين الباب؟ طابت ليلتك!

ورأى حلمًا غريبًا آخر فحواه أن ساقيًا أخذ بيده إلى جوف ضباب تبين له بعد لأيٍ وعناء أنه الشارع الرئيسي، فوجد نفسه واقفًا فيه وحده. ثم سار صوب البيت في سهولة ويسر. وإن لم يخل من الإحساس بوجود صديقه الجديد وتأثيره عليه... كأنه متكئ باسترخاء في مكان ما في الهواء، على وضعه المتراخي بعينه، ينظر إليه نظرته بعينها.

عاد الجرو إلى البيت وأوى إلى فراشه، ولو أنه فطن أقل الفطنة إلى ما صنع بالأمس، وكانت كلبيته أقل مما هي وإخوّته أكثر مما هي، لكان حريًّا أن يختصر

الطريق فيمضي إلى النهر ذي الرائحة الكريهة الذي طلته الأصباغ بالسواد، فيتخذ من قاعه له فراشًا إلى أبدٍ أبيد، ويجعل من أمواهه القذرة لرأسه غطاء ووطاء إلى آخر الدهر.

الفصل الرابع

رجال وإخوة

- أيها الصحاب من عمال كوكتاون المسحوقين تحت الأقدام! أيها الصحاب والمواطنون عبيد الاستبداد الماحق ذي اليد الحديدية! أيها الصحاب زملاء الشقاء ورفاق العمل، والإخوة في البشرية! إني منبئكم أن الساعة قد دنت كي ينبغي علينا أن يلتف بعضنا ببعض في قوة متحدة ونحيل الغاصبين ترابًا، أولئك الغاصبين الذين أُتخموا بما نهبوا من أُسرنا، واكتنزوا الشحم من عرق جباهنا، وعمل أيدينا وقوة سواعدنا، والحقوق الإنسانية المجيدة التي فطرها الله، والمزايا الأبدية المقدسة التي اختصت بها الأخوة!

وارتفعت أصوات كثيرة بالاستحسان والإطراء من جوانب متعددة في ذلك الحشد الحاشد الذي اكتظت به القاعة الخانقة حيث وقف الخطيب فوق منصة ملقيًا ذلك القول وما يجري مجراه نافثًا ما في جوفه من إرغاء وإزباد. وأطنب الرجل في الكلام حتى لقد أوفت حرارته على الغاية، ولم تكن بحة صوته أهون شأنًا من حرارة دمه. وقد جعل يهدد بأعلى صوته تحت شعلة باهرة من ضوء الغاز، جامعًا قبضتيه، ومقطبًا حاجبيه، كاشرًا عن أنيابه، ضاربًا بذراعيه حتى لقد استنفد الكثير من طاقته في ذلك الحين الذي بلغ فيه من مقالته ذلك المبلغ، فاضطر للتوقف، وطلب كوب ماء.

وفيما هو واقف هناك يحاول إخماد لهيب وجهه بما يجرعه من الماء، كانت المقابلة بين الخطيب، والجمهور الحاشد من الوجوه المتيقظة المتجهة صوبه ليست في صالحه بأي حال، فإذا حكمنا عليه بما تقدمه الطبيعة من شواهدها ألفيناه لا يعلو على السواد علوًّا مذكورًا لو غضضنا الطرف عن المنصة التي يقف فوقها، بل إنه في كثير جدًّا من الوجوه دونهم بصورة حاسمة فهو ليس كفئًا لهم في الأمانة، وليس كفء لهم في الرجولة، وليس كفئًا لهم في التفتح للدعابة. ثم هو يستعيض عن بساطتهم بالدهاء وعن بداهتهم الرصينة المأمونة بالهوى والانفعال. وهو رجل سقيم التكوين، عالي الكتفين، متدل الحاجبين، ملامح سحنته تغلب عليها في تراكمها سمة الجرو فالمباينة بينه وبينهم تهبط به كثيرًا، حتى في ثوبه المختلط مقابل العدد الغفير من سامعيه في ثياب عملهم العاطلة من الزخرف والزينة ولئن كان من العجيب كما هو الحال دوامًا أن يرى المرء جمعًا من الناس من أي نوع يتخاضع ممتثلًا لجهامة يبديها شخص الأصل في طبعه الدماثة واللطف، سواء كان من اللوردات أو من العامة، في الوقت الذي يعجز ثلاثة أرباع ذلك الجمع عن رفع ذلك الشخص، مهما كانت الوسيلة، من وهدة الخمول إلى مستواهم العقلي. فإنه لأدعى للعجب أن نرى هذا الحشد من الوجوه الجادة التي لا يسع أي مراقب كفء منزه عن التحيز أن يشك في أمانة كثرتها الغالبة، وقد هيجها مثل ذلك الزعيم.

- عظيم! مرحى مرحى!

وكانت اللهفة المتبدية في انتباههم وفي نياتهم على السواء كما نمت عليها سحنهم قد جعلت منهم منظرًا ذا وقع عظيم. فليس ثمة فيهم عدم مبالاة أو استرخاء أو فضول أبله، ولا أي شيء من ظلال عدم الاكتراث المتباينة التي تتبدى في سائر صنوف الجموع الأخرى فقد كان واضحًا أن كل رجل منهم يحس

بأن حالته أسوأ على نحو ما مما ينبغي، وأن كل رجل منهم يرى من واجبه اللزام أن ينضم إلى البقية سعيًا لإدخال شيء من التحسين عليها. وأن كل رجل منهم كان يرى أمله الوحيد معقودًا بربط نفسه برفاقه المحدقين به. وأن ذلك الاعتقاد سواء كان صائبًا أو ضالًّا (ومن أسف أنه كان حينئذٍ ضالًّا) كان ينزل من جملة ذلك الحشد منزلة اليقين العميق الرهيب الجاد... كل ذلك كان واضحًا لكل من يلق النظر على ذلك المشهد، في مثل وضوح دعامات السقف العارية وجدران القاعة المبنية بالآجر والمطلية بالبياض. وما كان لمن يلقي النظر أيضًا أن يفوته الإحساس العميق بأن أولئك الرجال يتكشفون حتى في ضلالاتهم عن شمائل عظيمة من المستطاع توجيهها إلى أفضل الغايات وأوفقها. وأن الادعاء (على أساس من الأحكام الإطلاقية مهما كانت مرسومة معدة من قبل) بأنهم ضالون ضلالة تامة لا هدف لها، وأن رغائبهم لا تعقل فيها، إنما هو ادعاء بأن الدخان قد يوجد من غير نار، وأن الموت قد يوجد من غير ميلاد، وأن الحصاد قد يتم من غير بذر، وأن أي شيء وكل شيء قد يحدث من لا شيء.

ولما فرغ الخطيب من إرواء غلته جفف جبينه المتغضن من الشمال إلى اليمين بضع مرات بمنديله وقد طواه على شكل ضمادة، وركز كل قواه المتجددة في تقطيب سحنته تقطيبًا يدل على البغضاء الشديدة والمرارة:

- ولكن أيها الصحاب والإخوة! أيها الرجال. أيها الإنجليز. أيها العمال المسحوقين في كوكتاون! لكن ماذا نقول في رجل، في عامل أجد من الحتم عليَّ أن أندد باسمه المجيد... فهو يعرف عمليًّا تمام المعرفة ما تعانونه من آلام ومظالم وأنتم لب هذه الأرض ونخاعها المضارون، وقد سمعكم تقررون بإجماع جليل نبيل يرتجف منه الطغاة الاكتتاب لتمويل محكمة التجمعات المتحدة، وبتأييد وصون التوصيات التي تصدرها هذه الهيئة لمصلحتكم أيًّا كانت هذه

التوصيات... وإني لأسألكم ما قولكم الآن في ذلك العامل - ما دام لا مفر لي من الإشارة إليه بتلك الصفة - الذي يتخلى في مثل تلك اللحظة عن موقعه، ويبيع رايته، وينقلب في مثل هذا الموقف خائنًا رعديدًا نذلًا، ولا يخجل عندئذٍ من مواجهتكم في خساسة ووضاعة بأنه يعتزلكم ولا يرضى أن يكون من الأنجاد المتضافرين في ذودهم عن الحرية وعن الحق؟!

وعندئذٍ انقسم رأي الجميع حول هذه المسألة، فارتفعت زمجرات وأصوات صغيرة قليلة. ولكن الإحساس العام بالشرف كان أقوى بكثير من أن يسمح بإدانة رجل دون أن يدلي بدفاعه عن نفسه. وتعالت من مواضع كثيرة صيحات تنادي:

- استوثق من صحة ما تقول يا سلا كبريدج! أعطه الكلمة! دعنا نسمعه!

وأخيرًا ارتفع صوت قوي يقول:

- هل ذلك الرجل موجود هنا؟ إن كان الرجل هنا؟ يا سلا كبريدج، فدعنا نسمعه بدلًا من أن نسمعك تتكلم عنه.

وقوبل هذا القول بعاصفة شاملة من التصفيق. فنظر الخطيب سلا كبريدج حوله بابتسامة باهتة وبسط يده اليمنى على طول ذراعه (على طريقة سائر من على شاكلته) ليسكت البحر الهادر، وتريث إلى أن ساد الصمت العميق، وعندئذٍ قال وهو يهز رأسه باستياء شديد:

- أيها الصحاب والإخوة في البشرية! لا يدهشني أن تكونوا وأنتم أبناء العمل المقهورون غير مصدقين بوجود مثل ذلك الرجل، ولكن من باع حق مولده باليسير الهين من الحساء وجد من قبل، ووجد من قبل أيضًا يهوذا الإسخريوطي وكذلك فيكونت كاسلريه الخائن كان له وجود. وهذا الرجل أيضًا موجود!

في هذه اللحظة حدث تدافع قصير مائج قرب المنصة، انجلى عن الرجل بنفسه واقفًا إلى جوار الخطيب أمام الجمهور، وكان شاحبًا وعلى محياه شيء من أمارات التأثر، نمت عليه على الخصوص شفتاه بيد أنه كان في وقفته رصينًا وقد رفع يسراه إلى ذقنه في انتظار أن يُصغى لما سيقول وكان ثمة رئيس للاجتماع ينظم سير الأمور، فأخذ أعنة هذه المسألة بين يديه وقال:

- أيها الصحاب، بمقتضى الصفة المخولة لي كرئيس لكم أطلب من صديقنا سلا كبريدج الذي لعله أفرط في الاحتداد في هذا الموضوع أن يجلس ريثما تُسمع أقوال هذا الرجل ستيفن بلاكبول. وأنتم جميعًا تعرفون ستيفن بلاكبول، تعرفونه بما ألم به من النوازل وتعرفونه بسمعته الطيبة.

وإذ قال الرئيس ذلك شد على يده بحرارة ثم جلس، وجلس أيضًا سلا كبريدج وهو يجفف جبينه الساخن بحركة تتجه دائمًا من الشمال إلى اليمين، ولا تسلك إطلاقًا الاتجاه المضاد.

وشرع ستيفن يتكلم وسط سكون عميق:

- أيها الأصدقاء، لقد سمعت ما قيل عني، وما كنت لأقدم على تصويب ما قيل لولا أنني رأيتكم تؤثرون سماع الحقيقة عني صادرة من فمي على سماعها من فم أي إنسان آخر. وإن كنت لا أستطيع التحدث إلى مثل عددكم الكبير من غير أن يدركني الخجل والاضطراب.

وهز سلا كبريدج رأسه كأنه يريد لفرط مرارته أن يخلعه.

- ... أنا الرجل العامل الوحيد في مصنع باوندربي من بين الرجال العاملين هناك الذي رفضت التنظيمات المقترحة، لم أستطع أن أُقرها؛ لأني أشك يا أصدقائي في تمخضها عن أي جدوى لكم، بل الأرجح أن تلحق بكم ضررًا.

وضحك سلا كبريدج وعقد ذراعيه وقطب هازئًا:

- ... ولكن ذلك ليس كل ما دعاني إلى الإحجام، فلو كان هذا هو كل شيء لانضممت إلى بقية الزملاء. ولكن لدي أسبابي الخاصة بي التي تكبلني لا في هذه الآونة فقط، بل على الدوام، وعلى مدى العمر!

ووثب سلا كبريدج واقفًا إلى جواره وهو يصرف بأسنانه هادرًا:

- وماذا قلت لكم أيها الأصدقاء سوى هذا؟ ما الذي حذرتكم منه أيها المواطنون سوى هذا؟ وعلام يدلكم هذا السلوك الخسيس من رجل المفروض أن القوانين الجائرة تطؤه وطئًا شديدًا؟ إني أسألكم أيها الإنجليز علام يدل هذا الفساد في رجل منكم يقر بهذا الشكل ما يلحقه ويلحقكم من الإعنات، بل ويلحق أيضًا أولادكم وأولاد أولادكم؟

وارتفع شيء من التصفيق، وارتفعت صيحات تستنزل العار على ذلك الرجل. بيد أن الجانب الأكبر من الجمع ظل هادئًا، وراحوا ينظرون إلى وجه ستيفن المجهد وقد زاد من تأثيره تلك الانفعالات الساذجة التي تلوح عليه، فأوحت إليهم طبيعتهم الرحيمة أن يرثوا له لا أن يسخطوا عليه. فقال ستيفن:

- إن صناعة هذا الرجل أن يتكلم، وهو مأجور على ذلك، ويعرف صناعته جيدًا، فليلزمها. وليدع جانبًا ما كتب عليَّ أن أتحمله. فليس ذلك له، ولا شأن لأحد به سواي.

وكانت في كلماته أنفة ووقار جعلا السامعين أشد هدوءًا وإنصاتًا، وسمع الصوت القوي بعينه يصيح:

- دع الرجل يتكلم يا سلا كبريدج واعقل لسانك!

فساد المكان صمت عجيب وقال ستيفن وقد غدا صوته الخفيض مسموعًا بوضوح تام:

- إخواني وزملائي العمال، فأنتم كذلك بالنسبة لي، وإن لم تكونوا كذلك فيما أعلم بالنسبة لهذا المندوب الموجود هنا... ليس عندي ما أقوله لكم سوى كلمة واحدة، وليس في استطاعتي أن أقول أكثر منها، ولو لبثت أتكلم إلى يوم الدينونة وأعلم تمام العلم ما يواجهني، وأعلم تمام العلم أنكم جميعًا قررتم ألا تكون لكم صلة بأي رجل لا يتضامن معكم في هذا الأمر، وأعلم تمام العلم أنني لو سقطت محطمًا في عرض الطريق سترون من حقكم أن تمروا بي وكأنني أجنبي غريب عنكم. لقد اتخذت موقفي على بينة، وعليَّ وحدي أن أحمل تبعته ما استطعت.

فقال الرئيس وهو ينهض واقفًا:

- أعد النظر في المسألة يا ستيفن بلاكبول. راجع نفسك مرة أخرى يا فتى قبل أن يصدف عنك جميع أصدقائك القدماء.

وصدرت همهمة عامة تفيد ذلك المعنى وإن لم يقل أحد كلمة واضحة. وكانت كل العيون مركزة على وجه ستيفن كي يعدل عن عزمه، فيزيح بذلك عبئًا ثقيلًا عن نفوسهم ونظر فيما حوله فتبين ذلك، ولم يخامره أدنى سخط عليهم، فهو يعرفهم، ويعرف ما وراء ضعفهم وأوهامهم السطحية، وهو ما لا يستطيع أن يعرفه إلا رفيقهم في العمل.

- لقد فكرت في الأمر ما فوق الكفاية يا سيدي، ولا أستطيع أن أنضم إلى الرفاق. فليس أمامي إلا طريق واحد أسلكه، وعلى هذا أستأذن جميع الحاضرين هنا في الانصراف.

وانحنى لتحيتهم رافعًا ذراعيه، وظل على ذلك الوضع برهة لا يتكلم إلى أن هبط ذراعاه إلى جانبيه وقال:

- كثيرة هي الكلمات العذبة التي سمعتها من أفواه الحاضرين هنا، وكثيرة هي الوجوه التي أراها هنا وكانت أول ما رأيت، وأنا أحدث سنًّا وأخلى بالًا. ولم ينشب بيني وبين أحد منكم شجار من قبل منذ يوم مولدي. والله يعلم أنني لا أكن لكم الساعة موجدة كنت البادئ بها (ووجه الخطاب إلى سلا كبريدج) إنك قد تدعوني خائنًا، ولكن إلقاء هذا المزعم أهون كثيرًا من إثباته بالدليل. فما علينا منه.

وخطا خطوة أو خطوتين لينزل عن المنصة، ثم تذكر شيئًا فاته أن يقوله فعاد أدراجه، وقال وهو يحرك وجهه المتغضن ببطء وكأنه يخاطب الجمع كله، يكلمهم القاصي منهم والداني كل فرد على حدة:

- ربما يتراءى لكم وأنتم تناقشون هذه المسألة أن تطالبوا بحرماني من العمل بينكم، وإني لأتمنى الموت قبل أن يحين شيء من هذا القبيل؛ لأني أُفضل أن أعمل بينكم منفردًا، أقول هذا من قلبي لا تحديًا لكم، بل رغبة في الحياة فليس لي عمل أرتزق منه سوى هذا. وإلى أين أذهب وأنا الذي عملت هنا في كوكتاون منذ نعومة أظفاري؟ لست أشكو من ازوراءكم عني أو مقاطعتي أو تجاهلي من الآن فصاعدًا، ولكني آمل أن تدعوني أعمل. فإن كان لي أي حق على الإطلاق يا أصدقائي، فهو في اعتقادي هذا الحق.

ولم يقل أحد كلمة واحدة. ولم يسمع في المبنى كله صوت سوى الحفيف اليسير الناجم عن انفراج الرجال المزدحمين في وسط الحجرة كي يمر إلى الخارج ذلك الرجل الذي تعاهدوا جميعًا على التخلي عن زمالته. فمضى في سبيله غير

ناظر إلى أحد سائرًا بخطوات ثابتة بطيئة لا تؤكد شيئًا ولا تدعي شيئًا. وهكذا غادر ستيفن العجوز مسرح الاجتماع حاملًا فوق رأسه جميع متاعبه.

وكان سلا كبريدج قد احتفظ بذراعه ممدودًا على هيئة خطابية أثناء خروج ستيفن كأنه يكبح في توسل لا حد له جماح الجمهور بقوة معنوية خارقة، ثم شرع يرفع روحهم المعنوية، ألم يقض بروتس الروماني، يا مواطني الإنجليز، بإعدام ابنه. وألم تسق الأمهات الإسبرطيات، يا أصحابي المقبلين على النصر، بأبنائهن الهاربين إلى أسنة سيوف أعدائهم؟ وليس إذن من واجب أهل كوكتاون المقدس ومن ورائهم مثل الأجداد، ومن حولهم نظرات الإعجاب يرمقهم بها العالم أجمع، وفي انتظارهم الأجيال القادمة - أن يطردوا الخونة من الخيام التي ضربوها لقضية إلهية قدسية؟ إن جواب رياح السماء هو بلى، وقد حملته أهوية الشرق والغرب والشمال والجنوب... وعلى هذا ارتفعت ثلاث هتافات لمحكمة التجمعات المتحدة!

وكان سلا كبريدج يتولى القيادة ويضبط الإيقاع في ذلك الهتاف، فطربت الوجوه القليلة المتشككة لذلك الصوت المدوي (وهم من يؤرقهم ضميرهم شيئًا ما) وشاركوا فيه... فالمشاعر الخاصة يجب أن تستسلم للمصلحة العامة. مرحى! وكان السقف لم يزل مهتزًّا بالهتاف عندما تفرق الجمع.

وهكذا تردى ستيفن بلاكبول بسهولة في الوحدة، وحياة العزلة وسط حشد من الوجوه المألوفة، إن الغريب في الأرض الذي يتطلع إلى عشرة آلاف وجه انتظارًا لنظرة مستجيبة فلا يجدها إنما هو في مجتمع حفي به بالقياس إلى من يمر كل يوم بعشرة وجوه معرضة عنه كانت يومًا ما وجوهًا صديقة. وهذا هو حظ ستيفن بلاكبول في الحياة الآن، في كل لحظة صحو من لحظات حياته: في

عمله، وفي طريقه إليه أو آيبًا منه وعلى بابه، ومطلًّا من نافذته، وحيثما كان. فبالاتفاق العام صار الجميع يتجنبون تلك الناحية من الشارع التي تعود أن يسلكها، وتركوها له وحده من دون العمال أجمعين.

لقد لبث سنين طويلة رجلًا هادئًا صموتًا، لا يخالط غيره من الرجال إلا قليلًا، متعودًا على الخلوة بخواطره، فلم يجرب من قبل مبلغ احتياجه القلبي إلى إيماءات التحية العابرة بهزة من الرأس أو نظرة أو كلمة، ولا جسامة الارتياح الذي كان يصب في قلبه قطرة قطرة عن طريق تلك الوسائل الهينة. فإذا أصعب كثيرًا مما كان يعتقد أن يفرق في سريرته بين نبذه من جميع رفاقه، وبين الإحساس الذي لا مبرر له بالخزي والعار. لقد كانت الأيام الأربعة الأولى من تجلده طويلة ثقالًا، حتى لقد استهول ما يستقبله من الأمر وهو لم يرَ طيلة ذلك الوقت راشيل، بل كان حريصًا على تجنب كل فرصة لرؤياها؛ لأنه وإن كان يعلم أن الخطر لم يمتد بعد بصفة رسمية إلى النساء العاملات في المصانع، إلا أنه وجد بعضهن ممن يعرفهن وقد تغيرن من نحوه، فخشي أن يجرب حظه مع غيرهن، وأفزعه أن النبذ ربما امتد إلى راشيل إن هي شوهدت في صحبته. ولذا ظل تلك الأيام الأربعة وحيدًا لا يتحدث إلى أحد. وإذا به وهو يغادر عمله ليلًا يرى شابًّا مفرط الشحوب يبادئه بالكلام في الشارع، قائلًا:

- أليس اسمك بلاكبول؟

واحمر وجه ستيفن إذ ألفى نفسه وقبعته في يده تعبيرًا عن شكره لمخاطبته، أو تحت تأثير المفاجأة بذلك، أو للسببين معًا. وتصنع الانشغال بتسوية البطانة وهو يجيب بالإيجاب. فقال (بيتزر)، فهو الشاب المفرط الشحوب المشار إليه:

- هل أنت العامل الذي تقررت مقاطعته؟

ومرة أخرى أجاب ستيفن بالإيجاب.

- هذا ما اعتقدته مما ألاحظه من إجماعهم على تحاشيك. إن مستر باوندربي يريد أن يتحدث إليك، وأحسبك تعرف بيته؟

ومرة ثالثة أجاب ستيفن بالإيجاب، فقال (بيتزر):

- إذن هلا ذهبت إلى هناك فورًا؟ إنه في انتظارك وما عليك إلا أن تقول للخادم من أنت. أنا أعمل في المصرف، فإن أنت ذهبت فورًا من دوني (فقد كُلفت بإحضارك) ووفرت عليَّ المسير.

وكان طريق ستيفن في الاتجاه المضاد، فدار على عقبيه واتخذ سبيله كما يقضي الواجب صوب القلعة المبنية بالآجر حيث يقيم العملاق باوندربي.

الفصل الخامس

رجال وأسياد

قال باوندربي بلهجته العاصفة:

- ما هذا الذي أسمع يا ستيفن؟ ماذا يريد هؤلاء المناكيد أن يصنعوا بك؟ ادخل وتكلم.

وكان قد وُجه إلى حجرة الاستقبال. وكانت مائدة الشاي مبسوطة، وكانت زوجة مستر باوندربي الشابة وشقيقها وسيد عظيم من لندن حاضرين. وأومأ إليهم ستيفن بتحيته وهو يغلق الباب ويقف بجواره وقبعته في يده. وقال مستر باوندربي:

- هذا هو الرجل الذي كنت أحدثك عنه يا هارتهاوس.

فنهض السيد الذي خوطب بهذه العبارة عن الأريكة التي كان جالسًا فوقها يتحدث إلى مسز باوندربي، وقال في تراخٍ:

- أوه، حقًّا؟

وتهادى إلى بساط المدفأة حيث كان مستر باوندربي واقفًا. وقال باوندربي.

- والآن تكلم!

ونزل هذا القول على أُذن ستيفن منزلًا خشنًا جافيًا بعد الأيام الأربعة التي مرت به ففضلًا عن فظاظة تناول هذه العبارة لنفسه الجريحة، كان فيها ما يحمل ضمنًا معنى أنه حقًّا ذلك النفعي الناكص على عقبيه كما وسموه فقال:

- ما الذي أردت يا سيدي أن تراني من أجله؟

فأجابه باوندربي قائلًا:

- لقد أبنت لك عن ذلك، فتكلم كما يتكلم الرجال، ما دمت رجلًا، وحدثنا بما كان من أمرك وأمر تلك العصابة.

فقال ستيفن بلاكبول:

- عفوك يا سيدي. ليس لدي ما أقوله في هذا الشأن.

ولما كان مستر باوندربي على الدوام أشبه بالريح، وقد وجد الآن شيئًا يعترض طريقه، فقد بدأ يهب عليه فورًا. قال:

- اسمع يا هارتهاوس، هذا نموذج منهم، وعندما كان هذا الرجل هنا مرة من قبل حذرته من شرار الغرباء الذين يحومون دائمًا ها هنا - ومن الواجب أن يشنقوا أينما وجدوا - وقلت لهذا الرجل أيضًا إنه سائر في الاتجاه الضال وها أنت ذا ترى أنه وإن وصموه بتلك الوصمة لم يزل عبدًا لهم حتى إنه يخشى أن يفتح فمه بما يسوءهم؟

- لقد قلت إنه ليس عندي ما أقوله يا سيدي، ولم أقل إني أخشى أن أفتح فمي.

- أنت قلت آه! أعرف ماذا قلت وأعرف أكثر من هذا ما الذي تعنيه. أرأيت؟ إنهما ليسا شيئًا واحدًا لعمر الشيطان! بل هما شيئان مختلفان. وأولى من هذا بالتصديق أن تقول لنا بلا لف ولا دوران إن ذلك المدعو سلا كبريدج ليس

موجودًا في البلدة يثير الناس ويحضهم على التمرد. وأنه ليس قائدًا مدربًا محنكًا لهؤلاء القوم، وهو ما يعادل القول بأنه وغد زنيم. أولى لك أن تقول لنا هذا. فلماذا تحجم؟

فقال ستيفن وهو يهز رأسه:

- إنه لأمر يؤسفني كما يؤسفك يا سيدي أن يكون قادة الشعب فاسدين. فالناس يتقبلون ما يجدونه ميسورًا. وربما لم يكن ذلك مصدرًا لأهون متاعبهم عندما لا يتيسر لهم من هم أفضل.

وأخذت الريح تزمجر. وقال مستر باوندربي:

- أظنك مسرورًا بما سمعت يا هارتهاوس، وقد ترى فيه قوة مراس. وستقول في نفسك هذا لعمري نموذج جيد لما يتمرس به أصدقائي. ولكن هذا ليس شيئًا يا سيدي! وستسمعني الآن أوجه إلى هذا الرجل سؤالًا. أرجوك يا مستر بلاكبول (وأخذت الريح تتجمع للهبوب بسرعة شديدة) هل تأذن لي في أن أسألك كيف اتفق لك أن ترفض الدخول في العصابة؟

- كيف اتفق؟

فقال مستر باوندربي واضعًا إبهاميه في إبطي سترته، هازًّا رأسه ومغلقًا عينيه موجهًا الحديث إلى الجدار المقابل:

- أجل. كيف اتفق هذا؟

- أفضل ألا أخوض في هذا الموضوع. ولكن ما دمت قد وجهت إليَّ هذا السؤال، وأنا لا أريد أن أكون سيئ الأدب فسأجيبك: لأني كنت قد قطعت بذلك عهدًا على نفسي.

فقال باوندربي وهو يُخفي ثورة الزوبعة تحت هدوئه الظاهري:

- لم تقطع ذلك العهد لي كما تعلم.

- أوه. لا يا سيدي. ليس لك.

فقال باوندربي وهو لم يزل متجهًا بحديثه إلى الحائط:

- لم تكن هناك أية رعاية لشخصي على الإطلاق في هذا المسلك إذن، ولو أنه كانت لجوشيا باوندربي من أعيان كوكتاون صلة بالموضوع لكنت حريًّا أن تنضم إلى العصابة من غير مُمانعة؟

- أجل يا سيدي. هذه هي الحقيقة.

فقال مستر باوندربي وقد انفجرت أعاصيره:

- مع أنه يعلم أن أولئك القوم جماعة من الأوغاد والمتمردين الذين يعتبر النفي إلى المستعمرات خيرًا مما يستحقون! وها أنت ذا يا مستر هارتهاوس قد ضربت في آفاق الدنيا ردحًا من الزمن، فهل رأيت مطلقًا نظيرًا لهذا الرجل في هذا القطر الميمون؟

وأشار مستر باوندربي إليه بإصبعه غاضبًا كي يفحصه هارتهاوس. فقال ستيفن بلاكبول محتجًّا بعنف على الألفاظ التي قيلت، ومتجهًا بالخطاب عن دافع غريزي إلى لويزا بعد أن ألقى على وجهها نظرة:

- لا يا سيدتي، إنهم ليسوا متمردين ولا هم أيضًا بالأوغاد لا شيء من هذا القبيل يا سيدتي، لا شيء من هذا القبيل إنهم لم يصنعوا بي صنيعًا جميلًا يا سيدتي فيما أعلم وأحس، ولكن ليس من بينهم اثني عشر رجلًا يا سيدتي، اثني عشر؟ بل ليس فيهم ستة لا يؤمن كل واحد منهم أنه أدى واجبه نحو الآخرين ونحو نفسه. وحاش لله أن أقدم - أنا الذي عرفتهم وخبرتهم طيلة حياتي،

فشربت معهم وأكلت معهم وكدحت معهم وأحببتهم - على عدم الوقوف بجانبهم لوجه الحق، كائنًا ما كان صنيعهم بي!

وكان يتكلم بالجد الوعر الذي تمليه مكانته وخلقه، وقد زاده قوة إحساسه الأبي بإخلاصه للطبقة التي ينتمي إليها في حال إساءة ظنها به. ولكنه لم ينس أين هو، فلم يرفع صوته.

- ... لا يا سيدتي لا. إنهم قوم يخلص كل واحد منهم للآخر ويصدقه ويوده حتى الموت. كوني فقيرة مثلهم، أو مريضة بينهم، أو حزينة بينهم لأي سبب من الأسباب التي تحمل الأسى إلى أعتاب الفقراء، وسترينهم يحسنون عليك، ويتلطفون معك ويخفضون جناحهم لك، ويؤاخونك. ثقي من هذا الذي أقول يا سيدتي. فلو مُزقوا إربًا لما تغيرت عن ذلك النسق حالهم.

فقال مستر باوندربي:

- وقصارى القول إنهم بما اجتمع لهم من الفضائل المكتملة قد تنصلوا منك. هيا قلها ما دمت بسبيل الكلام. هيا.

فاستطرد ستيفن وهو لم يزل فيما يبدو واجدًا ملاذه الطبيعي في محيا لويزا:

- ولست أدري يا سيدتي كيف يتفق أن أفضل ما فينا هو الذي يسبب لنا فيما يبدو أشد المتاعب والكوارث والأخطاء. ولكن هذا هو الواقع. وإني لعلى يقين من ذلك مثل يقيني بوجود السماء من فوقي وراء سحائب الدخان ولكننا قوم فينا صبر، ونود على الجملة أن نسلك سواء السبل ولا يسعني أن أعتقد أن الخطأ كله في جانبنا فقال مستر باوندربي ولم يكن شيء ليثيره من محدثه - وإن كان لا يدري - أكثر مما يثيره توجيه الخطاب إلى سواه:

- والآن يا صديقي، إن تفضلت عليَّ بانتباهك نصف دقيقة، فإني أود أن أبادلك كلمة أو كلمتين. لقد قلت الآن إنه ليس لديك ما تقوله في هذا الموضوع. فهل أنت واثق من ذلك قبل أن نمضي قدمًا؟

- أنا واثق من هذا يا سيدي.

فأشار مستر باوندربي بظهر يده مستخدمًا إبهامه نحو مستر جيمس هارتهاوس وقال:

- هاك سيد موجود هنا من سادة لندن.

وهو من سادة البرلمان وأحب له أن يسمع فقرة صغيرة من الحوار بيني وبينك بدلًا من أن يتلقى فحواها على محمل الثقة من لساني... وإن كنت أعرف مُقدمًا ماذا ستكون تلك الفقرة فما من أحد يعرف هذا الأمر خيرًا مني.

وأحنى ستيفن رأسه للسيد اللندني، وظهر عليه الاضطراب أكثر من المعتاد، فحول عينيه بلا قصد نحو ملاذه السابق، ولكن نظرة واحدة من ذلك الجانب (نظرة ناطقة وإن كانت خاطفة) جعلته يحول عينيه صوب وجه مستر باوندربي الذي سأله:

- والآن ما شكواك؟

فذكره ستيفن بالحقيقة قائلًا:

- إني لم آتِ إلى هنا يا سيدي لأشكو من شيء، وإنما كان قدومي لأنه بُعث في طلبي.

فعاد مستر باوندربي يقول وقد عقد ذراعيه:

- وما الذي يشكو منه قومك بصفة عامة؟.

فنظر صوبه ستيفن لحظة ما بشيء من التردد، ثم بدا عليه أنه حزم أمره فقال:

- إني يا سيدي لم أكن في يوم من الأيام ممن يحسنون الشكوى، وإن كنت قد نلت نصيبي من المشاق والحق أننا في حالة سيئة يا سيدي ألق نظرة على البلدة، رغم ثرائها، ترَ جموع الناس الذين نشأوا فيها دائبين على النسج والحلج والوصل كي يحصلوا على قوتهم، وكلهم في الكد سواسية من مهودهم إلى لحودهم. انظر كيف نعيش، وأين نعيش، وبأي معدل عددي، وبأي نزر من الفرص وبأي تماثل. ثم انظر إلى المصانع وكيف لا تكف عن الدوران وهي لا توصلنا بدورانها إلى أي هدف... اللهم إلا الموت وانظر أي اعتبار لنا عندك، وماذا تكتب عنا، وماذا تقول عنا، وبماذا توفد الوفود بشأننا إلى الوزراء كيف أنك دائمًا على صواب وكيف أننا دائمًا على خطأ، حتى كأنه لا عقل لنا منذ جئنا إلى الحياة ثم انظر كيف تضخم هذا الوضع وتضخم يا سيدي، حتى علا واستطال فاستفحل طولًا وعرضًا واشتدت وطأته من عام إلى عام ومن جيل إلى جيل. ومن ذا الذي يستطيع أن ينظر يا سيدي في هذا الأمر ثم يقول وهو منصف إنه ليس أمرًا معضلًا؟

فقال مستر باوندربي:

- طبعًا. والآن لعلك تتيح لهذا السيد أن يعرف رأيك في حل هذه المعضلة كما تحب أن تسميها.

- لا أدري يا سيدي. ولست أنا الذي ينتظر منه ذلك يا سيدي. بل أحرى أن يطلب هذا ممن فرضوا عليَّ تلك الحال وفرضوها على الآخرين جميعًا، وأي مسئولية يضطلع بها هؤلاء يا سيدي إن لم يحلوها؟

فأجابه مستر باوندربي قائلًا:

- سأُفضي إليك بشيء من هذا القبيل على كل حال: سنجعل من بضعة أشخاص من طراز سلا كبريدج أمثولة، فنلاحق أولئك الأوغاد بالتجريم ونرسل بهم إلى سجون وراء البحار.

فهز ستيفن رأسه مستهولًا. فقال مستر باوندربي وقد استحال إلى إعصار جائح:

- لا تقولن إننا لا نستطيع أن نصنع هذا يا رجل؛ لأننا سنصنعه أؤكد لك!

فأجابه ستيفن بهدوء الواثق ثقة مطلقة:

- إنك يا سيدي لو أخذت مائة سلا كبريدج - وجميع من هناك ممن على شاكلته بل وعشرة أضعافهم - وحكت عليهم غرارات متفرقة وأغرقتهم في أعمق يم عرفته الدنيا منذ وجدت أرض صلدة، لتركت المشكلة حيث كانت (وافتر ستيفن عن ابتسامة قلقة) الغرباء الأشرار! ما من يوم لم نسمع فيه إنحاء على الأشرار الغرباء! وهم ليسوا مصدر الداء يا سيدي. إن الداء ليس وافدًا معهم، وإني شخصيًّا لا أتحيز لهم، ولكن لا جدوى ولا أمل من وراء التفكير في انتزاعهم من سوء فعلهم، بل الأولى أن ننتزع سوء فعلهم منهم! إن كل ما يحيط بي في هذه الحجرة كان موجودًا بها قبل قدومي، وسيظل موجودًا بها بعد انصرافي، وإن أنت وضعت هذه الساعة الدقاقة على ظهر سفينة ونفيتها إلى جزيرة نورفولك فسيظل سير الزمن هنا على حاله من دونها. وكذلك الأمر مع سلا كبريدج وأمثاله بحذافيره.

وارتد لحظة إلى ملاذه السابق ففطن منه إلى نظرة تحذير تشير إلى الباب. فتراجع ووضع يده على المقبض، ولكنه لم يتكلم بإرادته ورغبته الشخصيتين، بل شعر في أعماق قلبه أنه يسلك سلوكًا نبيلًا إذ يجري ما لقيه من مهانة

بإخلاص من جانبه حتى النهاية لأولئك الذين تنكروا له، فتريث كي يتم الإعراب عما في نفسه:

- ليس في وسعي يا سيدي بما أوتيت من قليل علم وبمستواي العامي أن أقول للسيد ما السبيل إلى تحسين هذا الأمر. وإن كان بعض العمال في هذه البلدة يستطيعون ما لا أستطيع. ولكني قادر أن أقول ما أعلم أنه لا يؤدي إلى ذلك التحسين إطلاقًا. إن الشدة لن تجدي والقهر والتسلط لن يجديا؛ لأن ذلك من شأنه أن يقيم وضعًا غير طبيعي يكون الصواب فيه دائمًا أبدًا في جانب والخطأ دائمًا أبدًا في الجانب الآخر. وكذلك تجاهل المسألة لا يجدي أبدًا شيئًا. فإنك إن تركت الألوف المؤلفة وشأنها، درج الناس على ما نرى من أسلوب المعيشة ونشأت المعضلة، وذلك حري أن يجمعهم في فريق واحد، وأن يجعلك فريقًا آخر وتقوم هوة مظلمة بينكما تظل قائمة ما طالت تلك الحالة التعسة أو قصرت. فإن الحنان والصبر والمرح لا تُقرِب بين الناس كما تُقرِب بينهم المصاعب التي تجعل كل واحد منهم عزيزًا على الآخر. وأنا واثق أن السيد لم يحتك في أسفاره في طول الدنيا وعرضها بتلك الطريقة من الإيثار التي تكون بين من تجمعهم آصرة الحاجة. فإن أنت سلبتهم كل قوة وعاملتهم وكأنهم أرقام في حسبة أو آلات من غير محبة أو مودة، وكأنهم محرومون من الذكريات والميول ومن النفس التي تأسى وتصبو، تجدهم وقد غلت صدورهم، فيلامون على افتقارهم في معاملتهم لك إلى الشعور الإنساني. ألا إن الأمر لا يستقيم على هذا النحو يا سيدي، إلى أن تنقضي سُنة الله في خلقه.

ووقف ستيفن ويده على الباب المفتوح في انتظار أن يعرف هل يُراد منه شيء بعد ذلك. فقال مستر باوندربي وقد احمرَّ وجهه احمرارًا شديدًا:

- انتظر لحظة. لقد قلت لك عندما كنت هنا في المرة السابقة تعرض شكواك، إنه من الخير لك أن تغير مسلكك وتترك السخط. وقلت لك أيضًا إن كنت تذكر، إنني أتوسم وراء سخطك ملعقة الذهب.

- إني لم أفكر فيها شخصيًّا يا سيدي. أؤكد لك.

- والآن وضح لي أنك من أولئك الساخطين دوامًا، وأنك لا تكف عن إلقاء بذور السخط وجني ثمراته. وهذه مشغلة حياتك يا صاحبي.

فهز ستيفن رأسه محتجًا في صمت بأن لحياته مشغلة أخرى.

- ... وإنك لشخص سليط سيئ الطبع، حتى إن اتحادك، والرجال الذين يعرفونك خير المعرفة يأبون أن تكون لك بهم صلة. وما دار بخلدي أن هؤلاء القوم يمكن أن يصيبوا في شيء. ولكني أؤكد لك أني أقرهم في هذه المرة على سبيل الاستثناء، وأرفض أن تكون لك بي أيضًا صلة!

فرفع ستيفن عينيه بسرعة إلى وجهه. وقال مستر باوندربي بإيماءة ذات مغزى:

- في وسعك أن تتم ما بيدك من عمل ثم ارتحل من هنا.

فقال ستيفن بحرارة:

- أنت تعلم تمام العلم يا سيدي أني إن لم أستطع أن أحصل على عمل معك، فلن أحصل على عمل في أي مكان.

فكان الجواب:

- أنا أدرى بشأني وأنت أدرى بشأنك. وليس بعد قولي هذا من مزيد.

فألقى ستيفن نظرة أخرى صوب لويزا، بيد أن عينيها كفتا عن الارتفاع إلى عينيه، فزفر زفرة وقال بصوت لا يعدو الهمس:

- كان الله لنا جميعًا في هذه الدنيا!

وانصرف.

الفصل السادس

اختفاء

حين خيم الظلام وخرج ستيفن من بيت السيد باوندربي، كانت عتمة الليل قد ازدادت ثقلًا حتى إنه لم يلتفت حوله لحظة إغلاق الباب، بل مضى في طريقه متثاقل الخطى، يسير مستقيمًا لا يشغله شيء. ولم يكن في خاطره قط تلك العجوز غريبة الأطوار التي رآها في زيارته السابقة لذلك المنزل، غير أنه ما لبث أن سمع وقع خطوات مألوفة خلفه، فالتفت فإذا هي في صحبة راشيل. وكانت راشيل أول من وقعت عليه عيناه، إذ لم يسمع غير صوتها.

فقال، وقد طغت على صوته لهفة صادقة:

. آه يا راشيل العزيزة! أمعك أنتِ يا سيدتي؟

أجابته العجوز وعلى وجهها مسحة من الدعابة:

. لا بد أنك تعجبت لرؤيتي مرة أخرى، وحقًّا لك أن تعجب، فها أنا ذا أعود للظهور كما ترى.

سار ستيفن بينهما، ينقل بصره من إحداهما إلى الأخرى، وقال:

. لكن كيف التقيتِ براشيل؟

بادرت العجوز بالحديث في نبرة مرحة، وكأنها استأثرت بالسرد:

. جاءت صحبتنا كما تعرفتُ بك أنت تقريبًا. فقد تأخرتُ في زيارتي هذا العام بسبب أزمة في التنفس، فأجلتُ الرحلة حتى اعتدل الطقس ودفئ. ولهذا السبب أيضًا لم أشأ القيام بالرحلة كلها في يوم واحد، فقسمتها على يومين، وبتُّ الليلة في مقهى المسافرين القريب من خط السكك الحديدية، وهو مكان نظيف طيب، وسأعود غدًا بقطار البرلمان عند السادسة صباحًا. ولعلك تتساءل: ما شأن هذا بتلك الفتاة الطيبة؟ سأجيبك: سمعت بزواج السيد باوندربي وقرأته في الصحف، وقد أطرت الصحف على زواجه وأطنبت في وصف مكانته (وقالتها العجوز بحماسة ظاهرة). فأحببت أن أرى زوجته إذ لم أرها من قبل، وصدقني حين أقول إنها لم تغادر المنزل منذ الظهيرة. ولم أطق الرجوع خائبة الأمل، فانتظرت قليلًا على أمل رؤيتها. وخلال انتظاري مررت بهذه الفتاة مرتين أو ثلاثًا، فلما بدا لي وجهها وديعًا طيبًا، بادرتها بالحديث وبادلتني الحديث أيضًا. وهذه هي الحكاية باختصار! وأظن أن البقية يمكنك أن تستدل عليها أسرع مما أرويها لك.

ولم يملك ستيفن إلا أن يقمع في صدره نفورًا غريزيًّا من تلك العجوز، رغم ما بدا في هيئتها من استقامة وطيبة خالصة، بل وبساطة ودماثة فطرية لا يجهلها هو ولا تجهلها راشيل. ثم عاد إلى ما يشغل اهتمامها وقال:

. حسنًا يا سيدتي، لقد رأيتُ تلك السيدة، فوجدتها صغيرة السن، وسيمة الملامح، ذات عينين سوداوين جميلتين يكسوهما تفكير عميق. ولها رصانة ما شهدت مثلها من قبل، أليس كذلك يا راشيل؟

هتفت العجوز وقد بان على وجهها سرور غامر:

. صغيرة السن وسيمة! أجل، إنها حسناء كالوردة، ما أسعدها زوجة!

قال ستيفن، وهو يرمق راشيل بنظرة يشوبها شيء من الريبة:

. وكذلك أحسب فعلًا يا سيدتي.

فردت عليه العجوز في حزم ودعابة:

. فيما تحسب؟ بل قل إنها كذلك حقًّا، فهي زوجة سيدك!

فأومأ ستيفن برأسه موافقًا، ثم قال وهو يرمق راشيل بعينين زادهما التعب حدة:

. أما عن كونه سيدي، فلم يعد لي سيدًا، فقد انقطع ما بيني وبينه من وشيجة.

فسألته راشيل بسرعة وقلق يختلج في صوتها:

. أتراك قد تركت العمل عنده يا ستيفن؟

فأجابها بنبرة يغلّفها شيء من المرارة:

. سيّان يا راشيل إن كنت أنا الذي ترك العمل، أو كان العمل هو الذي طردني. لقد كان فراقًا محتومًا بيني وبين ذلك الموضع. وكنت أحدث نفسي أن في ذلك خيرًا حين التقيت بكما، فلو أني بقيت لسبّب بقائي متاعب لا حصر لها، فمن الرحمة لكثيرين أن أرحل، وربما كانت رحمة لي أنا أيضًا. وعلى كل حال فهو أمر لا مناص منه؛ فلا بد لي أن أحوّل وجهي عن كوكتاون هذه الأيام، وأن أجرب حظي في مكان آخر، أفتتح به صفحة جديدة من حياتي يا عزيزتي.

. وإلى أين تنوي الرحيل يا ستيفن؟

فقال وهو ينزع قبعته ويمرّر كفه على شعره الشاحب الخفيف:

. لا أدري هذه الليلة بعد. ولكني لن أغادر الليلة ولا غدًا؛ فليس يسيرًا على المرء أن يعلم إلى أين يتجه. لكني سأجد الشجاعة الكافية لذلك.

وفي تلك اللحظة، كان إحساسه بأن الأمر لا يدور حول مصلحة أنانية خاصة، عزاءً خفيًا له؛ إذ ما إن انتهى من إغلاق باب مستر باوندربي خلفه، حتى خطر له أن إرغامه على الرحيل خيرٌ لها أيضًا؛ لأنه سيجنّبها حرجًا لم يكن يرغب أن يسببه لها، إذ قد يقال: لماذا لم تقاطعه؟ ومع أن فراقها سيترك في قلبه ألمًا لاذعًا، وكان يعلم يقينًا أنه أينما ذهب ستطارده تلك الوصمة الكئيبة، إلا أن في هذا الرحيل القسري طمأنينة خافتة تخلّصه من عذاب الأيام الأربعة الأخيرة، حتى وإن كان ذلك سيقحمه في هموم لا يعرفها بعد. فقال بصدق امتزج فيه الحزن بالراحة:

. لقد أرهقني هذا الأمر يا راشيل أكثر مما كنت أظن.

ولم تشأ أن تثقل على روحه بما يزيد وجعه، فاكتفت بابتسامة مشرقة تبعث في قلبه شيئًا من الدفء، ثم مضى الثلاثة معًا في طريقهم.

ومن خصائص السن المتقدمة، حين تجاهد لتظل متماسكة ومعتمدة على ذاتها، أن تستثير لدى الفقراء عاطفة رقيقة وحماية صادقة. وكانت العجوز تفيض لطفًا ورضى، تخفي آلامها التي زادت منذ لقائها الأخير بستيفن، حتى جعلته هو وراشيل يشفقان عليها ويوليانها اهتمامهما. لكنها كانت في توفزها لا تسمح لهما بأن يبطئا في مشيتهما من أجلها، ومع ذلك أظهرت شكرًا عميقًا لحديثهما معها، وكانت مستعدة لأن تطيل الكلام ما استطاعت.

حتى إذا بلغوا حارتهم في المدينة، كانت حيويتها أشد مما بدت أول الأمر، فقال ستيفن لها:

. تفضّلي إلى مسكني المتواضع يا سيدتي، نحتسي فنجانًا من الشاي، وحينها تأتي راشيل أيضًا، ثم أوصلك بعد ذلك إلى منزل المسافرين الذي تبيتين فيه. وربما يمضي وقت طويل يا راشيل قبل أن يُقدَّر لي أن أصحبك من جديد.

فاستجابتا لدعوته، وسار الثلاثة صوب بيته. وما إن دخلوا شارعًا ضيقًا يقود إليه، حتى رفع ستيفن عينيه إلى نافذته بنظرة حذرة يعتادها كلما دنا من بيته الكئيب، لكنه وجد النافذة كما تركها مفتوحة، ولا أحد يطل منها. فقد انصرفت عنه تلك الروح الشريرة التي أفسدت حياته منذ أشهر، ولم تَعُد بعدُ لتلاحقه. ولم يبقَ شاهد على زيارتها الأخيرة سوى ما نقص من أثاث غرفته، وما زاد في شعره من شيبٍ مبكر.

وأوقد شمعةً، وبسط مائدةَ شايه الصغيرة، ثم جاء بماءٍ ساخنٍ من أسفل، وأحضر قليلًا من الشاي والسكر، ورغيفًا طازجًا مع شيءٍ من الزبد اشتراه من أقرب حانوت. وكان الرغيف طريًّا ذا قشرةٍ هشة، والزبد كذلك طازجًا، أما السكر فكان كتلًا غير متساوية — كما هو معتاد — تأكيدًا لما يجري على ألسنة وجهاء كوكتاون من أن هؤلاء الناس يعيشون يا سيدي عيشةَ الأمراء. ثم تولّت راشيل إعداد الشاي، وحيث إن عدد الشاربين كان كبيرًا فقد استعارت فنجانًا إضافيًّا، واستطابته الزائرة كثيرًا. وكانت تلك اللمحة الأولى من دفء التآلف الاجتماعي التي يحظى بها المضيف منذ زمن طويل، فاستمتع هو أيضًا بالجلسة على ما يكتنف دنياه من جمودٍ وجدب. وذلك بدوره ما يعزز رأي أولئك الوجهاء في أن هؤلاء الناس يا سيدي يفتقرون إلى التقدير الحقّ.

ثم قال ستيفن:

— لم يخطر لي من قبل يا سيدتي أن أسألكِ عن اسمك.

فأجابته السيدة العجوز أن اسمها مسز (بَجلر).

— أرملة فيما أظن؟

— أوه... منذ سنواتٍ طوال!

وقد مات زوج مسز بَجلر — وهو في نظرها خير الأزواج — قبل مولد ستيفن بزمن بعيد. فقال ستيفن متأسفًا:

— يؤسفني حقًّا أن تفقدي مثل هذا الزوج الكريم. هل لكِ أولاد؟

فصلَّ فنجان مسز بَجلر في طبقِه وهي تمسك به، دلالةً على اضطرابٍ وشيءٍ من التوتر العصبي، ثم قالت:

— كلا، ليس عندي الآن أولاد.

فهمست راشيل:

— أي أنهم ماتوا يا ستيفن.

— يؤسفني جدًا أن فتحتُ هذا الباب، ما كان ينبغي لي أن أمسّ تلك الجراح. إني ألوم نفسي...

وفيما كان يعتذر لها، ظل فنجان السيدة العجوز يُصدر صليلًا مرتعشًا، ثم رفعت رأسها وقد بدا عليها غمٌّ غريب لا يشبه الحزن المألوف، وقالت:

— كان لي ابن... وكان موفقًا في حياته توفيقًا عظيمًا، ولكن لا يجوز أن أتكلم عنه... إن سمحتما: لأنه...

ثم وضعت فنجانها، وحركت يديها بحركةٍ بدت كأنها تقول بها إنه مات، غير أنها قالت بصوتٍ مرتفع:

— لأني فقدته.

ولم يكن ستيفن قد تجاوز بعد شعوره بالندم لما سبّبه للسيدة العجوز من ألم، حين صعدت صاحبة البيت تتعثر على السلم الضيق، واستدعته إلى الباب وهمست في أذنه ببضع كلمات. ولم تكن مسز بَجلر صمّاء، فالتقطت أُذنها كلمةً من الكلام، فوثبت واقفةً مذعورةً من على المائدة وصاحت بصوتٍ مكتوم:

— باوندربي! خبّئوني، لا تدعوه يراني، أرجوكم... لا تدعوه يصعد قبل أن أغادر، أرجوكم أرجوكم!

وكانت ترتجف في اضطرابٍ شديد، حتى إنها احتمت وراء راشيل التي حاولت تهدئتها، وهي تكاد لا تدرك ما يجري حولها. فقال ستيفن متعجبًا:

— على رسلك يا سيدتي، اهدئي. ليس القادم مستر باوندربي بل زوجته، وأظنكِ لا تخافين منها، وقد كنتِ شديدة التلهف على رؤيتها منذ ساعةٍ فقط.

فسألته وهي ما تزال ترتعش:

— أواثقٌ أنتَ أنها السيدة لا السيد؟

— كل الثقة!

— إذن أرجو ألا يكلمني أحد، وألّا يلتفت إليّ. دعاني وشأني في هذا الركن.

فهزَّ ستيفن رأسه ونظر إلى راشيل متسائلًا عن سرٍّ لم تجد له تأويلًا، ثم تناول الشمعة وهبط السلم. وبعد قليل عاد يضيء الطريق للويزا، فدخلت الحجرة يتبعها جروها الصغير.

وكانت راشيل قد نهضت ووقفت على مبعدة، تمسك شالها وقلنسوتها بيديها، بينما كان ستيفن يضع الشمعة على المائدة في حيرة شديدة من أمر تلك الزيارة المفاجئة. ثم ما لبث أن وقف هو الآخر، ضامًّا يديه فوق المائدة قرب ضوء الشمعة، ينتظر أن يُوجَّه إليه الكلام.

وكانت هذه أول مرة في حياة لويزا تخطو فيها إلى مسكنٍ من مساكن عمال كوكتاون، وأول مرة أيضًا تواجه فيها فردًا واحدًا من بينهم وجهًا لوجه. فهي تعرف بوجودهم مئاتٍ وألوفًا، وتعلم مقدار ما يُنتج عددٌ معلوم منهم في فترة معينة من الزمن، وتعرفهم جماعاتٍ تمرُّ بها أو تمرُّ هي بهم كأنهم أسراب النمل

أو طوائف الخنافس. غير أنّ ما تعلمه من الكتب عن عالم الحشرات العاملة لا يُقاس بما تعلمه عن هؤلاء الرجال والنساء الشغيلة.

فهي لا ترى فيهم إلا أرقامًا في حسابات دقيقة، يُنتجون قدرًا معلومًا فيُؤجرون عليه بمقدار معلوم، وتفصل بينهم قوانين العرض والطلب التي لا تخطئ أبدًا في حسابها. وإن شاءت الأقدار أن يصطدموا بهذه القوانين، تعثّروا وتضرّروا. وإذا ارتفع سعر القمح شعروا بضيق وعجز، وإذا انخفض سعره تنفسوا الصعداء. وهم يتكاثرون بنسبةٍ معينة، ويأتون بنسبةٍ أخرى من الجرائم، ويقعون في شَرَك الفقر بنسبةٍ ثالثة.

فهم في نظرها، في مجمل الأمر، وسيلةٌ تُدرّ ثرواتٍ طائلة، ثم لا يلبثون أن يهيجوا أحيانًا كأمواج البحر، فيجلبون الأذى – ولا سيما على أنفسهم – ثم تهدأ العاصفة سريعًا. هذا مبلغ علمها بعمال كوكتاون، ولم يخطر ببالها من قبل أن تنظر إليهم كأفراد، تمامًا كما لا يخطر ببالها أن تفرّق بين قطرات البحر الذي ترى أمواجه.

ظلت لويزا واقفةً لحظات، تجيل الطرف في الحجرة، تتأمل الكراسي القليلة، والكتب القليلة، والمطبوعات العامة، والفراش المتواضع، ثم نقلت بصرها إلى المرأتين وإلى ستيفن، وقالت تخاطبه:

– جئتُ لأتحدث إليك بعد ما جرى منذ قليل، وأودّ أن أقدّم لك ما أستطيع من عون إن سمحتَ لي. هل هذه زوجتك؟

رفعت راشيل عينيها وفي نظرتها نفيٌ كافٍ للجواب، ثم أطرقت في خجل. فاحمرّ وجه لويزا خجلًا من خطئها وقالت:

– أذكر الآن أنني سمعت شيئًا عن متاعبك العائلية، وإن كنتُ لم ألتفت إلى التفاصيل وقتها. لم يكن في نيّتي أن أطرح سؤالًا قد يسبّب حرجًا لأيٍّ منكم. فإن بدا مني أي سؤال آخر قد يُسيء إليكم، أرجو أن تعذروني، فما ذلك إلا لجهلي بما ينبغي أن يُقال في مثل هذا المقام.

وكما شعر ستيفن قبل قليل بدافعٍ خفي يدعوه لمخاطبتها، كذلك شعرت هي الآن بدافعٍ يدفعها للكلام إلى راشيل. وبالرغم من اقتضاب عباراتها، إلا أنّ خجلها جعل صوتها يتهدّج قليلًا:

– هل تروين لي ما جرى بينه وبين زوجي؟ أظنّ أنكِ أقرب من يثق به!

فقالت راشيل بهدوء:

– سمعتُ بالنتيجة التي آل إليها الأمر يا سيدتي.

سألتها لويزا:

– وهل صحيح ما فهمته أنه إذا طرده صاحب عمل واحد، ربما يمتنع الآخرون جميعًا عن تشغيله؟ أظن أنه قال ذلك.

أجابت راشيل:

– الاحتمال ضئيل جدًّا يا سيدتي، يكاد يكون معدومًا لرجل صار اسمه بينهم سيئًا.

سألتها لويزا:

– وماذا تقصدين بالاسم السيئ؟

قالت راشيل:

– أن يُتهم بأنه مشاغب.

فتنهّدت لويزا وقالت:

– معنى هذا إذن أنه ضحية تحزّب طبقته عليه، وتحزّب الطبقة الأخرى كذلك؟ وهل تصل الهوّة بين الطبقتين في هذا البلد إلى حدٍّ لا يجد فيه العامل الشريف مكانًا بينهما؟

فهزّت راشيل رأسها صامتةً لا تنبس بكلمة، فقالت لويزا بصوت خافت وقد غمرتها رقة وشفقة:

– لقد علقت به ظلال الشبهة في عيون زملائه النساجين، بسبب ذلك العهد الذي قطعه على نفسه ألا ينضم إليهم، وأحسب أنه إنما فعل ذلك لأجلك أنتِ. فهل لي أن أسألك عن السبب؟

فانفجرت راشيل بالبكاء وقالت:

– لم أستحثه على هذا العهد يا للمسكين! بل توسلت إليه أن يتجنب المتاعب رحمةً به، ولم يخطر ببالي قط أنه قد يُورط نفسه بسببي. غير أنني أعرف علم اليقين أنه يؤثر الموت مئة مرة على أن ينقض كلمته، هذا شيء أعلمه فيه حقّ العلم.

وكان ستيفن يصغي في صمت وهدوء، وقد اعتاد التمعن، ورفع يده إلى ذقنه، ثم قال بصوت بدا أقل ثباتًا مما عهده فيه الناس:

– ليس ثمة من يدرك مثلي ما أحمله لراشيل من توقير ومحبة واحترام، ولِمَ ذلك. فعندما قطعت على نفسي ذلك العهد، قلت لها صادقًا إنها تملك حياتي، وكان وعدي حاسمًا، لا رجوع فيه ما حييت.

فحولت لويزا وجهها إليه، وأحنته في وقار بدا عليها لأول مرة، وأخذت تنظر إليه ثم إلى راشيل وقد تلطف صوتها وسألت:

– وماذا تنوي أن تفعل؟

فقال ستيفن يحاول أن يهوّن الأمر بابتسامة:

– يا سيدتي العطوفة، حين أفرغ مما بيدي، ينبغي لي أن أغادر هذه الأنحاء وأن أجرّب حظي في مكان آخر. وسواء كان المرء موفقًا أم سيئ الحظ، فلا سبيل إلا أن يحاول، إذ لا يتحقق شيء بغير محاولة... إلا أن يستلقي الإنسان ويموت.

فسألته في رقة:

– وكيف سترحل؟

قال:

– راجلًا يا سيدتي... راجلًا.

عندئذٍ احمر وجه لويزا قليلًا، وأخرجت كيسًا من النقود، ثم سُمع خفيف حفيف الأوراق النقدية وهي تبسط إحداها وتضعها على المائدة.

وقالت لراشيل في رجاء:

– هلا قلتِ له بطريقتك التي تعرفين أنها لا تجرحه، إن هذا المال مباحٌ له ليستعين به على السفر؟ هلا استحلفته أن يقبله؟

فأجابت راشيل وهي تشيح بوجهها حياءً:

– ليس ذلك في وسعي يا سيدتي، وبارك الله فيكِ على ما خطر ببالك من رقة ورحمة بهذا المسكين... أما هو، فأدرى الناس بنفسه وبما يراه صوابًا.

وبدت لويزا في تلك اللحظة حائرة بين الذهول والفزع والاستسلام لعاطفة جافة شاحبة، حين رأت ذلك الرجل، الذي طالما عهدته صلبًا متشددًا متمالكًا، وقد انهار تماسكه في غمضة عين، فوقف يغطي وجهه بكفه. مدت يدها نحوه

كأنها تهم أن تلمسه أو أن تبثه شيئًا من الطمأنينة، ثم تراجعت ثابتة في موضعها، بينما قال ستيفن وقد كشف عن وجهه:

– حتى راشيل، بما عهدتُه فيها من لطف ورقة، ما كان يمكن أن تزيد هذا الموقف رقةً ولطفًا مهما فعلت. ولأثبت لكِ أنني لست رجلًا جاحدًا ولا أعمى عن المعروف، فسآخذ جنيهين فقط، قرضًا أردهما يومًا، وسيكون أجمل ما في حياتي أن أجد الفرصة لأعبر لكِ مرة أخرى عن امتناني الأبدي لهذا الجميل.

وشعرت هي بالرضا إذ استردت ورقة النقد الكبيرة واستبدلت بها ذلك المبلغ الأصغر كثيرًا الذي ذكره. ولم يكن ستيفن ممن يوصفون بالوسامة أو الأبهة، ولم تكن هيئته مما يجتذب الأنظار، ولكن أسلوبه في قبول المال وشكره عليه من دون إفراط في الكلمات، جاء رشيقًا رائقًا، على نحوٍ لو عاش لورد شسترفيلد قرنًا كاملًا ليُلقنه لابنه لما بلغه.

أما توم، فقد ظل جالسًا على حافة الفراش يهز ساقه في فتور ويمتص عصاه في لا مبالاة ظاهرة، حتى بلغ الأمر هذه المرحلة، فلما رأى شقيقته تتهيأ للانصراف وثب واقفًا على عجل وقال:

– انتظري لحظة يا لو! أحب قبل أن نذهب أن أُكلمه قليلًا؛ خطر لي خاطر سأقوله لك يا بلاكبول إذا خرجت معي إلى السلم... لا داعي للشمعة يا رجل! (وقد بدا الانزعاج جليًّا في صوته حين لمح ستيفن يتجه إلى الصوان ليأخذ الشمعة) ما سأقوله لا يحتاج إلى ضوء.

وتبعه ستيفن إلى الخارج، ثم أغلق توم باب الحجرة وأبقى يده على المقبض، وقال بصوت خافت:

– اسمع! أظن أنني أستطيع أن أقدم لك خدمة، ولا تسألني عنها لأنها قد لا تسفر عن شيء، لكن لا بأس من المحاولة.

وكان نَفَسه اللاهث يلفح أذن ستيفن بحرارة مقلقة.

– ... إن الساعي الذي جاءك الليلة بالرسالة هو ساعينا في المصرف أيضًا، وأنا أسميه ساعينا لأني أعمل هناك كذلك.

وقال ستيفن في نفسه: ما أشد ارتباكه! إنه يتكلم وكأن النار تطارده... ثم واصل توم:

– الآن اسمع! متى سترحل؟

– اليوم الإثنين، إذن ربما أرحل الجمعة أو السبت.

– حسنًا، الجمعة أو السبت. اسمع! لست متأكدًا أنني سأستطيع فعل ما أفكر فيه – والتي في الداخل كما ترى هي شقيقتي – لكن قد أفلح، وإن لم أفلح فلا بأس. كنت أسألك: هل تعرف ساعينا لو رأيته؟

– نعم، أعرفه بالتأكيد.

– جميل جدًّا. أريد منك ابتداءً من هذه الليلة حتى رحيلك أن تدور حول المصرف نحو ساعة كل مساء عند خروجك من العمل، ولا تُظهر أنك تنتظر شيئًا؛ لأنه إن بدا لي أنني قادر على فعل ما أريد فسأرسل الساعي ليبلغك برسالة، مكتوبة أو شفهية، لا غير. والآن اسمع! هل أنت متأكد أنك فهمت؟

وكان توم قد دس إصبعه في عروة معطف ستيفن، وأخذ يبرمها مرارًا في الظلام بحركة سريعة غريبة.

– فهمت يا سيدي!

– حسنًا... تأكد أنك لن تخطئ أو تنسى شيئًا. وسأخبر شقيقتي في طريقنا بما في ذهني، وأعلم أنها ستوافق عليه. اسمع هنا! هل فهمت كل شيء؟

– نعم!

– إذن... هيا بنا يا لو!

ودفع الباب بيده ففتحته وهو يناديها، غير أنّه لم يعد إلى الغرفة، ولم ينتظر حتى تضيء له الطريق وهو يهبط السُّلَّم الضيّق؛ فبلغ أسفله وهي لا تزال واقفة عند رأس السُّلَّم، ثم خرج إلى الشارع قبل أن تتمكّن من أن تتأبط ذراعه.

وظلت مسز بجلر في ركنها حتى انصرف الشقيقان، وعاد ستيفن والشمعة في يده، وكانت في تلك اللحظة غارقةً في إعجابٍ لا يوصف بمسز باوندربي، حتى إنها – على عادة العجائز في غرابة أطوارهن – أجهشت بالبكاء؛ لأنها وجدتها جميلةً لطيفةً محببةً إلى القلب.

ومع ذلك، لم يخلُ قلب مسز بجلر من قلقٍ شديد، خشية أن تعود تلك التي سحرتها مصادفةً، أو أن يطرق الباب شخصٌ آخر، مما بدّد صفوها في تلك الليلة. وكانت الساعة قد تأخّرت أيضًا، وهو أمرٌ ثقيل على قومٍ ينهضون مع الفجر ويكدحون في أعمالهم. ولهذا السبب انفضّ الجمع، وقام ستيفن وراشيل بمرافقة صاحبتهما الغامضة حتى باب مقهى المسافرين، حيث ودّعاها هناك، ثم عادا يسيران معًا في الطريق المؤدي إلى ركن الشارع الذي تقطنه راشيل.

وإذ بلغا ذلك المكان خيّم عليهما الصمت، حتى إذا وصلا إلى الزاوية المظلمة حيث اعتاد لقاؤهما أن ينتهي دومًا، وقفا ساكنين كأنّ كلًّا منهما يخشى أن يبدأ بالكلام.

– سأجتهد أن أراكِ مرّةً أخرى يا راشيل قبل رحيلي، فإن لم أفعل...

– سأعلم يا ستيفن أنك لن تفعل، ومن الخير أن نصارح أنفسنا.

– أنتِ دائمًا على حق، فذلك أصدق وأشجع.

– وكنتُ أفكّر يا راشيل أنه لم يبقَ لي سوى يومٍ أو يومين، ومن الأفضل لكِ يا عزيزتي ألّا تظهري معي؛ لئلا تُحمّلي نفسكِ عناءً لا طائل منه.

– ليس هذا ما أعنيه يا ستيفن، بل لأنك تعرف اتفاقنا القديم.

– حسنًا... حسنًا... ذلك أفضل على كل حال.

– هل ستكتب إليّ وتخبرني بما يصادفك يا ستيفن؟

– نعم، وما بقي لي سوى أن أقول: ليكن الله معكِ.

– وليبارك فيك الله ويتولى جزاءك وشكرك.

– وبارك فيكِ أيضًا يا راشيل في كل خطوة، وقيّض لكِ الأمن والراحة في النهاية!

– لقد قلتُ لكَ يا عزيزي في تلك الليلة إنني لن أرى أو أفكر في شيءٍ يسوءني. أما أنتَ، وأنتَ خيرٌ مني كثيرًا، فينبغي أن تسمو فوق هذا كله، وقد سَمَوتَ بالفعل؛ فها أنتَ تجعلني أرى الأمر بعينٍ أفضل... بوركتَ... طابت ليلتك... ووداعًا!

ولم يكن ما دار بينهما سوى وداعٍ قصيرٍ في شارعٍ لا شأن له، غير أنه بقي ذكرى مقدّسةً في قلبَي هذين الإنسانين البسيطين.

يا أيها الاقتصاديون النفعيّون، ويا أصحاب المدارس العقيمة، ويا مروِّجي الواقع الجامد، ويا مَن تكفرون بكل شيء، سواء أكنتم من المترَفين الآمنين أم من المتشدّدين بمعتقداتٍ جوفاء استقيتموها من كتبٍ صفراء، إنّ للفقراء معكم شأنًا باقٍ على مرّ الزمان؛ فاغرسوا في نفوسهم قبل فوات الأوان أعظم

فضائل الذوق والمودّة، لتزدان حياتهم التي تفتقر أشدّ الافتقار إلى الزينة. وإلّا، ففي يوم ظفركم، إذا طردتم من قلوبهم كلَّ عاطفة حتى باتوا يواجهون الوجود القاحل وجهًا لوجه، عندئذٍ ستبرز الحقيقة لكم في صورةٍ ضاريةٍ تُنزل بكم الهلاك المحتوم!

وفي اليوم التالي باشر ستيفن عمله كعادته، ثم في اليوم الذي تلاه، دون أن يتلقّى من أحد كلمة ودٍّ أو إيماءة تعاطف، فقد انفضّ عنه الجميع واتسعت حوله دائرة التجنّب والفتور، حتى غدت وحدته أوسع من رحاب المصنع. وفي نهاية اليوم الثاني، استقرّ عزمه على الرحيل، وفي نهاية اليوم الثالث كان نوله خاليًا من صوته وجهده.

ثم مضى، كعادته في الأمسيتين السابقتين، يقف ساعةً كاملة عند الشارع الذي يطلّ عليه المصرف، يرقب الأبواب والنوافذ فلا يرى حراكًا ينبئ بشيء. وإذ لم يحدث في المرتين الماضيتين خير ولا شر، عزم هذه الليلة أن يُطيل التريّث ساعتين كاملتين، حرصًا على ألا يُخلّ بما التزم به من عهدٍ واتفاق.

كانت السيدة التي أشرقت يومًا على بيت مستر باوندربي تجلس في نافذة الطابق الأول، كما اعتاد أن يراها، يجاورها الساعي الذي يحدّثها حينًا، وحينًا يطلّ من فوق المصراع الذي كُتبت تحته كلمة «مصرف»، وحينًا آخر يخرج إلى عتبة الباب يستنشق نسمةً عابرة. وظنّ ستيفن، أول الأمر، أنّ الساعي خرج يفتّش عنه، فمرّ بقربه متوجّسًا، لكن الساعي لم يرمقه إلا بنظرةٍ باردة عابرة، لا تقول شيئًا ولا تُبدي اهتمامًا.

والساعتان طويلتان ثقيلتان على قلبٍ أنهكه العمل، إذا قضاهما في التسكّع دون غاية، فجلس ستيفن على عتبة باب واتكأ إلى جدار، ثم نهض يتمشّى جيئةً وذهابًا، ينصت لدقات ساعة الكنيسة، أو يقف يراقب الأطفال وهم يلعبون في

الشارع، يتململ في مكانه، ويغلبه شعورٌ كئيب بأنه يبدو للعابرين كمن يضمر شرًّا أو يبيت مكيدة.

ثم جاء مشعل المصابيح، فانتشر في الشارع صفّان من النور المتداخل حتى تلاقت أطرافهما في البعيد، وأغلقت مسز سبارست نافذتها في الطابق الأول وأسدلَت الستائر الثقيلة، ثم صعدت إلى الطابق الأعلى، وتبعها نورٌ عابرٌ مرّ بمصابيح السلم حتى غاب وراء الجدار. وبين الحين والحين، كانت ستائر نافذة الطابق الثاني تنجلي قليلًا، كأنّ عينًا ترقب من خلفها، تارةً هي عين مسز سبارست، وتارةً عين الساعي، غير أنّ ستيفن لم يُدْعَ ولم يُنادَ، حتى أتمّ الساعتين كاملتين، فانصرف بخطواتٍ سريعة كمن يريد أن يمحو بتعجّله وحشة تسكّعه الطويل.

ولم يبقَ عليه إلا أن يُودّع صاحبة المنزل ويستلقي على فراشه البسيط فوق الأرض، فقد تمّ إعداد حزمته لرحيله في الغد، وصار كلّ شيء مُرتّبًا بدقّة. وكان يُضمر في نفسه أن يغادر البلدة قبل طلوع الصبح، قبل أن يملأ العمال الشوارع، حتى يرحل خفيًّا في تلك الساعة التي يغفو فيها العالم.

ولمّا بزغ الفجر، ألقى ستيفن نظرةً وداعٍ على أرجاء حجرته، متسائلًا في قلبه المحزون: تُرى، هل يُكتب له أن يراها ثانيةً؟ ثم مضى خارجًا، فكانت البلدة ساكنةً كأنّ أهلها هجروها خوفًا من لقائه. وكان كلّ شيء شاحبًا، حتى الشمس الطالعة بدت شاحبةً كبحرٍ مكفهرٍّ حزين.

سلك الطريق، فمرّ بمكان إقامة راشيل، وإن لم يكن في طريقه، ثم عبر الشوارع التي تتراصّ فيها البيوت المبنية من الآجرّ الأحمر، وتجاوز المصانع الصامتة التي لم يسرِ فيها بعدُ خيطٌ من حياة، ثم مضى بمحاذاة الطريق الحديدي، حيث بدت إشارات الخطر شاحبةً في ضوء النهار الوليد، ثم عبر

منطقةً نصفها مهدوم ونصفها الآخر بُنِيَ حديثًا، مرورًا بفيلات متناثرة تلفّها نباتات خضراء علقت بها بذورٌ قذرة حتى غدت كأيدٍ متسخةٍ تُناول الصحون دون غسل، ثم اجتاز دروبًا سوداء مغطّاة بتراب الفحم ومسالك أخرى تغصّ بالقبح حتى وصل إلى قمة التل.

هناك توقّف وألقى نظرةً أخيرة على البلدة. كان النهار قد سطع عليها، ودقّت النواقيس تدعو العمال إلى العمل الصباحي، لكن البيوت لم يُشعل فيها نورٌ بعد، فبدت السماء خاليةً للمداخن العالية التي سرعان ما سترسل سُحُبها السوداء لتطمس وجه الشمس. ورغم ذلك، فقد تلألأت بعض النوافذ بلونٍ ذهبيٍّ خافت نصف ساعةٍ قصيرة، كأنّها تُبشّر أهل كوكتاون بشمسٍ لا يرونها إلا معتمةً وراء حجاب الدخان.

ويا للعجب أن يولّي المداخن ظهره ليُقبل على الطيور. ويا للعجب أن يغدو الطريق الحجريّ تحت قدميه بديلًا من تراب الفحم. ويا للعجب أن يعيش الإنسان عمرًا طويلًا ثم يبدأ فجأةً حياةً جديدةً في صبيحةٍ صيفيّةٍ كهذه، كأنه يعود طفلًا صغيرًا يكتشف العالم من جديد.

وبينما تدور هذه الخواطر في رأسه، وحزمته تحت إبطه، مضى ستيفن بخطًى ثابتة وسحنةٍ يقظة، يسير في الطريق الخلويّ تحت أقواس الأشجار المتعانقة فوقه، وهي تهمس له بصوتٍ خافتٍ أنّ وراءه قلبًا مُحبًّا أمينًا لا ينساه.

الفصل السابع

بارود

ما إن انخرط مستر جيمس هارتهاوس في صفوف الحزب الذي انتسب إليه حتى أخذ طريقه إلى النجاح بخطى وئيدة واثقة. فما كان يحتاج إلا إلى قليل من الاطّلاع المتكلف كي يرضي كبار رجالات السياسة، وإلى لمسة يسيرة من لا مبالاة مترفة كي يكسب ودّ المجتمع العريض، وإلى قدر محسوب من التظاهر باستقامة جوفاء وسط انحرافٍ سافر، ذلك التظاهر الذي يجد له أنصارًا ومُصفّقين بين أولئك الذين يخفون خطاياهم القاتلة تحت ستار التهذيب الزائف. وما كان ليثقل قلبه عناء الإخلاص الحق، بل وجد لذةً في أن ينسجم مع أولئك الواقعيين الجامدين، كأنما وُلِد في سلالتهم، وأن يزدري في الوقت ذاته سائر المذاهب التي تتشدق بالضمير وتتباهى بالفضيلة.

فقال مخاطبًا مسز باوندربي وقد تلطف في صراحته:

«هؤلاء قوم لا نصدقهم يا عزيزتي، ولا يصدقون أنفسهم هم أيضًا. والفرق بيننا وبين المبشرين بالفضيلة أو الإحسان أو المحبة – لا خلاف في التسميات – أننا نعلم يقينًا أن هذه كلها أوهام فارغة، فنُصرّح بذلك جهرًا، أما هم فيعلمون كما نعلم ولكنهم لا يجهرون. فلماذا نُصدم أو نستغرب كلماتهم هذه؟».

ولم يكن في حديثه ما يُدهش لويزا أو يُفاجئها، فما كان بين فلسفته الجديدة وتلك التي غُرست في نفسها منذ نعومة أظفارها على يدي أبيها فرقٌ يُذكر؛

كلاهما يُقيّد الروح بقيود الوقائع الصلبة، ويُقصي عنها الإيمان بأي سمو أو معنى يتجاوزها. وأي شيء عساه أن يهدمه هارتهاوس في روحٍ صاغها توماس جراد جرايند منذ الطفولة لتُصبح حصنًا للبرود العقيم، لا ترى في الحياة إلا المعطيات المادية المجردة؟

لكن لسوء حظها أن شيئًا في أعماقها بقي حيًّا يقاوم ذلك الفتور؛ بقايا نزوعٍ فطري نحو الإيمان بوجود إنسانية أرحب وأسمى مما عرفت، نزوعٌ ظلَّ ينازعها في صمت، يثور عليها حينًا بالشكوك وأحيانًا بالغضب؛ تشك لأنها نشأت على قمع كل أمل وتطلّع، وتغضب لما تظن أنه ضاع منها إن كان لذلك الجموح من حقيقة. وجاءت فلسفة هارتهاوس بردًا وسلامًا على نفس طال بها تعوّد الصبر والكبح؛ فلسفةٌ تقول إن كل شيء باطل لا قيمة له، فلا خسارة في الفقد ولا ندم على ما فات.

وهكذا، حين اختار لها أبوها زوجها لم تجد في نفسها إلا أن تجيب بأن كل شيء سواء؛ وظلت على رأيها ذاك حتى الآن، تردّد في برود واستعلاء: «وما قيمة أي شيء؟» ثم تمضي قدمًا في طريقها.

ولكن إلى أين؟ كانت تمضي خطوةً بعد خطوة، إلى أسفل، نحو نهاية غامضة، لكن بتؤدةٍ شديدةٍ حتى يخيل إليها أنها لم تغادر مكانها أصلًا. أما مستر هارتهاوس فلم يكن يشغل ذهنه بمصيرٍ أو نهاية؛ لا خطة لديه ولا مقصد محدد، وليس في قلبه شرٌّ يقضُّ مضجعه؛ يكفيه من الحياة تسلية رقيقة تليق برجل مهذب متكلف، وربما كان اهتمامه في هذه المرة يفوق ما تقتضيه سمعته فيعترف به لنفسه.

كتب بعد قدومه بقليل إلى أخيه البرلماني الجليل في رسالةٍ رتيبة يقول فيها إن عائلة باوندربي «تسلية لا بأس بها»، ثم استدرك معترفًا أن «زوجة باوندربي

ليست ذلك الكائن المخيف الذي توقعت رؤيته، بل هي شابة فاتنة الجمال». ثم انقطعت رسائله بعد ذلك عن ذكرهم، إذ آثر أن يخصص أوقات فراغه لزيارة بيتهم خاصةً، يمر به في جولاته المتكررة في أنحاء كوكتاون.

وكان يجد من مستر باوندربي تشجيعًا يُشبِع غروره، فقد كان من عادة هذا الأخير أن يفاخر في عنجهيةٍ صاخبة بأنه لا يأبه بذوي الحيثية والجاه، لكنه مع ذلك لا يرى بأسًا في أن تُعجب ابنة توم جراد جرايند بصحبتهم وتنعم بمجالسهم.

وبدأ مستر هارتهاوس يستلذ فكرةً راقت له: ماذا لو أن هذا الوجه الذي يشرق بالحنان لأجل شقيقها، يشرق له هو أيضًا؟! وكان سريع الملاحظة، قوي الذاكرة؛ فما فاته حرفٌ مما باح به توم، وأدخل كل ما سمعه في سياقٍ متصلٍ مع كل ما رآه من حركاتها ونظراتها؛ فأخذ يفهمها شيئًا فشيئًا. ومع أن أشرف وأعمق ما في روحها ظل بعيدًا عن إدراكه – لأن الأرواح العميقة لا يفهمها إلا من هم في عمقها – إلا أنه ما لبث أن صار يقرأ بقية ملامحها بعين المتأمل المدقق.

وضع مستر باوندربي يده على بيت يكتنفه الخضرة وتحيط به الملاعب والمراعي، على بُعد خمسة عشر ميلًا تقريبًا من البلدة. وكان يمكن الوصول إليه بقطار قصير يقطع ميلًا أو ميلين، يعبر فوق أقواس شاهقة تمرّ ببرّيةٍ مبعثرةٍ بمناجم الفحم المهجورة، تتلألأ فيها ليلًا نيران متفرقة، وتقوم بين أطلالها السوداء هياكل الآلات التي تُركت عند فوهات الحفر. ثم لا تلبث تلك البرّية أن تأخذ في التأنس رويدًا رويدًا كلما اقتربت من جوار ذلك المعتزل الريفي، حيث تتوشّح الأرض بثوب المروج الذهبية، وتتناثر أزهار الزعرور البري بيضاءَ في ربيع كل عام، وترتجف أوراق الشجر بحفيفها وظلالها طيلة أيام الصيف الهادئ.

وكان ذلك العقار الفاتن قد آل إلى المصرف بالرهن، بعدما طمح أحد وجهاء كوكتاون يومًا في بلوغ الثراء العريض، فزلّت قدمه بمائتي ألف جنيه، وهو أمرٌ قد يقع أحيانًا حتى في أعرق العائلات بتلك المدينة. بيد أنّ الإفلاس لم يكن شأنًا يُؤرِّق الطبقات التي لا تعبأ قط بما ينتظرها في الغد.

وقد غمر مستر باوندربي سرورٌ خفيٌّ بذلك، إذ وجد نفسه سيدًا في ضيعة صغيرة أنيقة، فانقاد لطريقته المتبجّحة في التواضع الظاهري، فزرع الكرنب في حديقة الأزهار، وأقام في عيشة تكاد تشبه عيشة الجند في ثكناتهم، بين أثاث فاخرٍ يطغى عليه حضوره المتفاخر. وكان لا يفوّت فرصةً ليستثير حنق الصور الفنية بحديثه الفجّ عن أصله، فربما قال لضيفه:

– لقد قيل لي يا سيدي إن نيكتس (المالك السابق) دفع سبعمائة جنيه في هذه اللوحة التي تُصوّر الشاطئ. ولأكون صريحًا معك، لو أنفقتُ في عمري كله سبع نظرات إليها، كل نظرة بمائة جنيه، لكان هذا أقصى ما أفعل بها! لا وحق أبيك! فلن أنسى قط أنني جوشيا باوندربي من أهالي كوكتاون، وأنني قضيت سنوات وسنوات لا أملك من الصور إلا تلك التي على زجاجات طلاء الأحذية؛ حيث يبدو رجلٌ يحلق ذقنه في ضوء حذاء لامع! تلك الزجاجات التي كنت أطير فرحًا بها، حتى إذا فرغت منها بعتها بفلس، وحمدتُ الله على هذا الثمن الزهيد!

وربما وجّه الحديث نفسه إلى مستر هارتهاوس، فقال له:

– هنا يا هارتهاوس زوجٌ من الأحصنة، وإن شئت زدها ستة أخرى؛ فالمكان يسعها. فثمة حظائر تكفي لاثني عشر حصانًا. وأما نيكتس - إن صح ما يُقال عنه - فقد كان يقتنيها كاملة. تصور! اثني عشر حصانًا! وذلك يوم كان تلميذًا بمدرسة وستمنستر العريقة، ينعم بحفاوة القضاة والنبلاء حتى تحتقن وجوههم تصفيقًا له في المسرحيات اللاتينية... بينما كنت أنا أعيش على فضلات الأسواق وأنام في

سلالها. بيد أنني لو شئت الآن أن أقتني مثلها – وهو ما لا أرغب فيه لأن حصانًا واحدًا يكفيني – فلن أطيق رؤيتها في الإسطبل دون أن يعتصرني ذِكر ماضينا البائس فأأمر بإخراجها! ولكن هكذا هي الدنيا، وها أنت ترى هذا المكان، ولا أشك في أنه ليس في حجمه ما يفوقه حسنًا في المملكة كلها – ولست أبالي أين – ومع ذلك، حلّ في قلبه، كما تحل الدودة في نواة البندقة، جوشيا باوندربي! أما نيكتس الذي كان يُبهرهم بخطبه اللاتينية ويثير فيهم الحماس، فقد أخبرني رجلٌ أمس أنه يهذي الآن في الطابق الخامس من شارع ضيّق مظلم في أنتورب!

وهناك، في ظلال هذا المعتزل الهادئ، تحت وطأة الصيف الرطب الطويل، شرع مستر هارتهاوس يُجرّب حظه مع ذلك الوجه الذي استوقفه من أول لقاء، وأخذ يسعى ليظفر منه بالرضا واللين.

فقال لها في رفق:

– إنها لصدفة سعيدة يا مسز باوندربي أن أجدك هنا وحدك؛ إذ طالما خامرني شوقٌ خاصٌ لأن أتحدث إليكِ حديثًا منفردًا...

ولم يكن ما حدث من قبيل المصادفة العجيبة أن وجدها هناك في تلك الساعة من النهار؛ فهي الساعة التي اعتادت أن تنفرد فيها بنفسها، وذلك الموضع كان ملاذها المألوف، فرجةً بين أشجار الغابة الكثيفة، حيث تناثرت بعض الجذوع المقطوعة. وهناك جلست تتأمل أوراق الخريف الماضي كما اعتادت يومًا أن تراقب الرماد المتساقط في الموقد. فجلس بجوارها، وعيناه شاخصتان إلى وجهها:

- إن شقيقكِ صديقي الشاب توم.

وازدهر لونها، والتفتت إليه بنظرة يملؤها الاهتمام، فقال في نفسه:

ـ ما رأيت في حياتي كلها منظرًا يأسر الروح كما يأسرها هذا الوميض الذي يتلألأ في ملامحها!

وكان وجهه يشي بما في نفسه دون أن يشي بها صراحة، ولعله إنما استجاب بدافع من أفكاره نفسها ليفصح بذلك التعبير الذي ارتسم على ملامحه.

ـ معذرةً! إن ما تبدينه من اهتمامٍ أخويٍّ رائعٌ حقًّا، ولعله من حق توم أن يفاخر به... وأعلم أني أقول ما لا يليق، ولكن ما كان لي حيلة في إعجابي هذا.

فقالت له برزانةٍ تجمع بين اللوم والهدوء:

ـ لأنك سريع الاندفاع.

ـ لا يا مسز باوندربي. أنت تعلمين أنني لا أتعمد معكِ تزييف الشعور. وتدرين أيضًا أني رجلٌ تافه، يمكن أن أبيع نفسي في أي وقتٍ لمن يدفع الثمن المناسب، ولا قدرة لي على عملٍ تلقائيٍّ مهما يكن.

ـ إني أنتظر ما كنت تود أن تلمح به عن أخي.

ـ إنكِ قاسية عليَّ. وأنا أستحق هذه القسوة، فما أنا إلا كلبٌ لا يُعوَّل عليه كأي كلبٍ سواه. بيد أنني لستُ بمخادع. غير أنكِ باغتتني الآن، وجرفتني بعيدًا عن حديثي الذي أردته عن شقيقك. فإني أكنّ له اهتمامًا.

فسألته بنبرةٍ تختلط فيها الدهشة بالعرفان:

ـ وهل تهتم بشيء أصلًا يا مستر هارتهاوس؟

ـ لو أنكِ سألتني هذا السؤال يوم جئت أول مرة، لكنتُ أجبتك بالنفي. أما اليوم – حتى وإن بدا لي أن إجابتي هذه قد تُوهم بأني أتنكر لطبعي فأُثير بذلك ريبتكِ – فلا مفر لي من أن يكون جوابي بالإيجاب.

وبدَت منها إشارة خفيفة كأنها أرادت أن تنطق بما يخالجها، لكن الصوت خذلها فلم يطاوعها. ثم تملكت نفسها أخيرًا وقالت:

ـ أشكرك يا مستر هارتهاوس على اهتمامك بأخي.

ـ شكرًا لكِ أنتِ... وآمل أن أكون جديرًا بهذا الشكر. أنتِ تعلمين كم ندر ما أرجوه في الحياة، ومع ذلك فأنا واثقٌ من صدق مشاعري هذه. لقد قدمتِ له الكثير، ووهبتِه قلبكِ كله، وحياتكِ يا مسز باوندربي خير شاهدٍ على ذلك الإخلاص الساحر الذي يُنسيكِ نفسكِ في سبيله. معذرةً مرة أخرى! لقد شططتُ عن مقصدي... فأنا مهتمٌ به من أجله هو.

وإنها لبرهة خاطفة تلك التي وندت منها حركةٌ خفيفةٌ كأنها تهمّ بالنهوض والفرار، لولا أنّ هارتهاوس عدل بحديثه عن مجراه في اللحظة نفسها، فلبثت في مجلسها، وأخذ يستطرد بلهجةٍ أخفّ، غير أنّ ما بذله من جهدٍ في استحضار تلك النبرة الهينة بدا جليًا حتى غدت أفصحَ من نبرته السابقة:

ـ ليس من النقائص المستعصية، يا مسز باوندربي، في فتى غضّ الإهاب كأخيك أن يكون نزقًا طائشًا مسرفًا مبذرًا، مبدّدًا على نحوٍ ما كما يقال. أهو كذلك؟

ـ نعم.

ـ اسمحي لي أن أكون أكثر صراحةً... أتظنينه يقامر؟

ـ أظنه يراهن أحيانًا... (وإذ رأته صامتًا كأنما ينتظر منها استكمال الجواب، أضافت)... علمتُ أنّه يراهن.

ـ ويخسر بطبيعة الحال؟

ـ نعم.

ـ وكلّ مقامر خاسر لا محالة... فهل تأذنين لي أن ألمّح إلى أنّه يستمدّ منك أحيانًا مالًا لهذه الأغراض؟

وكانت مطرقةً بنظرها إلى الأرض، فلما أتاها سؤاله رفعت إليه عينيها وفيهما شيء من الاستغراب ممزوجٍ بالاستياء. فقال:

ـ أبرّئيني يا عزيزتي مسز باوندربي من الظنّ بأنّ في سؤالي فضولًا وقحًا؛ فأنا أخشى أن توم مُعرّضٌ لأن يتورّط شيئًا فشيئًا في متاعب خطيرة، وأقصد بما أقول أن أمدّ له يدَ العون مستفيدًا من خبرتي المريرة... وهل لا بدّ أن أُعيد القول إنّني أفعل ذلك من أجله هو؟

وبدا كأنّها أرادت أن تُجيبه، غير أنّ محاولتها لم تكتمل ولم تنقلب إلى كلمة مسموعة، فقال مستر جيمس هارتهاوس، متكلفًا من جديد تلك اللهجة الهادئة التي تدّعي عدم المبالاة:

ـ وإذا شئتِ الصراحة كلَّ الصراحة، فلا بدّ أن أُصارحكِ بشكّي في أن يكون قد ظفر بأيّ كسب يُذكر. وأظنّ ـ واستميحك العذر لصراحتي ـ أنّه لم يحصل بينه وبين والده المبجَّل أيُّ إفشاءٍ صريحٍ يُعتدُّ به.

فأجابته لويزا، وقد احمرّ وجهها حين هاج بها خاطرٌ بأحوالها هي في هذا الصدد:

ـ لا أظنّ ذلك حاصلًا.

ـ ولا بينه ـ وأنتِ يا مسز باوندربي أفطنُ من أن يخفى عليكِ مرمى قولي ـ وبين صهره العظيم؟

فاشتدّ احمرار وجهها أضعافًا حتى كاد يلتهب حمرةً حين أجابت بصوتٍ خافتٍ متردّد:

ـ ولا أظنّ ذلك أيضًا.

فسكت هنيهةً ثم قال:

ـ أيمكن، يا مسز باوندربي، أن يكون بيننا مزيدٌ من الصراحة؟ هل اقترض توم مبلغًا كبيرًا منكِ؟

فتردّدت قليلًا قبل أن تُجيب، وكان طوال الحديث يتنازعها التردد والاضطراب، غير أنّها ـ في الجملة ـ ظلّت محتفظةً بهدوئها المهيب:

ـ تدرك يا مستر هارتهاوس أنّي إذ أبوح لك بما تستحثّني عليه، فلستُ أفعل ذلك على سبيل الشكوى أو الندم؛ فلا أنا أشكو من شيء، ولا أنا نادمةٌ على ما فعلت.

فقال هارتهاوس في نفسه: «وفيها إقدامٌ أيضًا!»

ـ ... حين تزوّجتُ، اكتشفت أنّ أخي كان غارقًا في دينٍ ثقيلٍ، أعني أنّ الدين كان ثقيلًا بمقياسه هو، بحيث اضطُررتُ إلى بيع بعض حُليّي... ولم تكن تلك تضحيةً جديرةً بالذكر؛ فقد بعتها عن طيب خاطر، إذ لم يكن لها في نفسي قدرٌ ولا اعتبار.

ولعلّها رأت في وجهه أنّه فهم أنها تتحدث عن بعض هدايا زوجها؛ أو لعلّها خشيت في سريرتها أن يكون قد فهم ذلك، فتوقفت عن الكلام واحمرّ وجهها مرةً أخرى؛ فإن لم يكن قد أدرك ذلك من قبل، فهو حَرِيٌّ أن يدركه الآن، حتى لو كان أغبى بكثيرٍ مما هو عليه في الحقيقة.

- ... ومنذ ذلك الحين كنت أعطي أخي في أوقات متفاوتة ما أستطيع الاستغناء عنه من النقود، أي بالاختصار ما يكون في يدي منها. وأما وقد أخذت في مكاشفتك اعتمادًا على الاهتمام الذي تعترف به نحوه فأمضي في الصراحة إلى

منتهاها، وأقول لك إنه من الوقت الذي صار من عادتك أن تزورنا هنا احتاج أخي في دفعة واحدة إلى مائة جنيه، ولم يكن في مقدوري أن أعطيه إياها، وأقلقني ما قد يترتب على هذا التورط الشديد. بيد أني احتفظت بهذه الأسرار حتى هذه اللحظة التي أعهد بها إليك اعتمادًا على شرفك، ولم أُكاشف أي إنسان لأنني... ولكنك استنتجت أسباب ذلك الآن.

وتوقفت عن الكلام فجأة. وكان نهازة للفرص، فرأى في تلك اللحظة فرصة اهتبلها كي يقدم إليها صورتها شخصيًّا مموهة بعض الشيء في قالب صورة أخيها.

- إني يا مسز باوندربي وإن كنت شخصًا مجردًا من العواطف ودنيويًّا من غلاة أصحاب الدنيا، إلا أني أشعر بأشد اهتمام صارحتني به. ولا يسعني أن أكون قاسيًا في حكمي على أخيك. فأنا أفهم تلطفك الحكيم في نظرك إلى أخطائه وأُشاركِكِ فيه. مع احترامي أتم الاحترام ممكن لكل من مستر جراد جرايند ومستر باوندربي إلا أني أُقدر أنه لم يكن مجدودًا في تنشئته فقد رُبِيَ بما لا يتلاءم مع المجتمع الذي يتعين عليه أن يؤدي دوره فيه فاندفع إلى ألوان من الإسراف على نفسه نتيجة الإسراف المضاد الذي أُكره عليه ردحًا طويلًا - وإن كنا لا نشك أن ذلك حدث بأحسن نية ممكنة - فالمستر باوندربي بما ينادي به من استقلال إنجليزي مضلل لا يمكن كما اتفقنا - وإن يكن ما يبديه سمة لها سحرها العظيم - أن يشجع على المكاشفة. فإن تجاسرت على القول بأن هذه الصفة هي أقل ما يتوافر في شخص كي يميل الشاب المتعثر الذي أسيء تصور طبعه ولم تحمد مواهبه إلى الاتجاه إليه إلتماسًا للطمأنينة والإرشاد، فإني أكون بذلك قد عبرت عن وجهة نظري الخاصة.

ورأى في وجهها، وهي جالسة تنظر أمامها بنظرة لا تحيد عبر الأنوار المتغيرة على العشب إلى أعماق الغابة المظلمة مما وراء ذلك، مدى اهتمامها بكلماته التي كان يلفظها في وضوح شديد، فاستطرد يقول:

- ينبغي أن يلتمس له كل العذر، ولكني أجد في توم نقيصة كبرى لا أستطيع أن أغتفرها له وأُحاسبه عليها حسابًا عسيرًا.

فوجهت لويزا نظراتها إلى وجهه وسألته أي نقيصة هي؟

- لعلني قلت ما فيه الكفاية، ولعله لم يكن من الخير على وجه العموم أن تند عني أي إشارة إليها.

- أنت تروعني يا مستر هارتهاوس، فأرجوك أن تعرفني أمرها.

- تخفيفًا لمخاوف لا لزوم لها عن كاهلك، وبما أن المكاشفة التي أقدرها بلا شك فوق كل تقدير قد تأصلت بيننا بخصوص شقيقك، سأطيع أمرك والمسألة أنني لا أستطيع أن أغتفر له أنه ليس أكثر شكرًا في كل كلمة وكل نظرة وكل عمل من أعمال حياته لعواطف خير صديق له وتعلق خير صديق له... وما تتحلى به من إيثار وما تبذله من تضحية فما يُقابلها به فيما أُلاحظ شكر هزيل جدًّا، مع أن ما تصنعه له يقتضي منه حبًّا ثابت الدعائم وشكرًا راسي الأركان، لا يتفقان وما يبديه من جهامة وتقلب أهواء. وإني وإن كنت الشخص المفرط إلا أنني لا أصل يا مسز باوندربي في قلة اكتراثي الحد الذي يفوتني فيه مغزى هذه النقيصة في شقيقك أو الذي يجعلني أميل إلى اعتبارها زلة غير ذات بال.

وطفت الغابة أمام ناظريها فوق بحر من الدموع أغرورقت به عيناها، دموع نبعت من بئر غائرة طال انطمارها، وكان قلبها طافحًا بألم ممضٍ لا يجد في تدفقها برءًا...

- إن كل ما أصبو إليه يا مسز باوندربي إنما هو في كلمة واحدة أن أقوِّم أخاك في هذا الشأن. ومعرفتي بظروفه على نحو أتم مما يعرفها هو، ونصحي وتوجيهي سعيًا لإنقاذه - وهي نصائح وتوجيهات تستمد قيمتها فيما أرجو من صدورها من سافل مجال سقوطه أوسع مدى - سيجعل لي بعض التأثير عليه. وكل كسب أحرزه عن هذه الطريق سأسخره قطعًا لتحقيق هذه الغاية. وأخالني قلت ما فيه الكفاية وما فوق الكفاية، وإني لا بد وكأني أقيم الدليل على صلاح حالي، مع أنني قسمًا بشرفي لا أضمر أي نية من هذا القبيل، وأعلن بصراحة أنني لست على شيء من ذلك إطلاقًا.

ورفع عينيه ونظر حوله بعد أن ظل يرقبها بإمعان حتى الآن ثم قال:

- ها هو ذا شقيقك بين الأشجار: ولا بد أنه وصل لتوه وبما أنه فيما يبدو يتجه في تخطره نحونا، فلعل الأفضل أن نسير نحن صوبه فنلقاه في طريقه. وقد عهدته في الفترة الأخيرة كثير الصمت مهمومًا. فعسى أن يكون ضميره الأخوي قد تحرك، إن كان ثمة شيء اسمه الضمير، فإني، بشرفي لكثرة ما سمعت كلامًا عن الضمائر، لا أستطيع أن أُصدق بوجودها.

وساعدها على النهوض، وتناولت ذراعه فسارا للقاء الجرو. وكان يضرب أغصان الأشجار وهو سائر في طريقه على مهل، أو ينحني بدناءة لينتزع الطحلب من الأشجار التي كانت لاصقة بها. وأجفل عندما وصلا إليه وهو منهمك في هذه المسلاة وتغير لونه وتلعثم وهو يقول:

- مرحى! لم أكن أدري أنكما هنا.

فقال مستر هارتهاوس وهو يضع يده على كتفه ويغير له اتجاهه بحيث صارت وجهة ثلاثتهم معًا هي الدار:

- اسم من يا توم الذي كنت تنقشه على الأشجار؟

- اسم من؟ أوه! أتعني اسم أي فتاة؟

- إن لك مظهرًا يبعث على الارتياب بأنك كنت تنقش اسم شخص جميل على لحاء الشجرة يا توم.

- لا شيء من هذا يا مستر هارتهاوس اللهم إلا أن تكون للمخلوقة الجميلة التي قد تهيم بي ثروة طائلة تحت تصرفها شخصيًّا وإلا ففي وسعها أن تكون من قبح الخلقة كفاء ما لديها من ثروة من غير أن تخاطر بفقداني؛ لأني في هذه الحالة أيضًا مستعد أن أنقش لها اسمها قدر ما تريد!

- أخشى يا توم أنك بهذا تكون من المرتزقة.

- من المرتزقة؟ وأين من ليس مرتزقًا؟ سل شقيقتي!

فقالت لويزا:

- هل ثبت لديك إلى هذا الحد أن تلك النقيصة فيَّ يا توم؟

ولم تظهر بأكثر من هذه العبارة تأثرها بسخطه وسوء ظنه، فأجابها في عبوس قائلًا:

- أنتِ أدرى إن كان ذلك مُنطبقًا عليك يا لو. فإن وجدته كذلك فلك أن تحمليه على نفسك.

فقال مستر هارتهاوس:

- إن توم اليوم كاره لبني البشر، وهو أمر يحدث للسأمانين بين حين وآخر فلا تصدقي ما يقوله يا مسز باوندربي، فهو أحجى من هذا وسأفضي بجانب من رأيه فيك كما أعرب لي عنه فيما بيني وبينه ما لم يعدل عن مسلكه هذا قليلًا.

فلان توم متأثرًا بإعجابه بحاميه وقال وهو يهز رأسه مع ذلك في استياء:

- إنك على كل حال يا مستر هارتهاوس لا تستطيع أن تقول لها إنني أثنيت عليها في أي وقت لكونها من المرتزقة، بل إني ربما أثنيت عليها لنقيض ذلك ومستعد أن أُكرر الثناء إذا تكرر منها ما يستوجبه ولكن ما علينا من هذا الآن فالموضوع لا يمكن أن يهمك، ثم إني سئمته.

ومشى الثلاثة قدمًا نحو البيت حيث تركت لويزا ذراع ضيفها ودخلت فظل واقفًا ينظر في أثرها وهي تصعد الدرج ثم يواريها الباب. وعندئذٍ وضع يده مرة أخرى على كاهل شقيقها ودعاه بإيماءة من رأسه للسير في الحديقة قائلًا:

- أريد يا صاحبي اللبيب أن أتحدث إليك قليلًا.

ووقفا وسط مجموعة غير منتظمة من الورود، فقد كان من مقتضيات تواضع مستر باوندربي أن يبقي على أشجار ورد مستر نيكتس في نطاق ضيق، وجلس توم على حاجز الشرفة يقتلع البراعم ويمزقها إربًا، ووقف إلفه القوي مشرفًا عليه وقد وضع قدمه على الحاجز وأسند وجهه على الذراع المعتمد به على ركبته. وكانا في هذا الموضع ظاهرين لمن ينظر من نافذتها، ولعلها رأتهما. وقال مستر هارتهاوس:

- ما المسألة يا توم؟

فقال توم متأوهًا:

- أوه يا مستر هارتهاوس! إني في ضائقة تكاد تزهق روحي.

- وكذلك أنا يا صاحبي.

- أنت! أنت نموذج الاستقلال. أما أنا يا مستر هارتهاوس ففي مأزق فظيع. فلا يمكنك أن تتصور الحالة التي أوقعت نفسي فيها، ولا الحالة التي كان في وسع أختي أن تنتشلني منها لو أنها شاءت ذلك.

وشرع يعض براعم الورد ثم يقطع أوصالها من بين أسنانه بيد مرتجفة كأنها يد شيخ عليل وبعد أن ألقى عليه صاحبه نظرة فاحصة جدًّا ثاب إلى أشد مظاهر استخفافه وقال:

- إنك يا توم عديم التبصر وتتوقع من شقيقتك أكثر مما ينبغي بكثير. لقد حصلت من قبل على نقود منها أيها الكلب، وليس في وسعك أن تجحد هذا.

- ليس في نيتي أن أنكر ذلك يا مستر هارتهاوس، وإلا فكيف كان يمكنني الحصول على المال عن غير طريقها؟ فها هو ذا باوندربي العجوز يتفاخر على الدوام بأنه عندما كان في مثل سني كان يعيش على بنسين في الشهر أو شيء من هذا القبيل وها هو ذا أبي وقد رسم ما يسميه خطًّا واضحًا، ثم شد وثاقي من العنق إلى القدمين منذ طفولتي ليلزمني ذلك الخط وها هي ذي أمي وليس في ملك يمينها شيء خاص بها فيما عدا تشكيها من أوجاعها فماذا يفعل المرء ليحصل على المال؟ وأين أنشده إن لم أنشده لدى شقيقتي؟

وأوشك أن يبكي وهو يبعثر البراعم بالعشرات، فأمسك مستر هارتهاوس بسترته محاولًا إقناعه:

- ولكن أختك يا عزيزي توم لا مال لديها فما...

- لا مال لديها يا مستر هارتهاوس؟ أنا لا أقول إن لديها مالًا، وربما كان ما أحتاج إليه أكثر مما يمكن أن يكون لديها، ولكن في هذه الحالة يجب عليها أن تحصل عليه لأنها تستطيع الحصول عليه. فلا جدوى الآن من التظاهر بإبقاء

المسألة طي الكتمان بعد الذي ذكرته لك بالفعل فأنت تعلم أنها لم تتزوج باوندربي العجوز من أجل نفسها، ولا من أجل خاطره، بل من أجل خاطري أنا... فلماذا إذن لا تحصل منه على ما تريد من أجل خاطري؟ إنها غير ملزمة أن تقول ماذا تصنع بذلك المال، فلديها من الذكاء والحيلة بحيث تستطيع استخراج المال منه إن شاءت فلماذا لا تشاء وقد أخبرتها بمبلغ خطورة الموقف؟ ولكن لا! فهي تجلس في محضره كالحجر بدلًا من أن تتودد إليه فتحصل على المال المطلوب في سهولة ويسر. ولست أدري ماذا عساك أن تسمي هذا المسلك، أما أنا فأسميه مسلكًا غير طبيعي.

وكان تحت حاجز الشرفة مباشرة مسطح من الماء بقصد الزينة، فشعر مستر جيمس هارتهاوس بميل شديد جدًّا إلى الإلقاء بمستر توماس جراد جرايند الصغير في ذلك الماء على نحو ما يهدد رجال كوكتاون الغاضبون بإلقاء ممتلكاتهم في المحيط الأطلنطي. بيد أنه احتفظ بهدوء مسلكه، فلم يتجاوز سور الشرفة الحجري شيء أصلب عودًا من البراعم المتراكمة التي راحت تطفو الآن على وجه الماء في صورة جزيرة صغيرة مسطحة. وقال هارتهاوس:

- دعني يا عزيزي توم أحاول أن أكون لك بمثابة المصرف.

فأجابه توم بحدة:

- لا تجر بحق الإله للمصرفيين على لسانك ذكرًا!

وبدا وجهه شديد الشحوب جدًّا بالقياس إلى الورد.

ولما كان مستر هارتهاوس رجلًا حسن النشأة للغاية، ألف العيش في أحسن المجتمعات فلا يليق به أن يبدي الدهشة - وإلا لكان من اللائق به أن يبدي التأثر - ولكنه رفع جفنيه أكثر من المعتاد قليلًا كأنما شدتهما إلى أعلى بارقة

هينة من العجب، مع أنه مما يتناقض مع تعاليم مدرسته أن يعجب، وهو في ذلك لا يختلف عما تذهب إليه مدرسة جراد جرايند.

- وما هو المبلغ الذي يلزمك حاليًا يا توم؟ ثلاثة أرقام؟ تكلم... قل كم المبلغ؟

فأجاب توم وقد شرع يبكي فعلًا، فكانت دموعه خيرًا من تطاوله، وإن كان مظهره وهو يبكي مدعاة للزراية:

- فات الأوان يا مستر هارتهاوس، لم تعد للنقود جدوى بالنسبة لي في الوقت الحاضر وكان ينبغي كي أنتفع بها أن أحصل عليها قبل ذلك، ولكني مدين لك بالشكر الجزيل، فأنت صديق مخلص حقًّا.

فقال مستر هارتهاوس لنفسه في تراخيه:

- صديق مخلص! يا لك من جرو! بل يا لك من حمار!

وقال توم وهو يقبض على يده:

- وأتقبل عرضك على محمل العطف الشديد، فإنه لعطف شديد منك يا مستر هارتهاوس.

وقال الآخر:

- قد تنفعك النقود نفعًا أكبر في المستقبل القريب، ولو أنك يا صاحبي صارحتني بمآزقك الشيطانية عندما تثقل عليك وطأتها لكان في مقدوري أن أدلك على وسائل للخلاص منها أفضل مما قد يخطر لك أنت.

فقال توم وهو يهز رأسه بأسى ويمضغ البراعم:

- أشكرك، وليتني عرفتك قبل الآن يا مستر هارتهاوس.

فقال مستر هارتهاوس:

- والآن اسمع يا توم (وأخذ يلقي وردة أو وردتين اكتئابًا منه في تكوين الجزيرة التي كانت تجنح باستمرار صوب الجدار كأنها تريد أن تغدو جزءًا من الأرض الصلدة) كل إنسان أناني في كل ما يصنع، وأنا مثل سائر بني جنسي تمامًا في ذلك، وأنا مصر كل الإصرار على أن تلين جانبك لأختك، فلا بد لك من هذا، ومصر على أن تكون لها أخًا أكثر تحببًا واستجلابًا لرضاها، وهذا أيضًا لا بد لك منه.

- وكذلك سأكون يا مستر هارتهاوس.

- والوقت الراهن هو أليق ما يكون بهذا يا توم. فاشرع في ذلك فورًا.

- هذا ما سأفعله قطعًا، وستعترف أختي (لو) بذلك.

فقال هارتهاوس وهو يضربه على كتفه مرة أخرى بشكل أتاح له أن يستنتج - ما استنتجه فعلًا ذلك المغفل المسكين - أن هذا الشرط إنما فرض عليه عن طيبة قلب عفوية بقصد تخفيف ما يشعر به من الشكر:

- أما وقد عقدنا هذه الاتفاقية يا توم فسنفترق الآن إلى أن يحين وقت العشاء.

وعندما ظهر توم قبل العشاء، فإنه وإن بدا مشغول البال جدًّا إلا أن بدنه كان متيقظًا في ترقب وكان ظهوره قبل دخول مستر باوندربي، فقال لأخته وهو يمد إليها يده ويُقبلها:

- لم أكن أقصد الخصام يا لو، فأنت مشغوفة بي، وأنت تعلمين أني مشغوف بك.

وعلى أثر ذلك أشرق وجه لويزا ذلك اليوم بابتسامة صوب شخص آخر. وا أسفاه على أنها كانت صوب شخص آخر!

وقال جيمس هارتهاوس لنفسه وهو يقلب رأسًا على عقب الأثر الذي تركه في نفسه طابع محياها الجميل في أول يوم:

- لم يعد الجرو الإنسان الوحيد الذي تخصه باهتمامها، انقضى استئثاره بها، مضى وانقضى.

الفصل الثامن

انفجار

كان الصباح التالي صباحًا رائقًا لا يستحب فيه النوم، فنهض جيمس هارتهاوس مبكرًا وجلس في النافذة الناتئة اللطيفة بحجرة ثيابه يدخن الطباق النادر الذي كان له تأثير شامل على صديقه الشاب، وراح وهو مسترخٍ في الشمس وعبير غليونه الشرقي عالق به والدخان الحالم يتبدد في الهواء، وقد أفعم الجو ورقت حواشيه بروائح الصيف، يقدر مدى ما أحرزه من تقدم كما يحصي الرابح الخلي مكاسبه. ولم يشعر في هذه الآونة بسأم على الإطلاق، فوجه تفكيره كله إلى ذلك.

لقد أنشأ علاقة مسارة بينه وبينها كان زوجها مقصيًّا عنها، لقد أنشأ علاقة مسارة بينه وبينها تدور رحاها برمتها حول عدم اكتراثها بزوجها وعدم وجود أي تجانس بينها وبينه الآن أو في أي وقت مضى وقد أكد لها بكياسة ولكن بوضوح أنه يعرف حقيقة فؤادها في أخفى وأدق طواياه وقد استطاع أن يقترب منها إلى هذا الحد عن طريق أرق مشاعر هذا الفؤاد فربط بين نفسه وبين هذا الشعور وإذا بالحاجز الذي كانت تعيش خلفه وقد تلاشى. وذلك كله من أعجب العجب، وكله باعث على الرضا.

وهو حتى الآن لا ينطوي على شر جدي، وكان خيرًا للجيل الذي يعيش فيه لو أنه هو والجحفل الذي ينتمي إليه كانوا في سرهم وعلنهم شرارًا بشكل حاسم،

فذلك أدنى للخير من أن يكونوا غير مكترثين عمدًا، فتلك جبال الثلج الطافية تحملها التيارات أي وجهة ذهبت فتحطم السفائن وتغرقها.

إن الشيطان إذ يجوس في صورة الأسد يطلق زئيره أينما حل، فهو إنما يبدو في الصورة التي لا تجتذب إليها إلا أقل القليل من الناس فيما خلا المتوحشين والصيادين. إما وهو مشذب الحواس مصقول العوارض محتفل بزينته على آخر طراز. وإما حين لا يكون لا أرب فيه لفضيلة، ولا أرب فيه لرذيلة لا لبانة فيه لنشوة ولا لبانة فيه لسعير. فسيان استهوته بنت الدن أو أجج نارًا ذات لهب، فهو على الحالين الشيطان المريد.

وهكذا اضطجع جيمس هارتهاوس في شرفته يُدخن في تراخٍ ويحصي الخطوات التي قطعها في الطريق التي اتفق له السير فيها وكانت الغاية التي تفضي إليها أمامه بينة جلية، بيد أنه لم يعنّ نفسه بتقديرات في صددها ففيم الحساب وما في طي الغيب - أيًا كان - ستتكشف عنه الأستار؟

وكان عليه أن يركب إلى مكان بعيد ذلك اليوم حيث (يضطلع) بمناسبة عامة تتيح فرصة لا بأس بها لمناصرة زمرة جراد جرايند، فارتدى ثيابه في ساعة مبكرة ثم نزل ليفطر وكان متلهفًا على أن يرى هل انتكست منذ الأمسية السابقة. ولكن لا، فها هو ذا يتابع خطته من حيث غادرها، فثمة نظرة اهتمام لم تزل موجهة إليه.

وفرغ من مهام يومه على ما يرضيه (قل ذلك الإرضاء أو كثر) في الحدود المتوقعة نظرًا للظروف المتعبة، ثم أفل راكبًا في الساعة السادسة. وأخذ يقطع المسافة التي تقارب نصف الميل فيما بين كوخ الصيد والمسكن بسرعة المشي، راكبًا الهوينا فوق الحصباء الناعمة التي كانت يومًا ما مُلكًا لنيكتس، وإذا بمستر

باوندربي يندفع من بين الشجيرات بعنف بالغ جعل حِصانه يجفل في عرض الطريق، وصاح مستر باوندربي:

- هل بلغك النبأ يا هارتهاوس؟

فقال هارتهاوس وهو يهدئ من ثائرة جواده ويتحف في سريرته باوندربي بتمنيات غير طيبة:

- أي نبأ؟

- إذن أنت لم تسمع!

- بل سمعتك، وكذلك هذه الدابة، ولم أسمع شيئًا سوى هذا.

فنصب مستر باوندربي نفسه وقد اشتدت حمرته وحرارته في منتصف الممر أمام رأس الجواد كي يفجر قنبلته بمزيد من التأثير:

- لقد سُرق المصرف!

- لا أظنك جاد!

- بل سُرق يا سيدي في الليلة الماضية، سُرق بطريقة خارقة للمألوف، سُرق بمفتاح مُزوَر.

- وهل المبلغ المسروق جسيم؟

وبدا مستر باوندربي - في غربته أن يجسم الموضوع إلى أقصى حد - مستاءً جدًّا لاضطراره للإجابة:

- ليس جسيمًا جدًّا، ولكن كان من الممكن أن يكون جسيمًا.

- كم؟

فقال باوندربي وقد نفد صبره:

- أوه! إن كنت مصرًّا على معرفة المبلغ فهو لا يزيد على مائة وخمسين جُنيهًا، ولكن المبلغ ليس هو المهم، بل الحادث. أن يسرق المصرف، ذلك هو العنصر الخطير، وإنه ليدهشني ألا تتبين ذلك.

فقال جيمس وهو يترجل ويسلم عنان جواده إلى خادمه:

- بل إني متبين ذلك بوضوح يا عزيزي باوندربي، وعندي من التفجع ما تحب لي أن أنطوي عليه للصورة المتمثلة لعين عقلي ولكن أرجو أن تأذن لي في تهنئتك، ومن كل قلبي أؤكد لك، على أنك لم تُمن بخسارة أفدح.

فأجابه باوندربي باقتضاب وتجهم:

- شكرًا. ولكن كان من الممكن أن يكون المبلغ عشرين ألف جنيه.

- أظن ذلك كان ممكنًا!

- تظنه ممكنًا! وأيم الله لك أن تظن ذلك!

وراح مستر باوندربي يومئ برأسه في هزات متوعدة شتى وهو يقول:

- كان من الممكن أن يكون أيضًا ضعف العشرين ألفًا، وما من أحد يدري كم كان من الممكن أن يكون أو لا يكون لولا أن السارق رُوِعَ.

وعندئذٍ وصلت لويزا ومسز سبارست وبيتزر فهدر باوندربي:

- ها هي ذي ابنة توم جراد جرايند وهي تعلم أتم العلم كم كان من الممكن أن يكون ذلك المبلغ، إن كنت أنت لا تعلم. لقد خرت مغشيًا عليها يا سيدي كأنما أصابتها رصاصة عندما أخبرتها! وما عهدت عليها شيئًا من ذلك من قبل. ولكنه شيء يذكر لها في رأيي بالثناء في هذه الظروف!

وكانت لم تزل بادية الوهن والشحوب، فرجاها جيمس هارتهاوس أن تعتمد على ذراعه، وأثناء سيرهما ببطء شديد سألها كيف اقتُرفت السرقة، فقال باوندربي وهو يقدم ذراعه في ضيق إلى مسز سبارست:

- سأخبرك أنا، وكنت حريًّا أن أشرع في إخبارك من قبل لو لم تكن مُسرفًا في اهتمامك بالمبلغ. أتعرف هذه السيدة (فهي فعلًا سيدة)... مسز سبارست؟

- لقد حصل لي من قبل شرف...

- حسنٌ جدًّا. وهذا الشاب بيتزر هل رأيته أيضًا في تلك المناسبة عينها؟

فأومأ مستر هارتهاوس برأسه إيجابًا وطرق بيتزر جبهته بأنامله:

- .... حسن جدًّا، وهما يقيمان في المصرف، لعلك تعلم أنهما يقيمان في المصرف؟ حسن جدًّا. وبعد ظهر أمس في ختام ساعات العمل تم ترتيب كل شيء كالمعتاد. وفي الحجرة الحديدية التي ينام هذا الفتى خارجها مبلغ لا يعنينا كم هو، وفي الخزانة الصغيرة في مكتب توم، وهي خزانة مخصصة للمبالغ النثرية، كانت توجد نقود قيمتها نيف ومائة وخمسون جنيهًا.

فقال بيتزر:

- مائة وأربعة وخمسون جنيهًا وسبعة شلنات وبنس واحد.

فقال له باوندربي وهو يتوقف ويستدير صوبه:

- اسمع! أعفنا من مقاطعاتك، وحسبنا منك أن نُسرق وأنت تغط في نومك من فرط الراحة، ولا حاجة بنا إلى تصويباتك بالأربعة والسبعة والواحد. أنا شخصيًّا لم أكن أغط في نومي عندما كنت في سنك، ولم أكن أُصيب من أطايب الطعام ما يكفي للغطيط، ولم يكن كل همي في أن أقول أربعة سبعة واحد.

فطرق بيتزر جبهته بأنامله مرة أخرى في هيئة ذليلة وبدا على الفور متأثرًا بصورة خاصة وحسيرًا للمثل الذي ضربه له مستر باوندربي بتقشفه المعنوي. واستطرد مستر باوندربي:

- نيف ومائة وخمسون جنيهًا، هذا المبلغ من المال كان توم الصغير قد أغلق عليه خزانته... وهي ليست خزانة حصينة جدًّا ولكن هذا لا يعنينا الآن، فكل شيء كان متروكًا على ما يرام. وفي ساعة من ساعات الليل، في حين كان هذا الفتى يغط... لقد قلت يا مسز سبارست يا سيدتي إنك سمعته يغط؟

فأجابت مسز سبارست:

- لا أستطيع يا سيدي أن أقول إني سمعته يغط بالضبط، ولذا لا ينبغي أن أشهد بهذا ولكنه في ليالي الشتاء، عندما يغلبه النوم على منضدته كنت أسمع منه ما أفضل أن أنعته بتحشرج جزئي في التنفس، فكنت في تلك المناسبات أسمعه يُحدِث أصواتًا شبيهة في طبيعتها بما يمكن أن يسمع أحيانًا صادرًا من الساعات الهولندية، وليس معنى هذا (وبدا على مسز سبارست منتهى التدقيق في أقوالها) أنني أجد أي مطعن على صفاته الخلقية، بالعكس، لقد اعتبرت بيتزر على الدوام شابًّا من أكثر الشبان استقامة مبدأ، وهذا ما أريد أن أصب عليه شهادتي.

فقال مستر باوندربي بمنتهى الاهتياج:

- حسنًا! إذن في حين كان هذا الفتى يغط، أو تتحشرج أنفاسه، أو يحاكي الساعات الهولندية، أو هذا أو ذاك وهو نائم توصل بعضهم بطريقة ما إما لأنهم كانوا مختفين من قبل في المبنى، وإما غير ذلك مما سيتعين تقصيه، إلى خزانة توم الصغير واغتصبوها وسلبوا ما كان بها. وروعهم عندئذٍ شيء ففروا متسللين من الباب الرئيسي، ثم أعادوا إغلاقه بدورة مزدوجة من المفتاح (فقد كان مقفلًا

على هذه الصورة والمفتاح تحت وسادة مسز سبارست) وذلك بمفتاح مزور عُثر عليه في الشارع قرب المصرف في نحو الساعة الثانية عشرة ظهر اليوم. ولم يعرف شيء إلى أن نهض هذا الفتى بيتزر في الصباح وشرع يفتح المكاتب ويعدها للعمل، فلما نظر إلى خزانة توم رأى بابها منفرجًا والقفل مغتصبًا والمال مسلوبًا.

فسأل هارتهاوس وهو ينظر حوله:

- وأين توم بهذه المناسبة؟

فقال باوندربي:

- كان مشغولًا بمعاونة الشرطة وتخلف في المصرف. وكم أتمنى لو أن أولئك القوم حاولوا أن يسرقوني عندما كنت في سنه، إذن لمنوا بالإفلاس حتى ولو كان ما وظفوه في هذه العملية ثمانية عشر بنسًا.

- وهل تحوم الشبهة حول أحد؟

فقال باوندربي متخليًا عن ذراع مسز سبارست ليجفف دماغه:

- الشبهة! الويل! إن جوشيا باوندربي من أعيان كوكتاون لا يمكن أن يُنهب من غير أن يشتبه في أحد. كلا وشكرًا!

- وهل يجوز لمستر هارتهاوس أن يسأل عن المشتبه فيهم؟

فقال باوندربي وهو يقف ويتلفت حوله ليواجههم جميعًا:

- سأقول لكم شيئًا، يجب ألا يذكر هذا الموضوع لأي أحد ولا في أي مكان حتى يتخفف الأوغاد (وثمة عصابة منهم) من حيطتهم، فأبقوا المسألة سرًّا (وجفف ستر باوندربي دماغه مرة أخرى) والآن انتظر، ما قولكم... (وهنا انفجر بعنف) في أن تكون لأحد العمال يد في هذا الشأن؟

فقال هارتهاوس بتكاسل:

- أرجو ألا يكون صديقنا بلاكبوت؟

فقال باوندربي:

- قل بول بدلًا من بوت يا سيدي، يكن هو الرجل المقصود.

فقالت لويزا بصوت خافت كلمة تدل على الدهشة وعدم التصديق، فتشبث باوندربي على الفور بما سمع وقال:

- طبعًا، أعلم هذا! أعلمه لأنني تعودت أن أسمع أنهم أرقى أُناس في العالم، فلديهم موهبة الادعاء الكاذب، وكل ما يريدونه هو أن تفسر لهم حقوقهم، ولكني أنا أقول لك أرني عاملًا ساخطًا أُرك رجلًا مستعدًا لأي سوء أيًّا كان.

وهي أسطورة أخرى من أساطير كوكتاون الشائعة التي بذل بعض المجهود لإفشائها وذيوعها، حتى صار بعض الناس يؤمنون بصدقها. واستطرد باوندربي:

- ولكني أعرف هؤلاء الخلق وأستطيع أن أقرأهم كما أقرأ كتابًا مفتوحًا. وإني ألجأ إليك يا مسز سبارست يا سيدتي وأسألك أي تحذير وجهته إلى ذلك الشخص في أول مرة وطئت فيها قدمه البيت عندما كان غرضه الواضح من زيارته أن يعرف كيف يطرح الدين ويلقى أرضًا الكنيسة وأوضاعها المستقرة؟ إنكِ يا مسز سبارست من حيث العلاقات والقرابة العالية تعتبرين في مستوى الأرستقراطية. فهل قلت أو لم أقل لذلك الشخص (أنت لا تستطيع أن تخفي الحقيقة عني، فأنت لست من الطراز الذي أحبه ولن يفضي بك الأمر إلى خير)؟

فقالت مسز سبارست:

- قطعًا يا سيدي، لقد قلت له ذلك بلهجة قوية وحذرته وأرشدته على ذلك النحو.

- ومتى صدمك يا سيدتي؟ متى صدم مشاعرك؟

فأجابت مسز سبارست بهزة انقياد من رأسها:

- أجل يا سيدي كان ذلك منه، وإن كنت لا أعني بذلك أن مشاعري ربما كانت أضعف في هذه المسائل أو أحمق إن شئت التعبير مما كان من الممكن أن تكون عليه لو أنني كنت طول عمري في وضعي الراهن فحملق مستر باوندربي بزهو هائل في مستر هارتهاوس كأنه يريد أن يقول له: (أنا مالك هذه الأنثى، وهي جديرة باهتمام منك فيما أظن)، ثم استأنف كلامه:

- وتستطيع أن تتذكر من تلقاء نفسك يا هارتهاوس ما قلته أنا له عندما وقع نظرك عليه، فلم أترفق به في الكلام، فليس من عادتي أن أتلطف معهم في القول فأنا أعرفهم، وأعرفهم أتم معرفة يا سيدي. وبعد ذلك بثلاثة أيام اختفى عن الأنظار، ذهب إلى حيث لا يدري أحد... على نحو ما اختفت أمي في طفولتي الأولى، ولكن بفارق واحد: أنه أسوأ من أمي، لو أن ذلك في الإمكان وماذا أفعل قبل أن يرحل؟ وما قولك... (وكان مستر باوندربي يضرب على قبعته وهي في يده مع كل قسم من تقسيمات عباراته وكأن قبعته دف...) في أنه شوهد، ليلة بعد ليلة... يُراقب المصرف؟ وما قولك في تسكعه حوله... بعد حلول الظلام؟... حتى إنه خطر لمسز سبارست... أنه يحوم لقصد سيئ... لدرجة أنها لفتت نظر بيتزر إليه... وأخذا كلاهما في مراقبته... ثم اتضح من التحقيق اليوم... أن الجيران أيضًا لاحظوا عليه ذلك؟

ولما وصل مستر باوندربي إلى ذروة كلامه وضع دفه على رأسه كأي راقصة شرقية!

فقال جيمس هارتهاوس:

- هذا شيء مريب بالتأكيد.

فقال مستر باوندربي بإيماءة تحدٍ:

- أظن هذا يا سيدي، أظن هذا ولكن له من القوم شركاء، فثمة امرأة عجوز. والمرء لا يسمع بهذه الأشياء إلا بعد وقوع البلاء، ولا تكتشف شتى صنوف العيوب في باب الحظيرة إلا بعد أن تتم سرقة الجواد. فالآن تبرز في الميدان امرأة عجوز، امرأة عجوز يبدو أنها كانت تحضر إلى البلدة طائرة على يد مكنسة بين حين وآخر. وهي التي راقبت المكان يومًا بأكمله قبل شروع ذلك الشخص في العمل، وفي الليلة التي رأيته فيها تسللت في صحبته وعقدت معه جلسة للتآمر. وأظنها كانت تقدم إليه التقرير عن ختام مهمتها.

وقالت لويزا في نفسها إن شخصًا ينطبق عليه وصف تلك المرأة كان في الحجرة تلك الليلة، وكانت هذه المرأة تتحاشى توجيه الأنظار إليها.

واستطرد باوندربي وهو يهز رأسه هزات كثيرة ذات معانٍ خفية:

- وهذا ليس كل ما نعلمه عن هؤلاء الأشخاص، ولكني قلت الآن ما فيه الكفاية وأرجو أن تتكرموا بإبقاء ما سمعتموه سرًا وألا تفضوا به إلى أحد وقد يستغرق الأمر بعض الوقت، ولكننا سنظفر بهم فمن حسن السياسة أن نرخي لهم من الحبل ما فيه الكفاية، ولا ضير في ذلك.

فأجابه جيمس هارتهاوس قائلًا:

- إنهم طبعًا سينالون أشد العقاب الذي ينص به القانون على حسب توجيهات لجان المراقبة، وهو ما يستحقونه، فمن يقتحمون المصارف يجب أن يتحملوا النتائج. وإن لم تكن ثمة نتائج اقتحمنا جميعنا المصارف.

وتناول مظلة لويزا من يدها بلطف ورفعها لها فوق رأسها فسارت تحت ظلها مع أن الشمس لم تكن ساطعة حينئذٍ. وقال زوجها:

- وفي الوقت الحاضر يا لو باوندربي ها هي ذي مسز سبارست بحاجة إلى الرعاية، فأعصاب مسز سبارست أرهقتها هذه المسألة وستبقى هنا يومًا أو يومين، فاكفلي لها الراحة.

فقالت تلك السيدة الرصينة:

- شكرًا جزيلًا لك يا سيدي. ولكن أرجو ألا تجعل راحتي موضع تكليف، فأي شيء يكفيني.

وسرعان ما اتضح أنه إن كانت هناك نقيصة في ارتباط مسز سبارست بهذه الدار فهي أنها مفرطة في عدم اعتبار نفسها مصدر مضايقة ومسرفة في اعتبار الآخرين مصدرًا للمضايقة، فعندما دلوها على حجرتها بلغ من فرط إحساسها الشنيع بوثارتها أنها لمَّحت إلى تفضيلها أن تقضي الليل على خوان الكي في حجرة الغسيل. أجل إن آل باولر وآل سكادجرز تعودوا الفخامة في المعيشة، ولكن مسز سبارست مغرمة بأن تقول دائمًا في كياسة مترفعة ولا سيما عندما يكون بعض الخدم حاضرين:

- ولكن من واجبي أن أتذكر أنني لم أعد كما كنت فيما مضى. ولو كان في مقدوري أن أُلغي تمام الإلغاء أي ذكرى لكون مستر سبارست من آل باولر، ولكوني منتسبة إلى أسرة سكادجرز، أو لو أنني استطعت إلغاء ذلك الواقع بحيث أجعل من نفسي شخصية من سلالة العامة وذات صلات وقرابات عادية، لفعلت ذلك عن طيب خاطر، فذلك فيما أعتقد هو الصواب على ضوء الظروف القائمة. وكانت هذه الزهادة بعينها تحملها على التخلي عن الأطباق الفاخرة المعقدة والأنبذة على مائدة العشاء إلى أن يأمرها مستر باوندربي بتناولها، وعندئذٍ تقول له:

- ما أطيبك حقًّا يا سيدي!

ثم ترجع عن قرارها الذي أبدته بصورة رسمية علنية (أن تنتظر لحم الضأن البسيط).

وكانت أيضًا تعتذر اعتذارات عميقة إن احتاجت إلى الملح، ولشعورها بوجوب تأييد مستر باوندربي إلى أقصى حد فيما قرره بصدد أعصابها، كانت تضطجع أحيانًا في مقعدها وتبكي في صمت. وعندئذٍ تشاهد قطرة دمع كبيرة الحجم كأنها قرط من البللور (تشاهد أو بالأحرى يجب أن تشاهد لأنها تصر على لفت النظر العلني إلى نفسها) وهي تنحدر على طول أنفها الروماني.

بيد أن أهم ما كانت تُعنى به مسز سبارست أولًا وأخيرًا هو إصرارها على الرثاء لمستر باوندربي، فثمة مناسبة كانت تنظر فيها إليه فتجد من نفسها باعثًا لا إراديًّا إلى تحريك نفسها كمن تريد أن تقول: (واهًا لك أيها المسكين!) وبعد أن تسمح لنفسها بإظهار علائم هذه العاطفة تتكلف الإشراق الفياض وتبدو مرحة كأنها تقول: (لم تزل روحك عالية يا سيدي فإني لسعيدة أن أكتشف هذا) ويلوح عليها أنها تعتبر تجلد مستر باوندربي على هذه الصورة نعمة وبركة تستحقان التهليل. وكان ثمة لازمة شخصية لها كانت كثيرًا ما تضطر للاعتذار عنها وإن وجدت من العسير عليها جدًّا أن تتغلب عليها، وذلك جنوحها العجيب لمناداة مسز باوندربي باسم (مس جراد جرايند). ووقعت في هذا الخلط نحو ستين أو ثمانين مرة خلال تلك الأمسية، وكان تكرر هذه الغلطة يغرق مسز سبارست في الخجل والارتباك، ثم تقول إنه يبدو لها طبيعيًّا أن تدعوها مس جراد جرايند، في حين أن إقناع نفسها بأن السيدة الصغيرة التي أسعدها أن تعرفها منذ طفولتها هي حقًّا وصدقًا مسز باوندربي، فذلك أمر تكاد تجده مستحيلًا. ومن الخصائص العجيبة لهذه الحالة الخارقة للمألوف أنها

كلما فكرت في هذا الوضع زاد إحساسها باستحالته؛ لأن (الفوارق جسيمة للغاية).

وفي حجرة الاستقبال بعد العشاء حقق مستر باوندربي قضية السرقة واستجوب الشهود وسجل مذكرات بالواقعة، ووجد الأشخاص المشتبه فيهم مذنبين وحُكم عليهم بأقصى عقوبة ينص عليها القانون. وما إن فرغ من ذلك حتى صرف بتزر إلى المدينة مزودًا بتعليمات أن يوصي توم بالعودة إلى البيت في قطار البريد.

ولما جيء بالشموع قالت مسز سبارست:

- لا تبتئس يا سيدي أرجوك أن تدعني أراك مرحًا يا سيدي كما تعودت أن أراك.

وبدأت هذه المواساة تحدث أثرها في مستر باوندربي فتجعله عاطفيًّا بطريقة صارخة عنيفة، فتنهد كما يتنهد حيوان ضخم من حيوانات البحر. فقالت مسز سبارست:

- لا يمكنني أن أتحمل يا سيدي رؤيتك هكذا، حاول أن تتسلى يا سيدي بلعبة الضامة كما كان من عادتك أن تصنع عندما كان لي شرف المعيشة تحت سقفك.

- إني لم ألعب الضامة يا سيدتي منذ ذلك الحين.

فقالت مسز سبارست تواسيه:

- لا يا سيدي إني مدركة أنك لم تعد تلعبها، فالآنسة جراد جرايند فيما أذكر لا تهتم بهذه اللعبة. ولكنني سأكون سعيدة يا سيدي إن أنت تنازلت فلاعبتني.

ولعبا بالقرب من نافذة تُفضي إلى الحديقة، وكانت الليلة رائعة، غير مقمرة، بيد أنها رطيبة طيبة العرف. ومشت لويزا ومستر هارتهاوس الهوينا إلى الحديقة وكانت أصواتهما مسموعة في سكون الليل من غير أن يتضح بالضبط ما يقولان، فراحت مسز سبارست من موضعها أمام رقعة الضامة تجرب عينيها بغير هوادة على تبين واختراق الأشباح والظلال في الخارج. فقال مستر باوندربي:

- ما الخبر يا سيدتي؟ لا أخالك ترين حريقًا؟

- أوه، كلا يا سيدي، بل كنت أفكر في الطل.

- وما علاقتك أنت بالطل يا سيدتي؟.

- لا علاقة لي به شخصيًا يا سيدي، ولكن أخاف على الآنسة جراد جرايند أن تصاب ببرد.

- إنها لا تصاب بالبرد مطلقًا.

- حقًا يا سيدي؟

وأُصيب حلقها على الأثر بنوبة سُعال.

ولما اقترب وقت الإيواء للمخادع تناول مستر باوندربي كوب ماء، فقالت مسز سبارست:

- أوه يا سيدي ألم تعد تتناول الشراب الدافئ مع الليمون وجوزة الطيب؟

- لقد أقلعت عن عادة تناوله الآن يا سيدتي.

- وهذا أدعى للأسف يا سيدي؛ فأنت تتخلى عن جميع عاداتك القديمة. استبشر يا سيدي! فإن سمحت لي الآنسة جراد جرايند فأنا مستعدة لصنع هذا الشراب لك كما فعلت كثيرًا من قبل.

وسمحت الآنسة جراد جرايند بكل سرور لمسز سبارست أن تصنع أي شيء تشاء، فقامت السيدة في عنايتها البالغة بإعداد الشراب وقدمته لمستر باوندربي قائلةً:

- سيفيدك كثيرًا يا سيدي، سيدفئ قلبك، فهذا ما أنت بحاجة إليه وما ينبغي أن تتناوله يا سيدي.

ولما قال لها مستر باوندربي: (في صحتك يا سيدتي!) أجابته بحرارة شديدة:

- شكرًا لك يا سيدي، وبالصحة والعافية والسعادة أيضًا!

وأخيرًا تمنت له ليلة طيبة بلهجة حارة، ومضى مستر باوندربي إلى فراشه وهو مقتنع اقتناعًا وهميًّا أن شيئًا ما قد أصاب منه موضعًا حساسًا، وإن لم يستطع ولو كان في ذلك هلاكه أن يقول ما هو.

وظلت لويزا برهة طويلة بعد أن خلعت ثيابها ورقدت وهي ترقب وتنتظر عودة شقيقها إلى البيت وكانت تعلم أن ذلك متعذر قبل الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. وكان الوقت يمر متباطئًا متثاقلًا في صمت الريف الذي لم يكن من شأنه أن يهدئ من ثائرة أفكارها. وأخيرًا وقد تكاثفت الظُلمات والصمت طبقات بعضها فوق بعض ساعات طويلة سمعت جرس البوابة، وشعرت كأنها تتمنى لفرط فرحها برناته أن يستمر حتى مطلع النهار، ولكنها لم تلبث أن انقطعت وتلاشت آخر حلقات الصوت في المدى الرحيب من الهواء وساد الصمت المطبق، وانتظرت قرابة ربع ساعة فيما تراءى لها ثم نهضت واتشحت برداء خفيف وغادرت حجرتها في الظلام وصعدت السلم إلى حجرة شقيقها، فوجدت بابها مغلقًا ففتحته بهدوء، وكلمته وهي تقترب من سريره بخطوة خافتة، وركعت بجوار السرير ووضعت ذِراعها على عنقه وقربت وجهها من وجهه، وكانت تعلم أنه يتصنع النوم، بيد أنها لم تقل له شيئًا بصدد ذلك.

وسرعان ما أجفل كأنه استيقظ في هذه اللحظة فجأة وسأل من هناك وما الذي جرى؟ فقالت له:

- أليس لديك ما تقوله لي يا توم؟ إن كنت قد أحببتني في أي وقت من حياتك وكنت تخفي أي شيء من كل إنسان عداي، فبح لي بذلك الشيء.

- لست أدري ماذا تعنين يا لو أخالكِ كنتِ تحلمين.

فقالت له وهي تضع رأسها على وسادته، فغمره شعرها فكأنما هي تريد أن تخفيه عن كل إنسان عداها:

- يا أخي العزيز، ألديك أي شيء يجب أن تُخبرني به؟ أليس لديك شيء تستطيع أن تقوله لي. إن شئت في وسعك أن تقول لي أي شيء من غير أن يتغير قلبي نحوك، فقل لي الحقيقة يا توم!.

- لست أدري ماذا تعنين يا لو!.

- مثلما ترقد أنت هنا الآن يا عزيزي وحيدًا تحت جنح الليل الحزين، كذلك يجب أن ترقد ذات ليلة في مكان ما عندما أكون أنا حتى ولو كنت يومئذٍ على قيد الحياة بعيدة عنك، ومثلما تراني الآن بجانبك حافية القدم متجردة من ثيابي لا تتبين ملامحي في الظلام، كذلك من الحتم أن أرقد طوال ليل تحللي إلى أن أغدو ترابًا. فباسم ذلك الحين يا توم نبئني بالحقيقة الآن!

- وما الذي تريدين أن تعرفيه؟

وفي فورة حبها ضمته بين أحضانها كأنه طفل صغير وقالت:

- ثق أنني لن أوجه إليك ملامًا، وثق أنني سأواسيك وأُساندك، وثق أني سأنقذك بالغًا ما بلغ الثمن. أوه يا توم، أليس لديك ما تخبرني به؟ اهمس في أذني بصوت خافت جدًّا، لا تقل شيئًا غير بلى، وسأفهمك!

وأدنت أذنها من شفتيه بيد أنه لبث متشبثًا بالصمت:

- أما من كلمة يا توم؟

- كيف أقول لكِ بلى أو أقول لكِ لا وأنا لا أدري ماذا تعنين؟ إنك يا لو فتاة شجاعة حنون جديرة فيما بدأت أعتقد بأخ خير مني، ولكني ليس لدي ما أقوله أكثر من هذا. فاذهبي إلى فراشك، اذهبي إلى فراشك.

فهمست على الفور بلهجة أقرب إلى لهجتها المألوفة:

- أنت متعب؟

- أجل متعب للغاية.

- لقد اشتدت عليك اليوم وطأة الأحداث السريعة، فهل ثمة معلومات جديدة اتضحت؟

- لم نصل إلى شيء سوى ما سمعته... منه.

- هل قلت لأي إنسان يا توم إننا قمنا بزيارة هؤلاء القوم، وإننا رأينا ثلاثتهم معًا؟

- كلا. ألم تدققي على أنك، كي أحتفظ بهذا الأمر طي الكتمان، عندما طلبت مني أن أذهب إلى هناك معك!

- بلى، ولكني لم أكن أعلم عندئذٍ بما سيحدث.

- ولا أنا. وكيف كان في استطاعتي أن أعلم!

وكان رده عليها سريعًا جدًّا، فقالت أخته وهي واقفة بجوار السرير بعد أن انسحبت تدريجًا وانتصبت قائمة:

- هل ينبغي أن أقول بعد الذي حدث إني قمت بتلك الزيارة؟ هل ينبغي أن أقول هذا؟ هل أتكلم؟

- بحق السماء يا لو! ليس من عادتك أن تطلبي مني النصح، قولي ما تشائين. فإن احتفظت بالسر سأحفظه أنا أيضًا، وإن أنتِ أفضيتِ به فالمسألة منتهية.

وكان الظلام أشد من أن يسمح لكل منهما لمشاهدة وجه الآخر. بيد أن كل منهما كان يبدو متيقظًا جدًّا يتدبر كلامه قبل أن ينطق به.

- أتعتقد يا توم أن الرجل الذي أعطيته النقود مشترك حقًّا في هذه الجريمة؟

- لا أدري. ولا أرى ثمة ما يمنعه من ذلك.

- إنه كان يبدو لي رجلًا شريفًا.

- وربما بدا لك شخص غيره غير شريف وهو شريف. وساد الصمت برهة لأنه تردد ووقف ثم استطرد وكأنه قد حزم رأيه على شيء:

- وما دمت قد أثرت هذا الموضوع، أقول لك إنني ربما كنت بعيدًا كل البعد عن النظر إلى هذا الرجل بعين الرضى؛ ولذا أخذته إلى خارج الباب لأقول له بهدوء إنه في اعتقادي ينبغي أن يعتبر نفسه مجدودا جدًّا لحصوله على مثل هذه المفاجأة التي حصل عليها من شقيقتي وإنني أتمنى أن يحسن الإفادة منها وأنت تتذكرين هل أخذته إلى الخارج أم لا ولا أريد أن أقول ضد الرجل شيئًا، فقد يكون شخصًا طيبًا جدًّا، فليس لي بذلك الأمر علم بل أرجو أن يكون كذلك.

- وهل ساءه ما قلته له؟.

- لا، بل تقبله بقبول حسن جدًّا، وكان مهذبًا بما فيه الكفاية أين أنت يا لو (وجلست في فراشه ثم قبلها) طابت ليلتك يا عزيزي، طابت ليلتك!

- أليس عندك ما تقوله لي أكثر من هذا؟

- لا. وماذا يجب أن أقول؟ أتريدينني أن أكذب؟

- ما كنت أريد لك أن تكذب الليلة يا توم من دون جميع ليالي عمرك، التي أتمنى أن تكون كثيرة وأسعد من الليلة.

- شكرًا لك يا عزيزتي لو، إني متعب جدًّا حتى إنني أعجب لماذا لا أقول أي شيء حتى أنام. إلى فراشك!

وقبلها مرة أخرى ودار على نفسه وجذب الأغطية فوق رأسه ورقد ساكنًا كأنما حان ذلك الوقت الذي استحلفته به. ووقفت برهة بجوار الفراش قبل أن تنصرف ببطء، ووقفت عند الباب والتفتت وراءها بعد أن فتحته وسألته هل ناداها، ولكنه ظل راقدًا ساكنًا، فأغلقت الباب بلطف وعادت إلى حجرتها، وعندئذٍ نظر الفتى المنكود، فلما وجدها ذهبت، تسلل من فراشه وأغلق الباب وألقى بنفسه على وسادته وهو يشد شعره ويبكي في حرقة موزعًا بين حبه الكز لها وبين كراهيته وعزوفه غير المجدي عن كل ما في الدنيا من خير.

الفصل التاسع

انفجار

آثرت السيدة سبارست، وهي تلوذ باستعادة هدوء أعصابها في بيت السيد باوندربي الريفي، أن تواصل رقابتها الدقيقة ليلًا ونهارًا من تحت حاجبيها الكثيفين، حتى بدت عيناها أشبه بمنارتين شامختين على ساحل يحيط به سياج حديدي، تحذّران الملاحين الواعين من تلك الصخرة البارزة، أعني أنفها الروماني، ومن تلك المنطقة الوعرة الكالحة التي تليه، لولا ما يشي به مظهرها العام من تواضع مصطنع.

ورغم أنّه كان عسيرًا على المرء أن يصدق أنّ إيواءها إلى الفراش تلك الليلة لم يكن سوى إجراء شكلي، لما بدا في عينيها الكلاسيكيتين من تيقظ حاد ونظرات محدّقة، كما كان يبدو مستحيلًا أن ينقاد ذلك الأنف الصارم لأي مؤثر قد يُحدث فيه شيئًا من الاسترخاء؛ إلا أنّ طريقتها في الجلوس وهي تصلح قفازيها غير المريحَين، بل الخشنَين – وهما مصنوعان من مادة مرطّبة أشبه بخزانات حفظ اللحم – وخفتها في الانتقال إلى مقاصد مجهولة، وقدماها تستقران في ركاب قُطِنِي، كل ذلك كان يدل على طمأنينة كافية، حتى ليخالها من يراها يمامة شاءت لها الأقدار أن تُسجن في هيكل لطائر جارف المنقار.

كانت تلك المرأة عجيبة في قدرتها على التسلل في أرجاء الدار؛ إذ إنّ كيفية تنقّلها من طابق إلى آخر بقيت سرًّا غامضًا استعصى على الفهم. ولسيدة تنضح

ملامحها بذلك الوقار المحتشم، وتستند إلى قرابة رفيعة، لا يُحتمل الاشتباه في أنّها تتسلّق الأفاريز أو تنزلق على الدرج؛ ومع ذلك، كانت خفتها الفائقة في التنقل توحي بمثل تلك الخيالات الجامحة.

وكان من الملحوظ أنّ مسز سبارست لا يُرى عليها قط أثر للعجلة؛ ففي استطاعتها أن تخترق الدار مسرعة من أعلى السقف إلى بهو المدخل، ثم تصل إلى هناك محتفظةً بأنفاسها ثابتةً، ووقارها سليمًا، دون أن يراها أحد قط تخطو بخطى واسعة.

وقد أظهرت ميلًا لطيفًا، مشوبًا بمسحة من التودّد، نحو السيد هارتهاوس؛ إذ تجاذبت معه أطراف الحديث حديثًا هادئًا بعد وصولها بوقت قصير، ثم حيّته بانحناءة مهيبة في الحديقة صباحًا قبل الإفطار، وقالت له:

– يخيل إليّ يا سيدي، وكأنّ الأمس فقط كان يوم تشرفت فيه باستقبالك في المصرف حين تفضّلت بالسؤال عن عنوان منزل السيد باوندربي.

فردّ عليها السيد هارتهاوس، مائلًا برأسه في تكاسل متعمد:

– وهي مناسبة لا ريب أنّها ستظل حاضرة في ذاكرتي ما بقيت الأجيال.

فقالت بصوتها الرخيم، وقد غلّفته بهالة من الوقار وخفْضت حاجبيها بطريقة تضفي صرامةً لم تلغِ رقّة نبرتها:

– إنّنا نعيش يا سيدي في عالم عجيب.

فأجابها، وقد بدا عليه أثر من السأم:

– لقد واتتني في مناسبة سابقة فرصة لإبداء ملاحظة مشابهة لما تقولين في معناها، وإن لم تكن في مثل صياغتك النقدية البارعة.

فاسترسلت تقول، وقد توهجت في عينيها لمعةٌ من حدة الفكر:

– عالم عجيب يا سيدي بما يشهده من صلات وثيقة تنشأ أحيانًا مع أشخاص كنا بالأمس القريب نجهلهم تمامًا. وأذكر أنّك في تلك المناسبة أبديت شيئًا من التهيّب تجاه الآنسة جراد جرايند.

فأجابها هارتهاوس، وقد أضفى على صوته نبرة تملق كسول:

– إنّ ذاكرتك تمنح تافهًا مثلي شرفًا لا أستحقه. وقد أفدتُ كثيرًا من تلميحاتك الكريمة لتصحيح ذلك التهيّب، ولا حاجة للقول إنّ تصويباتك كانت بالغة الدقة؛ فما من شكّ في أنّ موهبة مسز سبارست... أيًّا يكن تعريف هذه الموهبة... إلى جانب سعة عقلها وشرف نسبها... أمرٌ ذائع لا يقبل الجدل.

وقد استغرقه شيء من الفتور والشرود أثناء هذا الثناء، حتى كاد أن يغفو وهو يلفظه، فطال زمن عباراته، إذ كان ذهنه يطوف في مسالك شتى وهو يردد تلك الكلمات.

فسألته مسز سبارست بنبرة مفعمة باللطف والوداعة:

. وهل وجدت الآنسة جراد جرايند . فأنا حقًا لا يسعني أن أسميها مسز باوندربي، وإن كان ذلك تقصيرًا كبيرًا مني .كما وصفتها لك، شابةً يانعة؟

فأجابها:

. لقد رسمتِ صورتها أدق تصوير، فجاءت مطابقة تمامًا للواقع.

فقالت مسز سبارست وهي تلفّ قفازيها واحدًا حول الآخر ببطء وتؤدة:

. إنها جذابة للغاية يا سيدي.

فقال:

. نعم، إلى حدٍّ كبير حقًّا.

قالت مسز سبارست متأملة:

.كان الرأي السائد أن الآنسة جراد جرايند تفتقر إلى حرارة الحيوية، ولكني أقرّ الآن بأنها قد أحرزت في هذا الجانب تقدمًا ظاهرًا باهرًا... آه! وها هو ذا مستر باوندربي!

ونطقت عبارتها الأخيرة وهي تهز رأسها مرارًا، كأنها ما كانت تفكر ولا تتحدث إلا عنه. ثم أردفت تقول في نبرة ودودة:

.كيف حالك اليوم يا سيدي؟ إنا لنرجو أن نراك مبتهجًا مسرورًا يا سيدي.

وكان هذا اللطف الدائم في تسلية أحزانه وتخفيف أعبائه قد أخذ يؤتي ثماره، حتى غدا مستر باوندربي أكثر رقة من عادته نحو مسز سبارست، وأشد قسوة من ذي قبل على سائر من حوله، بدءًا من زوجته نزولًا إلى من دونها. ولهذا، حين قالت مسز سبارست بنبرة يغلفها لطف مصطنع:

. لا بد أنك الآن تود تناول إفطارك يا سيدي، ولكن أعتقد أن الآنسة جراد جرايند ستحضر عما قليل لتشرف على المائدة.

أجابها مستر باوندربي بازدراء:

. إن كان عليَّ أن أنتظر حتى تعنى زوجتي بأمري، فيلزم ذلك كما تعلمين، أن أنتظر إلى يوم القيامة! لذا سأُثقل عليكِ فتقومي بإعداد الشاي.

فأذعنت مسز سبارست، وعادت إلى مجلسها المعتاد إلى المائدة، فزادها ذلك تواضعًا وتوددًا، لكنها ما لبثت أن نهضت حينما أطلت لويزا، متعللة بأنها لا تستطيع قط أن تجلس في ذلك الموضع في مثل هذه الظروف، وإن كان قد تشرّف مرارًا بإعداد إفطار مستر باوندربي قبل أن تحلّ مسز جراد جرايند محلها.

ثم استغفرت قائلة إنها تعني الآنسة باوندربي... واستغفرت مرة أخرى إذ أخطأت أيضًا في هذه المرة ولم تطق أن تنطق بالاسم على وجهه الصحيح، على أمل أن تعتاد الوضع الجديد عما قريب. واسترسلت تشرح أنها ما جلست في ذلك المكان إلا لأن الآنسة جراد جرايند تأخرت قليلًا، ووقت مستر باوندربي ثمين للغاية لا يحتمل التأخير، وأنها تعرف منذ زمن بعيد أن من أخصّ الضرورات أن يتناول إفطاره في موعده المحدد بالدقيقة، ولهذا لم يسعها إلا أن تستجيب لرغبته، إذ كانت إرادته عندها دومًا قانونًا لا يُرد.

فقال مستر باوندربي بنبرة آمرة:

ـ أسمعتِ! ابقي حيث أنتِ يا سيدتي، ابقي حيث أنتِ! فمسز باوندربي – فيما أظن – يسعدها كثيرًا أن تُعفى من هذا العناء.

فأجابته مسز سبارست بنبرة تقترب من الحدة:

ـ لا تقل هذا يا سيدي، ففيه ظلم شديد لمسز باوندربي، وأنت أبعد الناس عن القسوة في أحكامك.

فعاد مستر باوندربي يوجه كلامه إلى زوجته بلهجة صاخبة:

ـ اطمئني يا سيدتي... إنكِ تتقبلين الأمر بهدوء، أليس كذلك يا لو؟

فقالت لويزا بفتور:

ـ أجل، ليس في الأمر ما يستحق الاهتمام. فلماذا أهتم أصلًا؟

فتناول مستر باوندربي الكلام باستخفاف بالغ:

ـ ولماذا يهتم أحد بمثل هذا يا مسز سبارست؟ إنكِ يا سيدتي تُضفين على هذه الأمور قدرًا من الأهمية أكثر مما ينبغي. ولسوف يُصدم جانب من

معتقداتك، وأقسم أن السبب أنكِ تنتمين إلى الطراز القديم، ولهذا فأنتِ متأخرة عن زمن أبناء توم جراد جرايند.

فقالت لويزا بدهشة فاترة:

ـ ما بالك؟ ما الذي أغضبك؟

ـ أغضبني! وهل تظنين أنني لو غضبت حقًّا لبقيت صامتًا دون أن أصرّح بما أغضبني وأطالب بتعديله؟ أظنني رجلٌ صريح لا يجيد المداراة.

فردّت لويزا برصانة:

ـ لا أعتقد أنّ أحدًا خطر له يومًا أنك تخشى التصريح أو تفرط في الترفّق. لم يخامرني هذا الظن بك لا في صغري ولا بعدما كبرتُ، غير أني لا أفهم ما الذي تريد أن تصل إليه.

ـ أريد! لا شيء أريده. ثم هل تعلمين تمام العلم يا لو باوندربي أنّني أنا جوشيا باوندربي من أعيان كوكتاون، فمن أين لي أن أبتغي شيئًا؟

وكانت تنظر إليه وهو يضرب المائدة فتُرنّ فناجين الشاي رنينًا خفيفًا، وقد بدا على ملامحها مسحةُ تعالٍ رقراق، الأمر الذي لاحظه مستر هارتهاوس وأحسّ فيه تغيّرًا طارئًا في قسماتها. فقالت:

ـ إنك تبدو غامضًا هذا الصباح.

ـ أرجو ألا تكلفي نفسكِ عناء توضيح مقصدي، فليست لي رغبة في معرفة ما تعنينه. فما لذلك من أهمية!

وتوقف الحديث عند هذا الحدّ، وسرعان ما بدا مستر هارتهاوس منهمكًا في حديث آخر، خفيف الظلّ لا يكاد يُؤبه له. غير أنّ ذلك اليوم خلّف في نفس مسز سبارست أثرًا عميقًا، حتى إنه رسّخ الصلة بين لويزا وجيمس هارتهاوس،

وزاد المسافة الخطرة التي تباعد بينها وبين زوجها، حتى صارت تبوح لرجلٍ غيره بما ضاق به صدرها. وهي منزلقات انزلقت فيها رويدًا رويدًا، لا يُدرى أكانت تحاول الفكاك منها أم استسلمت لها؛ إذ ظلّ هذا السر مطويًّا في صدرها لا يطّلع عليه أحد.

وكان تأثر مسز سبارست في تلك المناسبة بالغًا إلى حدٍّ كبير، حتى إنها بعدما ناولت مستر باوندربي قبعته في البهو إثر الإفطار، وكانت معه على انفراد، رفعت يده إلى شفتيها فطبعت عليها قبلة طاهرة، وقالت بصوت خفيض يخالطه التأثر: «يا ولي نعمتي!» ثم انسحبت تغالب دموعها.

غير أنّ ما يرويه التاريخ بصدق لا ريب فيه، هو أنه بعد خروجه من المنزل بخمس دقائق فحسب مرتديًا تلك القبعة بعينها، عادت مسز سبارست – تلك السيدة التي تنحدر من سلالة آل سكادجرز وترتبط بالمصاهرة بآل باولر – فهزّت قفاز يدها اليمنى في وجه صورته المعلّقة على الجدار، وقلبت ملامحها بازدراء نحو ذلك الرسم قائلةً في سرّها:

- هذا ما جنيته على نفسك أيها الأحمق... وكم أنا شامتة!

ولم يطل الوقت على انصراف مستر باوندربي حتى جاء بيتزر، وقد حضر بالقطار الهادر الذي يشق تلك الأقواس الطويلة المشيدة، عابرًا البراري المزدحمة بمناجم الفحم القديمة والجديدة، حاملاً رسالة عاجلة من ستون لودج إلى لويزا، يخبرها فيها بأن مرض السيدة جراد جرايند قد اشتد، إذ لم تكن صحتها منذ أن وعت ابنتها مستقرةً أبدًا، غير أنها في الأيام القليلة الماضية ازدادت وهنًا وتدهورًا، حتى انحدرت حالتها طَوال الليل إلى دركٍ خطيرٍ، وصارت الآن على شفا الموت، بقدر ما تحتمل قواها الضئيلة من قرب إلى هذا المصير المحتوم.

فأسرعت لويزا إلى كوكتاون يصحبها هذا الساعي الشاحب اللون، الذي بدا مرافقًا ملائمًا في مشهدٍ تقف فيه السيدة جراد جرايند على أعتاب الموت. واخترقت بعربتها حُفَر المناجم القديمة والجديدة، حتى بلغت قلب المدينة الكئيب الذي يلفظ الدخان في فكيه الحديديين، ثم صرفت الرسول إلى وجهته ويممت صوب بيتها القديم، ذاك البيت الذي لم تزره إلا لمامًا منذ زواجها. فقد كان أبوها في الغالب مشغولًا في لندن يغربل أكوام الرماد البرلماني، دون أن يُرى له صيد ثمين بين ركام النفايات الوطنية، وأمها كانت ترى في تلك الزيارات عبئًا يُثقل استرخاءها المستديم فوق أريكتها، أما إخوتها الصغار فلم تجد في نفسها انسجامًا معهم، ولم تهنأ روحها منذ تلك الليلة التي رفعت فيها سيسي ابنة الأفاق عينيها إلى سيدة باوندربي المنتظرة، فغدا الرجوع إلى ذلك البيت قليل الداعي، فلا أغراها إليه شوق ولا ألجأها إليه ظرف.

ولم تشعر وهي تقترب الآن بأي نسيم من عبق الذكريات الذي تألفه القلوب حين تعود إلى بيوت الطفولة الأولى؛ تلك البيوت التي تأوي في جنباتها أحلام الصغر، وأساطير الخيال الموشاة بصور جميلة وشفيفة لعالمٍ لا يُرى بالعين، عالمٍ قد يُستحيل الإيمان به، غير أن النفس تطيب لها هذه الأوهام حينًا، وتهتدي بها ذكرى حين تغدو عاقلة؛ إذ حتى أبسط تلك الأحلام يزهر في القلب، ويغدو مصدر رحمةٍ بالغة تنادي الأطفال ليأتوا إليه، فيزرعوا بأناملهم الطاهرة جنةً وسط دروب الدنيا الصخرية، فتشرق في هذا القلب شمسٌ من الأنس والطمأنينة، بعيدًا عن غوائل الدنيا وشرورها. ولكن... ما شأنها هي بمثل هذه الأحلام؟! إن ذكريات رحلتها مع الطفولة إلى تلك الطرق المسحورة التي يتمناها الملايين من الأبرياء، وذكريات نشأتها تحت نور الخيال الذي يُصور للعقل أنه سيد رحيمٌ يخضع لآلهة أعظم منه، لا مجرد صنمٍ غليظٍ قاسٍ مكبَّلٍ يحدق

بعينين غافلتين لا تُحركهما سوى أطنان من حصيلة الرافعات... كل ذلك ما شأنها به؟! لقد كانت ذكرياتها عن البيت والطفولة ذكرى جفاف كل ينبوع من ينابيع قلبها فور نبوغه، فلا نهر ذهبي هناك يروي، ولا تدفق يخصب أرضًا يُنتظر منها عنبًا أو تينًا، إنما هي أرضٌ لا تنبت إلا شوكًا وعوسجًا.

وبقلبٍ مثقلٍ بحزنٍ صلدٍ دخلت البيت ثم ولجت حجرة أمها، حيث كانت سيسي، منذ رحلت لويزا عن الدار، تعيش مع بقية الأسرة على قدم المساواة، فوجدتها جالسةً إلى جوار الأم، وكانت جين أختها، التي غدت في العاشرة أو الثانية عشرة، حاضرةً كذلك. واحتاج الأمر إلى جهدٍ كبير حتى تدرك السيدة جراد جرايند أن كبرى بناتها أمامها؛ إذ كانت مضطجعةً نصف جالسةٍ كعادتها لا أكثر فوق فراشٍ لا تكاد تتغير وضعيته، وإن كان مثل هذا الجسد الذي لا حياة فيه إلا لمامًا يستطيع أن يثبت على حال. وقد رفضت بعنادٍ أن تلزم سريرها بدعوى أن في ذلك إشارةً إلى ما لا تُريد له أن يأتي. وكان صوتها الخافت الواهن يأتي كأنه من مكانٍ بعيدٍ جدًا، من جوف لفائفها الثقيلة، وكأن كل صوتٍ يُخاطبها يحتاج زمنًا طويلًا حتى يبلغ سمعها، حتى ليُخيَّل للمرء أنها غارقةٌ في قاع بئر. وقد كانت، في هذه الساعة، أقرب ما تكون إلى الحقيقة من أي وقتٍ مضى... وهذه كانت حالةٌ لها مغزاها العميق.

ولما أُخبرت أنّ مسز باوندربي حاضرة، أجابت وقد ارتبك ذهنها وأعوزها التمييز، بأنها لم تُسمّه بهذا الاسم منذ اقترن بلويزا، وأنها، إذ رأت في تلك التسمية ما لا يلائمها، آثرت أن تناديه بالحرف «ج» (تعني جوشيا)، ولم تستطع حتى الآن أن تجد بديلاً ثابتًا لهذا الاسم، فلم تخرج عن تلك الخطة. وكانت لويزا قد جلست إلى جوارها بضع دقائق، تُكلمها وتعيد الكلام، حتى تراءى لها أنها عرفت من هي، ثم بدا أنها استوعبت الأمر بغتة، فقالت:

– حسنًا يا عزيزتي، أرجو أن تكون أحوالك سائرةً كما تشتهين. لقد كان أبوك هو الذي دبر هذا كله، وسعى له، وهو أدرى بما يصلح.

– إنما جئت أسأل عنكِ أنتِ يا أمي، لا عني.

– تسألين عني يا عزيزتي؟ هذا أمرٌ جديدٌ في يقيني؛ إذ ليس هناك من يهتم بحالي. لستُ على ما يرام يا لويزا، أشعر بضعفٍ شديد ودوارٍ متصل.

– وهل يؤلمكِ شيءٌ يا أمي العزيزة؟

– أظن أن في الحجرة ألمًا ما، ولكني لا أستطيع أن أقول بيقينٍ إنه فيَّ.

وبعد هذه المحادثة العجيبة، رقدت صامتةً برهة، ولويزا تمسك بيدها فلا تكاد تشعر بنبض، لكن لما طبعت قبلةً عليها، أحست بخيطٍ دقيقٍ جدًا من الحياة يختلج فيها. ثم قالت مسز جراد جرايند:

– قلّما ترين أختكِ يا لويزا، إنها تقترب منكِ في الشبه وهي تنمو، أتمنى أن تنظري إليها. هاتيها إلينا يا سيسي.

فجِيءَ بها، ووقفت ويدها في يد أختها. وكانت لويزا قبل ذلك قد رمقتها وهي تضع ذراعها حول عنق سيسي، فشعرت بالفرق بينها وبينها.

– أرأيتِ الشبه يا لويزا؟

– نعم يا أمي، أظن أنها تشبهني، ولكن...

فصاحت مسز جراد جرايند بصوتٍ بدا فيه شيءٌ من المفاجأة:

– إه؟ نعم، هذا ما أقوله دومًا، وهذا ما ذكّرني... إني... إني أريد أن أحدثكِ يا عزيزتي، دعينا وحدنا يا سيسي لحظة.

وتخلّت لويزا عن يد أختها، وفي خاطرها أن وجه أختها أكثر إشراقًا وجمالًا مما كان وجهها هي في أي يومٍ مضى، ورأت فيه، رغم شعورها المتزايد بالضيق حتى في هذا المكان وهذه الساعة، شيئًا من الرقة والوداعة التي بدت أيضًا في ذلك الوجه الآخر في الغرفة: وجه سيسي الهادئ، ذو العينين الواثقتين، والذي زاده السهر والمواساة شحوبًا على شحوبه، وذلك الشعر الأسود الغزير.

ولما خلا الجو بينهما، أبصرت لويزا أمها مستلقيةً في وهنٍ مخيف، كأنما تُسلم جسدها لتيار بحرٍ عظيم، وقد سكنت كل مقاومةٍ فيها واستسلمت للمد والجزر. فرفعت تلك اليد الواهنة، كيد طيفٍ باهت، إلى شفتي ابنتها، ثم نادتها:

– كنتِ تريدين أن تحدثيني يا أمي.

– إه؟ نعم، يا عزيزتي، بكل تأكيد. تعلمين أن أباكِ يقضي الآن معظم وقته في أسفاره، فينبغي أن أكتب إليه بهذا الشأن.

– بأي شأنٍ يا أمي؟ لا تنفعلي... بأي شأن؟

– لعلكِ تذكرين يا عزيزتي، أنني كلما قلت شيئًا في موضوعٍ ما، لم يكن لما أسمعه بعد ذلك نهاية، ولهذا صرت منذ زمنٍ بعيدٍ لا أقول شيئًا.

– ولكني أسمعكِ يا أمي.

غير أن تلك الكلمات الواهنة المتهدّجة لم تستطع لويزا أن تُمسك بخيطها إلا بأن تنحني فوق أذنها، وتراقب شفتيها وهما تتحركان في آنٍ واحد، حتى قالت أمها:

– لقد تعلمتِ أنتِ يا لويزا وأخوكِ أشياء كثيرة، تعلمتما شتى العلوم صباح مساء، وإن كان ثمة علمٌ في هذا البيت لم يُمزق إربًا، فكل ما أتمناه ألا أسمع باسمه أبدًا.

فقالت لويزا لتُبعدها عن شرودها:

– إني أسمعكِ يا أمي، تكلمي متى وجدتِ القدرة على الكلام.

. ولكن هناك أمرًا يا لويزا، ليس علمًا بالمعنى الذي نعرفه، وإنما شيء فاته والدك أو لعله نسيه، ولا أدري ما هو على وجه التحديد. كثيرًا ما جلست أفكر فيه وإلى جواري سيسي، ولم أستطع أبدًا أن أهتدي إلى اسمه، لكن والدك ربما يعرفه، وهذا ما يشغل خاطري ويقلقني. لذا أريد أن أكتب إليه عساه أن يدرك، بحق السماء، ما أعنيه. أعطني قلمًا... أعطني قلمًا.

غير أنّ وطأة القلق نفسه كانت قد بدأت تخفّ عنها، فيما عدا رأسها الذي راحت تحرّكه من جانب إلى جانب. وخُيّل إليها أنّ طلبها قد أُجيب، وأن القلم الذي لم تكن لتملك القوة للإمساك به قد صار بين يديها، لكن لا طائل من وراء تلك الخطوط المبهمة التي راحت تخطّها فوق أوراقها. فما لبثت يدها أن توقفت، وخفت النور الذي طالما بدا ضعيفًا شاحبًا خلف شفافية بنيتها، ثم انطفأ تمامًا.

وهكذا برزت مسز جراد جرايند من طوايا الظلمة، تلك الظلمة التي يجوس فيها المرء سعيًا عبثًا وراء أسرار حياته، وقد أضفت عليها المهابة المهيمنة على وجوه الحكماء والآباء القديسين، مسحةً من رهبةٍ وصمتٍ مهيب.

الفصل العاشر

سلم مسز سبارست

لما كانت أعصاب مسز سبارست مبطئة في استعادة حالتها العادية، فقد أقامت المرأة الفاضلة بضعة أسابيع تِباعًا في بيت مستر باوندربي الريفي على ما في ذلك من تعارض مع اتجاهها العقلي إلى النسك إلى أساس من إحساسها الرشيد بتغير وضعها، فوطنت نفسه بجلد نبيل على الإقامة - كما يقولون - في الرخاء والتنعم والاقتيات بأطايب الطعام، وطوال فترة استراحتها هذه من الوصاية على المصرف، كانت مسز سبارست نموذجًا للمثابرة، فواصلت رثاءها لحال مستر باوندربي في مواجهته بصورة نادرة المثال، وواصلت أيضًا نعت صورته بالفدامة في مواجهتها بأشد اللهجات جفوة وزراية. ولما كان مستر باوندربي قد تغلغل في كيانه المتفجر اعتقادًا بأن مسز سبارست امرأة ذات امتياز فائق ما دامت قد أدركت أنه يحمل ذلك الصليب العام على ظهره في فلواته (فهو لم يستقر بعد على كنهه) وأن لويزا كانت حرية أن تعترض على كثرة زيارتها لو أنه كان مما تطيقه عظمته أن يسمح لها بمعارضة أي شيء يتراءى له أن يصنعه، فقد تقرر ألا تغيب مسز سبارست عن نظره بسهولة، فلما انتظمت أعصابها إلى الدرجة التي تسمح لها من جديد بإلتهام أطايب اللحم في عزلتها، قال لها على مائدة العشاء في اليوم السابق لرحيلها:

- اسمعي يا سيدتي، ستأتين إلى هنا كل يوم سبت ما بقي الجو رائقًا وتظلين إلى يوم الإثنين.

فأجابته مسز سبارست (سمعًا وطاعة).

ولم تكن مسز سبارست ذات شاعرية، بيد أنها وضعت في ذهنها فكرة من قبيل الخيالات المجازية ولا بد أن إدمانها مراقبة لويزا وتعقب سلوكها المستغلق بالملاحة قد شحذا وأرهفا إحساس مسز سبارست فأدى ذلك إلى النهوض بها في طريق الإلهام، فأقامت في ذهنها سلمًا هائلًا تقع في أسفله هاوية مظلمة من مهاوي العار والدمار وصارت ترى لويزا وهي تهبط هذا السلم يومًا في إثر يوم وساعة تلو ساعة وصار شغل مسز سبارست الشاغل أن تتطلع إلى سلمها وترقب لويزا وهي تهبطه مبطئة أحيانًا، مسرعة أحيانًا أخرى، وبضع درجات تارة، وتارة أخرى تكف عن الهبوط. بيد أنها لا تعود أدراجها بتاتًا، ولو أنها تراجعت ولو مرة واحدة لكان في ذلك القضاء على مسز سبارست كآبة وغمًا.

وكان هبوطها ثابتًا حتى ذلك اليوم وفي ذلك اليوم الذي أصدر فيه مستر باوندربي دعوته الأسبوعية المشار إليها آنفًا، لذا كانت مسز سبارست منشرحة الصدر ميالة لتجاذب الحديث، فقالت:

- من فضلك يا سيدي، إن كان لي أن أجترئ بالسؤال في أي موضوع تبدي بصدده تحفظًا - وهو ما يعد جسارة مني حقًّا لأنني أعلم أن لديك أسبابًا وجيهة لكل ما تقدم عليه من الأعمال - فهل تلقيت أنباء بخصوص حادث السرقة؟

- كلا يا سيدتي، ليس بعد. وفي الظروف الحالية لم أكن أتوقع أنباء. وروما لم تشيد في يوم واحد يا سيدتي.

فقالت مسز سبارست وهي تهز رأسها:

- هذا صحيح جدًّا يا سيدي.

- ولا في أسبوع واحد يا سيدتي.

فأجابت مسز سبارست في أسى وجيع:

- هذا صحيح يا سيدي.

- وكذلك أنا يا سيدتي في وسعي أن أنتظر، فلئن استطاع روميلوس وريموس أن ينتظرا، ففي استطاعة جوشيا باوندربي أن ينتظر وقد كانا أيسر حالًا في شبابهما مما كنت أنا. مرضعهما كانت ذئبة، أما أنا فالذئبة كانت جدتي، ولم تكن تجود عليَّ باللبن يا سيدتي بل بالكدمات فقد كانت تضارع في هذه الصفة جزيرة ألدرني.

وتنهدت مسز سبارست وارتجفت وهي تقول:

- (آه)!

واستطرد:

- كلا يا سيدتي، لم أسمع شيئًا أكثر مما عرفناه سابقًا، والمسألة في اليد على كل حال. وتوم الصغير الذي يبدي الآن اهتمامًا بالعمل - وذلك شيء جديد بالنسبة له لأنه لم يتلق التعليم الذي تلقيته أنا - يعاون في البحث. ووصيتي هي (إلتزم الهدوء ودع المسألة تبدو وكأنها طويت. واصنع ما شئت في الخفاء ولكن لا تدع شيئًا ينم على نيتك، وإلا تضامن نصف مائة منهم فيما بينهم وأبعدوا ذلك الشخص الذي فرَ عن متناول يدك إلى الأبد. احتفظ بهدوئك وصحتك فيستشعر اللصوص الطمأنينة رويدًا رويدًا ونظفر بهم).

- هذه منتهى الحصافة حقًّا يا سيدي، والعجوز التي أشرت إليها يا سيدي...

فقاطعها مستر باوندربي لأن المسألة لا تدعو للفخر:

- العجوز التي أشرت إليها يا سيدي لم يلق القبض عليها، ولكن لا مناص من ذلك، ولها أن توقن منه إن كان ذلك مما يريح عقلها العتيق الشرير. وحتى ذلك الحين يا سيدتي من رأيي، إن سألتني عن رأيي، أنه كلما قل الكلام عنها كان ذلك أفضل.

وفي هذه الأمسية نفسها عندما كانت مسز سبارست مطلة من نافذة حجرتها لتستريح من عمليات حزم أمتعتها، راحت تنظر صوب سلمها الكبير فرأت لويزا مستمرة في الهبوط، فقد كانت جالسة بجوار مستر هارتهاوس في خلوة بالحديقة يتحدثان بصوت منخفض جدًّا، وهو منحن في وقفته عليها أثناء تهامسهما فيكاد وجهه يلامس شعرها، فقالت مسز سبارست (كأن قد!) وهي تجهد عيني الصقر في رأسها إلى أقصى مدى، فقد كانت أبعد من أن تسمع كلمة من حديثهما، أو تعرف ماذا يقولان بهذا الخفوت إلا عن طريق تعبير شكليهما، ولكن ما كانا يقولان هو هذا:

- أتتذكر الرجل يا مستر هارتهاوس؟

- أوه، تمامًا!

- وجهه وهيئته وما قال؟

- تمامًا، وقد بدا لي شخصًا كئيبًا للغاية، مسهبًا مملًّا إلى أقصى حد. ومن المعروف أن الإطناب في الحديث من سمات مدرسة الفضيلة المتواضعة في الفصاحة ولكني أؤكد لك إني قلت في نفسي حينئذٍ (إنك يا صاحبي قد تجاوزت في ذلك كل حد!).

- لقد شق عليَّ جدًّا أن أظن السوء بذلك الرجل - يا عزيزتي لويزا - كما يقول توم (وهو ما لم يقله إطلاقًا) ألا تعرفين عنه ما يسوء؟

- كلا بالتأكيد.

- ولا عن أي شخص آخر.

فأجابت وعلى محياها من هيئتها الأولى أكثر مما رآه عليها في الأيام الأخيرة:

- وأنَّى لي أن أعرف شيئًا عنهم وأنا لم أعرف أحدًا منهم رِجالًا أو نساءً؟

- إذن تفضلي يا عزيزتي لويزا بتقبل تصور صديقك المخلص الذي يعرف جانبًا من شتى صنوف رفاقه الممتازين في البشرية - فهم ممتازون فيما أعتقد طائعًا على الرغم من نواحي ضعفهم الهينة من قبيل إيثار أنفسهم دائمًا بما تصل إليه أيديهم. وهذا الشخص يتكلم، ولا بأس فكل شخص يتكلم، وهو يبشر بمحامد الأخلاق، ولا بأس فكل ضروب الدجالين يبشرون بمحامد الأخلاق، وابتداءً من مجلس العموم إلى الإصلاحيات نجد تبشيرًا عامًّا بمحامد الأخلاق اللهم إلا بين ظهراني قومنا. وهذا الاستثناء هو الذي يجعل قومنا مؤنسين. وقد رأيت وسمعت القضية فإذا رجل من تلك الطبقات المنتفشة على خواء وقد أوقفه عند حده بحزم صارم صديقنا المحترم مستر باوندربي الذي لا يتمتع كما نعلم بالكياسة التي تهدئ ثائرة عامل متشدد على هذا النحو. وشعر هذا العضو المنتمي إلى الطبقات المنتفشة على خواء أنه أهين فطاش حلمه وغادر البيت مزمجرًا والتقى بشخص عرض عليه أن يسهم بنصيب في مسألة المصرف هذه، فانضم إليه ووضع شيئًا في جيبه الذي لم يكن فيه من قبل شيء واطمأن باله غاية الاطمئنان قد كان حريًّا حقًّا أن يكون شخصًا غير عادي، لو أنه لم يهتبل مثل هذه الفرصة، أو لعله هو الذي فكر في هذه المسألة أصلًا إن كانت لديه البراعة الكافية.

فأجابت لويزا بعد أن جلست تفكر برهة:

- أكاد أشعر كأني أقترف ذنبًا باستعدادي للاتفاق معك في الرأي كي أخفف العبء عن قلبي بما تقول.

- إنما أقول المعقول. ولا أقول ما هو أسوأ وقد تحدثت في هذا الموضوع مع صديقي توم أكثر من مرة - فأنا طبعًا لم أزل على صلات حميمة للغاية مع توم - وهو متفق معي في الرأي، وأنا متفق معه في رأيه، ألا تسيرين؟.

وسارا الهوينا مبتعدين بين الممرات التي أخذ الغسق يطمس معالمها وهي متكئة على ذراعه، ولم يخطر ببالها كيف كانت بذلك تهبط وتهبط وتهبط في سلم مسز سبارست.

وقد أبقت مسز سبارست سلمها قائمًا بالنهار والليل، ومتى وصلت لويزا نهايته وابتلعتها الهوة، ففي وسعه أن ينهار فوقها حيث استقرت، أما قبل ذلك فلا بد له أن يظل قائمًا كالبنيان أمام ناظري مسز سبارست وأن تظل لويزا فوقه دوامًا، وأن تنزلق دوامًا أيضًا وتنحدر هابطة هابطة هابطة!

وكانت مسز سبارست ترى جيمس هارتهاوس غاديًا ورائحًا، وتسمع أنباءه هنا وهناك، وترى ما يعتري الوجه الذي درسته من تغيرات، فهي أيضًا تفطن بمنتهى التدقيق إلى تلبد ذلك الوجه متى وكيف يحدث، وإلى إشراقه متى وكيف يكون، فهي تفتح عينيها السوداوين على سعتهما من غير أن يلم بها طائف من رحمة أو تنتابها إثارة من وخز الضمير وها هي مستغرقة في اهتمامها بأن تراها وهي تقترب دومًا من قاع ذلك السلم الخرافي المهلك، وما من يد تمتد لاستبقائها.

وعلى احتفالها الشديد بمستر باوندربي، ذلك الاحتفال المناقض لمسلكها نحو صورته، لم تكن لدى مسز سبارست أوهى نية لإيقاف ذلك الهبوط، فهي متلهفة على تمامه، بيد أنها تتذرع بالصبر في انتظار السقطة الأخيرة، مثلما

تنتظر النضج والاكتمال لحصاد آمالها. وهي في توقعها الصموت معلقة الأنظار في محاذرة بالسلم وقلما كانت تذهب إلى حد التلويح في عملية الحقد بقفازها الأيمن (وفي داخله قبضتها) في وجه الصورة الهابطة.

الفصل الحادي عشر

مزيد من الهبوط

ظلت الصورة تهبط السلم الكبير قُدُمًا قُدُمًا، جانحة على الدوام، كأنها جسم ثقيل في ماء غمر، نحو الهاوية المظلمة عند قاعدة السلم.

وعندما أخطر مستر جراد جرايند بوفاة زوجته حضر من لندن ودفنها، وكأنه يؤدي مهمة من مهام أعماله ثم عاد على عجل إلى كومة الرماد اليومية واستأنف هناك غربلته؛ بحثًا عن أشتات التوافه التي ينشدها، مذريًا الغبار في عيون سواه ممن ينشدون أطرافًا أخرى من توافه أشتات، أي مستأنفًا في الواقع واجباته البرلمانية.

وفي تلك الأثناء كانت مسز سبارست ساهرة لا تطرف عيناها غير وانية عن المراقبة والحراسة، فلئن أبعدت عن سلمها طوال الأسبوع بما يفصلها عنه من طريق حديدية تفرق بين كوكتاون والبيت الريفي، فهي تواصل مع ذلك مراقبتها - وكأنها الهرة! - للويزا، عن طريق زوجها، وعن طريق أخيها، وعن طريق جيمس هارتهاوس، وعن طريق السطوح الخارجية للخطابات واللفافات البريدية، وعن طريق كل شيء حيًّا كان أو جمادًا يقترب في أي وقت من السلم. وكانت توجه الخطاب إلى الصورة الهابطة فوقه متعينة بتلويح الوعيد من قفازها قائلة:

- متى وطئت قدمك الدرج الأخير يا مولاتي فلن يجديك افتنانك في التمويه شيئًا في التعمية عليَّ!

وسواءً كان ذلك افتتانًا في التعمية أو فطرة فيها، فإن التكوين الأساسي لطبع لويزا، أو قل وقع الظروف المستتر على ذلك التكوين قد استغلق بسبب ما فيها من احتجاز عجيب على شخص هو صمو مسز سبارست في حصافتها في الوقت الذي كان فيه ذلك الاحتجاز العجيب مبعث استثارة له، فمستر هارتهاوس كانت تمر به أوقات يتزعزع فيها يقينه في شأنها، كانت تمر به أوقات يعجز فيها عن استكناه الوجه الذي طال به درسه، فإذا بهذه الفتاة الوحيدة، وقد صارت لغزًا أخفى عليه من أي امرأة في العالم، يحف بها نطاق من الأقمار التوابع.

وعلى هذه الوتيرة تعاقبت الأيام إلى أن حدث ذات يوم أن اقتضت ظروف عمل مستر باوندربي أن يتغيب عن بيته ثلاثة أيام أو أربعة، وكان اليوم الذي أفضى فيه بهذا النبأ إلى مسز سبارست في المصرف يوم جمعة، ثم أردف قائلًا لها:

- ولكنك ستذهبين غدًا إلى هناك يا سيدتي على كل حال، ستذهبين وكأنني موجود هناك بالضبط، فليس في ذلك فرق بالنسبة لك.

فأجابته مسز سبارست معاتبة:

- أرجوك يا سيدي ألا تقول هذا، فغيابك يحدث بالنسبة لي فرقًا هائلًا يا سيدي، كما أخالك تعلم تمام العلم.

فقال باوندربي وهو لا يخلو من السرور:

- حسنًا يا سيدتي، عليك إذن أن تتدبري أمرك قدر إمكانك.

- إن إرادتك يا مستر باوندربي بالنسبة لي قانون يا سيدي، وإلا لكنت أمْيَل إلى التملص مما تعطفت به من الأمر، لعدم يقيني بأن الآنسة جراد جرايند

سيروقها جدًّا أن تستقبلني حيث أحظى كالعادة بكريم ضيافتك الباذخة، ولكني لن أحوجك إلى مزيد من القول يا سيدي، وسأذهب استجابةً لدعوتك.

فقال باوندربي محملقًا بعينيه:

- عجبًا! إنني أتوقع عندما أدعوك إلى بيتي يا سيدتي ألا تكون بحاجة إلى دعوة أخرى.

- فعلًا يا سيدي، هو ذلك، لا تقل شيئًا آخر يا سيدي، وليتني يا سيدي أراك منشرحًا كعهدي بك آنفًا.

فهدر باوندربي قائلًا:

- ماذا تعنين يا سيدتي؟

- كانت فيك يا سيدي من قبل مرونة أفتقدها الآن للأسف، ثب إلى استبارك يا سيدي!

وتحت تأثير هذه المناشدة العسيرة مؤيدة بنظرتها الحانية، لم يسعَ مستر باوندربي إلا أن يحك رأسه بصورة واهية مضحكة، وأن يثبت نفسه بعد ذلك عن بعد فسمع صوته صاخبًا وهو يعاظل صغار العاملين والعملاء طيلة الصباح. وقالت مسز سبارست بعد ظهر ذلك اليوم عندما انطلق مخدومها إلى سفرته وأوشك المصرف أن يغلق أبوابه:

- قدم يا بيتزر تحياتي إلى مستر توماس الصغير والتمس منه أن يصعد ليتناول شيئًا من ضلع حمل وصلصة الجوز بالتوابل مع زجاجة من جعة الهند.

ولما كان مستر توماس الصغير مستعدًا في العادة لأي شيء من هذا القبيل فقد ردَ بجواب لطيف وحضر في أعقاب ذلك، فقالت مسز سبارست:

- لما رأيت يا مستر توماس هذه المأكولات البسيطة على المائدة خطر لي أنك قد تجد فيها ما يغريك.

فقال الجرو وهو يقبل على المائدة بوجوم:

- شكرًا لك يا مسز سبارست.

- وكيف حال مستر هارتهاوس يا مستر توم؟

- بخير.

فسألته مسز سبارست بلهجة المحادثة الخفيفة بعد أن دعت على الجرو في سرها أن تتخطفه شياطين العذاب لعزوفه عن الإفاضة:

- وتراه أين يكون الآن؟

- يصطاد في يوركشير. وقد بعث إلى (لو) سلة حجمها نصف حجم الكنيسة بالأمس.

فقالت مسز سبارست بنعومة:

- إنه مثال السيد الذي يسع المرء أن يراهن على أنه بطل في الرماية!

- من الطراز الأول!

وكان منذ زمن عديد فتى غضيضًا، بيد أن هذه السمة نمت فيه كثيرًا في الزمن الأخير حتى إنه لم يعد يرفع ناظريه إلى أي وجه ثلاث ثوان سويًّا. فكانت الفرصة سانحة أمام مسز سبارست لمراقبة سحنته إن طالها هذا. وقالت:

- إن مستر هارتهاوس أثير عندي، مثلما هو أثير عند معظم الناس، فهل ينتظر ان نراه قريبًا يا مستر توم؟

فقال الجرو:

- بل إني أنتظر أن أراه غدًا.

فهتفت مسز سبارست بجذل:

- نبأ سار!

- إني معه على موعد لمقابلته في المساء على المحطة هنا وسأتعشى بعد ذلك معه فيما أعتقد وهو لن يأتي إلى البيت الريفي لمدة أسبوع أو نحو ذلك لارتباطه بأماكن أخرى وهذا على الأقل ما يقوله، ولكني لن أعجب إن هو بقيَ هنا إلى ما بعد يوم الأحد وعرج علينا.

- وبهذه المناسبة! هل لك أن تتذكر رسالة إلى شقيقتك يا مستر توم إذا أنا حملتك إياها؟

فأجاب الجرو على مضض:

- سأجتهد في ذلك إن لم تكن رسالة طويلة.

- إن هي إلا تحياتي واحترامي، وخشيتي ألا أستطيع إزعاجها بصحبتي هذا الأسبوع؛ لأني لم أزل متوترة الأعصاب بعض الشيء مما قد يستحسن معه أن أبقى وحدي.

- إن كان هذا كل ما في الأمر، فهو ليس على جانب كبير من الأهمية، حتى إن أنا نسيت أن أبلغها ذلك؛ لأن (لو) ليس من المحتمل أن تفكر فيك ما لم تقع عينها عليك.

وبعد أن دفع ثمن الطعام والمؤانسة بهذا الإطراف اللطيف تردى في صمت وخيم إلى أن آتى على ما تبقى من جعة الهند فقال:

- والآن يا مسز سبارست لا بد أن أنصرف!

وانصرف.

وفي اليوم التالي وهو يوم السبت جلست مسز سبارست في نافذتها طول النهار وتتطلع إلى العملاء داخلين وخارجين، وترقب سعاة البريد ولا يغيب عن نظرها المرور العام في الشارع، وهي تقلب في ذهنها أشياء كثيرة، ولكنها قبل كل شيء توجه انتباهها إلى سلمها. ولما أقبل المساء تدثرت قلنسوتها ووشاحها وخرجت متسللة. وكان لديها من الأسباب ما جعلها تحوم في تستر حول المحطة التي يصل إليها القطار القادم من يوركشير، وتؤثر اختلاس النظر إلى أعمدتها المستديرة وأركانها ومن نوافذ حجرة انتظار السيدات على الظهور في نحوهما علانيةً.

وكان توم في الانتظار، فلبث يتسكع إلى أن وصل القطار المنتظر، ولكن لا أثر فيه لمستر هارتهاوس، واستأنى توم إلى أن تفرق الزحام وانتهى الهرج ثم رجع إلى قائمة للقطارات معلقة على الحائط وتشاور مع الحمالين، حتى إذا فرغ من ذلك تهادى خارجًا في كسل، ووقف في الشارع وردد نظره فيه علوًّا وسفلًا، وخلع قبعته ثم أعادها إلى رأسه، وتثاءب وتمطى عارضًا سائر أعراض الكلل القاتل المنتظر من شخص عليه أن يبقى إلى حين وصول القطار التالي بعد ساعة وأربعين دقيقة. فقالت مسز سبارست وهي تغادر نافذة مبنى المحطة حيث كانت ترقبه:

- هذه حيلة لإبقائه بعيدًا، إن هارتهاوس مع أخته الآن!

وكان ذلك الإلهام من وحي اللحظة، فاندفعت بأقصى سرعتها للعمل على هداه. وكانت محطة الخط الذاهب إلى البيت الريفي في الطرف الآخر للبلدة والوقت ضيق والطريق إليها ليست سهلة، بيد أنها كانت من السرعة في الانقضاض على عربة أجرة خالية، ومن السرعة في مغادرتها، ومن السرعة في إخراج نقودها والحصول على تذكرتها والقفز إلى القطار، بحيث حملها فوق

الأقواس التي تجتاز أرض حفائر الغمم الغابرة والحاضرة كأنما هي قد اختطفتها سحابة وانطلقت بها تخترم الآماد.

وكانت طوال الرحلة ترى سلمها والصورة التي تهبطه ثابتين في الهواء، ولكنهما لا يخلفان وراءها وهي ماضية نحو غايتها، بل كانا واضحين لعيني عقلها الحالكتين وضوح الأسلاك الكهربية التي تسطر فوق صفحة السماء في المساء رقعة من أوراق نوتة موسيقية أمام عيني جسدها الحالكتين، وإنها لتراها الآن قريبة من قاع السلم عند حافة الهاوية.

ورأى مساء الخريف الغائم في لحظة هبوط الليل من بين جفنيه المرنقين مسز سبارست تتسلل من عربة القطار وتهبط درج المحطة الصغيرة الخشبي إلى الطريق الصخرية فتجتازها إلى ممر تحفه الخضرة ثم تختفي بين أوراق وفروع مما أنبته الصيف. وكان تغريد طائر أو طائرين مهومين للنوم في عشيهما، واجتياز خفاش لطريقها يتثاقل مِرارًا وتِكرارًا، وما يثيره خطوها فوق التراب الغزير الناعم كالمخمل من عثير وكل ما سمعته مسز سبارست أو رأته إلى أن أغلقت بوابته في حرص شديد.

ثم يممت البيت ملتزمة التواري بين الشجيرات، ودارت حوله وهي تختلس النظر من بين الأوراق إلى النوافذ السفلية، وكان معظمها مفتوحًا كما هي الحال عادةً في مثل ذلك الجو الدافئ، بيد أن الأنوار لم توقد بعد، والصمت كان سائدًا، ووجهت جهودها إلى الحديقة من غير أن تظفر بمزيد طائل. وفكرت في الغابة واسترقت الخطو إليها غير مبالية بالأعشاب الطويلة والعوسج والديدان والحلزون والبزقة وسائر ما هناك من الهوام، وراحت مسز سبارست تطأ في صمت كل ما في طريقها من نبات أرضي كثيف وعيناها الحالكتان وأنفها

المعقوف تتقدمها في حذر، وقد بلغ من تشبثها بغايتها أنها ربما لم تُقصر عن هذا الشأن لو أن الغابة كانت تموج بالصلال.

صه!

إن صغار الطير كانت حرية أن تتهادى من أعشاشها مسحورة بوميض عيني مسز سبارست في الظلام وهي تقف وتنصت.

فقد كانت ثمة أصوات على مدى قرب، ذاك صوته وصوتها، وما كان الموعد إلا حيلة لإقصاء الشقيق! وها هما ذان هناك عند الدوحة المقطوعة.

وانحنت مسز سبارست انحناءً شديدًا وسط العشب الندي وزادت منهما اقترابًا ثم انتصبت قائمة ووقفت خلف شجرة على غرار ما فعله روبنسون كروزو في كمائنه التي نصبها للوحوش. وكانت قريبة منهما بحيث إنها بقفزة واحدة ليست بالكبيرة كانت مستطيعة أن تلمسهما معًا، إنه هنا في الخفاء ولم يظهر نفسه لمن في البيت، وكان قدومه على ظهر جواده ولا بد أنه جاء مخترقًا الحقول المجاورة، فها هو ذا حصانه مربوط في الجانب المعشب من السياج على قيد خطوات قلائل، وها هو ذا يقول:

- يا أعز من أحب، ماذا كنت عسيًّا أن أصنع وأنا أعلم أنك هنا وحدك؟ هل كان بوسعي أن أبقى بعيدًا؟

وحدثت مسز سبارست نفسها قائلةً:

- لكِ أن تطرقي برأسكِ ما شئتِ كي تبدي أكثر فتنة فلست أدري ماذا يرون فيكِ من الحسن عندما تشمخين برأسكِ، ولكنكِ لا تدرين يا (أعز من أحب) عين من هي التي عليكِ الآن!

وكان صحيحًا أنها أطرقت برأسها، وناشدته أن ينصرف، وأعقبت المناشدة بالأمر، ولكنها لم تحول إليه وجهها ولم ترفعه، بيد أنه كان واضحًا أنها ساكنة في جلستها على منوال ما عهدتها المرأة الودود المتربصة في كمينها تجلس في أي فترة من حياتها، فيداها مستقرة كل واحدة منهما على الأخرى كيدي تمثال، وطريقتها في الحديث لم تكن أسرع من المعتاد. وقال هارتهاوس - وقد أبهج مسز سبارست أن ذراعه الآن تطوقها:

- يا طفلتي العزيزة، ألا تطيقين صحبتي برهة وجيزة؟

- ليس هنا.

- أين إذنْ يا لويزا؟

- ليس هنا.

- ولكن ما أمامنا من الوقت قصير جدًّا بالنسبة لما أمامنا، وقد أتيت من بعيد جدًّا، وأنا واثق للغاية مشوش البال، فلم يكن قبلي عبد على مثل هذا الولاء أساءت معاملته مولاته. وأن تطلعي إلى ترحيبك المشرق كالشمس الذي أشاع الدفء في حياتي ثم ابتلائي بتلقيك إياي على هذه الصورة الجليدية لمما يمزق الفؤاد.

- أتراني بحاجة إلى تكرير القول بأني يجب أن أُترك لنفسي هنا؟

- ولكننا يجب أن نلتقي يا عزيزتي لويزا، فأين نلتقي؟

وأجفلا، وأجفلت كذلك المتسمعة إجفال التأثم، إذ خُيّل إليها أن ثمة أحد سواها يسترق السمع بين ألفاف الشجر، وما كان ذلك إلا المطر وقد أخذ ينهمر مدرارًا.

- أأركب جوادي إلى البيت بعد بضع دقائق متصنعًا ببراءة أن رب الدار موجود فيها، وأن سيكون سعيدًا باستقبالي؟

- كلا.

- أوامرك القاسية تفرض عليَّ الطاعة مع أنني أنكد أهل الدنيا طالعًا فيما أعتقد إذ لم تحركني أي امرأة أخرى ثم خررت في النهاية ساجدًا تحت قدمي أجمل النساء وأفتنهن وأشدهن تحكمًا. إنني لا أستطيع يا لويزا يا من أنت أعز من أحب أن أنصرف، أو أدعك تنصرفين وأنت تسيئين على هذه الصورة استخدام سلطانك.

ورأته مسز سبارست يستقبلها بذراعه الذي يطوقها، وسمعته وهو قيد سمعها الشره وهو يقول لها كم يحبها، وكيف أنها القدح المعلى الذي يتحرك رغبة في المراهنة عليه بكل ما يملكه في دنياه وأن كل ما نشده في المدة الأخيرة من المقاصد فقد قيمته بجانبها وأن كل ما أوشك أن يضم عليه قبضته من النجح ينفضه الآن عنه وقد أمسى لِقِيًّ مبتذلًا بالقياس إليها وأنه سواءً لديه أن يواصل ما هو بسبيله من عمل إن كان ذلك يبقيه بقربها، أو يتخلى عنه إن كان يقصيه عنها، أو يفر إن هي شاركته الفرار، أو يلتزم التستر إن هي تقاضته إياه، أو أي مصير آخر كيفما كان، إن هي محضته الحب، وهو الرجل الذي رأى مبلغ استيحائها وانقطاعها، فألهمته في أول لقاء لهما إعجابًا واهتمامًا لم يكن يأنس في نفسه اقتدارًا عليهما، وهو الذي منحته ثقتها وتعلق بها وعبيرها.

كل هذا وأكثر منه قيل في تعجل منه ومنها، وفي دوامة اشتفاء غليلها وخوفها أن يكتشف أمرها، وفي الضجة المتزايدة بسرعة التي يحدثها سقوط الغيث بين أوراق الشجر وفي هدير العاصفة المرعدة تلقته مسز سبارست بتمامه مزخرفًا في هالة لا محيص عنها من الاضطراب والتشوش حتى إنها عندما

رأته أخيرًا يتسلق السور ويمضي بجواره لم تستطع أن تقطع بزمان اللقاء المزمع ومكانه، فيما عدا قولهما إنهما سيلتقيان تلك الليلة.

ولكن أحدهما لبث في موضعه أمامها في الظلام، وهي إذ تقتفي أثرها لا بد أن تصيب الهدف، وقالت مسز سبارست لنفسها:

- يا أعز من أحب! أنتِ لا تدرين مدى ما عليه تعقبكِ من إحكام.

واقتفت مسز سبارست أثرها إلى خارج الغابة، ورأتها تدخل البيت، فما العمل بعد ذلك والمطر الآن يهمي فيجعل من وجه الأرض مخاضة حتى لقد صار جورب مسز سبارست الأبيض متعدد الألوان، وإن كان اللون الأخضر هو السائد، وفي نعلها مواد شائكة، وقد صنعت الغرانق العالقة بمواضع شتى من ثوبها لنفسها أراجيح من نسجها، ومن قلنسوتها وأنفها الروماني تتدفق الجداول. وعلى هذه الحالة وقفت مسز سبارست متوارية بالشجيرات تفكر في ماذا بعد ذلك؟

ها هي ذي لويزا تخرج من البيت! وها هي ذي تتسلل وقد ارتدت عباءتها والتفت على عجل، إنه الهروب إذن! ها هي ذي تسقط من أدنى درج السلم فتبتلعها الهاوية!

وبخطوة ثابتة، غير مبالية بالمطر، ها هي تغذّ السير في ممر جانبي مواز لطريق الركوب، وتبعتها مسز سبارست متوارية بظل الشجر على مسافة قصيرة؛ لأنه لم يكن من اليسير أن تبقى شبحًا يتحرك بسرعة تحت نظرها في جوف الظلمة الوارفة.

ولما توقفت لتغلق البوابة الجانبية من غير أن تحدث صوتًا توقفت مسز سبارست أيضًا، وعندما استأنفت السير استأنفت مسز سبارست السير كذلك.

وذهبت في الطريق التي جاءت منها مسز سبارست ومرقت من الممر المحفوف بالخضرة واجتازت الطريق الصخرية وصعدت الدرج الخشبي إلى سكة الحديد. وكانت مسز سبارست تعلم أن القطار الذاهب إلى كوكتاون سيأتي بعد قليل فأدركت أن كوكتاون هي أول مرحلة في وجهتها.

وفي الحالة التي كانت عليها مسز سبارست من الظلغ وتصبب الماء منها لم تكن بها حاجة ماسة إلى احتياطات كبيرة لتغيير هيئتها العادية. بيد أنها وقفت في كنف جدار المحطة وقلبت شكل وشاحها ثم ارتدته فوق قلنسوتها ولم يساورها وهي متنكرة على هذه الصورة خوف من أن يتعرف عليها أحد عندما تسنمت درج المحطة ودفعت النقود في المكتب الصغير. وكانت لويزا جالسة تنتظر في ركن، فجلست مسز سبارست تنتظر في ركن آخر وكل منهما تصغي للرعد القاصف وللمطر وهو يجتاح السقف ويصك دعائم الأقواس المبنية، وكان ثمة مصباحان أو ثلاثة أطفأها المطر والريح فاستطاعتا كلتاهما أن تتبينا وميض البرق بأجلى صورة وهو يرتجف ويتلوى على القضبان الحديدية.

ثم استولت نوبة من الارتجاف على بناء المحطة أخذت تشتد حتى وصل تأثيرها إلى القلب، فأبانت عن وصول القطار، ثم تلت ذلك نار وبخار ودخان وضوء أحمر ونشيش ورنات ناقوس وصياح، ودخلت لويزا عربة في القطار ودخلت مسز سبارست عربة أخرى فيه، ثم أمست المحطة الصغيرة بقعة مهجورة وسط عاصفة مرعدة.

ومع أن أسنان مسز سبارست كانت تصطك من البلل والبرد، إلا أنها كانت في قمة الابتهاج، فالصورة قد غاضت في أعماق الهوة، وكأنها ترى نفسها الآن قائمة على حراسة الجثة. فهل كان في وسعها وهي التي نشطت كل ذلك النشاط لاستحداث هذا النصر الجنائزي ألا تبتهج؟

وقالت مسز سبارست لنفسها:

- إنها ستصل إلى كوكتاون قبله بوقت طويل مهما ركض به جواده، فأين ستنتظره؟ وأين سيذهبان معًا؟ صبرًا وسنرى!

وتسبب المطر الفظيع في اضطراب لا حد له عندما وقف القطار في محطة الوصول، فالميازيب والأنابيب تتفجر البالوعات تطفح وأرض الشوارع غائرة تحت الماء. وفي اللحظة الأولى لترجلها من القطار، حولت مسز سبارست أنظارها الزائغة صوب عربات الأجرة المنتظرة وكان التكالب عليها شديدًا وقالت لنفسها:

- ستركب إحداها وتنطلق قبل أن أتمكن من تعقبها في عربة أخرى. فبالغًا ما بلغ خطر تعرضي لأن تدهمني العربة لا بد لي أن أرى رقمها وأسمع الأمر الصادر إلى الحوذي.

بيد أن مسز سبارست أخطأت التقدير، فلويزا لم تستقل عربة، وها هي ذي قد انصرفت، والعينان الحالكتان قد استقرتا على عربة القطار التي سافرت فيها بعد الأوان بلحظة واحدة. ولما لم يُفتح الباب بعد بضع دقائق راحت مسز سبارست تمر به جيئةً وذهابًا، ولما لم ترَ شيئًا أطلت داخل العربة فوجدتها خالية.

وكان البلل قد أغرقها، وقدماها تخوضان في الطين داخل حذائها فيصدر عنهما مع كل حركة صوت مكتوم، والمطر يتصبب فوق محياها الكلاسي، وقد أشبهت قلنسوتها تينة مفرطة في النضج، وفسدت كل ثيابها، وانطبعت بالبلل كل أزرار ملابسها وما فيها من خيوط ومشابك على ظهرها الحسيب النسيب، وتناثرت خضرة آسنة على مظهرها العام، كتلك التي تتراكم على سور بستان

عتيق في درب عطن، فلم تجد لنفسها ملاذًا سوى انفجارها باكية بدموع محرقة وهي تقول:

- لقد فقدت أثرها.

الفصل الثاني عشر

سقوط

تفرق الزبالون القوميون مؤقتًا بعد أن أتحف بعضهم بعضًا بمشاجرات صغيرة صاخبة كثيرة جدًّا فيما بينهم، وهكذا حل مستر جراد جرايند بيته لقضاء العطلة.

وكان جالسًا يكتب في الحجرة التي بها الساعة المحصية الدقيقة مبرهنًا على شيء ما لا بد أنه... قد يكون في جوهره أن السامري الصالح اقتصادي رديء ولم يزعجه صوت المطر كثيرًا، ولكنه اجتذب انتباهه اجتذابًا كافيًا كي يرفع رأسه أحيانًا كأنه يحتاج عناصر الطبيعة. ولما اشتد قصف الرعد رنا بطرفه صوب كوكتاون وفي ذهنه أن بعض مداخنها العالية ربما أصابها البرق، وكان الرعد يهدر في الفضاء والمطر يتدفق كالطوفان عندما انفتح باب حجرته فنظر من جانب المصباح القائم على منضدته، فأدهشه أن يرى ابنته الكبرى.

- لويزا!

- أريد أن أتحدث إليك يا أبي.

فقال مستر جراد جرايند وقد ازداد دهشةً على دهشة.

- ما المسألة؟ ما أعجب منظرك! وهل بحق السماء جئت إلى هنا متعرضة لهذه العاصفة؟

فتحسست ثوبها بيديها كأنها لا تكاد تدري وقالت: (نعم) ثم كشفت رأسها وتركت عباءتها وغطاء رأسها يسقطان حيثما اتفق، ووقفت تتطلع إليه، وقد غاض لونها وتشعثت، في تحدٍ ويأس حتى لقد اعتراه الخوف منها.

- ما الأمر؟ أُناشدك يا لويزا أن تخبريني ما المسألة؟

فتهاوت أمامه فوق مقعد ووضعت يدها الباردة على ذراعه.

- لقد توليت يا أبي تأديبي منذ كنت في المهد.

- أجل يا لويزا.

- وإني لألعن الساعة التي ولدت فيها لمثل هذا المصير.

فتطلع إليها في ارتياب وخوف وهو يردد بذهول:

- تلعنين الساعة؟ تلعنين الساعة؟

- كيف سولت لك نفسك أن تمنحني الحياة ثم تسلبني كل ما لا يقدر بثمن من الأشياء التي ترتفع بها عن درك الموت، على وعي بالموت؟ أين هي مناعم روحي؟ أين هي أحاسيس فُؤادي؟ ماذا فعلت يا أبي، ماذا فعلت بالجنة التي كان ينبغي أن تزدهر يومًا في هذا التيه القفر الكبير هنا؟!

وضربت بكلتا يديها على صدرها

- ... فلو أنها كانت هنا لكان رمادها وحده حقيقًا أن ينقذني من الخلاء تغوص فيه الآن حياتي كلها لم أقصد يا أبي أن أقول هذا، ولكنك تذكر يا أبي آخر مرة تحادثنا فيها معًا في هذه الحجرة؟

ولم يكن مُتأهبًا على الإطلاق لسماع ما سمعه الآن، فبصعوبة أجابها: (أجل يا لويزا).

- إن الكلام الذي طفح على شفتي الآن كان حريًّا أن يطفح على شفتي يومئذٍ لو أنك أعنتني على ذلك لحظة واحدة ولست أعتبك يا أبي، فما لم تغذُه فيَّ لم تغذه في نفسك أي يوم من الأيام ولكن لو أنك كنت أقدمت على ذلك في الزمن السالف، أو كنت أهملتني، إذن أي مخلوقة أفضل كثيرًا وأسعد كثيرًا كنت حرية أن أكون اليوم!

فلما سمع ذلك منها بعد كل ما بذله من عناية، أحنى رأسه على يده وتأوه بصوت عال.

- أبي! هل لو كنت تعلم عندما كنا هنا آخر مرة معًا ما كنت أخشاه وأنا أُناضل ضده بحسب ما اقتضاه مني الواجب منذ طفولتي أن أُناضل ضد كل إلهام فطري يبزغ في فؤادي، هل لو علمت أن صدري كانت تدب فيه أحاسيس وانفعالات وجوانب ضعف حرية بأن يشتد عودها على الإعزاز والرعاية فتجدي سائر التقديرات التي يضعها الإنسان وليس عند علم حسابه ينبؤها بأكثر مما عنده من نبأ خالقه سبحانه... هل لو كنت تعلم هذا كنت عسيًّا أن تعطيني للزوج الذي أعلم الآن عن يقين أني أبغضه؟

- لا يا طفلتي المسكينة.

- هل كنت عسيًّا أن تقضي على أي وقت بالصقيع والذوّي اللذين أنزلا بي العطب واليبس؟ هل كنت عسيًّا أن تسلبني - من غير أن تثري بذلك أحدًا - بل لتزيد هذه الدنيا وحشة فحسب، هل كنت عسيًّا أن تسلبني الجانب غير المادي من حياتي، وربيع عقيدتي وصيغها، وملاذي من كل ما هو كئيب سيئ في الأشياء الواقعية من حولي، والمدرسة التي كنت حرية أن أتعلم فيها كيف أكون أكثر اتضاعًا وأوفى طمأنينة إلى تلك الأشياء وأصبو في محيطي الصغير إلى تحسين حالها؟

- لا. لا. لا. لا يا لويزا.

- ومع هذا يا أبي فلو أنني عمياء لا أبصر، وكنت أتحسس طريقي باللمس، وكنت في الوقت نفسه حرة وأنا أتعرف إلى أشكال الأشياء وسطوحها في أن أستخدم مخيلتي بعض الشيء في صددها، لكنت أحكم ألف ألف مرة وأسعد وأكثر حبًّا وأرضى نفسًا وأوفى براءةً وأكثر إنسانية من جميع الوجوه الخيرة، مما أنا الآن بالعينين اللتين في رأسي، والآن اسمع ما جئت لأقوله.

فتحرك ليسندها بذراعه، ونهضت هي إذ هم بذلك فوقف الاثنان متقاربين، فوضعت يدها فوق كتفه ونظرت في وجهه بإمعان وقالت:

- بالجوع والعطش يا أبي اللذين لم يجدا شبعهما لحظة واحدة، وبنزوع متقد صوب آفاق ليست للقواعد والأرقام والتعريفات فيها قيمة مطلقة، شببت يا أبي أشق بالصراع كل شبر من طريقي.

- لم يدر بخلدي أنك غير سعيدة يا ابنتي.

- أما أنا يا أبي فكنت على علم بذلك دائمًا وفي ذلك الوطيس كدت أمحق ملك الخير في نفسي وأقلبه شيطانًا فما تعلمته خلفني متشككة جاحدة مزدرية لكل ما لم أتعلمه ومتحسرة عليه وكان ملاذي منكود من هذا أفكر في سرعة انقضاء العمر وأنه ما من شيء يستحق عناء التكالب وأوصابه.

فقال راثيًا لحالها:

- وأنتِ في ريعانكِ يا لويزا!

- وأنا في ريعاني، وفي هذه الحالة يا أبي كنت - وأنا أطلعك الآن بلا خوف ولا تحيز على حالتي النفسية الهامدة العارية كما أعهدها - عندما اقترحت عليَّ زوجي هذا، فقبلته، ولم يحدث أنني في أي يوم زعمت له أو لك أني أحبه. وأنا أعلم

هذا وأنت يا أبي تعلمه، ويعلمه هو. ولم أكن غير مكترثة بالمرة؛ لأنني كنت أنطوي على أمل في إسداء النفع والمسرة إلى توم، فهربت ذلك الهروب الجائح إلى شيء وهمي، وشيئًا فشيئًا اكتشفت مدى مجافاته للمعقول. بيد أن توم كان الموضوع الأوحد لكل ما في حياتي من حنان يسير، ولعله صار إلى ما انتهى إليه لأنني غاليت في إشفاقي عليه وليس هذا الآن بذي بال إلا لما قد يميل بك إلى مزيد من التهاوي في نظرك إلى أخطائه.

وإذ كان أبوها يحتضنها بين ذراعيه وضعت يدها الأخرى فوق كتفه الآخر واستطردت وهي لم تزل تمعن النظر في وجهه:

- ولما تزوجت وانتهى الأمر رفعت راية العصيان ضد هذا الرباط بواعث الصراع الغابر وقد زادت من ضراوتها أسباب التفاوت بين فطرتينا، تلك الأسباب التي لن تستطيع أي قوانين عامة أن تسنها لي أو تفرضها عليَّ يا أبي إلا حين يكون في وسعها أن تدل العالم بالتشريح أين يضرب مبضعه ليصل إلى طوايا روحي.

فقال متوسلًا، لأنه تذكر جيدًا ما كان بينهما في اجتماعهما السابق:

- لويزا!

- أنا لا أعتبك يا أبي ولا أشكو. ولكنني هنا لغرض آخر.

- ماذا أستطيع يا طفلتي أن أصنع! اطلبي ما تشاءين.

- هذا ما أنا بصدده. وبعدئذٍ ألقت الصدفة يا أبي في طريقي بشخص تعرفنا به، وهو رجل لم يسبق لي بمثله اختبار، عرك الدنيا، وفيه لمعان وتسهل بعيد عن الادعاء، يعترف بأن كل شيء في نظره هين القدر، وذلك رأي كنت خائفة بعض الشيء من إضماره في سريرتي، فأوحى إليَّ هذا الرجل لأول وهلة تقريبًا -

وإن كنت لا أدري كيف ولا بأي الوسائل - أنه يفهمني ويقرأ أفكاري. ولم أستطع أن أتبين فيه أنه شر مني حالًا. وبدا لي بيننا شيء من التشابه الشديد، وكل ما هناك أني عجبت كيف وهو الذي لا يكترث لأي شيء يعني نفسه بكل هذا الاهتمام بي.

- بكِ أنتِ يا لويزا!

وكان أبوها حريًّا أن يخفف قبضته تلقائيًّا لولا أنه شعر بقواها تتخلى عنها وأبصر نارًا مشبوبة تندلع في عينيها المحملقتين فيه بثبات.

- أنا لا أقول شيئًا عن تلمسه لثقتي، ولا يعنيني كثيرًا كيف كسبها. المهم يا أبي أنه كسبها، وما تعرفه أنت عن قصة زواجي سرعان ما عرفه هو بحذافيره.

وابيض وجه أبيها حتى حاكى الرماد وهو يحتضنها بذراعيه.

- لم أقترف ما هو أسوأ من ذلك، لم ألحق بك العار، ولكن إذا أنت سألتني هل أحببته أو هل أحبه لقلت لك يا أبي بصراحة إن الأمر قد يكون كذلك، فأنا لست أدري!

وفجأة رفعت يديها عن كتفيه وشدتها إلى جانبيها، وتغير وجهها وتصلبت قامتها في إصرار تستجمع به نفسها لتتم باذلة آخر جهدها ما تريد أن تقول، فارتسمت على محياها المشاعر التي انطلقت من إسارها بعد طول احتباس.

- في هذه الليلة إذ كان زوجي على سفر جاء هذا الرجل وأعلن لي حبه وهو في هذه اللحظة ينتظرني، لأنني لم أستطع أن أتخلص من وجوده بغير تلك الوسيلة. ولست فيما أعلم نادمة، ولا مستخذية، ولا متضائلة القدر في عين نفسي. فكل ما أعلمه يا أبي أن فلسفتك وتعاليمك لن تنقذني. وأنت الذي أوصلتني يا أبي إلى هذا فانقذني بوسيلة أخرى!

فشدد قبضته في الوقت المناسب ليمنعها من السقوط على الأرض، ولكنها صرخت بصوت مروع.

- إن أن أمسكتني مت! دعني أخرّ على الأرض!

فأرقدها على الأرض، وأبصر مفخرة وانتصار نظامه مُلقَى في كومة لا حِسَّ بها عند قدميه.

الكتاب الثالث: الحصيلة

الفصل الأول

طلَبة أُخرى

أفاقت لويزا من سباتها كمن ينتشل من أعماق حلم ثقيل، ففتحت عينيها في وهنٍ على فراشها العتيق، في بيتها القديم، وغرفتها التي ألفتها منذ زمن بعيد. وخُيِّل إليها في اللحظة الأولى أنّ ما جرى منذ عهد كانت فيه هذه الأشياء مألوفة، لم يكن سوى أضغاث أحلام تتلاشى أصداؤها. غير أنّ الصور أخذت تنجلي أمام ناظريها شيئًا فشيئًا، ومع وضوحها أخذت خيوط الأحداث تتشابك في ذهنها وتتكشّف، حتى أحست بثقلٍ يعيق رأسها عن الحركة لما يعتريه من وجعٍ وكَدَر.

كانت عيناها محمرّتَين مجهدتَين، وفي جسدها وهنٌ شديد، وقد غمرها شعور غريب من لا مبالاة باردة، حتى إن وجود أختها الصغرى في الحجرة لم يستوقفها بادئ الأمر. وحين اقتربت أختها من فراشها، لبثت لويزا ممددة دقائق تحدق فيها بصمت، ثم أذنت لها على استحياء أن تمسك بيدها المرتخية، قبل أن تسألها بصوت واهن:

– متى جِيء بي إلى هذه الحجرة؟

– في الليلة الماضية يا لويزا.

– ومن الذي جاء بي إلى هنا؟

– أظنها سيسي.

– ولماذا تظنين هذا؟

– لأنني وجدتها هنا هذا الصباح، ولم تأتِ إلى فراشي لتوقظني كعادتها، فمضيت أبحث عنها في كل أرجاء البيت، حتى وجدتها واقفة إلى جانبك، تبلل جبهتك برفق. أترغبين أن أستدعي والدنا؟ لقد أوصتني سيسي أن أخبره حين تستيقظين.

ابتسمت لويزا ابتسامة باهتة، وأختها الصغرى تنحني عليها في حياء لتقبلها، وقالت:

– ما أشد إشراق محيّاكِ يا جين!

– أحقًّا؟ يسعدني أن تري ذلك، والفضل فيه يعود إلى سيسي.

مدّت لويزا ذراعها وقد بدأت تطوّق بها أختها، وقالت:

– أخبري والدي إن شئت. وهل أنتِ مَن أضفى على غرفتي هذه البهجة وذلك الجو المرحب؟

– لا، لا يا لويزا، كل ذلك تم قبل حضوري، إنها...

لكن لويزا كانت قد تقلبت على وسادتها، ولم تُصغِ إلى ما تبقى من حديثها. ولما انسحبت أختها، أعادت رأسها إلى موضعه، ووجهها صوب الباب حتى انفتح ودخل أبوها. كان يبدو منهكًا، قلق الملامح، حتى إن يده التي طالما عُرفت بالثبات ارتجفت حين قبضت على يدها.

جلس إلى جوار فراشها، وأخذ يسألها بحنو عن حالها، مؤكدًا ضرورة أن تلازم السكون بعد ما أصابها من اضطراب وما تعرضت له في الليلة الماضية من قسوة الطقس. وكان صوته مضطربًا مرتجف النبرات، مختلفًا عن لهجته

السلطوية التي ألفتها، وكثيرًا ما كان يعجز عن العثور على الكلمات التي يبحث عنها.

قال بصوت متهدج:

– يا عزيزتي لويزا... يا ابنتي المسكينة.

ثم تلعثم، وكأن الكلمات تعصى عليه، وأضاف بعد برهة:

– يا طفلتي عاثرة الحظ...

وانقطع، ثم حاول مرة أخرى:

– إنّ ما انتابني ليلة أمس يفوق طاقة احتمالي، لقد زلزلني ما وقع حتى شعرت أنّ الأرض لم تعد ثابتة تحت قدمي، وأن السند الوحيد الذي كنت أركن إليه قد تهدم في لحظة واحدة. لقد أذهلتني الحقائق التي انكشفت أمامي، ولست أقول هذا بدافع أناني، غير أن الصدمة كانت بالغة الفداحة، حتى لكأن حياتكِ كلها ارتطمت بصخرة فحطمتها.

ثم أطرق لحظة قبل أن يتابع:

– ولا أزعم يا لويزا أنه لو قيّض لك أن تزيحي الغشاوة عن عيني منذ زمن بعيد لكان الأمر أيسر علينا معًا، فأنا أدرك أن طريقتي لم تكن لتسمح بمثل هذا البوح. لقد جرّبت مذهبي ذاك وفرضته بصرامة، وعليّ أن أتحمل تبعات إخفاقه. كل ما أريده منك أن تصدقيني يا أغلى الناس عندي أنّ نيتي ما كانت إلا الخير.

كان صادق النبرة، وللإنصاف، فقد كان الخير مقصدَه حقًّا؛ إذ أراد أن يصنع العظائم وهو لا يملك سوى عصاه الصغيرة التي يفرض بها النظام، ويتهادى بها

فوق عالمه الضيق، حتى أخطأ وأضاع زهرة العمر بحماسة قد تفوق ما يبلغه الكثيرون ممن حوله.

فقالت لويزا بهدوء:

– أنا واثقة مما تقول يا أبي، وأعلم أنني كنت طفلتك الأثيرة، وأدرك أنك سعيت لإسعادي. لم يخطر ببالي يومًا أن ألومك، ولن يخطر لي ذلك أبدًا.

فتناول يدها الممدودة وأبقاها في قبضته كأنما يخشى أن تنفلت منه كما ينفلت خيط الرجاء من يد الغريق، وقال بصوت يثقل عليه بوطأة الليل الذي أمضاه:

– لقد سهرتُ يا عزيزتي طوال الليل جالسًا إلى مكتبي، أقلّب الفكر مرة بعد أخرى في ما جرى بيننا من أحداث مُرة، حتى إذا ما استحضرتُ سجيتك، وما انطوى في أعماقك سنين طوالًا حتى بلغني منذ ساعات، وحين أتأمل ذلك الضغط الخانق الذي استخرج منك أخيرًا، لا أجد بُدًّا من أن أعترف بانتقاص ثقتي بنفسي.

وكان حريًّا به أن يمضي قائلًا إن انكساره في نفسه أعظم من اهتزاز ثقته بسائر الناس، لولا أن عينيه وقعتا على وجهها المتطلع إليه في تلك اللحظة، فلربما نطق بتلك الكلمات وهو يزيح برفق خصلات شعرها المبعثرة عن جبينها، فهذه الإيماءات العابرة لا تُلفت النظر إذا صدرت من غيره، لكنها منه تُصبح ذات دلالة، وقد تلقّتها ابنته كما لو كانت اعترافًا خفيًّا بندم دفين. ثم قال مستر جراد جرايند بصوت متثاقل متردد، تنضح نبراته بعجز وانكسار:

– وإن كنتُ أرى ما يدعو إلى إساءة الظن بنفسي فيما مضى يا لويزا، فإنني أجد الداعي ذاته لإساءة الظن بها في الحاضر والمستقبل. وأقولها لكِ بصدق لا

يشوبه تحفظ: هذا إحساسي الآن. فما أبعدني اليوم عن الاطمئنان إلى أنني أهلٌ للثقة التي تمنحينني إياها، بعد أن كنتُ بالأمس فقط في مثل هذه الساعة واثقًا بها.

الآن فقط أدرك كيف أستجيب لندائك الذي جئتِ به إلى هذه الدار، ولدي الشعور الصادق – وأحسبه في هذه اللحظة على هذا النحو – الذي يمكنني من مد يد العون إليك، وإنهاض ما اضطرب من حالك يا ابنتي.

وكانت قد تقلّبت على وسادتها، ووجهها منكفئ على ذراعها، فلم يتسنَّ له أن يرى ملامحها، وكان ما اعتراها من غضب واضطراب قد سكن، غير أن هذا السكون لم يُذرف دموعها، ولم يكن أشد ما يغيظه سوى أنه لم يرها تبكي، كأن في دموعها عزاء له. واستطرد، لا يزال على تردده:

– لقد كان بعضهم يقول إن للحكمة عقلًا وقلبًا، ولم يكن ذلك يومًا رأيي، إذ كنت أظن أن العقل يكفي ويُغني. لكنني اليوم – كما أسلفت – ألوم نفسي على هذا الظن، وأرى أن العقل وحده قد لا يكفي، فكيف لي أن أجرؤ الآن على غير ذلك القول! وإن صح أن ذلك الضرب الآخر من الحكمة، الذي أعرضت عنه طويلًا، هو ذاك الإحساس الفطري المكنون يا لويزا...

وكان يتحدث في حذرٍ شديد، كأن قلبه لم يطمئن بعد إلى هذا الاعتقاد، وهي لم تجبه، ممددة أمامه على فراشها، في هيئة نصف مغطاة، كما رآها بالأمس ليلًا وهي مطروحة على أرض حجرته. ومد يده مرة أخرى ليمس شعرها برفق، وقال:

– أي لويزا، كم تغيّبت عن البيت في الآونة الأخيرة، ومع أن تثقيف شقيقتك مضى على النهج الذي رسمته (وتوقف لحظة عند الكلمة كأنها تتثاقل على لسانه)، إلا أن هذا النهج كان لا بد أن يتعرض للتبديل من خلال المعاشرة

اليومية التي عُرفت لها منذ نعومة أظفارها. فأسألك – بجهل وتواضع – أليس ذلك في نظرك خيرًا؟

فأجابته دون أن تتحرك:

– إن كان في قلبها الصغير شيء من التناسق قد أزهر، مما ظل في صدري خامدًا حتى انقلب اضطرابًا، فلتشكر الله على ذلك، ولتمضِ على فطرتها المشرقة، ولتعلم أن أسعد ما نالته من النعم أن تجنبت طريقي.

فقال مغلوبًا على نفسه:

– طفلتي، طفلتي! ما أشقاني أن أراكِ على هذه الحال! وأي نفع في أنك لا تعتبينني وأنا أُلقي على نفسي أقسى اللوم!

وأحنى رأسه، وقال بصوت خفيض:

– أخشى يا لويزا أن تغيرًا ما كان يتسرب إلى هذا البيت ببطء، عن طريق المودة والشكر، حتى لعل القلب أن يبلغ في صمته ما عجز العقل عن بلوغه، وما لم يُفلح في إتمامه. أترين الأمر كذلك؟

لكنها لم تجبه.

– لستُ من الكبر بحيث أستنكف عن تصديق ذلك يا لويزا، فكيف يتأتى لي الكبر وأنت أمامي! أهو كذلك يا عزيزتي؟ أحقًّا ترينه كذلك؟

وأعاد النظر إليها ثانية، فإذا هي ممددة في استسلام، مولية وجهها عنه، فغادر الغرفة في صمت دون أن يلفظ بكلمة، ولم يكد يبتعد حتى تناهى إلى سمعها وقع خطى تقترب من الباب، فعلمت أن شخصًا ما يقف خلفه. لم ترفع رأسها، غير أن صدرها امتلأ بغضب أحمق، كالنار الخانقة إذا حُبست في وعاء، إذ رأت نفسها معروضة للأنظار في حالتها البائسة. تلك النظرة العابرة، التي

ضاقت بها أشد الضيق من قبل، أوشكت أن تظفر الآن بما يبرهن على صدق ظنها، فتتأجج الطاقات الحبيسة وتختنق، كما تختنق الأرض إن احتُبس عنها الهواء والماء والدفء؛ فالهواء مهما كان فيه من حياة، والماء مهما حمل من خصب، والحرارة مهما بعثت من نضج، إذا سُجنت في جوف الأرض مزقتها إربًا. وهكذا كان قلب لويزا الآن: طال احتباس أعز فضائلها فيه، حتى غدا كتلة من العناد الأصم، تنكرًا للصديق.

ثم شعرت بلمسة وادعة على عنقها، فاستسلمت لهيئة النائمة، إذ لم ترَ في تلك اليد الحانية ما يستحق الإعراض، فلتبقَ حيث هي إذن. وبقيت اليد على عنقها تبث في أوصالها دفء الحياة وسط زحام من الخواطر الرقيقة، فاستراحت نفسها، وانسابت إلى سكون عذب، وفي إحساسها أن عينًا تترقبها، تدفقت دموعها في مقلتيها، حتى لامس وجهٌ حانٍ وجهها، فشعرت بحرارة الدمع على بشرته، وعرفت أنها دموعها هي.

وحين تصنعت لويزا اليقظة ونهضت جالسة، تراجعت سيسي قليلًا ووقفت إلى جوار الفراش في هدوء:

– أرجو ألا أكون أزعجتكِ، جئت أسألكِ إن كنتِ تأذنين لي بالبقاء معك.

– ولماذا تمكثين معي؟ إن شقيقتي ستفتقدكِ، فأنتِ عندها كل شيء.

أجابتها سيسي وهي تهز رأسها:

– أحقًّا؟ أتمنى أن أكون شيئًا ما لديكِ أيضًا، إن استطعت.

فقالت لويزا بنبرة تحمل مسحة من الحدة:

– أي شيء تودين أن تكوني عندي؟

– أيما شيء تكون حاجتكِ إليه أشد، ما دام في وسعي، وسأجتهد، على كل حال، أن أكون أقرب ما يمكن إلى ما تريدين، ومهما كان مرادك بعيدًا، فلن أكلّ من المحاولة، فهل تتيحين لي ذلك؟

– لقد بعثكِ أبي لهذا الغرض.

– لا، بل قال لي إن بوسعي الآن الدخول، لأنه أبعدني عن هذه الحجرة صباحًا، أو على الأقل...

وترددت لحظة ثم سكتت، فحدقت فيها لويزا بعينيها النافذتين وقالت:

– على الأقل ماذا؟

– على الأقل خطر لي أنه من الأفضل أن أبتعد، لأنني لم أكن واثقة أنك ستسرين برؤيتي هنا.

– وهل كنتُ دائمًا أكرهكِ إلى هذا الحد؟

– أرجو ألا يكون الأمر كذلك؛ فأنا أحبكِ، وكنت دائمًا أتمنى أن تعلمي ذلك، ولكن قلبكِ تغير نحوي قليلًا قبل مغادرتكِ البيت بوقت قصير. ولا أقول إنني دهشت، فما أكثر ما تعلمين وما أقل ما أعلم، ومن الطبيعي، من وجوه شتى، وأنتِ مقدمة على الاندماج في عالم آخر من المعاشرة، ألا أجد ما يدعو إلى السخط، ولم أتأذَّ.

وازدهر لونها وهي تقول ذلك بتواضع وتعجل، فأدركت لويزا معنى ذلك الحب، وارتجف قلبها له. وقالت سيسي، وقد تجرأت فمدّت يدها نحو العنق الذي مال إليها بلا تردد:

– أتأذنين لي أن أحاول؟

وتناولت لويزا اليد التي كانت حرية أن تعانقها في لحظة أخرى واستبقتها في يدها وقالت:

- هل تدرين أولًا يا سيسي ما أنا؟ إني من التكبر والقسوة والاضطراب واختلاط الأمر عليَّ، ومن النفور والجور على نفسي وعلى الناس بحيث أجد كل شيء بالنسبة لي عاصفًا مُظلمًا سيئًا. ألا ينفرك هذا؟

- كلا!

- لقد بلغ من شقائي وتبدد كل ما كان من شأنه أن يهيئ لي السعادة، إنني لو سلبت الإدراك في هذه الساعة فلم أصبح المرأة المتعلمة التي تخالينني وصار عليَّ أن أبدأ في اكتساب أبسط الحقائق، لما رغبت في مرشد إلى الطمأنينة والرضا والشرف وسائر ألوان الخير التي حرمت منها مثل رغبتي الآن في ذلك بغاية الاتضاع. ألا ينفركِ ذلك؟

- كلا!

وفي براءة عاطفتها الباسلة وجيشان روحها المخلصة، أشرقت الفتاة التي كانت منبوذة يومًا ما كما يشرق النور الجميل على ظلمة الفتاة الأخرى، ورفعت لويزا يدها كي تمسك بعنقها وتنضم إلى نظيرتها هناك، وخرت على ركبتيها وتعلقت بابنة الأفاق، وتطلعت إليها فيما يشبه الإجلال.

- اغفري لي وارحميني وأعينيني! أشفقي على فاقتي الشديدة واسمحي لي أن أضع رأسي هذا فوق قلبك المحب!

فهتفت سيسي:

- ضعيه هنا! ضعيه هنا يا عزيزتي.

الفصل الثاني

مضحك جدًّا

قضى مستر جيمس هارتهاوس طوال ليله ونهاره في حالة قلق شديد حتى إن لدنيا مهما كانت جودة العدسة التي تضعها على عينيها ما كانت لتعرف فيه أثناء تلك الفترة المخبولة (جيم) شقيق عضو البرلمان المحترم المفراح؛ لأنه كان مضطربًا اضطرابًا حقيقيًّا، فتحدث عدة مرات بحرارة شبيهة بأسلوب السوقة في الكلام، وجعل يدخل ويخرج بصورة لا يمكن تعليلها شأن من لا هدف له، وركب حصانه على طريقة قطاع الطرق. وقصارى القول إنه كان في سأم فظيع بسبب الظروف القائمة حتى إنه نسي أن يلتزم في سأمه الأسلوب الذي أوصى به الثقات.

فبعد أن حث جواده على الاندفاع صوب كوكتاون وسط العاصفة كأنما هي وثبة واحدة لبث ينتظر طول الليل. وجعل بين الحين والحين يدق جرسه بأقصى شدة ويتهم البواب القائم بنوبة السهر بالتقصير لاحتجازه خطابات ورسائل لم يكن هناك محيص عن تكليفه بتوصيلها إليه، ويطالبه بإبرازها في التو ولما حل الفجر ثم حل الصبح ثم حل النهار وما من رسالة أو خطاب، توجه إلى البيت الريفي وهناك قيل له إن مستر باوندربي مسافر، وأن مسز باوندربي في البلدة، وإنها غادرت البيت إلى هناك فجأة مساءً ولم يعلم أحد

بذهابها إلا عندما وصلت منها رسالة مفاداها أن عودتها غير متوقعة في الوقت الحاضر.

وفي هذه الظروف لم يكن يملك سوى أن يتبعها إلى البلدة، فذهب إلى بيت باوندربي هناك فقيل له إن مسز باوندربي غير موجودة، وذهب إلى المصرف فقيل إن مستر باوندربي مسافر وإن مسز سبارست مسافرة. مسز باوندربي مسافرة؟ ومن الذي وصلت به حالة الضنك إلى حد ابتغاء صحبة هذا النسر الكاسر؟... وأجابه توم الذي كانت لديه مبرراته الخاصة للقلق في هذا الخصوص:

- لستُ أدري! لقد رحلت إلى مكان ما فجر هذا اليوم، وهي دائمًا محفوفة بالغموض، وأنا أكرهها، وكذلك أكره ذلك الفتى الأبيض، فهو دائمًا يرقب المرء بعينيه وهو يطرف بهما.

- وأين كنت ليلة أمس يا توم؟

- أين كنت ليلة أمس! قول طريف! كنت أنتظرك يا مستر هارتهاوس إلى أن أمطرت السماء كما لم أرها تمطر من قبل. ثم تسألني أين كنت! أخالك تعني أين كنت أنت.

- مُنِعت من الحضور... عُوِّقت.

فغمغم توم:

- عُوِّقت! وأنا عاقني البحث عنك إلى أن فاتتني جميع القطارات ما عدا قطار البريد. وما كان ألطف أن أركبه في مثل تلك الليلة وأخوض طريقي إلى البيت في بركة من ماء المطر. ولذا اضطررت للمبيت في البلدة.

- أين؟

- أين؟ طبعًا في فراشي ببيت باوندربي.

- وهل رأيت شقيقتك؟

فأجابه توم محملقًا:

- وكيف بحق الشيطان كنت مستطيعًا أن أرى شقيقتي وهي على مبعدة خمسة عشر ميلًا؟

ولعن مستر هارتهاوس سرعة الرد يبديها السيد الشاب الذي كان يخلص له الوداد، وتخلص من هذا الاجتماع بأهون ما يُتَصور من الكلفة، وأخذ يُناقش للمرة المائة مغزى ذلك كله وخرج من ذلك بأمر واحد محقق وهو سواءً كانت في البلدة أو خارج البلدة، وسواءً كان قد تسرع في سلوكه معها على ما هي عليه من استعصاء على الفهم، وسواءً كانت شجاعتها قد تخلت عنها، أو كان أمرهما قد افتضح، أو أن مصيبة أو غلطة مجهولة الكنه الآن قد وقعت، فلا بد له أن يبقى ليواجه ما قدر له كائنًا ما كان. وكان الفندق المعلوم أنه يقيم به عندما ضربت عليه هذه العماية هو قائمة المحرقة التي شد وثاقه إليها أما ما يكون بعد ذلك، فما قدر سيكون وقال مستر جيمس هارتهاوس:

- إذن، فسواء كان انتظاري لرسالة عداء أو تحديد موعد أو عذل وندم أو مصارعة مفاجئة مع صديقي باوندربي على طريقة لانكشير - وهي مسألة من الجائز جدًّا أن تحدث كأي شيء آخر في الظروف الراهنة - فسوف أتعشى. فباوندربي يمتاز عليَّ من حيث الوزن، وإذا كان شيء من هذا القبيل سيحدث بيننا فلعل من الأفضل أن أُعِدَّ نفسي.

ودق الجرس ثم ألقى بنفسه على أريكة في إهمال وقال:

- عشاء في السادسة... وبه قطعة (بفتيك).

ثم قضى الفترة حتى ذلك الوقت كما استطاع. ولم يكن ذلك بالحسن في حد ذاته؛ لأنه ظل في أشد حالات الارتباك، ولما مرت الساعات من غير أن يظفر بأي لون من ألوان الإيضاح ازداد ارتباكه بربح مركب.

بيد أنه أخذ المسألة بأقصى ما في استطاعة الطبيعة البشرية من البرود، وأقنع نفسه بفكرة الاستعداد الفكه للنزال أكثر من مرة، وتثاءب ذات مرة وهو يقول:

- فكرة لا بأس بها أن أعطي الساقي خمسة شلنات لألقيه أرضًا (ثم في مرة أخرى خطر له شيء آخر) أوليت شخصًا وزنه مائة وثمانون أو مائتا رطل يمكن استئجاره بالساعة.

بيد أن هذا الهزل لم يترك أثره المادي على فترة ما بعد الظهر ولا هو خفف من قلقه، بل الأولى أن يُقال إن الوقت والقلق ثقلا عليه بصورة مروعة.

فكان من المستحيل حتى قبل العشاء أن يتجنب كثرة المشي هنا وهناك فوق نقوش البساط، أو النظر من النافذة أو الإنصات عند الباب تلمسًا لوقع الأقدام حتى إذا اقتربت أي أقدام من الحجرة زادت حرارته بشكل محسوس. ولكنه بعد العشاء، وكان ضوء النهار قد استحال إلى لون الغسق، ثم عندما استحال الغسق إلى ظلام وما من رسالة جاءته شرع على حد قوله يحس بالموقف وكأنه في قبضة محكمة التفتيش تصب عليه عذابًا بطيئًا ومع ذلك لم يزل على ولائه للقول بأن عدم المبالاة هو دليل التربية الراقية الحقة (وذلك هو الاعتقاد الوحيد لديه) ولذا انتهز هذه الأزمة فطلب شموعًا وصحيفة.

وطفق أكثر من نصف ساعة يحاول عبثًا قراءة تلك الصحيفة، وإذا بالساقي يحضر ويقول في غموض واعتذار:

- أسألك الصفح يا سيدي، فأنت مطلوب من فضلك يا سيدي.

وخطر بباله على الفور بصورة عامة أن هذا هو التعبير الذي يقوله الشرطي لذوي الأناقة من النشالين والنصابين، مما جعل مستر هارتهاوس يسأل الساقي باستنكار واحتداد ما الذي يعنيه بحق الشيطان بكلمة (مطلوب)؟

- أسألك الصفح يا سيدي، سيدة شابة في الخارج يا سيدي تريد أن تراك.

- في الخارج؟ أين؟

- خارج هذا الباب يا سيدي.

فلعن الساقي لما أثبته من الغباء والحمق، وأسرع إلى الدهليز فإذا امرأة شابة لم تقع عينه عليها من قبل واقفة هناك، وهي بسيطة الملبس شديدة الهدوء فائقة الحسن، ولما اقتادها إلى الحجرة وقدم إليها كرسيًّا لاحظ في ضوء الشموع أنها أملح مما خالها لأول وهلة، فوجهها بريء ناضر وتعبيره يقع من النفس موقعًا لطيفًا للغاية. ولم تكن خائفة منه ولا مضطربة بأي حال من الأحوال، بل كان يبدو عليها أنها مشغولة البال كلية بموضوع زيارتها فاستأثر باهتمامها هذا الهدف من دون شخصها. فقالت وقد صارا وحدهما:

- هل محدثي هو مستر هارتهاوس؟

- محدثك مستر هارتهاوس.

واستطرد يقول في نفسه:

- وإنك لتتحدثين إليه بأشد العيون التي رأيتها في حياتي ثقة وطمأنينة، وبأشد الأصوات التي سمعتها جدية رغم خفوته.

فقالت سيسي وقد أخذ الدم يتصاعد إلى وجهها فعلًا:

- لئن كنت لا أفهم، وأنا فعلًا لا أفهم يا سيدي ما يلزمك به شرفك باعتبارك سيدًا مهذبًا لأمور أخرى، إلا أني واثقة باعتمادي على شرفك لإبقاء أمر هذه الزيارة سرًّا، ولإبقاء ما سأقوله لك سرًّا أيضًا. وسيكون اعتمادي على شرفك إذا أنت قلت لي إن باستطاعتي أن أذهب إلى حد الثقة...

- في استطاعتك ذلك، أؤكد لك.

- إني صغيرة السن كما ترى، ولم يكن قدومي إليك يا سيدي بناءً على رأي أو تعضيد من أحد سوى أملي فيك.

فقال في نفسه وهو يتتبع نظرة عينيها المتطلعتين في لمحة خاطفة إلى أعلى: (ما أجرأها وأصلب عودها! هذه بداية عجيبة جدًّا، ولست أدري أين ينتهي بنا المطاف) وقالت سيسي:

- أظنك خمنت في صحبة من كنت قبل حضوري مباشرةً!

- لقد كنت في أشد حالات الهم والقلق أثناء الساعات الأربع والعشرين الأخيرة (حتى لقد بدت في نظري أعوامًا طويلة) بخصوص سيدة، وأعتقد أن الآمال التي بنيتها على قدومك من لدن هذه السيدة لم تخب.

- لقد فارقتها منذ ساعة.

- في...

- في بيت والدها.

فاكفهر وجه مستر هارتهاوس رغم بروده وازداد ارتباكه وقال في نفسه: (إذن أنا يقينًا لا أدري أين سينتهي المطاف).

- لقد خفت إلى هناك ليلة أمس ووصلت وهي في حالة اضطراب شديد وظلت غائبة عن الرشد طول الليل وأنا أقيم في بيت والدها وكنت معها، ولك أن توقن يا سيدي من أنك لن تراها بعد الآن ما حييت.

فشهق مستر هارتهاوس شهقة طويلة، ولو أن امرأً ألفى نفسه في أي وقت من الأوقات لا يدري ماذا يقول، لكان هارتهاوس حريًّا أن يكتشف بما لا يدع مجالًا للشك أنه ذلك المرء، فالسذاجة الطفلية التي تتحدث بها زائرته وجرأتها في تواضعها، وصدقها الذي ينحّي كل تصنع جانبًا، ونسيانها التام نفسها في إلتزامها الجاد الهادئ للموضوع الذي حضرت من أجله... كل هذا بالإضافة إلى اعتمادها على وعده الذي بذله بسهولة - وهذا في حد ذاته أشعره الخزي - تبدى له في إطار لا عهد له به، وهو يعلم أن أي سلاح من أسلحته المعهودة لا قبل له بمقاومة ما قصدت به له فلم يوفق إلى كلمة يستعين بها على إلتماس شيء من الراحة لنفسه وأخيرًا قال:

- إن مثل هذا النذير المباغت حين يلقى بهذه الثقة ومن مثل هاتين الشفتين لهو مجلبة للحيرة والاضطراب إلى أقصى حد. فهل لي أن أسأل أكنت مكلفة بنقل هذا النبأ إليّ بهذه الألفاظ الموئسة من لدن السيدة التي نتحدث عنها؟

- لم أتلق منها تكليفًا.

- إن المسفر على الغرق يتعلق بالقش، فأرجو أن تغفري لي من غير انتقاص لاحترام رأيك ومن غير شك في إخلاصك قولي إنني أتعلق باعتقادي أن ثمة أملًا في ألا يكون مقضيًّا عليَّ بالنفي المؤبد من حضرة تلك السيدة.

- لا أمل في هذا إطلاقًا، فالهدف الأول من مجيئي يا سيدي أن أؤكد لك أنك ينبغي أن توقن بأنه لم يعد لك من الأمل بعد الآن في التحدث إليها أبدًا أكثر من أملك في التحدث إليها لو أنها فارقت الحياة عندما عادت إلى الدار ليلة أمس.

- ينبغي أن أوقن؟ ولكن ما القول إن لم يكن ذلك في استطاعتي، أو إذا كان ينبغي لعلة في فطرتي أن أكون عنيدًا فلا...

- لا ينفعك ما قلته حقًّا، ليس ثمة أمل.

فنظر جيمس هارتهاوس إليها وعلى شفتيه ابتسامة عدم تصديق، بيد أن ذهنها كان يتخطاه ويتجاوزه، فراحت ابتسامته هدرًا، وعض شفته واستغرق بعض الوقت في التفكر، ثم قال:

- حسنًا، إن اتضح لسوء الحظ بعد كل هذا العناء والولاء من جانبي أنني وصلت من الموقف الضنك إلى هذا النفي، فسوف لا أُتعب السيدة بالحاحي، ولكنك قلت إنها لم تكلفك هذا؟.

- لم أتلق تكليفي إلا من حبي لها وحبها لي ولا سند لي سوى أنني كنت معها منذ جاءت إلى البيت وأنها أولتني ثقتها. ولا سند لي فيما عدا معرفتي شيئًا عن سجيتها وعن زواجها. وأعتقد يا مستر هارتهاوس أنك حظيت بتلك المعرفة أيضًا!

واهتز لحرارة هذا العتب ذلك التجويف الذي كان ينبغي أن يوجد فيه قلبه، أو ذلك العش الحافل ببيض فاسد، حيث كانت طيور السماء حرية أن تقيم لولا أنها استنفرت حتى نفرت... وقال:

- إني لست ممن يعتصمون بمكارم الأخلاق، ولم يكن من همي في يوم من الأيام أن أزعم نفسي ذا خلق، فأنا امرؤ لا خلاق له ما اقتضى الأمر مني ذلك، وفي الوقت نفسه أرجو أن تسمحي لي بأن أؤكد لك بأنني لم أكن أُضمر السوء بصفة خاصة حين جلبت على السيدة التي يدور حولها حديثنا الآن أي أسى، أو حين أوقعتها لسوء الحظ تحت الشبهة بأي وسيلة من الوسائل، أو حين

تورطت بتعبيري لها عن عواطفي نحوها بما لا يتلاءم تمام الملاءمة فعلًا مع استقرار الحياة الزوجية، وحين استغللت كون والدها آلة، وكون شقيقها جروًا وكون زوجها دبًّا، وإنما أنا قد انزلقت من خطوة إلى أخرى بنعومة شيطانية للغاية حتى إنه لم تكن لديّ أقل فكرة عن ضخامة هذا السجل الحافل إلى أن شرعت أقلب صفحاته، فإذا بي أجده حقيقةً يتألف من عدة مجلدات.

ومع أنه قال ذلك كله بطريقته المستهترة، إلا أن هذه الطريقة بدت في هذه المرة دون سواها وكأنها عملية طلاء مقصودة لسطح لا ينفك قبيحًا وظل ساكتًا برهة، ثم استطرد في مزيد من مظهر ضبط النفس وإن بقيت ثمة آثار ارتباك وخيبة أمل أبت أن يذهب بها الطلاء:

- بعد الذي أُحيط به علمي الآن، وبأسلوب أجد نفسي عاجزًا عن الشك فيه، ولا أكاد أعرف مصدر آخر كنت حريًّا أن أتقبل منه هذا بمثل هذه السرعة، أشعر بأني مضطر لإبلاغك - وأنت التي حظيت بالثقة المشار إليها آنفًا - بأنني لا أستطيع أن أرفض التفكير في إمكان عدم رؤياي للسيدة بعد الآن (وإن كان ذلك غير متوقع) وأنا الملوم وحدي على ما وصلت إليه الأمور.

ثم استطرد بعد شيء من الحيرة في العثور على ختام ذي صبغة عامة لكلامه:

- ... ولا أستطيع أن أقول إنني متحمس إطلاقًا في تطلعي إلى الاعتصام بمكارم الأخلاق، أو إنني أومن بمن يعتصمون بها.

وبدا على وجه سيسي بوضوح أن مناشدتها إياه لم تفرغ، فاستطردت وقد رفعت عينيها إليه مرة أخرى:

- لقد أفصحت عن أول غرض لك، فهل أستنتج من هذا أن لديك غرضًا آخر تذكرينه لي؟

- نعم.

- ألك أن تتكرمي عليَّ بالإفضاء به؟

فأجابت سيسي بمزيج من الرقة والاستقامة غلبه على أمره وبثقة ساذجة في إلتزامه بفعل ما تطالبه به، مما بغته جدًّا.

- يا مستر هارتهاوس، ما بقي عليك من إصلاح لما اضطرب من الأمر هو أن تُغادر هذه البقعة فورًا وبلا رجعة وأنا واثقة تمام الثقة أنك لن تستطيع بغير هذه الوسيلة تلطيف الأذى والضرر اللذين اقترفتهما، وواثقة تمام الثقة أن هذا هو التعويض الوحيد الذي أبقيت بيدك القدرة عليه ولست أقول إنه شيء عظيم، أو أن فيه الكفاية، ولكنه شيء ما على كل حال، وشيء لا بد منه ولذا، ومع أنني لم أتزود بأي سلطان سوى ما ذكرته لك، بل وبدون علم أي شخص سواك وسواي، فإني أطلب إليك أن ترحل عن هذه البقعة في هذه الليلة قاطعًا على نفسك عهد ألا تعود إليها أبدًا ولو أنها زعمت لنفسها سلطانًا عليه خلا إيمانها الصريح بصدق وصواب ما قالت، أو أنها أضمرت أدنى شك أو تردد، أو أجنّت في غايتها المثلى أدنى تحفظ أو ادعاء، أو أنها أظهرت أو شعرت بأهون ما يمكن من التأثر بتهكمه أو دهشته أو بأي عتب كان عسيًّا أن يفضي به، لكان حريًّا أن يستخدمه ضدها في هذا الموقف ولكنه ما كان ليؤثر فيها إلا بمثل ما يغير من صفاء السماء بنظرة دهشة يرفعها إليها... وسألها وهو في حيرة:

- ولكن هل تعلمين مدى هذا الذي تطلبينه إليَّ؟ لعلكِ لا تعلمين أنني هنا لعمل له صفة عامة، وإن كان سمجًا في حد ذاته سماجة كافية، بيد أني ارتبطت به، ووكل أمره إليَّ عن ثقة تامة، والمفروض أنني متعلق به تعلق المستميت؟

لعلكِ لا تعلمين هذا، ولكنها الحقيقة فيما أؤكد لكِ ولم يؤثر ذلك على سيسي، حقيقة كان أو غير حقيقة، وقال مستر هارتهاوس بارتياب بعد أن دار في الحجرة مرتين:

- وفضلًا عن هذا، فمن السخيف جدًّا أن أفعل ذلك، فما أسخف أن يتراجع المرء بعد الارتباط بهؤلاء القوم، هذا التراجع غير المعقول مظهرًا وسببًا.

- إني واثقة يا سيدي أن هذا هو العلاج الوحيد الذي في استطاعتك، ولولا يقيني بهذا لما جئت إلى هنا.

فتطلع إلى وجهها ثم عاد إلى الجولان في الحجرة:

- لعمري لست أدري ما أقول، فما أسخف هذا!

وصار عليه هو الآن أن يشترط عليها الكتمان، فقال وقد وقف واتكأ على رف المدفأة:

- إن كنت مقدمًا على شيء سخيف جدًّا كهذا، فلا بد أن يكون الأمر طي الكتمان الذي لا يستباح.

- لقد وثقت بك يا سيدي ولك أن تثق بي وذكره اتكاؤه على رف المدفأة بليلته مع الجرو، فرف المدفأة هو بعينه، بيد أنه شعر كما لو كان الليلة هو الجرو ولم يجد لنفسه مخرجًا، فقال وهو ينظر إلى أسفل وينظر إلى أعلى ويضحك ويقطب ويروح ثم يغدو:

- لا أظن أن رجلًا قبلي ألفى نفسه في أسخف من هذا الموقف... ولكني لا أجد لي منه مخرجًا، وما قدر سيكون، وهذا الذي ترومين سيكون فيما أعتقد فلا بد أن أرحل، ويخيّل إليَّ بإيجاز... أني أعد بذلك.

ونهضت سيسي واقفة ولم تقع منها هذه النمرة موقع الدهشة، بيد أنها سعدت بها وأشرق وجهها أيما إشراق. واستطرد هارتهاوس:

- اسمحي لي أن أقول إنني أشك في اقتدار أي سفير أو سفيرة أخرى على التخاطب معي بمثل هذا النجاح، وينبغي ألا أعتبر نفسي في موقف سخيف للغاية فحسب، بل وإني أيضًا منيت بالهزيمة على طول الخط. فهلا أذنت لي في الخطوة بتذكر اسم منازلتي؟

فقالت السفيرة:

- اسمي أنا؟

- إنه الاسم الوحيد الذي يعنيني أن أعرف الليلة.

- سيسي جيب.

- اغفري لي فضولي في موقف الفراق. من أقارب الأسرة؟

- إن أنا إلا فتاة مسكينة افترقت عن أبيها - وما كان إلا بهلوانًا جوالًا - فأخذت مستر جراد جرايند الشفقة بي، وعشت في البيت منذ ذلك الحين.

وانصرفت...

وقال هارتهاوس وهو يغوص مستسلمًا في الأريكة، بعد أن وقف برهة يسيرة مبهوتًا:

- لم يكن ينقصني إلا هذا كي تكمل هزيمتي، فالآن يمكن القول إن هزيمتي مطبقة: فتاة مسكينة - بهلوانة أفاقة - وجيمس هارتهاوس يستهان ويزرى به - جيمس هارتهاوس هرم الخيبة الأكبر.

وطرأ على ذهن الهرم الأكبر أن يُصعد في النيل فتناول على الفور قلمًا وخط الرسالة التالية (بالهيروغليفية المناسبة) إلى أخيه:

(عزيزي جاك: تقوض كل شيء في كوكتاون، أخرجني الضجر عن طاقتي على البقاء وسأوجه اهتمامي إلى الجمال... المحب جيم).

ودق الجرس.

- ابعث إليَّ تابعي.

- أوى إلى فراشه يا سيدي.

- أيقظه ومره بحزم الأمتعة.

وكتب رسالتين أخريين إحداهما إلى مستر باوندربي يؤذنه بانسحابه من هذه البقعة من الوطن وأبلغه بمكان وجوده في الأسبوعين التاليين. أما الرسالة الأخرى فشبيهة بها في المضمون وموجهة إلى مستر جراد جرايند وما كاد حبر هذه المراسلات يجف حتى غادر مداخن كوكتاون الطويلة وراء ظهره وهو في عربة قطار يمرق ويومض في الظلمة الرائنة.

وقد يظن من يعتصم بمكارم الأخلاق أن مستر جيمس هارتهاوس استمد شيئًا من الراحة حين فكر في الموقف فيما بعد وما كان من تراجعه المفاجئ باعتبار أنه من أعماله القليلة التي أثمرت إصلاحًا من أي نوع، ودليلًا يذكره بأنه نجا من ذروة مسألة بالغة السوء، بيد أن الواقع لم يكن كذلك بتاتًا، بل حط عليه وأبهظه إحساس خفي بالفشل والسخافة، وفزع مما عسى أن يقول سواه ممن يوجهون همهم إلى أشباه هذه الأمور من الإنحاء عليه إن هم عرفوا الحقيقة فإذا بما يكاد يكون أجمل حقبة في حياته وقد صارت الحقبة الوحيدة التي لا يقبل أن يعترف بها مهما كانت الأسباب، والتي تورثه الخزي من نفسه.

الفصل الثالث

إصرار شديد

راحت مسز سبارست التي لا تعرف الكلل - وقد تمكنت منها نزلة البرد العنيفة وخفت صوتها إلى درجة الهمس، وأنهك العطاس المتصل بنيانها المهيب أيما إنهاك حتى بدا في خطر من تطاير أعضائه - تطارد مخدومها إلى أن عثرت عليه في العاصمة، وهناك اقتحمت عليه وهي تجر أذيالها بوقار فندقه في شارع سانت جيمس وفجرت المفرقعات التي تحملها، وانفجرت. وما إن فرغت من مهمتها في تلذذ لا حد له حتى غُشي على هذه السيدة السامية التفكير على بنيقة معطف مستر باوندربي.

وكان أول إجراء أقدم عليه مستر باوندربي أنه أزاح مسز سبارست عن صدره وتركها تتقلب ما شاءت بين مدارج الألم على الأرض، ثم إلتجأ إلى استخدام المفيقات القوية من قبيل ليِّ إبهامي المريضة ولطم يديها وإغراق وجهها بالماء وصب الملح في فمها، فلما ردتها هذه الإسعافات إلى رشدها (وسرعان ما تم له ذلك) زج بها في قطار سريع من غير أن يقدم إليها أي منعشات أخرى وحملها قافلًا بها إلى كوكتاون وهي إلى الموت أدنى منها إلى الحياة.

وإذا اعتبرنا مسز سبارست طللًا من الأطلال الكلاسيكية لوجدناها عند بلوغها غاية رحلتها منظرًا شائقًا، أما إذا نظرنا إليها بأي اعتبار آخر لوجدنا مقدار العطب الذي حاق بها في ذلك الحين جسيمًا بحيث يقلل كثيرًا من حقها في

الإعجاب ومن غير نظر على الإطلاق إلى ما أصاب ثيابها وبنيتها من وهن وبلى، أو رثاء لعطسها الشجيّ دسها مستر باوندربي في عربة وحملها إلى ستون لودج. واقتحم حجرة حميه في ساعة متأخرة من تلك الليلة، صائحًا به:

- ها هي ذي يا توم جراد جرايند سيدة موجودة هنا... وهي مسز سبارست... وأنت تعرف مسز سبارست، لديها شيء تقوله لك سوف يذهلك.

فقال مستر جراد جرايند متعجبًا من ظهوره بهذا المظهر:

- إذنْ لم يصلك خطابي!

فصرخ باوندربي:

- لم يصلني خطابك يا سيدي؟! ليس هذا الوقت وقت خطابات... وما من أحد ينبغي له أن يكلم جوشيا باوندربي من أعيان كوكتاون عن خطابات من أي نوع وذهنه في الحالة التي هو عليها الآن.

فقال مستر جراد جرايند بلهجة التأنيب المتزن:

- إني أتكلم يا باوندربي عن خطاب له صفة خاصة جدًّا كتبته إليك بخصوص لويزا.

فأجاب باوندربي وهو يدق براحة يده على المائدة عدة مرات بمنتهى العنف:

- وأنا يا توم جرايند أتكلم عن رسول له صفة خاصة جدًّا جاءني بخصوص لويزا، مسز سبارست يا سيدتي! تقدمي!

وعندئذٍ حاولت السيدة المنكودة أن تدلي بشهادتها فلم يخرج صوتها وراحت تبدي من الإشارات المؤلمة ما يدل على احتقان حلقها، فتضاعف سوء

حالها وتعرض وجهها للكثير من الالتواءات، حتى إن مستر باوندربي لم يطق صبرًا فأمسك بذراعها وهزها قائلًا:

- إن لم يكن في مقدورك الإفصاح يا سيدتي، فدعيني أنا أفصح، فليس هذا وقت السماح لسيدة مهما ارتقى نسبها بألا يسمع صوتها بتاتًا وأن تبدو وكأنها تزدرد الحصى! إن مسز سبارست يا توم جراد جرايند ألفت نفسها أخيرًا، وبطريق الصدفة، في موقف أتاح لها الاستماع إلى حديث في الخلاء بين ابنتك وبين صديقك المهذب الغالي مستر جيمس هارتهاوس.

فقال مستر جراد جرايند: (حقًّا؟).

فصاح باوندربي:

- نعم حقًّا! وفي ذلك الحديث...

- ليس من الضروري أن تعيد على مسامعي مضمونه يا باوندربي، فأنا على علم بما حدث.

فقال باوندربي مهاجمًا بكل قوته حماه الهادئ الموادع:

- حقًّا؟ ألعلك إذن تعلم أين ابنتك في الوقت الحاضر؟

- بغير شك. فهي هنا.

- هنا؟

- أرجوك يا عزيزي باوندربي أن تطامن من هذه الصيحات العالية بأي شكل. إن لويزا هنا، فما إن استطاعت أن تخلص نفسها من ذلك اللقاء مع الشخص الذي تحدثت عنه والذي يؤسفني أعمق الأسف أنني كنت واسطة تقديمه إليك، حتى بادرت لويزا بالقدوم إلى هنا طلبًا للحماية، ولم يكن قد مرَ على وجودي في البيت وقت طويل عندما استقبلتها هنا، في هذه الحجرة. وكانت قد

حضرت مسرعة إلى المدينة بالقطار. وجرت من المدينة إلى هذا البيت وسط عاصفة عاتية فوجدتها أمامي في حالة ذهول. وبقيت هنا منذ تلك اللحظة بطبيعة الحال، فأتوسل إليك رعاية لصالحك وصالحها أن تثوب إلى مزيد من الهدوء.

وأخذ مستر باوندربي يحملق فيما حوله بضع لحظات وهو صامت، فحدق في كل اتجاه اللهم إلا صوب مسز سبارست، ثم إذا به يتحول فجأة منقضًا على بنت أخت ليدي سكادجرز، قائلًا لتلك المرأة المنكودة:

- والآن يا سيدتي! سوف يسعدنا أن نسمع أي اعتذار صغير ترين من المناسب تقديمه لانطلاقك هائمة في البلاد بسرعة الإكسبريس لتطالعينا بأحدوثة عرجاء!

فهمست مسز سبارست قائلة:

- أعصابي في الوقت الحاضر يا سيدي مضطربة جدًّا، وصحتي في الوقت الحاضر معتلة جدًّا من جراء خدمتك بحيث لا تسمح لي بأكثر من البكاء.

وبكت فقال باوندربي:

- ومن غير أن أبدي يا سيدتي أي ملحوظة لا يليق توجيهها إلى امرأة من أسرة طيبة، أقول لك إن ما يلزمك في الوقت الحاضر أكثر من البكاء هو أن تستقلي عربة ولما كانت العربة التي جئت بها إلى هنا واقفة بالباب، فاسمحي لي أن أسلمك إليها وأبعث بك إلى مستقرك في المصرف. وخير ما تفعلينه هناك أن تضعي قدميك في أحرّ ماء تطيقينه، وأن تتناولي كأسًا ساخنة جدًّا من الروم والزبد بعد أن تأوي إلى فراشك.

وإذ قال مستر باوندربي هذه الكلمات مد يمناه إلى السيدة الباكية وأوصلها إلى وسيلة النقل المشار إليها وهي تعطس طول الطريق بصورة مؤلمة، وسرعان ما عاد بمفرده وقال:

- والآن وقد قرأت في وجهك يا توم جراد جرايند أنك كنت تريد التحدث إليَّ، فها أنا ذا قد عدت ولكني لست في حالة راضية. وأصدقك القول إنني غير مستريح للمسألة حتى على هذا الوضع، ولا أعتبر أنني لقيت في أي وقت من الأوقات من ابنتك المعاملة الواجبة الخاضعة التي ينبغي أن يلقاها جوشيا باوندربي من أعيان كوكتاون على يد زوجته. وأعتقد أن لك في هذا رأيك، ولي فيما أعلم رأيي، فإن كان في نيتك أن تقول لي الليلة شيئًا يناهض هذه الملحوظة الصريحة المستقيمة فمن الخير أن تستبقيها.

ولما كان المُلاحظ أن مستر جراد جرايند صار أرق جانبًا مما مضى بكثير، فقد أجهد مستر باوندربي نفسه ليغدو متشددًا من جميع الوجوه، فهكذا كانت سجيته اللطيفة. وشرع جراد جرايند يجيبه:

- يا عزيزي باوندربي...

فقاطعه باوندربي قائلًا:

- عفوك، ولكني لا أريد أن أكون عزيزًا أكثر مما ينبغي، أقول هذا ونحن في البداية، فإني عندما أشرع في أن أكون عزيزًا على امرئ ما لا ألبث غالبًا أن أكتشف أن هدفه من ذلك أن يبزني بالاستيلاء على عواطفي. ولئن لم أخاطبك بلهجة مهذبة فأنت تعلم أنني لست مهذبًا. فإن كنت تروم التهذيب فأنت تدري أين تلتمسه. لديك أصحابك السادة المهذبون، وفي وسعهم أن يقدموا إليك من هذا الصنف قدر ما تريد. أما أنا فلا أشتغل به شخصيًّا.

وعارضه مستر جراد جرايند قائلًا:

- إننا جميعًا يا باوندربي معرضون للخطأ.

فقاطعه باوندربي قائلًا:

- كنت أحسبك معصومًا...

- لعلني كنت أعتقد هذا، ولكني أقول الآن إننا جميعًا معرضون للخطأ، وسأكون شاكرًا لكياستك واعتدَّها عارفة لك إن أنت أعفيتني من تلك الإشارات إلى هارتهاوس. وسوف لا أقرن في حديثنا هذا بينه وبين مخالطتك وتشجيعك إياه، فأرجوك ألا تلحف في الربط بينه وبين مخالطتي وتشجيعي له.

فقال باوندربي:

- أنا لم أذكر اسمه قط!

فأجابه مستر جراد جرايند في صبر، بل وفي امتثال وقد جلس برهة مطرقًا:

- حسنًا حسنًا!... إنني يا باوندربي أرى ثمة ما يدعو للشك في أننا فهمنا لويزا في أي وقت فهمًا صحيحًا.

- من الذي تعني بقولك (إننا)؟

فأجاب جراد جرايند ردًّا على هذا السؤال الجافي الأرعن:

- دعني إذن أقول إني أشك في أنني أحسنت فهم لويزا، وأشك في أنني أصبت في النهج الذي إلتزمته في تنشئتها.

- ها أنت ذا قد أصبت المحز. وإني أتفق معك في هذا، فقد اكتشفت الحقيقة أخيرًا أليس كذلك؟ إنها التربية! وإني مخبرك ما هي التربية: إن تُنبذ

خارج الأبواب برقتك، وأنت تحظى من كل شيء بأقل القليل وما عدا اللطمات، هذا ما أسميه تربية.

فقال له مستر جراد جرايند معاتبًا بكل تواضع:

- أعتقد أن حصافتك تستطيع أن تدرك أنه أيًّا كانت مزايا مثل هذا المنهج فمن الصعب تطبيقه على الفتيات.

فقال باوندربي العنيد:

- لست أرى هذا الرأي إطلاقًا يا سيدي.

فتنهد مستر جراد جرايند وقال:

- لن نناقش هذه المسألة. وأؤكد لك أنه لا رغبة لدي في المجادلة، وإنما أريد أن أُصلح ما فسد إن استطعت. وآمل أن تعينني على هذا بروح طيبة يا باوندربي لأني في كرب شديد.

فقال باوندربي بعناد متعمد:

- لم أفهم مُرادك بعد ولذا لا أعدك بشيء.

فاستطرد مستر جراد جرايند في همومه واستعطافه:

- في مدى الساعات القلائل الماضية بدا لي يا عزيزي باوندربي أنني أدركت من سجية لويزا أكثر مما كنت أعرفه عنها في السنوات الخالية. وقد أرغمت على هذه المعرفة إرغامًا مؤلمًا. ولم يكن لي في ذلك الاكتشاف فضل. وقد يدهشك أن تسمعني أقول يا باوندربي إنني أظن أن لدى لويزا جوانب أهمل شأنها إهمالًا قاسيًا حتى إنها تشوهت بعض الشيء. وأقترح عليك أن تعمل معي في محاولة عاجلة للتخلية بينها وبين طبيعتها الفضلى فترة من الوقت وأن نشجعها على

إنمائها بالحنان والرعاية. فإن رأيت أن ذلك كان خيرًا لسعادتنا جميعًا، فلويزا (وغطى وجهه بيده) كانت دائمًا طفلتي الأثيرة عندي.

وحاكى لون باوندربي الصخاب القرمز وانتفخت أوداجه عند سماع هذه الكلمات بحيث بدا أنه مشرف على نوبة فالج. ومع ذلك كظم استنكاره، وقال وأذناه تتلهبان لفرط احمرارهما:

- أتحب أن تستبقيها هنا فترة من الزمن؟

- كنت أنوي يا عزيزي باوندربي أن أوصيك كي تأذن للويزا في البقاء هنا زائرة كي ترعاها سيسي - أعني بالطبع سيسليا جيب - التي تفهمها وتودعها ثقتها.

فقال باوندربي وهو يقف واضعًا يديه في جيبيه:

- أستخلص من هذا كله يا توم جراد جرايند أنك على رأي من يرون أن ثمة ما يسميه الناس مباينة في الطباع بين لو باوندربي وبيني.

وكان رد والدها الأسيف:

- أخشى أن يكون هناك في الوقت الحاضر تباين شامل بين لويزا و... و... وجميع العلاقات التي وضعتها فيها تقريبًا.

فقال باوندربي وهو يواجهه مباعدًا بين ساقيه جهد المباعد، داسًا يديه في جيبيه جهد الدس، وشعره كحقل من العشب الجاف، وقد بلغ غضبه المائج مداه:

- والآن اسمع يا توم جراد جرايند! لقد قلت كلمتك الآن وسأقول كلمتي، أنا رجل من كوكتاون، أنا جوشيا باوندربي من أعيان كوكتاون. وأنا أعرف لبِنات هذه المدينة وأعرف مصانعها، وأعرف مداخنها، وأعرف دخانها وأعرف اليد العاملة فيها، أعرف هؤلاء جميعًا خير معرفة، فهم واقع محسوس. وعندما

يحدثني أي إنسان بأي شيء عن الجوانب الخيالية أقول دائمًا لذلك الإنسان كائنًا من كان إني أعرف ماذا يعني: فهو يعني حساء السلاحف ولحم الصيد وملعقة ذهبية وإنه يريد أن يزود بعربة تجرها ستة جياد وهذا ما تريده ابنتك وما دمت ترى أنها ينبغي أن تحصل على ما تريد، فإني أوصيك أن تكفله لها لأنها يا توم جراد جرايند لن تحصل عليه مني.

- كنت أرجو يا باوندربي أن تكون لهجتك بعد الذي سمعته من ضراعتي قد تغيرت.

- على رسلك قليلًا، لقد كلمتك فيما أعتقد، وقد سمعتك حتى النهاية فاستمع إليَّ حتى النهاية من فضلك، ولا تجعل من نفسك نموذجًا للجور مثلما أصبحت نموذجًا لعدم الثبات على المبدأ. فإني وإن أسفت لوصول توم جراد جرايند إلى وضعه الراهن حري أن أشعر بأسف مزدوج إن هو هبط إلى هذا الدرك والآن! إن ثمة تباينًا من نوع ما كما فهمت منك بين ابنتك وبيني وسأفهمك ردًّا على ذلك أن ثمة تباينًا لا مراء فيه وفي منتهى الجسامة يتلخص في أن ابنتك لا تعرف مزايا زوجها المعرفة اللائقة ولا تقدر كما ينبغي لها وربي أن تقدر شرف الاقتران به. وأرجو أن أكون أبنت بكلامي هذا وأفصحت.

فناشده مستر جراد جرايند قائلًا:

- هذا غير معقول يا باوندربي.

- أكذاك هو؟ يسرني أن أسمعك تقول هذا لأنه عندما يقول لي توم جراد جرايند بعقليته الجديدة إن ما أقوله غير معقول فهو الدليل الحاسم على صوابي المطلق وبإذنك أمضي في القول: أنت تعرف أصلي وتعلم أنني سلخت سنوات كثيرة من عمري ولا حاجة بي إلى (لبيسة حذاء)؛ لأنه لم يكن لي حذاء. ولك أن

تصدق أو لا تصدق كما يتراءى لك أن هناك سيدات... ولدن سيدات... وينتمين إلى عائلات كريمة، عائلات كريمة!... يكدن يعبدن الأرض التي أمشي عليها.

وأطلق هذه العبارة كأنها الصاروخ المنقض على رأس حميه، ثم استطرد قائلًا:

- في حين أن ابنتك شتان بينها وبين السيدات ذوات الأحساب، وأنت شخصيًّا تعرف هذا، وما ذاك لأنني أهتم مثقال ذرة بمثل هذه الأمور، فأنت تعلم تمام العلم أن هذا ليس شأني، ولكن هذه هي الحقيقة الواقعة وليس بوسعك يا توم جراد جرايند أن تغير منها. ولماذا أقول ذلك؟

فقال مستر جراد جرايند بصوت خفيض:

- لا أخالك تقوله على سبيل الترفق بي.

- استمع إليَّ حتى النهاية وتجنب مقاطعتي إلى أن يحين دورك في الكلام. إني أقول ذلك لأن الإناث الحسيبات النسيبات أدهشهن أن يرين الطريقة التي انتهجتها زوجتك لنفسها ويشهدن مجافاتها للحكمة ويعجبن كيف صبرت على هذا. وإني لأعجب الآن لنفسي، ولن أصبر عليه من بعد.

فقال جراد جرايند وهو ينهض واقفًا:

- كلما قل حديثنا الليلة يا باوندربي في هذا الشأن كان ذلك أفضل فيما أعتقد.

- بالعكس يا توم جراد جرايند، كلما أفضنا في القول الليلة كان ذلك أفضل فيما أعتقد أي إلى أن أفرغ من كل ما أنوي أن أقوله، وبعدئذٍ لست أُبالي أين نكف عن الحديث وأتناول الآن مسألة قد تختصر المناقشة: ماذا تعني باقتراحك الذي عرضته الآن؟

- ماذا أعني يا باوندربي!

فقال باوندربي:

- اقتراحك بصدد الزيارة!

وهز باوندربي حقل العشب الذي يعلو وجهه هزة التصميم.

- عنيت بذلك أنني آمل أن ترضى بطريقة ودية بالسماح للويزا بفترة من الراحة ومراجعة النفس هنا، مما قد يؤدي إلى تغير تدريجي وتحسن من وجوه كثيرة.

فقال باوندربي:

- إلى المطامنة من فكرتك عن التباين في الطباع!

- لك أن تقول هذا إن شئت.

- وما الذي حدا بك إلى هذا التفكير؟

- لقد قلت لك من قبل إني أخشى ألا تكون لويزا قد فُهمت على حقيقتها. فهل تراني أُسرف يا باوندربي إن أنا طالبتك وأنت أسنُّ منها بكثير أن تعين على علاج أمرها! لقد أخذت على عاتقك مسئوليتها في السراء والضراء.

وكان مستر باوندربي حريًّا أن يضيق بتكرير ألفاظه بعينها التي وجهها إلى ستيفن بلاكبول من قبل، بيد أنه ابتسر النص غاضبًا وهو يقول:

- اسمع! لا أريد كلامًا في هذا الشأن، فأنا أعلم الأساس الذي اتخذتها عليه زوجة مثلما تعلمه أنت. فلا تشغل بالك بهذا الأساس، فذلك شأني أنا.

- إنما كنت يا باوندربي على وشك أن أقول لك إننا جميعًا عرضة للخطأ على مستويات متفاوتة، ولا أستثنى من ذلك أحدًا حتى أنت. وإن بعض التنازل من

جانبك إذا ما ذكرت المسؤولية التي تقبلتها لا يعتبر حنانًا صادقًا فحسب، بل ربما صار دينًا تطوق به لويزا.

فهدر باوندربي قائلًا:

- ليس هذا رأيي. وسوف أحسم هذا الموضوع بحسب ما يتراءى لي. ولست أريد شِقاقًا حول هذه المسألة بيني وبينك يا توم جراد جرايند. والحق أقول لك إني لا أرى مما يليق بسمعتي أن أتشاجر بسبب موضوع كهذا. وأما بخصوص صديقك السيد المهذب ففي وسعه أن يرحل إلى حيث يطيب له. وإن إلتقيت به في طريقي سأعبر له عن رأيي فيه أما إن لم ألقه في طريقي فليس بذي بال أن أعني نفسي بالبحث عنه وأما بخصوص ابنتك التي جعلت منها لو باوندربي ولعله كان من الخير أن أدعها كما كانت لو جراد جرايند، فإنها إن لم تعد للبيت غدًا في الساعة الثانية عشرة ظهرًا سأعتبر أنها تفضل البقاء بعيدًا عن البيت وسأبعث إليها بثيابها وما يخصها من أدوات الزينة وما إلى ذلك هنا وعليك أن تتكفل بها مستقبلًا وأما ما سأقوله للناس عمومًا في صدد هذا التباين الذي أدى إلى أن أفرض رأيي على هذا النحو فهو هذا: أنا جوشيا باوندربي وكانت نشأتي ما كانت وهي ابنة توم جراد جرايند، ولها نشأتها، فلم يوافق شنٌّ طبقه وأنا رجل معروف عنه جدًّا أنه ليس عاديًّا فيما أعتقد ومعظم الناس سيدركون ذلك وشيكًا أنه ينبغي أن تكون المرأة التي تجري معي في عنان واحد امرأة غير عادية كذلك.

فعارضه مستر جراد جرايند قائلًا:

- دعني أُناشدك بحرارة أن تفكر في هذا الأمر يا باوندربي قبل أن تصدر هذا القرار.

فقال باوندربي وهو يلقي بقبعته على رأسه:

- إني أصل دائمًا إلى قرار حاسم، وأيًّا كان ما أفعله فإني أفعله على الفور. ويدهشني أن يوجه توم جراد جرايند مثل هذه الملاحظة إلى جوشيا باوندربي من أعيان كوكتاون، وهو يعلم عنه ما يعلم، هذا إن جاز لي أن أدهش لأي شيء يبدو من توم جراد جرايند بعد أن جعل من نفسه ضربًا للهراء العاطفي لقد أخبرتك بقراري، ولم يعد لديَّ ما أقوله طابت ليلتك.

وهكذا عاد مستر باوندربي إلى بيته في المدينة وأوى إلى فراشه. وبعد الساعة الثانية عشرة من ظهر اليوم التالي بخمس دقائق أمر بمتاع مسز باوندربي أن يحزم بعناية ويرسل إلى بيت توم جراد جرايند وأعلن عن بيع بيته الصيفي بعقد خاص وثاب إلى حياة العزوبة.

الفصل الرابع

ضيـــاع

لم تكن سرقة المصرف فقدت أثرها من قبل. ولم تزل تشغل المكان الأول من اهتمام رئيس تلك المؤسسة في الوقت الحاضر. ففي تدليل متفاخر على حزمه ونشاطه باعتباره رجلًا مرموقًا وعِصاميًّا وعجيبة في ميدان التجارة أحرى بالعجب من (فينوس)، إذ خرج من الطين لا من البحر كما خرجت، أراد أن يبرهن على مدى هوان شؤونه العائلية في إخماد حماسته للعمل؛ ولذا أظهر في الأسابيع القليلة الأولى من عودته إلى حياة العزوبة تقدمًا في بسط صخبه المعتاد، وصار يحدث في كل يوم شغبًا يجدد به تحرياته في السرقة، حتى لقد أوشك الموظفون الذين يتولون التحقيق أن يتمنوا لو لم ترتكب هذه السرقة أصلًا.

كانوا قد فشلوا في تحرياتهم وضلوا عن الأثر الصحيح، مع أنهم إلتزموا الصمت التام بعد الضجة الأولى، حتى إن معظم الناس اعتقدوا حقًّا أن القضية صرف النظر عنها يأسًا من الوصول إلى نتيجة فيها إذ لم يروا جديدًا يجري بشأنها. ولم تواتِ الجرأة المتهورة رجلًا أو امرأة من المتواطئين على الجرم، فلم يقدم أحد منهم على خطوة تفضح أمره. وأدعى من هذا للنظر أن ستيفن بلاكبول لم يستطع أحد أن يسمع عنه شيئًا. وأن العجوز الغامضة ظل أمرها لغزًا غامضًا.

وحيث إن الأمور وصلت إلى هذا الحد وليس هناك ما يدل على أنها ستجاوزه، فقد تمخضت تحريات مستر باوندربي عن عزمه على المجازفة بإحداث ضجة صاخبة فكتب لافتة يعلن بها عن عشرين جنيهًا جائزة للقبض على ستيفن بلاكبول المشتبه في اشتراكه في سرقة مصرف كوكتاون في ليلة كذا. ووصف ستيفن بلاكبول المذكور ملبسًا ولونًا وارتفاع هامة على وجه التقريب، ومسلكًا بأقصى ما استطاع من الدقة، وسرد كيفية مبارحته المدينة وفي أي اتجاه شوهد سائرًا آخر مرة، وأمر بكل هذا فطبع بحروف كبيرة سوداء فوق رقعة واسعة من الورق ملفتة للنظر، وأمر بالجدران فعلقت عليها تحت جنح الليل بحيث تفجأ أنظار الناس جميعًا دفعة واحدة.

واحتاجت أجراس المصانع إلى أن تدق بأعلى صوتها في ذلك الصباح كي تفرق جماعات العمال الواقفين في مطلع النهار المتأخر متجمعين حول اللافتات يلتهمونها بأعينهم المتطلعة. ولم يكن أقل هذه العيون المتجمعة تطلعًا عيون من لا يستطيعون القراءة، فهؤلاء إذ يصغون لأصوات أصدقائهم وهي تقرأ بصوت مرتفع - فثمة دائمًا من هم على استعداد لمساعدتهم في هذه الوجهة - كانوا يحملقون في الحروف التي تعني كل هذا بخوف غامض واحترام حريين بأن يكونا نصف مضحكين لو أن أي وجه من وجوه الجهل العام يمكن في أي وقت أن يكون إلا نذيرًا مستطيرًا وشرًّا عميمًا. وكانت آذان كثيرة وعيون مشغولة بتصور موضوع هذه اللافتات بين المغازل الدائرة والأنوال الهادرة وأزيز الدواليب ساعات طوالًا بعدئذٍ، ولما انفضت الأيدي العاملة مرة أخرى وتدفقت إلى الشوارع كان ثمة من القارئين عدد لا يقل عما كانوا بكرة.

وكان على المندوب المفوض سلا كبريدج أن يخطب سامعيه أيضًا تلك الليلة، وكان قد حصل على إعلان نظيف من الطابع أحضره معه في جيبه. ويا

صحابي ومواطني عمال كوكتاون المسحوقين وإخوتي وزملائي العاملين وأبناء بلدي وإخوتي في البشرية، أي ضجة قامت عندما بسط سلا كبريدج ما سماه (وثيقة دامغة) ورفعها ليعرضها على الأنظار ويعرِّضها لاستهجان الهيئة العاملة!

- آه يا إخوتي في البشرية! انظروا ما أقدم عليه خائن في معسكر النفوس العظيمة المسجلة في القوائم المقدسة، قوائم العدالة والاتحاد! يا صحابي الرازحين تحت نير الطغاة الأليم الذي يثقل أعناقكم، وتحت قدم الاستبداد الحديدية التي تطأ أجسادكم المنهارة فتدوسها في تراب الأرض، ذلك التراب الذي يبهج قلوب غاصبيكم أن يروكم تزحفون فوقه على بطونكم سائر أيام حياتكم مثلما كانت الأفعى تسعى على بطنها في الجنة... يا إخواني، وأحرى بي أيضًا باعتباري رجلًا أن أقول كذلك يا أخواتي، ما تقولون (الآن) في ستيفن بلاكبول بانحناءته الخفيفة في كتفيه وطوله البالغ خمس أقدام وسبع بوصات تقريبًا على حد ما تصفه به هذه الوثيقة المخزية المقززة، هذا الإعلان اللافح، هذه اللافتة الموبقة، هذا التنبيه الكريه. وبأي عظمة في الكشف عنه ستسحقون الصل الذي جلب هذه الوصمة وهذا العار على السلالة القدسية التي نبذته لحسن الطالع إلى الأبد! أجل يا بني وطني، أحسنتم صنعًا بنبذه وإقصائه! فأنتم تذكرون كيف وقف ها هنا أمامكم فوق هذه المنصة، وتذكرون كيف قمت بتعقبه وجهًا لوجه وقدمًا لقدم في سائر إلتواءاته المعقدة، وتذكرون كيف راح ينسل ويتملص ويراوغ ويحاور ويداور، إلى أن نضب معين احتياله فطردته من بين ظهرانينا نهبًا للازدراء الأبدي والهزء الذي لا ينقضي، وفريسة لسعير الانتقام الذي يلفحه ويشويه به كل عقل حر الفكر؟ والآن يا أصدقائي بل يا صحابي العاملين - فإني أُسرُّ وأزهو بهذه السمة - يا أصدقائي الذين صنعت أسَّرتُهم الصلبة الشريفة بالكد والعناء ولا تغلي مراجل مطابخهم الضاوية

المستقلة إلا بالكدح المضني، أسألكم الآن أيها الأصدقاء أي نعت استوجبه لنفسه هذا النذل الرعديد إذ يقف أمامنا وقد تمزق القناع عن سيماه عاريًا شائهًا فإذا أي شيء هو؟ لص! نهاب! آثم آبق لرأسه ثمن! بثرة وطعنة في المحيا النبيل لهيئة كوكتاون العاملة! ولذا يا زمرة الإخوة في رابطة مقدسة انخرط في سلكها أولادكم وأولاد أولادكم الذين لم يولدوا بعد! إني أقترح عليكم باسم رابطة العمال المتحدة الساهرة دوامًا على رفاهتكم والناشطة دوامًا في سعيها لخيركم أن يقرر هذا الاجتماع: أن ستيفن بلاكبول النساج المشار إليه في هذه اللافتة والذي سبق أن نبذ بصفة حاسمة من الهيئة العاملة في كوكتاون، تعلن هذه الهيئة براءتها من مغبة جرائمه المخزية ولا يمكن أن يلحقها من حيث هي طبقة أي ملام بسبب أفعاله المناهضة للشرف!!

هكذا تكلم سلا كبريدج صارفًا بأسنانه والعرق يتفصد منه بغزارة. وارتفعت أصوات قليلة تصيح (لا)! وصاح عشرون أو أربعون منادين بالموافقة (مرحى مرحى)! وانبرى رجل واحد يعترض ويحذر:

- إنك يا سلا كبريدج تُبالغ في الاندفاع!

بيد أن هذه الصيحات لم تكن شيئًا مذكورًا في هزالها أمام جحفل كامل، فاعتنقت الأغلبية بشارة (معلمنا) سلا كبريدج، وحيته بالهتاف ثلاثًا حين جلس وهو يلهث أمامهم بصورة استعراضية.

وكان هؤلاء الرجال والنساء لم يزالوا في الشوارع مجتازين بهدوء إلى بيوتهم عندما دعيت سيسي لأمر ما، ففارقت لويزا بضع دقائق، فلما عادت سألتها لويزا:

- من هناك؟

فقالت سيسي وهي خجلى من ذكر الاسم:

- إنه مستر باوندربي وشقيقك مستر توم وامرأة شابة تقول إن اسمها راشيل، وإنك تعرفينها.

- وماذا يريدون يا عزيزتي سيسي؟

- يريدون مقابلتكِ وكانت راشيل تبكي وتبدو غاضبة.

فقالت لويزا لأبيها الذي كان موجودًا بالحجرة:

- لا أستطيع يا أبي أن أرفض مقابلتهم، وذلك لسبب سيتضح من تلقاء نفسه. هل أدخلهم هنا؟

ولما أجابها بالموافقة خرجت سيسي لتأتي بهم، وسرعان ما عادت معهم، وكان توم آخرهم، وظل واقفًا في أكثر مواضع الحجرة خفاءً، قرب الباب. وقال الزوج وهو يدخل مومئًا برأسه في فتور:

- أرجو يا مسز باوندربي ألا أكون قد أزعجتكِ، فهذه الساعة غير مناسبة، ولكن ها هنا امرأة شابة أدلت بأقوال تجعل زيارتي حتمية، ولما كان ابنك توم الصغير يا توم جراد جرايند يرفض بعناد لسبب أو لآخر أن يقول أي شيء بخصوص هذه الأقوال خيرًا كان أو شرًّا، فقد اضطررت لمواجهتها بابنتك.

فقالت راشيل وهي واقفة في مواجهة لويزا:

- لقد رأيتني أيتها السيدة الشابة مرة من قبل.

وسعل توم، وعادت راشيل تكرر عبارتها إذ لم تتلق جوابًا: (لقد رأيتني أيتها السيدة الشابة مرة من قبل).

وسعل توم مرة أخرى.

- فعلًا.

فرنت راشيل بطرفها في أنفة صوب مستر باوندربي وقالت:

- وهل لكِ أيتها السيدة الشابة أن تعلني أين كان ذلك ومن كان موجودًا؟

- لقد ذهبت إلى البيت الذي كان ستيفن بلاكبول يقيم به في ليلة تسريحه من عمله وقد رأيتكِ هناك، وكان هو أيضًا موجودًا، وكانت عجوز لم تتكلم ولم ألحظ وجودها إلا بمشقة واقفة في ركن مظلم، وأخي كان معي.

فسأله باوندربي:

- لماذا لم تقل هذا يا توم الصغير؟

- لأني وعدت أختي ألا أتكلم (وسارعت لويزا إلى تأييده، واستطرد الجرو يقول بمرارة) يضاف إلى هذا أنها تروي قصتها بغاية البراعة والشمول، فبأي حق استأثر لفمي بالقول دون فمها؟

واستطردت راشيل:

- قولي أيتها السيدة الشابة من فضلك لماذا في ساعة نحس أتيت إلى بيت ستيفن في تلك الليلة.

فقالت لويزا وقد اشتدت حمرتها:

- شعرت بالإشفاق عليه وأردت أن أعرف ماذا سيصنع، وأحببت أن أعرض عليه العون.

فقال باوندربي:

- أشكرك يا سيدتي وأدين لك بهذا الإطراء البالغ.

وسألتها راشيل:

- هل عرضت عليه ورقة نقد؟

- أجل. بيد أنه رفضها ولم يقبل أن يأخذ سوى جنيهين من الذهب.

ورنت راشيل بطرفها صوب مستر باوندربي مرة أخرى، فقال لها:

- طبعًا! إن سألتني هل روايتك المضحكة غير المحتملة صادقة أم لا، فأنا مضطر أن أقول إنها لقيت تأييدًا.

فقالت راشيل:

- أيتها السيدة الشابة إن ستيفن بلاكبول موصوف الآن باللصوصية في منشور عام في طول هذه المدينة وعرضها، وفي كل موضع آخر! وقد عقد الليلة اجتماع دار الحديث فيه عنه بهذه الصورة الشائنة. ستيفن! أشرف فتى، وأصدق فتى وأفضل فتى!

وخانها استنكارها فانفجرت منتحبة. وقالت لويزا:

- إني آسفة جدًّا جدًّا.

- أيتها السيدة الشابة! أتمنى أن تكوني آسفة، ولكني لا أدري الحقيقة، ولا أستطيع أن أقول ماذا عساكِ فعلت! إن أمثالك لا يعرفوننا، ولا يكترثون بنا، ولا ينتمون إلينا. ولست متأكدة مما حدا بكِ إلى المجيء تلك الليلة وكل ما أستطيع أن أقوله هو أنكِ ربما جئتِ لغرض في نفسكِ، غير مبالية بالضرر الذي قد تجلبينه على مثل هذا الفتى المسكين ولقد قلت عندئذٍ (بوركت إذ جئت) وقلتها من قلبي، فقد بدا عليكِ مأخوذة بالشفقة عليه. أما الآن فلست أدري. لست أدري!

ولم تستطع لويزا أن تلومها عن ظنونها الظالمة، فهي وفية لفكرتها عن الرجل شديدة الغم لما أصابه. وقالت راشيل من بين شهقات نحيبها:

- وعندما يجول بفكري أن الفتى المسكين كان شديد العرفان لجميلك اعتقادًا منه في شدة حدبك عليه، وعندما أتذكر أنه غطى بيده وجهه المكدود بالعمل كي يخفي الدموع التي جعلتها تطفر إليه... أوه! أتمنى أن تكوني آسفة وألا يكون الباعث على أسفك سيئًا. ولكني لست أدري! لست أدري!

وزمجر الجرو متململًا في ركنه المعتم:

- ما أجرأكِ امرأة! تأتين إلى هنا بهذه الافتراءات المتبجحة! إنكِ تستحقين الطرد لأنكِ لا تدرين كيف تحسنين السلوك جزاءً وفاقًا!

ولم تجبه بشيء، بل كان نحيبها الخافت هو الصوت الوحيد المسموع إلى أن تكلم مستر باوندربي فقال:

- اسمعي! أنتِ تعلمين ما تعهدت بالقيام به، فمن الخير لك أن تلقي بالكِ إليه، لا إلى البكاء.

فقالت راشيل وهي تجفف عينيها:

- إني حقًّا مستاءة إذ يراني أي إنسان هنا على هذا النحو، ولكني سوف لا أُرى هكذا من بعد أيتها السيدة الشابة، إني عندما طالعت ما تضمنه المنشور عن ستيفن - وليس فيه من الصدق عنه أكثر مما فيه من الصدق لو أنه قيل عنك - ذهبت فورًا إلى المصرف لأقول إنني أعلم أين ستيفن ولأقطع وعدًا وثيقًا مؤكدًا أنه سيكون موجودًا هنا في مدى يومين. ولم أستطع مقابلة مستر باوندربي حينئذٍ، وطردني أخوك، وحاولت العثور عليه فلم أوفق فعدت إلى عملي. وبمجرد أن خرجت من المصنع الليلة سرعان ما سمعت ما يُقال عن ستيفن - لأني أعلم بكل فخر أنه سيعود ليدحضه! - فذهبت مرة أخرى أنشد مستر

باوندربي ووجدته وأخبرته بكل ما أعرفه بحذافيره، فلم يصدق كلمة مما قلت وأتى بي إلى هنا.

وأمّن مستر باوندربي على كلامها ويداه في جيبيه وقبعته على رأسه، قائلًا:

- إلى هنا وهذا صحيح، وقد عرفتكم يا قوم قبل اليوم وأعلم أنكم لا تموتون افتقارًا إلى الكلام، وأنا الآن أوصيك ألا تهتمي حاليًا بالكلام دون العمل، فقد تعهدت أن تفعلي شيئًا وكل ما أنشد في الوقت الحاضر منك هو البر بوعدك.

- لقد كتبت إلى ستيفن بالبريد الذي صدر بعد ظهر اليوم مثلما كتبت إليه مرة من قبل عندما رحل، وسيكون هنا على الأكثر بعد يومين.

فأجاب باوندربي قائلًا:

- إذن سأخبرك شيئًا، لعلك لم تفطني إلى أنكِ كنتِ تحت المراقبة بين حين وآخر باعتباركِ غير منزهة عن الشبهة في هذه المسألة باعتبار أن معظم الناس عرضة للحكم عليهم على أساس النظر إلى عشرائهم ولم يغفل كذلك أمر مكتب البريد. وما أخبركِ به هو أنه لم يودع بذلك المكتب أي خطاب موجه إلى ستيفن بلاكبول، ولذا أترك لكِ تخمين ما جرى لخطابكِ، ولعلكِ مخطئة، ولم تكتبي خطابًا.

فقالت راشيل وهي تلتفت صوب لويزا ضارعة:

- لم يمضِ على رحيله من هنا يا سيدتي الشابة مقدار أسبوع عندما بعث إليَّ الخطاب الوحيد الذي جاءني منه قائلًا إنه أرغم على البحث عن عمل تحت اسم آخر.

فصاح باوندربي وهو يهز رأسه ويصفر:

- بحقِ الشيطان! أتراه غير اسمه؟! هذا أيضًا من سوء طالع ذلك الفتى النقي الصفحة. ففي المحاكم يعتبر من دواعي الريبة فيما أعتقد أن يكون للشخص البريء جملة أسماء.

فقالت راشيل وقد طفرت الدموع إلى عينيها ثانيةً:

- وماذا بقي يا سيدتي الشابة بحق الرحمة للفتى المسكين أن يصنعه غير هذا؟ فالسادة ضده من جانب، والعمال ضده من الجانب الآخر، وهو لا يبغي إلا العمل الجاد في أمان والقيام بما يراه حقًّا أليس من حق المرء أن تكون له روحه المستقلة وتفكيره المستقل؟ أينبغي عليه أن يظل مذنبًا على طول الخط في نظر هذا الجانب، أو أن يظل مُذنبًا على طول الخط في نظر ذاك الجانب، وإلا حق عليه الطراد كالأرنب؟

فأجابتها لويزا قائلة:

- إني الحق أرثي له من قلبي، وأتمنى أن يثبت براءته.

- لا حاجة بك للخوف من هذه الجهة أيتها السيدة الشابة، فلسوف يفعل!

فقال مستر باوندربي:

- ومن علامات ذلك فيما أعتقد رفضك أن تقولي لي أين هو؟

فقالت راشيل ملقية عنها سواء الظن كما تلقي الصخرة عن نفسها موج البحر:

- إنه لن يعود وأنا المتسببة بسلوكي في إلقاء شبهة الحضور مرغمًا عليه بغير استحقاق. بل سيعود من تلقاء نفسه لتبرئة نفسه وسيلحق بكل من أساءوا إلى سمعته الطيبة وهو غير موجود للدفاع عنها الخزي والعار. فقد أخبرته بكل ما

كيد له به وسيكون هنا على الأكثر بعد يومين.

فقال باوندربي:

- هذا إذا لم يمكن وضع اليد عليه قبل ذلك، فتسنح له فرصة باكرة لتبرئة نفسه، أما أنت فليس عندي شيء ضدك، وما جئت فأخبرتني به اتضح صدقه. وقد أتحت لك وسيلة إثبات صدقه، وهذا فصل الختام. وأتمنى لكم جميعًا ليلة سعيدة! ويجب أن أنصرف الآن لأمضي في تقصي هذا الموضوع.

وبارح توم ركنه عندما تحرك مستر باوندربي، فتحرك معه وظل على كثب منه وخرج معه. وكانت تحية الفراق الوحيدة التي خرج عنها قوله في تجهم (طابت ليلتك يا أبي!) وبكلمة مقتضبة وتقطيب صوب أخته غادر البيت.

وكان مستر جراد جرايند منذ ألقى عصا التسيار في بيته نزر الكلام، فظل صامتًا في جلسته حتى قالت لويزا بدماثة:

- سوف لا تسيئين الظن بي يا راشيل يومًا عندما تعرفينني معرفة أتم.

فأجابت راشيل بلهجة أرق:

- قلبي لا يطاوعني أن أسيء الظن بأحد، ولكن عندما يساء الظن بي - بل بنا جميعًا - لا أستطيع أن أبعد مثل تلك الأمور عن ذهني. وأسألك الصفح عن إساءتي إليك، فأنا لا أعني ما قلت الآن، وإن كنت حرية أن أعنيه حتى أتذكر ما لحق بالفتى المسكين من أذى.

فسألتها سيسي:

- هل أخبرته في خِطابك أن الشبهة تحوم حوله لأنه شوهد قرب المصرف ليلًا؟ إنه بذلك حري أن يعلم ما ينبغي عليه أن يقدم عنه إيضاحًا عند عودته، فيستعد له.

- أجل يا عزيزتي وإن كنت لا أستطيع أن أخمن ما الذي ذهب به إلى هناك، فلم يكن من عادته أن يذهب إلى تلك الناحية؛ لأنها ليست على طريقه، فطريقه هي طريقي وهي بعيدة عنه.

ووقفت سيسي بجوارها تسألها أين تقيم وهل في مقدورها أن تذهب إليها ليلة الغد لتسألها هل لديها أنباء عنه، فقالت راشيل:

- أشك في أنه يمكن أن يصل قبل اليوم التالي.

- إذن سأذهب إليك في الليلة التالية أيضًا.

ووافقت راشيل على ذلك ثم انصرفت، فرفع مستر جراد جرايند رأسه وقال لابنته:

- إني يا عزيزتي لويزا لم أرَ فيما أعلم ذلك الرجل مطلقًا، أتعتقدين أن له يدًا في الجرم؟

- لقد اعتقدت هذا يا أبي بكل مشقة، أما الآن فلا أعتقد ذلك.

- معنى هذا أنك أقنعت نفسك يومًا باعتقاد ذلك، عندما علمت أنه موضع شبهة. فهل يدل مظهره وسلوكه على منتهى الاستقامة؟

- على منتهى الاستقامة.

- وثقتها به لا تتزعزع! إني لأسأل نفسي هل يعرف الجاني الحقيقي هذه الاتهامات؟ وأين هو؟ ومن هو؟

وكان شعره في المدة الأخيرة بدا لونه يتغير، فلما اتكأ على يده مرة أخرى وبدا أشيب مسنًّا، أسرعت نحوه لويزا وقد ارتسم على وجهها الخوف والرثاء وجلست بجواره. وإلتقت عيناها صدفة بعيني سيسي في تلك اللحظة، فاحمر وجه سيسي وأجفلت، ووضعت لويزا إصبعها على شفتها.

وفي الليلة التالية عندما عادت سيسي إلى البيت وأخبرت لويزا أن ستيفن لم يحضر، أبلغتها ذلك همسًا، وفي الليلة بعدها كذلك، عندما عادت إلى البيت بالنتيجة عينها وأضافت أنه لم يسمع عنه شيء، كان كلامها بالنبرة الخافتة المروعة عينها. ومنذ لحظة تبادل النظرات لم تنطق الاثنتان باسمه ولا أشارتا إليه جهرًا، بل ولا خاضتا في حديث السرقة عندما تكلم فيه مستر جراد جرايند.

وانقضى اليومان المحددان، وانقضت ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ ولم يأت ستيفن بلاكبول ولم يصل عنه نبأ. وفي اليوم الرابع ذهبت راشيل إلى المصرف - وثقتها لم تهن وإنما هي قدرت أن رسالتها لم تصل إلى وجهتها المقصودة وأبرزت خطابه إليها وبه عنوانه في مستعمرة للعمل لكثيرات من مثيلاتها غير واقعة على الطريق الرئيسية على مسافة ستين ميلًا. وذهب الرسل إلى ذلك الموقع، وتوقع المدينة بأسرها الإتيان بستيفن في اليوم التالي.

وطيلة ذلك الوقت كله كان الجرو يتبع مستر باوندربي في تحركاته كظله ويساعده في جميع الإجراءات، وكان متوفزًا للغاية محمومًا إلى أقصى حد، يقرض أظافره حتى اللحم الحساس، ويتكلم بصوت جامد أجش وشفتاه سوداوان متقلصتان. وفي الساعة التي كان ينتظر فيها وصول الرجل المشتبه في أمره توجه الجرو إلى المحطة وأبدى استعداده للمراهنة على أنه فرَ قبل وصول أولئك الذين بعثوا لإحضاره، وأنه لن يأتي.

وصدق الجرو، فقد عاد الرسل وحدهم، فخطاب راشيل أُرسل ووصل إلى يده، وفي مدى ساعة واحدة ارتحل ستيفن بلاكبول! ولم يعلم أحد عنه شيئًا أكثر من ذلك. والريبة الوحيدة في كوكتاون تدور حول حسن نية راشيل حين كتبت إليه، وهل كانت تعتقد أنه سيعود حقًّا أم هي أرادت أن تنذره كي يفر وانقسمت الآراء في هذا الصدد.

ومرت ستة أيام ثم سبعة، وأوغل الزمن في أسبوع آخر والجرو الحقير يتبجح في جرأة بالغة وقد انقلب إلى: هل الشخص المشتبه في أمره هو اللص؟ يا له من سؤال مليح! وإن لم يكن هو، فأين الرجل، ولماذا لم يعد؟

أين الرجل؟ ولماذا لم يعد؟ في بهيم الليل راحت أصداء كلماته التي ترددت عَلمَ الله في أية آماد أثناء النهار، وثابت إليه ولزمته حتى الصباح.

الفصل الخامس

وجـــدان

يوم وليلة آخران، ثم يوم وليلة مثلهما، ولا أثر لستيفن بلاكبول. فأين كان الرجل ولماذا لم يعد؟

وفي كل ليلة كانت سيسي تذهب إلى مسكن راشيل وتجلس معها في حجرتها الصغيرة الأنيقة، وراشيل تكدح طول النهار كما ينبغي لأولئك الناس أن يكدحوا كائنة ما كانت همومهم، فأفاعي الدخان لا تكترث بمن ضاع أو وجد، ولا لمن أخفق أو أفلح، والفيلة التي أطاش صوابها الحزن شأنها في ذلك شأن أنصار الواقع الجامد، ما من شيء يقلل مضيها في نهجها المقرر مهما حدث. ويوم وليلة آخران، ثم يوم وليلة مثلهما، والرتابة لا يعتريها اضطراب، حتى اختفاء ستيفن بلاكبول أوشك أن يدخل في الإطار العام ويغدو العجب منه رتيبًا كأي آلة في كوكتاون.

وقالت راشيل:

- إني أشك في أنه بقي في هذه المنطقة كلها أشخاص يصل عددهم إلى عشرين مؤمنين أدنى إيمان ببراءة الفتى المسكين في الوقت الحاضر.

قالت هذا لسيسي وهما جالستان في مسكنها، في ضوء المصباح القائم عند رأس الشارع. وكانت سيسي قد حضرت بعد أن خيم الظلام فعلًا لتنتظر أوبتها من العمل. وجلستا منذ تلك اللحظة في النافذة حيث وجدتها راشيل، ولم تكونا

بحاجة إلى ضوء أقوى من هذا ليشرق على حديثهما الحزين. واستطردت راشيل:

- يُخيّل إليَّ أحيانًا أني كنت حرة أن أُجن لو لم تقيض لي الرحمة حضورك لأتحدث إليك، فأنا أستمد الأمل والقوة منك، فهل تعتقدين أنه ستثبت براءته رغم المظاهر القائمة ضده؟

فأجابت سيسي:

- أعتقد هذا من كل قلبي. وإني لموقنة يا راشيل أن ما في قلبك من ثقة تناهض كل المثبطات ليست على ضلال. وإن شكي فيه لا يمكن أن يربى على شكي لو أنني عرفته طوال سنوات المحنة كما عرفته.

فقالت راشيل وفي صوتها رجفة:

- ولقد عرفته يا عزيزتي طوال تلك السنين جميعًا فكان على طريقته الهادئة مخلصًا لكل ما هو شريف فاضل فحتى لو لم يصل عنه نبأ بعد الآن، وعمرت حتى بلغت المائة من السنين، فإني قائلة وأنا ألفظ النفس الأخير - والله أعلم بمكنون قلبي... فأنا لم أتخل لحظة واحدة عن الثقة بستيفن بلاكبول!

- ونحن جميعًا هناك في ستون لودج يا راشيل نعتقد أنه سيبرأ من التهمة عاجلًا أو آجلًا.

- يسري عني علمي أن هذا هو اعتقادكم هناك. وأندى من هذا على قلبي أنكِ تأتين قاطعة كل هذه المسافة من هناك خصيصًا لتسري عني وتؤنسيني ولكي يراكِ الناس معي وأنا شخصيًّا لم أبرأ بعد من كل شبهة ثم هذا كله أدعى لغمي لما فرط مني في كلامي من ألفاظ جائرة للسيدة الشابة ومع هذا...

- ألستِ تسيئين الظن بها الآن يا راشيل؟

- أما وقد قربت الآن فيما بيننا، فلا بد أني لا أستطيع على الدوام أن أخرج من ذهني...

ثم انخفض صوتها إلى طبقة مناجاة ذاتية بطيئة خافتة حتى أن سيسي اضطرت وهي جالسة بجوارها للإنصات بكل يقظة.

- ... لا أستطيع على الدوام أن أخرج من ذهني إساءة الظن بشخص ما. لا أستطيع أن أحدد في تفكيري من هو، ولا أستطيع أن أتصور كيف ولماذا حدث ذلك. ولكني أسيء الظن بشخص تسبب في إبعاد ستيفن، وأعتقد أنه بعودته طائعًا مختارًا وإظهاره براءته أمام الجميع سيؤدي ذلك إلى إدانة شخص ما، وهذا الشخص هو الذي حال دون عودته وأبعده ليحول دون ظهور الحقيقة التي تدينه.

فقالت سيسي وقد اكفهر لونها:

- هذه فكرة مروعة.

- إنها لفكرة مروعة حقًّا أن نتصوره لَقِيَ حتفه.

فارتجفت سيسي وازداد وجهها اكفهرارًا وقالت راشيل:

- تخطر لي هذه الفكرة أحيانًا مع أنني أبذل كل طاقتي لإبعادها عن ذهني بأن أعمد إلى العد إلى أن أصل بالعدد أرقام ضخمة وأنا أعمل، أو أعمد إلى ترديد المقطوعات التي وعيتها وأنا طفلة مِرارًا وتِكرارًا... ولكن الفكرة تنفذ رغم هذا إلى ذهني فيستولي عليّ قلق جائح مستعر حتى إنني مهما كنت مجهدة أشعر بحاجتي إلى السير السريع أميالًا وأميالًا كي أتغلب على تلك الحالة قبل موعد النوم. سأسير معك إلى البيت.

فقالت سيسي باذلة لها أملًا واهيًا:

- لعله مرض في طريق عودته. وفي هذه الحالة ثمة أماكن كثيرة على الطريق يمكن أن يحل بها.

- ولكنه غير موجود في أي منها فقد فتشوا عنه في سائرها فلم يعثر عليه.

فأقرتها سيسي على مضاضة قائلة: (هذا حق).

- المفروض أن يقطع الرحلة في يومين، وفي حالة اعتلال قدميه وعجزه عن السير أرسلت له في الخطاب الذي وصله أجر الركوب خشية ألا يكون لديه وفر لهذه النفقة.

- نأمل أن يأتينا الغد بخير ما نحن فيه يا راشيل. هيا إلى الهواء الطلق!

وسوت يدها الحانية شال راشيل فوق شعرها الأسود اللامع على نحو ما تعودت أن ترتديه ثم انطلقتا. وكان الليل رائقًا، فكانت ثمة زرافات من العمال هنا وهناك، يتسكعون على رؤوس الشوارع، بيد أن الساعة كانت موعد العشاء للجانب الأكبر منهم، فلم يبقَ في الشوارع إلا أناس قلائل.

- لست شديدة القلق الآن يا راشيل ويدك أبرد.

- إن حالتي تتحسن يا عزيزتي إذا تيسر لي المشي واستنشاق شيء من الهواء الطلق. ولا يتيسر لي ذلك أحيانًا فأصاب بوهن وتضعضع.

- ولكنك لا ينبغي أن تتخاذلي الآن يا راشيل، فقد يحتاج الأمر في أي وقت إلى وقوفك بجانب ستيفن وغدًا السبت، فإن لم تأتنا أنباء غدًا فلنخرج للمشي في الريف صباح الأحد لتستمدي قوة لاستقبال أسبوع آخر. أنذهب؟

- نعم يا عزيزتي.

وكانتا عندئذٍ في الشارع الذي به بيت مستر باوندربي وكانت الطريق إلى مقصد سيسي تمر بهما أمام الباب، وكانتا ماضيتين قدمًا صوبه، وكان قطار قد

وصل لتوه إلى كوكتاون مما تسبب في نشاط حركة عدد من العربات وأثار ضجة جسيمة في المدينة، وجعلت عدة مركبات تهدر بعجلاتها أمامهما وخلفهما وهما قريبتان من بيت مستر باوندربي، ووقفت إحداها من خلفهما فجأة وهما بصدد اجتياز آخر بنيان البيت حتى إنهما استدارتا عن غير قصد لتنظرا، وكان مصباح موقد الغاز يسطع على درج بيت مستر باوندربي فرأتا مسز سبارست في المركبة وهي في نشوة السرور الهائج تُناضل كي تفتح الباب. ورأتهما مسز سبارست في هذه اللحظة عينها فدعتهما للوقوف، وهتفت بعد أن قام الحوذي بتخليصها.

يا لها من صدفة! انزلي يا سيدتي (وكانت مسز سبارست توجه الخطاب لشخص داخل العربة) اخرجي وإلا أمرت بجرك من العربة قسرًا؟

وعندئذٍ نزلت من العربة سيدة لم تكن سوى العجوز الغامضة التي أخذت مسز سبارست بخناقها بلا تودع وهي تصيح بحدة بالغة:

- ارجعوا عنها جميعًا! لا يلمسها أحد. أسيرتي. ادخلي يا سيدتي! (وبدأت مسز سبارست تقلب أمرها السابق) ادخلي يا سيدتي وإلا أمرت بجرك إلى الداخل قسرًا!

ومنظر سيدة ذات هيئة كلاسيكية عريقة قابضة على عنق امرأة عتيقة تسوقها عنوة إلى داخل مقر للسكنى حري في أي ظرف من الظروف أن يكفي لإغراء كل المتسكعين من الإنجليز الأقحاح الذين أسعدهم الحظ بشهود هذا المنظر كي يشقوا طريقهم إلى داخل مقر السكنى المذكور لمعرفة جلية الأمر. أما وقد زاد من جسامة هذه الظاهرة ما اكتنف المدينة بأسرها في ذلك الحين من لغط وغموض بخصوص سرقة المصرف، فالإغراء الواقع على المتسكعين شديد لا يُقاوم، يدفعهم للدخول دفعًا ولا تهددهم السقف بالانهيار على رؤوسهم،

ولذا دخل وراء سيسي وراشيل من شهدوا بالصدفة ما حدث في الشارع وكانوا نحو خمسة وعشرين شخصًا من الجيران. دخلت سيسي وراشيل في أعقاب مسز سبارست وأسيرتها واقتحم الجميع بكامل هيئتهم في غير نظام حجرة مائدة مستر باوندربي. وهناك لم يضيع من في المؤخرة لحظة زمان في صعود الكراسي كي يرتفعوا عن مستوى الواقفين في المقدمة وصرخت مسز سبارست:

- انزلوا مستر باوندربي هنا! أيتها المرأة الشابة راشيل: هل تعرفين من هذه؟

- إنها مسز بجلر.

فصاحت مسز سبارست مزهوة بالنصر:

- هذا ما توقعته! أحضروا مستر باوندربي. ابتعدوا جميعًا!

وعندئذٍ أخذت مسز بجلر العجوز تلف نفسها بثيابها وتتوارى عن الأنظار، وهمست بكلمة توسل فصاحت مسز سبارست بصوت مرتفع:

- لا تقولي لي شيئًا من هذا. لقد قلت لك عشرين مرة ونحن في طريقنا إلى هنا إنني لن أتركك إلا بعد أن أسلمك إليه بنفسي.

وفي هذه اللحظة ظهر مستر باوندربي وفي صحبته مستر جراد جرايند والجرو وكان مجتمعًا بهما في الطابق العلوي وأبدى مستر باوندربي من الدهشة أكثر مما أبدى من كرم الضيافة لمرأى هذا الحشد الذي دخل حجرة مائدته غير مدعو:

- ما المسألة الآن يا مسز سبارست يا سيدتي؟

فقالت تلك المرأة الجليلة موضحة:

- أعتقد يا سيدي أن من حسن طالعي أن يُتاح لي تسليم شخص كنت شديد الرغبة في أن تجده. وقد دفعتني رغبتي في راحة بالك يا سيدي فرحت أجمع

القرائن الناقصة التي تدل على ذلك الموضع من الريف حيث يظن أن هذا الشخص يقيم، بناء على ما أدلت به المرأة الشابة راشيل، الموجودة الآن لحسن الحظ هنا للقيام بالمطابقة، وأسعدني أن أوفق، وأن آتي بهذا الشخص معي. ولا حاجة بي إلى القول بأن ذلك كان على غير مرام هذه العجوز ولم يخل الأمر من مشقة يا سيدي وجهد لتحقيق هذه الغاية ولكن المشقة في خدمتك مسرة لي، والجوع والعطش والبرد متعة.

وهنا كفت مسز سبارست عن الكلام لأن سحنة مستر باوندربي ارتسم عليها مزيج غريب من كافة الألوان والتعبيرات الدالة على الهزيمة والقهر، عندما تمثلت مسز بجلر العجوز أمام ناظره، وصاح بحدة عظيمة غير منتظرة:

- ماذا تعنين بهذا؟ إني أسألك ماذا تعنين بهذا يا مسز سبارست يا سيدتي؟

فهتفت مسز سبارست في وهن: (سيدي!).

وزأر باوندربي:

- لماذا لا تلزمين حدود شؤونكِ يا سيدتي؟ كيف جرؤتِ على دس أنفكِ الفضولي في شؤون أسرتي؟

وأذهلت مسز سبارست هذه الإشارة إلى السمة الأثيرة بين سمات وجهها فجلست بتخشب فوق مقعد كأنما أصابها التجمد، وبنظرة ثابتة تحملق بها صوب مستر باوندربي، وراحت تحك قفازيها أحدهما بالآخر كأنما قد تجمدا أيضًا، وصرخت مسز بجلر وهي ترتعد:

- يا عزيزي جوشيا! يا ولدي الحبيب! لست الملومة، فليس الذنب ذنبي يا جوشيا، فقد قلت لهذه السيدة مِرارًا وتِكرارًا إنني أعلم أن ما تريد أن تفعله لن يرضيك، ولكنها أصرت.

- ولماذا تركتها تأتي بك؟ ألم يكن في استطاعتك أن تطيري قلنسوتها على رأسها، أو تلطميها فتخلعي لها ضرسًا، أو تخمشيها، أو تصنعي بها أي شيء؟

- يا ثمرة أحشائي! لقد هددتني إن أنا قاومتها أن تجعل الشرطة يأتون بي، فكان من الخير أن آتي بهدوء ولا أثير ضجة في مثل... (ونظرت مسز بجلر إلى الجدران المحيطة بها في خجل ولكن في فخر)... في مثل هذا البيت البديع. الذنب في الحقيقة ليس ذنبي يا ولدي العزيز النبيل المهيب! لقد عشت دائمًا في هدوء وخفاء يا عزيزي جوشيا. لم أخل بالشرط مرة واحدة، لم أقل في أي وقت إنني أمك، لقد أعجبت بك عن بعد، ولئن حضرت إلى المدينة أحيانًا في أوقات متباعدة جدًّا لألقي عليك نظرة فخار خلسة، فإنما كنت أصنع ذلك من غير أن يدري به أحد يا حبيبي ثم أعود أدراجي مرة أخرى.

وراح مستر باوندربي ويداه في جيبيه يتمشى في هوان بالغ جيئة وذهابًا في أحد جوانب المائدة الطويلة، في حين كان المشاهدون يتلقفون بنهم كل مقطع فاهت به مسز بجلر في ضراعتها تلك وكانوا مع كل مقطع جديد يزدادون حملقة بعيونهم لفرط دهشتهم. وظل مستر باوندربي يذرع الحجرة بعد أن فرغت مسز بجلر من كلامها، فوجه مستر جراد جرايند الخطاب إلى السيدة العجوز الموجه إليها القذف قائلًا بصرامة:

- إني لفي دهشة يا سيدتي من أمرك، وكيف أنك في سنك الكبيرة تتبجحين بادعاء أن مستر باوندربي ابنك، بعد أن عاملته بتلك الصورة المنافية للطبيعة وللإنسانية.

فصاحت العجوز المسكينة مسز بجلر:

- أنا نافيت الطبيعة؟! أنا نافيت الإنسانية! ومع ابني الحبيب!

فكرر عليها مستر جراد جرايند القول:

- الحبيب! أجل هو حبيب وقد صنع مجده بنفسه يا سيدتي! ولكنه لم يكن حبيبًا جدًّا عندما هجرته في طفولته الأولى وتركته لوحشية جدة سكيرة.

فصاحت مسز بجلر قابضة بإحدى يديها على الأخرى:

- أنا هجرت جوشياي! فليغفر لك الرب يا سيدي أوهامك الخبيثة وتشهيرك بذكرى أمي المسكينة التي ماتت في أحضاني قبل أن يولد جوشيا، ليتك تكفر عن هذا يا سيدي وتعمر حتى تستبدل بغيك رشدًا!

وكانت جادة للغاية مأخوذة بالإهانة حتى إن مستر جراد جرايند صدم لاحتمال أن تكون الفكرة الجديدة التي خطرت له صحيحة، فقال بلهجة أرق:

- أتنكرين إذن يا سيدتي أنك تخليت عن ابنك... كي يربى في الحضيض الأدنى!

فهتفت مسز بجلر:

- جوشيا في الحضيض الأدنى! لا شيء من هذا يا سيدي إطلاقًا! عار عليك أن تقول هذا! ولدي الحبيب يعلم وسيجعلك تعلم أيضًا أنه وإن جاء من ذرية أبوين متواضعين إلا أنه ولد لأبوين يحبانه خير ما يسع أبوان أن يحبا، ولم يجدا ما يبهظهما في التقتير على نفسيهما كي يتسنى له تعلم الكتابة والحساب تعليمًا حسنًا. وعندي دفاتره في البيت أريهما لمن يشاء! أجل هي عندي! (واشتد استنكار مسز بجلر الأبي) وولدي الحبيب يعلم وسيجعلك أيضًا تعلم يا سيدي أنه بعد وفاة والده الحبيب وهو بعد في الثامنة من عمره استطاعت أمه أن تقتر على نفسها ورأت في ذلك واجبًا عليها ومصدر سرور وفخر لها، كي تعينه على البروز للحياة وكي تتيح له التأهيل المهني وكان فتى مثابرًا، وقد أتيح له معلم

عطوف مد له يد العون، ومن ثمة شق طريقه قدمًا نحو الثراء والفلاح. وسأقوم أنا بإخبارك يا سيدي بما سوف لا يخبرك به ولدي العزيز، من أن والدته وإن امتلكت حانوتًا صغيرًا في قرية، إلا أنه لم ينسها، بل رتب لي ثلاثين جنيهًا في السنة، تفيض عن حاجتي فأدخر جانبًا منها، ولم يشترط عليَّ إلا أن ألزم مكاني ولا أتفاخر به ولا أزعجه ولم أقدم على شيء من ذلك، فيما عدا النظر إليه مرة في السنة وهو لا يدري وإنه لعين الصواب (قالت مسز بجلر هذا ببطولة ومحبة) أنه ينبغي أن ألزم مكاني ولست أشك في أن وجودي هنا سيجعلني آتي أشياء كثيرة غير لائقة فأنا قانعة جدًّا بهذا وفي وسعي أن أُبقي اعتزازي بجوشياي لنفسي؛ لأنه يسعني أن أحب لذات الحب! وإني لأشعر بالخجل منك يا سيدي لغيبتك وظنونك السيئة ولأنني لم أقف هنا من قبل ولم أرد في أي وقت أن أقف هنا ما دام ولدي الحبيب يأبى ذلك وما كان ينبغي أن أكون هنا لو لم يؤت بي عنوةً فعار عليك أي عار أن تتهمني بأنني كنت أمًّا سيئة لولدي وولدي موجود ها هنا يسعه أن يخبرك بما يخالف ذلك تمامًا.

وأطلق المشاهدون الواقفون فوق كراسي حجرة المائدة وغير الواقفين فوقها همهمة مؤازرة لمسز بجلر، وشعر مستر جراد جرايند بحرج موقفه الشديد الذي وضع نفسه فيه ببراءة، وإذا بمستر باوندربي الذي لم يكف عن السير جيئةً وذهابًا وهو يزداد في كل لحظة انتفاخًا على انتفاخه، ويزداد احمرارًا على احمراره، قد وقف فجأة وقال:

- لست أدري بالضبط كيف حدث أنني حظيت بحضور هذه المجموعة من الناس، ولكني لا أسأل عن السبب في ذلك، وعندما يشعرون بالاكتفاء لعلهم يتكرمون بالانصراف، ولعلهم أيضًا يتكرمون بالانصراف سواءً كانوا قد اكتفوا بما شاهدوا أو لم يكتفوا؛ فلست ملزمًا بإلقاء محاضرة عن شؤوني العائلية، فأنا لم

أُحاول ذلك من قبل، ولا أنوي أن أحاوله من بعد. وعلى هذا فمن يتوقعون إيضاحًا من أي نوع بصدد هذا الموضوع سيصابون بخيبة أمل، ولا سيما توم جراد جرايند. وكلما أسرع بإدراك ذلك كان أفضل. وأما بخصوص سرقة المصرف فقد حدث خطأ فيما يتصل بوالدتي، ولولا الإسراف في الفضول لما حدث هذا الخطأ. وأنا أكره الإسراف في الفضول في جميع الأوقات، سواءً أدى إلى أخطاء أو لم يؤد. طاب مساؤكم!

ومع أن مستر باوندربي حسم الموقف بهذه الألفاظ، وفتح الباب وظل قابضًا عليه وهو مفتوح كي ينصرف الموجودون، فقد علاه وجوم واضح ينبئ في آن واحد عن منتهى الانكسار ومنتهى السخف. فقد افتضح كونه دعيًّا في تواضعه، وأنه أقام شهرته الصاخبة على الأكاذيب، وفي تنفجه باعد بينه وبين الحق الصراح جعل نفسه أضحوكة كأنما هو يدعي لنفسه بخسة لا مزيد عليها الانتساب إلى سلالة لا يمت إليها بنسب. وكان وهو يرى الناس يتقاطرون خارجين من الباب الذي يمسك به يعلم أنهم سيحملون أنباء ما حدث إلى المدينة بأسرها، ومن ثمة تُذاع على الملأ أجمع، فما كان ليبدو في أعينهم فارسًا أذل وأخزى مما لو كان مصلوم الأذنين، حتى إن تلك الأنثى المنكودة مسز سبارست التي سقطت من علياء انتصارها إلى حمأة القنوط لم تكن تداني في سوء الحال ذلك الرجل المرموق الذي ملأ الدنيا بدعوى عصاميته، ألا وهو جوشيا باوندربي من أعيان كوكتاون.

وتركت راشيل وسيسي مسز بجلر لتشغل فراشًا في بيت ابنها تلك الليلة وسارتا معًا إلى بوابة ستون لودج وهناك افترقتا. ولحق مستر جراد جرايند بهما قبل أن تمعنا في السير وتكلم باهتمام شديد عن ستيفن بلاكبول معتقدًا أن خيوط الاشتباه في مسز بجلر حري أن يفيده كثيرًا.

أما الجرو فقد حرص في هذا المشهد كما حرص في سائر المناسبات التي جرت أخيرًا على ملازمة باوندربي، وكأنه يشعر أنه ما دام باوندربي لا يستطيع أن يكتشف شيئًا من غير علمه فهو في أمان ولم يزر شقيقته مطلقًا، فلم يرها إلا مرة واحدة منذ عادت إلى البيت، وكان هذا في الليلة التي لزم فيها باوندربي حين ذهب إلى هناك كما روينا آنفًا وكان ثمة نوع من الخوف الغامض المعتم رائنًا على ذهن شقيقته، وإن لم تبح به، وكان هذا الخوف يحيط الفتى الشقي المنكود بغموض مروع، وكان هذا الاحتمال القاتم قد تبدى في هذه الصورة غير المحددة في ذلك اليوم نفسه لسيسي عندما تحدثت راشيل عن شخص ما ربما كان مجيء ستيفن مدعاة لإدانته، ولذا عمل على إقصائه. ولم تكن لويزا قد تحدثت عن وجود أي ارتياب لديها في شقيقها بصدد السرقة، فلم تتكاشف وسيسي في هذا الموضوع إلا عن طريق تبادل النظرات ذات مرة حين أراح الأب الغافل رأسه الأشيب فوق يده، بيد أن الأمر كان مفهومًا فيما بينهما وكانتا كلتاهما تعلمان هذا وذلك الخوف الآخر كان فظيعًا حتى إنه كان يحوم حول كل منهما كالشبح وهي لا تجسر على التفكير في دنوه منها، ومن باب أولى لا تجسر على التفكير في دنوه من صاحبتها الأخرى ومع هذا كانت الجرأة المفتعلة التي يبديها الجرو تزداد ازدهارًا، فإن لم يكن ستيفن بلاكبول هو اللص فليظهر نفسه ولماذا لا يظهر نفسه؟.

وانقضت ليلة أخرى، ثم نهار وليلة في أثره ولم يظهر ستيفن بلاكبول، فأين الرجل؟ ولماذا لم يعد؟

الفصل السادس

ضـــوء النجــم

جاء يوم الأحد يومًا شامسًا في الخريف، رائقًا رطبًا وفي بكرة صباحه إلتقت سيسي وراشيل لتخرجا إلى الريف. ولما كانت كوكتاون تذرو الرماد لا على رأسها فحسب بل على رأسي جيرتها أيضًا - على طريقة أولئك الأتقياء الذين يكفرون عن آثامهم بوضع سواهم من الناس في مسوح الخيش - فقد كان من عادة من يتعطشون بين الحين والحين إلى نسمة من الهواء النقي - وهو ما لا يعتبر أكبر الكبائر بين صنوف الغرور الدنيوي - أن يركبوا سكة الحديد ليبتعدوا بضعة أميال عن المدينة، ثم يشرعون في سيرهم أو تجوالهم وسط الحقول. وقد استعانت سيسي وراشيل على الخروج من الدخان بالوسيلة المعهودة، ثم حطوا رحالهم في محطة تقع في منتصف الطريق بين المدينة ومقر مستر باوندربي الريفي.

ومع أن منظر الخضرة الممتدة كان ملطخًا هنا وهناك بأكداس من الفحم، إلا أن كل ما عدا تلك اللطخ كان أخضر اللون، وثمة أشجار تُرى، وقبرات تشدو (مع أن اليوم الأحد) وفي الهواء شذى مستطاب، ومن فوق ذلك كله قبة السماء زرقاء مشرقة. وعلى مبعدة من هذا الجانب بدت كوكتاون كالضباب الأسود، ومن ذاك الجانب الآخر عن بعد أيضًا بدأت التلال في البروز، ومن جانب ثالث بدأ في ضوء الأفق تغيير طفيف حيث يمتد البحر في البعد السحيق، وكان

الشعب تحت أقدامهما غضًّا ترف فوقه ظلال الأغصان الجميلة وتزخرفه، والسياجات النباتية بين الحقول مزدهرة وكل شيء ينعم بهدوء آمن، فالآلات القائمة على فوهات الحفر، والخيول العتيقة الهزيلة التي أتمت دورة عملها اليومي في الأرض كانت هادئة على السواء، وكفت الدواليب عن الدوران برهة يسيرة، ودولاب الأرض الأكبر يبدو أنه كان يدور من غير تلك الهزات والضوضاء التي يحدثها في الأوقات الأخرى.

وراحتا تمشيان عبر الحقول وفي الدروب الظليلة، متخطيتين أحيانًا قطعة من سياج دب إليها البلى حتى إنها تتهاوى بلمسة واحدة من القدم وتمران أحيانًا أخرى قرب حطام من الطوب وكتل الخشب غطاها العشب النامي وهي علامة على موقع كان العمل فيه قائمًا ثم هُجر، وجعلتا تسيران في المسالك والسكك مهما كانت خفيفة الأثر. أما الرُبى التي يغزر فيها العشب ويطول ويتراكم فيها العليق وذيل القط وما إلى ذلك من صنوف النبات فكانتا تتجنبانها لكثرة ما يُقال في هذه المنطقة من الأقاصيص المروعة عن الحفر القديمة التي تختفي تحت تلك المعالم.

وكانت الشمس قد علت السماء عندما جلستا للراحة ولم تكونا قد أبصرتا أحدًا عن قرب أو عن بعد فترة طويلة، وظل حبل وحدتهما متصلًا، حتى إن سيسي قالت:

- السكون هنا تام يا راشيل والطريق غير مطروقة، حتى إنه يُخيّل إليَّ أننا لا بد أن نكون أول القادمين إلى هنا على طول الصيف.

وكانت عينا سيسي وهي تقول ذلك قد تعلقتا بقطعة أخرى باقية من سياج ملقاة على الأرض، فنهضت لتنظر إليها وقالت:

- ومع هذا فإني لا أقطع بصواب ما قلت، فهذا السياج لم يتحطم منذ وقت طويل، والخشب يدل مظهره في مواضع التحطيم على أنه كُسر حديثًا، وها هي أيضًا آثار أقدام... أوه يا راشيل!

وعادت إليها ركضًا وطوقت عنقها، وكانت راشيل قد نهضت قائمةً بالفعل:

- ما المسألة؟

- لست أدري! فثمة قبعة ملقاة بين العشب.

وانطلقتا معًا، وتناولتها راشيل من الأرض وهي ترتجف من قمتها إلى قدمها ثم انفجرت تبكي وتعول: فاسم بلاكبول كان مكتوبًا بخط يده على سطح القبعة الداخلي:

- يا للفتى المسكين! لقد أجهزوا عليه. لقد خر صريعًا هنا.

فقالت سيسي متلعثمة:

- هل ثمة... هل على القبعة آثار دم؟

وخشيتا أن تنظرا، بيد أنهما أقبلتا على فحص القبعة، فلم تجد أي أثر يدل على العنف في داخلها أو ظاهرها. وكانت قد ظلت ملقاة هناك بضعة أيام لأن المطر والطل لطخاها، وأثر شكلها كان واضحًا على العشب الذي سقطت فوقه. وتطلعتا في خوف حولهما من غير أن تتحركا، فلم تستطيعا أن تريا أكثر مما رأتا وهمست سيسي.

- سأمشي وحدي قليلًا يا راشيل.

وكانت قد أطلقت يدها وهمت بالمضي قدمًا وإذا براشيل تحتويها بذراعيها وتطلق صرخة تجاوبت أصداؤها في الخلاء الفسيح، فأمامهما، تحت أقدامهما

بالضبط حافة صدع أسود غائر في الأرض يخفيه عن العيون العشب الكثيف، ووثبتا إلى الخلف وخرتا على ركبتيهما وأخفت كل منهما وجهها في عنق الأخرى.

- يا إلهي الرحيم! إنه هناك في القاع! في القاع!

وكان هذا أول ما قالته راشيل ثم لم تستطع أي وسيلة من الدموع أو التوسلات أو التصورات أن تجعلها تكف عن إطلاق الصراخ المروع. وكان من المستحيل إسكاتها وكان من الحتم الضروري إمساكها وإلا ألقت بنفسها في بئر المنجم.

- يا راشيل، يا عزيزتي راشيل الطيبة، بحق السماء لا تطلقي هذا الصراخ الفظيع! فكري في ستيفن، فكري في ستيفن، فكري في ستيفن!

وبالتكرير الدائب لهذا التوسل وبلهجة الجزع التي أملاها ذلك الموقف، استطاعت سيسي في النهاية أن تسكتها وأن تنظر إليها بوجه غير دامع قُدَّ من صخر.

- إن ستيفن قد يكون حيًّا يا راشيل، ولا يجوز لك أن تتركيه ملقى لا حول له ولا طول في قاع هذا المكان الفظيع لحظة واحدة، وأنتِ قادرة على جلب العون إليه!

- لا لا لا!

- لا تتحركي من هنا، من أجل خاطره! دعيني أذهب وأتسمع.

وكانت ترتجف من الاقتراب من الحفرة، بيد أنها زحفت صوبها على يديها وقدميها ونادته بأعلى صوت تستطيعه، وأنصتت فلم يأتها رد، ونادت مرة أخرى ثم أنصتت ولم تتلقَ جوابًا.

وكررت ذلك عشرين أو ثلاثين مرة، وتناولت قطعة صغيرة من الثرى عند الموضع الذي تعثر فيه وألقتها إلى الداخل فلم تسمع لسقوطها صوتًا.

وإذا بالمنظر الرهيب الذي كان فائق الجمال في سكونه منذ بضع دقائق فحسب قد أوشك أن يحمل القنوط إلى قلبها الباسل وهي تنهض وتنظر حولها فلا ترى معينًا.

- ينبغي يا راشيل ألا نضيع لحظة واحدة، يجب أن نذهب في اتجاهين مختلفين إلتماسًا للعون، ستذهبين أنتِ في الطريق التي جئنا منها، وسأذهب أنا قدمًا في هذا الدرب، وأخبري كل من ترينه أيًّا كان بما حدث، فكري في ستيفن، فكري في ستيفن!

وعرفت من وجه راشيل أنها تستطيع الاعتماد عليها الآن، وبعد أن وقفت برهة تنظر إليها وهي تجري وتعصر يديها أثناء جريها، استدارت على عقبيها ومضت نحو غايتها، ووقفت عند أسياج النبات لتربط شالها إليه ليكون دليلًا لها على المكان، ثم ألقت قلنسوتها جانبًا وشرعت تجري كما لم تجرِ من قبل.

اجري يا سيسي اجري بحق السماء، لا تقفي لالتقاط أنفاسك.

اجري اجري!... وبالتفكير في مثل هذه التوسلات جعلت تزيد من سرعتها وهي تركض من حقل إلى حقل، ومن درب إلى درب، ومن موضع إلى موضع، كما لم تركض من قبل، إلى أن وصلت إلى عِرِيش قرب عنبر للآلات، وجدت رجلين نائمين في ظله فوق القش، فأيقظتهما أولًا لتقول لهما بعد ذلك رغم ثوران خاطرها وانبهار أنفاسها ما الذي جاء بها إلى هناك. ولكن ذلك كان أمرًا عسيرًا، إلا أنهما ما إن فهما عنها حتى سرت إليهما النار منها وكان أحد الرجلين في سورة الخمر، ولكن ما إن صاح فيه رفيقه بأن رجلًا قد سقط في (منجم الجحيم) القديم حتى أسرع إلى بركة من الماء القذر وضع رأسه فيها ثم عاد مفيقًا.

وفي صحبة هذين الرجلين جرت نحو ثالث على مسافة نصف ميل، ومع ثالث جرت نحو رابع، في حين جرى الأولان في اتجاه آخر، ثم عثر على حصان، وحملت رجلًا على الركوب بأقصى سرعة نحو سكة الحديد ليرسل إشارة إلى لويزا كتبتها وأعطته إياها وفي هذا الوقت كانت قرية بأسرها قد نفرت بدلاء بئر تدور على دولاب (ملوى بئر) وحبال وعمد وشموع وفوانيس وسائر ما يلزم، وجمع كل ذلك على عجل في وضع واحد كي يحمل إلى منجم الجحيم القديم وبدا لها أن ساعات وساعات قد مرت الآن منذ غادرت الرجل الضائع مَلقيٌّ في القبر الذي دفن فيه حيًّا ولم يكن في وسعها أن تحتمل البقاء أكثر من هذا بعيدًا عن ذلك المكان حتى كأنها تخلت عنه، وأسرعت بالعودة بكل سرعة وفي صحبتها ستة من العمال من بينهم السكران الذي أفاقه النبأ، وكان خيرهم جميعًا. فلما وصلت إلى منجم الجحيم القديم وجدته مقفرًا كما غادرته. وجعل الرجال ينادون ويصغون كما فعلت من قبل، وفحصوا حافة الهوة وتبينوا ما حدث وبأي كيفية حدث ثم جلسوا في انتظار وصول معدات جديدة يحتاجون إليها.

وكان طنين الحشرات في الجو، وحفيف الأوراق، وتهامس الرجال يرسل الرعدة في سيسي لأنها كانت تظن ذلك صدى صيحة صادرة من قاع الحفرة، بيد أن الريح كانت تهب رخاءً فوقها ولا يطفو من جوفها صوت إلى سطحها، وهم جلوس على العشب ينتظرون وينتظرون. وبعد فترة من الانتظار بدا الذين سمعوا بالحادث متأخرين يصلون، ثم بدأ المدد الحقيقي بالأدوات يصل. وفي خلال ذلك عادت راشيل وفي صحبتها جراح جاء معه بشيء من الخمر والأدوية، بيد أن أمل الناس في العثور على الرجل حيًّا كان ضعيفًا جدًّا حقًّا.

ولما كان عدد الموجودين الآن كافيًا لعرقلة العمل، فقد تزعم السكير الذي أفاق، بقية الحاضرين، أو لعلهم ألقوا إليه زمامهم بالاتفاق العام، فضرب حلقة كبيرة حول منجم الجحيم القديم وعين رجالًا للقيام بذلك، وقبل من تطوعوا للعمل، ولم يسمح إلا لسيسي وراشيل في البداية بالوجود داخل تلك الحلقة. ولكن عندما تقدم النهار واستقدمت الرسالة المبعوثة مركبًا سريعًا من كوكتاون، دخل في الحلقة المضروبة أيضًا مستر جراد جرايند ولويزا ومستر باوندربي والجرو. وكانت الشمس قد هبطت بمقدار أربع ساعات عن الوضع الذي كانت فيه حين جلست سيسي وراشيل في البداية فوق العشب، قبلما تم تجهيز وسيلة أتاحت لرجلين أن يهبطا بأمان مزودين بالعمد والحبال. وكانت الصعوبات قد قامت عند بناء تلك الأداة على بساطتها، إذ اتضح الافتقار إلى أشياء ضرورية، وكان لا بد من بعث الرسل وانتظار أوبتهم. وكانت الساعة قد بلغت الخامسة بعد ظهر يوم الأحد الثامن من أيام الخريف قبل أن يُدلَى بشمعة لاختبار الهواء في حين وقفت ثلاثة وجوه خشنة أو أربعة متلاصقة ترقبها باهتمام، والرجال القائمون على الملوى يدلون الحبل حسبما يُقال لهم، ثم رفعت الشمعة فإذا بها مشتعلة اشتعالًا خافتًا، ثم ألقي بعض الماء، وركب الدلو في الحبل وقال الرجل المفيق بعد أن استقر داخل الدلو مع شخص آخر ومعهما فوانيس: (أدل).

وإذا أُدْلِيَ الحبل مستقيمًا مشدودًا وصرّ الملوى لم يخرج نفس من أنفاس المائة أو المائتين من الرجال والنساء الذين ألقوا النظر في تلك اللحظة على نحو ما كان ينبغي أن يخرج. وأعطيت الإشارة فتوقف الملوى وقد بقيت كمية كبيرة من الحبال. ويبدو أن فترة طويلة تلت ذلك لبث فيها الرجال القائمون على الملوى بلا عمل، حتى إن بعض النسوة صرخن قائلات إن حادثًا آخر وقع! بيد

أن الجراح الذي كان ممسكًا بساعته أعلن أنه لم تنقضِ بعد خمس دقائق وأمرهن في صرامة بالتزام الصمت. ولم يكد يفرغ من كلامه حتى غير الملوى اتجاهه ونشط للعمل، وأدركت العيون المدربة أنه لا يدور بالتثاقل المفروض لو أن العاملين صعدا معًا، وأنه لا بد أن يكون العائد واحدًا فقط.

وظل الحبل المشدود على استقامته يرتفع، والطية بعد الطية تلتف حول الملوى، والعيون جميعًا مثبتة في الحفرة، وخرج عليهم الرجل المفيق وقفز إلى العشب بخفة، وارتفع صياح عام (حي أم ميت؟) ثم تلا ذلك صمت عميق. فلما قال (حي!) ارتفعت صيحة عظيمة وطفرت الدموع إلى عيون كثيرة، واستطرد الرجل بمجرد تمكنه من إسماع صوته:

- ولكن إصابته سيئة جدًّا. أين الطبيب؟ إصابته سيئة جدًّا يا سيدي حتى إننا لا ندري كيف نرفعه.

وتشاور الجميع معًا ونظروا بقلق صوب الجراح وهو يلقي بضعة أسئلة ويهز رأسه حين يتلقى الإجابة عنها. وكانت الشمس قد جنحت للغروب وضوء الأصيل الأحمر في السماء يمس كل وجه هناك فيبين بوضوح كل ما يعتمل فيه من توجس ذاهل.

وانتهى التشاور بعودة الرجال إلى الملوى ونزول عامل المنجم مرة أخرى حاملًا النبيذ وأشياء أخرى صغيرة، ثم صعد الرجل الآخر، وتحت إشراف الجراح جلب في هذه الأثناء بعض الرجال إطارًا من الخشب فرش فوقه آخرون مهادًا وثيرًا من الثياب المستغنى عنها تعلوه طبقة من القش، وأعد الطبيب بنفسه أربطة وحمالات اتخذها من الشيلان والمناديل. وعند الفراغ من ذلك وضعها على ذِراع عامل المنجم الذي صعد أخيرًا وزوده بكيفية استعمالها. وكان في وقوفه يقع عليه الضوء الذي يحمله متكئًا بيده الخالية على أحد الأعمدة، ناظرًا

أحيانًا إلى جوف الهوة، وناظرًا إلى الناس من حوله أحيانًا أخرى، فلم يكن أقل مَنْ في ذلك المشهد وضوحًا؛ لأن الظلام كان قد أطبق الآن، والمشاعل أوقدت.

وبدا من القليل الذي فاه به الرجل لمن حوله - وسرعان ما تردد في أنحاء الحشد المحدق به - أن الرجل الضائع سقط فوق كتلة من النفايات المهشمة التي كانت الهوة تغص بها إلى منتصفها، وأن سقطته قد اعترضتها قطعة ناتئة من الأرض في جانبه، وهو ملقى على ظهره وإحدى ذراعيه مطوية تحته وعلى حسب اعتقاده لم يتحرك منذ وقوعه إلا حين حرك يده الطليقة إلى جيب جانبي يذكر أنه كان يحتفظ فيه ببعض الخبز واللحم فازدرد منه فتاتًا، وأنه اغترف كذلك في راحة يده بعض الماء بين الحين والحين وكان قد غادر عمله فور وصول الخطاب إليه وسار على قدميه طوال الرحلة، وأنه كان في طريقه إلى بيت مستر باوندربي الريفي بعد حلول الظلام عندما سقط وكان يجتاز ذلك الريف الخطر في ذلك الوقت الخطر لأنه بريء مما ألصق به من التهمة، ولم يسعه إلا سلوك أقصر الطرق لتبرئة نفسه. وقال عامل المنجم إن منجم الجحيم القديم عليه اللعنة جدير باسمه الشرير كل الجدارة، فمع أن ستيفن في استطاعته الآن أن يتكلم، إلا أنه سيتضح بعد قليل أن السقطة قد انتزعت منه حياته.

ولما تم إعداد كل شيء اختفى الرجل داخل الحجرة وهو مستمر في تلقي الأوامر السريعة الأخيرة من زملائه ومن الجراح بعد أن شرع ملوى البئر في إدلائه، وهبط الحبل منطلقًا كالمرة السابقة، وأعطيت الإشارة كالمرة السابقة فتوقف الملوى. وفي هذه المرة لم يرفع أحد الرجال يده عنه، بل لبث كل واحد منهم وقبضته مستقرة وجسده منحنٍ على العمل مستعدًا لقلب الملوى والإكباب على الرفع بنشاط. وأخيرًا أعطيت الإشارة فانحنت حلقة الناس جميعًا إلى

الأمام؛ لأن الحبل الآن بدا لهم متوترًا مشدودًا للغاية، والرجال يديرون الملوى بجهد جهيد، والملوى يئن. وكان لا يكاد يطيق المرء أن ينظر إلى الحبل ويفكر في احتمال تمزق أوصاله، بيد أن الطية بعد الطية راحت تلتف حول الملوى بأمان، ثم ظهرت السلاسل الرابطة وأخيرًا ظهر الدلو وقد تعلق بجانبيه الرجلان، وهو منظر يدير الرأس ويقلب القلب، وهما يسندان فيما بينهما هيكل مخلوق بشري مهشم مسكين مشدود إلى الدلاء بحمالات.

وسرت في الجمع همهمة إشفاق، وبكت النساء بصوت مرتفع حينما رفع هذا الهيكل الذي يكاد يكون بغير شكل، ببطء شديد من مركبه الحديدي ووسد فراش القش. ولم يدن منه في البداية سوى الجراح الذي قام بما في مقدوره من إصلاح رقاده على الفِراش، وكان خير ما استطاعه هو تغطيته. ولما فرغ من ذلك دعا إليه راشيل وسيسي، وفي ذلك الحين كان الوجه الشاحب المجهد الصبور يتطلع إلى السماء ويمناه المصدوعة العارية خارج الثياب التي غُطِيَ بها كأنما هي في انتظار أن تتناولها يد أخرى.

وأعطوه شرابًا وبلوا وجهه بماء ووضعوا قطرات في فمه من شراب منعش ونبيذ. ومع أنه كان راقدًا لا يتحرك ناظرًا إلى السماء فقد ابتسم وقال: (راشيل).

فحطت على العشب بجواره وانحنت فوقه حتى صارت عيناها في موضع وسط بينه وبين السماء؛ لأنه لم يكن في مقدوره أن يحركهما لينظر إليها وقال:

- راشيل يا عزيزتي.

فتناولت يده، وابتسم مرة أخرى وقال:

- لا تتركيها.

- أتشعر بألم شديد يا حبيبي ستيفن؟

- كنت أشعر بألم شديد، أما الآن فلا. كان الألم فظيعًا موئسًا طويلًا يا عزيزتي، ولكنه انتهى الآن. إنها بلية يا راشيل! بلية من مبدئها إلى المنتهى!

وإنما كان شبح نظرته القديمة يطوف وهو يقول تلك الكلمة...

- ... لقد سقطت في الهوة يا عزيزتي التي كلفت فيما يعلم المسنون من الأحياء مئات ومئات من الرجال وأرواحهم... وهم آباء وأبناء وإخوة أعزاء على ألوف وألوف يقونهم شر الحاجة والمسغبة، لقد سقطت في هوة كانت بما فيها من غاز خانق، أشد قسوة من معارك القتال. وقد قرأت عنها في الالتماسات العامة ما كان في استطاعة أي إنسان آخر أن يقرأه، تلك الالتماسات التي رفعها العاملون في حفر المناجم متوسلين ضارعين إلى من يصنعون القوانين مناشدتهم باسم المسيح ألا يجعلوا عملهم مصدر حتفهم، وأن يبقوا عليهم لزوجاتهم وأولادهم الذين يحبونهم كما يحب السادة زوجاتهم وبنيهم. عندما كانت هذه الحفر عامرة بالعمل كانت تقتل من غير مقتضَ، فلما هُجِرَت إذا بها تقتل من غير مقتض سواءً بهذا أو ذاك، فهي البلية على الدوام!

قال ذلك في وهن من غير أن يثور غضبه ضد أحد، وإنما هو الحق فحسب ما يقول:

- إنك لم تنسي شقيقتك الصغيرة يا راشيل، ولستِ حرية أن تنسيها الآن وقد صرت أنا منها جد قريب. فأنتِ تعلمين يا عزيزتي المسكينة الصابرة المعذبة كيف كنتِ تعملين من أجلها وهي جالسة طول النهار في مقعدها الصغير عند النافذة، وكيف ماتت الصغيرة عاثر الحظ عليلة بداء ليس له مقتض متفشٍ في بيوت العمال المنكودة، وإنها لبلية!

واقتربت منه لويزا، بيد أنه لم يستطع أن يراها وهو مستلق بوجهه صوب سماء الليل...

- ... لو أن كل ما يتصل بنا من الأشياء يا عزيزتي لم تكن بهذا الوبال لما كانت بي حاجة للقدوم إلى هنا، ولو لم يكن الوبال مهيمنًا فيما بيننا لما أساء رفاقي النساجون وإخوتي العاملون فهمي، ولو أن مستر باوندربي عرفني على حقيقتي، أي لو أنه عرفني إطلاقًا، لما غضب مني ولما اشتبه في أمري، ولكن انظري هناك إلى فوق يا راشيل! انظري فوقك!

فتبعت نظرة عينه وأبصرت النجم الذي كان يحدق فيه، وقال بخشوع:

- كان هذا النجم يضيء لي وأنا في غمرة الألم والضيق في أعماق الهوة، كان يضيء لي عقلي؛ لأني كنت أتطلع إليه وأُفكر فيكِ يا راشيل إلى أن تبددت الحيرة الوبيلة من ذهني ولئن كان البعض قد فاتهم أن يفهموني خيرًا مما فهموني، فكذلك أنا فاتني أن أفهمهم خيرًا مما فهمتهم. وعندما جاء في خطابك صدقت بسهولة ما فعلته السيدة الشابة بي وما فعله شقيقها بي، وأنه كان ثمة تواطؤ خبيث بينهما. وعندما سقطت كنت حانقًا عليها، متلهفًا على أن أجور عليها مثلما جار الآخرون عليّ، ولكننا ينبغي في أحكامنا أن نتجلد ونترفق، وفي ألمي وضيقي تطلعت هناك إلى فوق فإذا بهذا النجم يشرق عليّ، فتكشفت لي الأمور، وصارت صلاتي الأخيرة أن يزداد الناس تقاربًا، وأن يحسن كل إنسان فهم صاحبه خيرًا مما كان الحال حين عاش شخصي الضعيف على وجه الدنيا.

فلما سمعت لويزا ما قال انحنت فوقه من الجهة المقابلة لراشيل كي يتسنى له أن يراها، فقال بعد صمت دام بضع لحظات:

- أسمعتِ؟ إني لم أنسكِ يا سيدتي.

- نعم سمعتك يا ستيفن، وصلاتك هي صلاتي.

- لكِ أب، فهلا حملتِ إليه رسالة.

فقالت لويزا في خشية:

- إنه هنا، هل آتيك به؟

- إذا تفضلتِ.

وعادت لويزا بأبيها ووقف الاثنان يدًا في يد يطلان على المحيا الجاد.

- سيدي، ستتولى تنقية سمعتي على ملأ الناس، وهذا ما أعهد به إليك.

واضطر مستر جراد جرايند وسأله: (كيف؟) فأجابه:

- سيدي، سيخبرك ابنك كيف يكون ذلك، فاسأله، أنا لا أتهم أحدًا، ولن تفلت مني كلمة اتهام واحدة، لقد قابلت ابنك وتكلمت معه ذات ليلة، وأنا لا أطلب إليك أكثر من أن تبرئني. وأنا أعهد إليك بذلك.

وكان الحمالون قد تأهبوا الآن لحمله، والجراح قلق بصدد نقله، واستعد حملة المشاعل والفوانيس للسير أمام المحفة، وقبل أن يرفعوها، وفيما هم يرتبون سيرهم قال لراشيل وهو ينظر إلى فوق صوب النجم:

- كثيرًا ما كنت عندما أفيق أجده ساطعًا يضيء لي وأنا هناك في درك محنتي، فكان يخطر لي أنه بعينه ذلك النجم الذي يقود إلى كنف المخلِّص. أكاد أجزم أنه ذلك النجم بعينه!

ورفعوه وابتهج قلبه عندما رآهم يحملونه في الاتجاه الذي بدا له أن النجم يقوده إليه:

- راشيل يا فتاتي الحبيبة! لا تتركي يدي، ففي وسعنا أن نسير الليلة معًا يا حبيبتي.

- سأمسك يدك وسأظل بجوارك يا ستيفن طول الطريق.

- بوركتِ! وعسى أن يتفضل أحد بتغطية وجهي!

وحملوه برفق شديد عبر الحقول، وفي الدروب، وفي الخلاء الفسيح، وراشيل ممسكة طول الوقت يده في يدها، وما أقل الهمس الذي كان يعكر الصمت الحزين، فسرعان ما انقلب الموكب جنازة، فقد دله النجم أين يجد إله المساكين، وبالتواضع والأسس والمغفرة مضى إلى الراحة الأبدية.

الفصل السابع

صيد الجـــرو

قبل أن تتفرق الحلقة المضروبة حول منجم الجحيم القديم كان أحد الأشخاص قد اختفى من بينها. وكان مستر باوندربي وظله غير واقفين بالقرب من لويزا التي كانت ممسكة بذراع أبيها، بل في مكان منعزل وحدهما. فلما دعي مستر جراد جرايند إلى المضجع انسلت سيسي التي كانت واعية لكل ما حدث وراء ذلك الظل الخبيث - وكان الذعر المرتسم على وجهه منظرًا يشهد لو أن العيون اكترثت لمشاهدة أي منظر سوى منظر واحد فحسب - وهمست في أذنه. ومن غير أن يحول رأسه تشاور معها بضع لحظات ثم اختفى. وهكذا غادر الجرو الحلقة من قبل أن يتحرك الناس.

فلما بلغ الأب البيت بعث برسالة إلى بيت مستر باوندربي يبدي فيها رغبته أن يأتي ابنه إليه فورًا وكان الرد أن مستر باوندربي افتقده بين الجمع، ولما لم يره بعد ذلك ظنه موجودًا في ستون لودج فقالت لويزا:

- أعتقد يا أبي أنه سوف لا يعود إلى المدينة الليلة.

فأشاح مستر جراد جرايند بوجهه ولم يقل بعد ذلك شيئًا. وفي الصباح توجه إلى المصرف بنفسه بمجرد أن فتح أبوابه، ولما أبصر مكان ابنه خاليًا (ولم تواته الشجاعة على النظر في البداية) عاد ليلتقي في الشارع بمستر باوندربي في طريقه إلى هناك، فقال له إنه لأسباب سيشرحها له قريبًا ولكنه يناشده ألا يسأله الآن

إيضاحًا عنها، وجد من الضروري أن يشغل ابنه بمهمة في مكان بعيد فترة يسيرة من الزمن، وأخبره كذلك بأنه قد عهد إليه بمسئولية تبرئة ساحة ستيفن بلاكبول وإعلان اسم اللص.

ووقف مستر باوندربي مذهولًا جامدًا في مكانه كالعمود في الشارع بعد أن غادره حموه وقد انتفخ حتى حاكى فقاعة صابون ضخمة من غير أن يكون له بهاؤها.

وعاد مستر جراد جرايند إلى البيت فأغلق على نفسه حجرته ولزمها طيلة ذلك اليوم. وعندما طرقت سيسي أو لويزا بابه قال من غير أن يفتحه لهما:

- ليس الآن يا عزيزتي، بل في المساء.

ولما عادتا في المساء قال:

- ما زلت غير مستطيع... إلى الغد.

فلم يأكل شيئًا طول النهار، ولم يوقد شمعة بعد حلول الظلام، وسمعتاه يمشي جيئةً وذهوبًا إلى موهن من الليل. بيد أنه ظهر في الصباح على الإفطار في الساعة المألوفة واتخذ موضعه المألوف على المائدة، وبدا مسنًّا محدودب الظهر، إلا أنه تراءى أرشد وأفضل مما كان في الأيام التي لم يكن مراده منها من الحياة الدنيا سوى الوقائع. وقبل أن يغادر الحجرة حدد لهما موعدًا تقدمان فيه عليه، ثم انصرف مطرقًا برأسه الأشيب. وحينما وافتاه قالت لويزا:

- يا أبي العزيز، بقي لك ثلاثة صغار، وسيكونون على خلاف العهد بهم، وأنا سأكون على خلاف العهد أيضًا بعون الله.

ومدت يدها إلى سيسي كأنها تعني وبعونها أيضًا. فقال جراد جرايند:

- هل تعتقدين أن أخاك المنكود دبر هذه السرقة عندما ذهب معك إلى المسكن؟

- أخشى أن يكون الأمر كذلك يا أبي، فأنا أعلم أنه كان بحاجة ماسة إلى المال وأنه ينفق كثيرًا جدًّا.

- وهل عندما انتوى الرجل المسكين مبارحة المدينة، خطر بذهنه الخبيث أن يلقي عليه التهمة؟

- أعتقد أن الفكرة ومضت في ذهنه وهو جالس هناك يا أبي؛ لأنني أنا التي طلبت إليه أن يذهب إلى هناك معي، ولم تأت فكرة الزيارة من قِبَلِه.

- لقد تحدث إلى الرجل المسكين فهل انتحى به جانبًا؟

- أخذه إلى خارج الحجرة، وقد سألته بعد ذلك لِمَ فعل هذا فأبدى عذرًا مقبولًا. ولكنني منذ ليلة أمس يا أبي كلما تذكرت الظروف في ضوئها داخلني الخوف أن يكون تصوري صائبًا جدًّا لما جرى بينهما.

- أريد أن أعرف هل كانت أفكارك تمثل أخاك المذنب في نفس الصورة القاتمة التي أتصوره بها.

وترددت لويزا ثم قالت:

- أخشى يا أبي أن يكون قد عرض على ستيفن بلاكبول، وربما كان ذلك العرض باسمي أو باسمه، ليغره في ثقة وحسن نية وبراءة أن يفعل ما لم يفعله مطلقًا من قبل، وهو الانتظار بقرب المصرف تلك الليالي الاثنين أو الثلاثة قبل أن يغادر المدينة.

- هذا أوضح ما يكون! أوضح ما يكون!

وغطى وجهه ولبث صامتًا بضع لحظات. فلما استرد رباطة جأشه قال:

- والآن كيف لنا بالعثور عليه؟ كيف لنا باستنقاذه من يد القضاء؟ كيف لنا - في مدى الساعات القلائل التي قد أسمح بانقضائها قبل أن أذيع الحقيقة - أن نعثر عليه، ولا يعثر عليه أحد سوانا؟ عشرة آلاف جنيه لا يمكن أن تقوم بهذا.

- بل سيسي قامت به يا أبي.

فرفع عينيه إلى حيث كانت واقفة وكأنها جِنيَّة خيِّرة في بيته، وقال بلهجة الشكر الرقيق والرقة الشاكرة:

- أنتِ أنتِ دائمًا يا عزيزتي!

فقالت سيسي وهي ترمق لويزا بنظرها:

- كانت لدينا مخاوفنا قبل يوم أمس. فلما رأيتك تُدعى إلى جانب المحفة في الليلة الماضية وسمعت ما قيل لأني كنت من كثب من راشيل طيلة الوقت ذهبت إليه من غير أن يراني أحد وقلت له: (لا تنظر إليَّ بل انظر أين أبوك، اهرب على الفور رفقًا به وبنفسك!)... وكان يرتجف من قبل همسي إليه، فازداد ارتجافه عندئذٍ وقال: (وأين أمضي؟ ما معي من النقود قليل جدًّا ولا أعلم من يرضى أن يخبئني!)... ففكرت في سيرك أبي القديم، ولم أكن نسيت أين يمضي مستر سليري في هذا الأوان من السنة، وكنت قد قرأت عنه في إحدى الصحف في يوم غير بعيد، فطلبت إليه أن يسرع إلى هناك ويذكر اسمه ويطلب من سليري أن يخبئه إلى أن أحضر فقال: (سأصل إليه قبل الصباح). ورأيته ينسل من بين الناس مبتعدًا.

فهتف أبوه:

- الحمد لله! قد يكون في المستطاع ترحيله إلى الخارج بعد.

ومما زاد في انتعاش ذلك الأمل أن البلدة التي وجهته سيسي إليها تبعد عن ليفربول ثلاث ساعات، ومن ليفربول يمكن أن يُبْعَث بسرعة إلى أي بقعة في العالم ولما كان الحذر واجبًا في الاتصال به، لأن خطر الاشتباه في أمره آخذ في الازدياد لحظة بعد لحظة، وما من أحد يمكن أن يثق كل الثقة أن مستر باوندربي مدفوعًا برغبة عارمة في إظهار الحمية قد يقوم بعمل على الطريقة الرومانية، فقد تقرر أن تتوجه سيسي ولويزا إلى المكان المقصود وحدهما ومن طريق كثيرة المنحنيات والمنعطفات، وأن يتجه الأب المنكود الحظ الوجهة المضادة ثم يدور دورة تصل به إلى الغاية نفسها من طريق أخرى أكثر اتساعًا ثم اتفق بعد ذلك على ألا يقدم نفسه إلى مستر سليري حتى لا يساء الظن بنياته أو يؤدي خبر وصوله إلى لياذ ابنه مرة أخرى بأذيال الفرار، بل تترك عملية الاتصال لسيسي ولويزا كي تشرعا فيها وتخبرا من تسبب في كل هذا الشقاء والخزي بوجود أبيه وبالغرض الذي حدا بهم إلى الحضور. وبعد أن تداولوا هذه الترتيبات ووعاها ثلاثتهم تمام الوعي، حان وقت الشروع في تنفيذها. وفي وقت مبكر من بعد الظهر سار مستر جراد جرايند مباشرةً من بيته إلى الريف كي يستقل من هناك الخط الحديدي الذي ينبغي أن يركبه، وفي الليل ذهبت الاثنتان في طريقهما الأخرى، وقد شجعهما أنهما لم تريا أي وجه معروف لهما.

وظلتا راكبتين طول الليل، اللهم إلا دقائق معدودة عند مفارق الطرق التي تؤدي إليها درجات لا تحصى، أو في أسفل السلالم (وتلك كانت الدروب الوحيدة لمفارق تلك الطرقات) وفي ساعة مبكرة من الصباح هبطا عند مستنقع يبعد ميلًا أو ميلين عن البلدة التي تنشدان. ومن تلك البقعة الموحشة خلصهما حوذي شرس اتفق أنه استيقظ مبكرًا وانطلق ينحي على حصانه الذي يجر عربة صغيرة له بالإيذاء، وهكذا تسللتا إلى البلدة عن طريق الدروب الخلفية التي

تعيش فيها الخنازير. ومع أن هذه الدروب ليست مسالك فخمة ولا مستطابة إلا أنها تعتبر الطريق العامة المشروعة في مثل هذه الأحوال.

وكان أول شيء أبصرتاه عند دخول البلدة هو الهيكل العظمي لملعب سليري، فالفرقة كانت رحلت إلى بلدة أخرى تبعد أكثر من عشرين ميلًا وفتحت أبوابها هناك في الليلة الماضية والطريق بين الموضعين ملتوية بين التلال، والسفر فيها بطيء جدًّا ومع أنهما لم تتناولا إلا إفطارًا سريعًا ولم تحظيا براحة (ومن العبث أن تنشدا الراحة في ضوء تلك الظروف المقلقة) إلا أنهما لم تعثرا قبل الظهر على إعلانات فرقة سليري لألعاب الخيل ملصقة فوق أهراء الغلال والجدران، وكانت الساعة الواحدة عندما وقفتا في السوق.

وكانت حفلة نهارية كبرى لألعاب الخيل ستبدأ في تلك الساعة بالضبط، وكان المنادي ذو الناقوس بصدد إذاعة ذلك على الناس عندما وطئت أقدامهما أحجار الشارع، ونصحت سيسي تجنبًا للسؤال ولفت الأنظار في البلدة أن تتقدّما لدفع الرسوم عند الباب، فإن كان مستر سليري هو الذي يتولى تحصيل النقود فمن المحتم أن يعرفها وأن يتصرف بحذر وتكتم. فإن لم يكن الأمر كذلك، فمن المؤكد أنه سيراهما في الداخل، ولأنه يعرف ما صنعه بالشاب الهارب، فسوف يتصرف بحذر وتكتم كذلك.

وهكذا توجهتا بقلبين واجفين إلى الخيمة التي تذكرانها جيدًا، وكانت الراية المنقوش عليها (فرقة سليري لركوب الخيل) قائمة، والكوة القوطية هناك كذلك. بيد أن مستر سليري لم يكن هناك. وكان السيد كيدر مينستر قد غدا كثيف الشعر بحيث لا يمكن لأشد السذج سذاجةً أن يخاله كيوبيد بعد الآن، فخضع لقوة الظروف القاهرة (ولحيته أيضًا)، ولما كان رجلًا يحرص على أن يكون نافعًا بصفة عامة، فقد أشرف في تلك المناسبة على الخزينة، محتفظًا

أيضًا بطبل على سبيل الاحتياط كي ينفق في دقه لحظات فراغه وفيض قوته. ولما كان مستر كيدر مينستر في يقظته التامة لتمييز النقود الزائفة، كما هو حاله في الموقف الراهن فهو لا يمكن أن يعير اهتمامه لشيء سوى النقود، ولذا مرت به سيسي من غير أن يعرفها ودخلتا.

وكان إمبراطور اليابان فوق جواد أبيض عتيق رصين مرقش بنقط سوداء، يطوح ويلقف خمس أوانٍ لغسل الأيدي في وقت واحد، كما يحلو لذلك العاهل أن يصنع دائمًا على سبيل التسلية. ومع أن سيسي تعرف تمام المعرفة سلالته الملكية إلا أنه لم تسبق لها معرفة شخصية الإمبراطور الحالي، وانقضى حكمه بسلام. ثم أعلن عن ظهور الآنسة جوزفين سليري في لعبتها المشهورة الرشيقة المسماة لعبة أزهار التيرول، وقام بتقديمها مهرج جديد قال على سبيل الهزل إنها لعبة كرنبة تيرول، ثم ظهر مستر سليري يقود جوادها.

ولم يكد مستر سليري يقرقع بصوته الطويل مرة واحدة صوب المهرج، ولم يكد المهرج يقول له: (إن فعلتها مرة أخرى سأقذفك بالجواد!) حتى عرف الأب والبنت معًا سيسي، بيد أنهما استمرا في الأداء برباطة جأش عظيمة، ولم يظهر مستر سليري فيما عدا الوهلة الأولى من التعبير في عينه المتحركة أكثر مما في عينه الثابتة. وبدا العرض طويلًا بعض الشيء في نظر سيسي ولويزا، ولا سيما عندما توقف اللعب ليتاح للمهرج أن يحدث مستر سليري (الذي كان يجيب بقوله (حقًّا يا سيدي!) على كل ملاحظاته وفي هدوء تام وعينه على الجمهور) عن رجلين جالستين على ثلاثة أرجل تنظران إلى أرجل واحد، حينما دخلت أربعة أرجل وقبضت على رجل واحدة فنهضت رجلان وأمسكتا بثلاث أرجل وقذفت بها أربع أرجل فأخذت تجري هاربة برجل واحدة. ومع أن هذه الكناية التي تشير إلى قصاب ووضم (ذي ثلاث أرجل) وكلب ورجل ضأن إلا أن السرد

استغرق وقتًا، فاستبد بهما القلق. وأخيرًا أدت جوزفين ذات الشعر الأشقر انحناءتها وسط عاصفة من التصفيق، وبقي المهرج وحده في الحلقة، وبعد حركات التدفئة قال: (والآن سأقوم بدورة!) وإذا بيد تلمس كتف سيسي ثم دعيت إلى الخارج.

فأخذت لويزا معها واستقبلهما مستر سليري في حجرة خاصة صغيرة جدًّا لها جوانب من قماش، وينمو في أرضها العشب وسقفها خشبي شديد الانحدار، كان الجالسون في المقاصير يدقونه بأرجلهم إظهارًا لاستحسانهم كأنهم يهمون أن يخرقوه، وقال سليري وفي يده كوب من البراندي والماء:

- ثيثليا إنه ليثعدني أن أراكِ فقد كنت دائمًا أثيرة عندي وأنا واثق أنكِ بيضت وجوهنا منذ ذلك الحين وينبغي أن تري قومنا يا عزيزتي قبل أن نتكلم في الموضوعات الجدية، وإلا حطم ذلك قلوبهم، ولا ثيما النثاء، ها هي جوزفين وقد تزوجت ا.و.ب تشيلدرث وقد أنجبا غلامًا ومع أنه لم يتجاوز الثالثة من عمره إلا أنه يتشبث بأي مهر تدنينه منه وقد ثُمي (المعجزة الثغيرة في مدرثة علم ركوب الخيل) فإن لم يتثن لك أن تثمعي عن هذا الغلام في أثلي فتتثمعين عنه في باريث. وهل تتذكرين كيدر مينثتر الذي كان شديد الولع بك؟ لقد تزوج أيضًا. تزوج أرملة في مثل ثن أمه. وكانت تمشي على الحبل المشدود. أما الآن فلا تقوم بشيء بثبب بدانتها. ولديهما ولدان، وبهذا ثرنا أقوياء في ألعاب العفاريت الثغار وحيل الأطفال. ولو رأيت أطفالنا في الغابة والأب والأم كلاهما مثتلقيان على حثان، ويأتي أبو الحن ليغطيهم بأوراق الشجر على حثان... إذن لقلت إن هذا أكمل ما رأته عين! وهل تذكرين إما جوردون يا عزيزتي التي كانت بمثابة أم لك؟ أنت طبعًا تذكرينها، ولا حاجة بي للسؤال لقد فقدت إما زوجها ثقط ثقطة عنيفة من فوق ظهر فيل وهو ثلطان الهند، ولم يستطع التغلب على آثار هذه

الثقطة، وتزوجت إما مرة ثانية، تزوجت هذه المرة بائع جبن ثقط في غرامها من أول نظرة، وهو ناظر الأبرشية وقد جنى لنفقه ثروة.

وكان مستر سليري يسرد عليها هذه التغيرات بأنفاسه القصيرة جدًّا وفي حماسة عظيمة وبراءة عجيبة، مع أنه بات مُحاربًا قديمًا أعشى النظر وأخا خمر. وبعد ذلك قدم جوزفين، وكذلك ا.و.ب تشيلدرز (وله في ضوء النهار خطان غائران في فكيه) والمعجزة الصغيرة في مدرسة علم ركوب الخيل، وبالاختصار سائر أفراد الفرقة، وكانوا في نظر لويزا مخلوقات عجيبة ألوانهم شديدة البياض والحمرة، وثيابهم قليلة وأرجلهم ملفتة للأنظار، ولكن طاب لها أن تراهم يتزاحمون حول سيسي، وكان من الطبيعي جدًّا ألا تقدر سيسي على حبس دموعها.

- حثبكم! لقد انتهت ثيثليا الآن من تقبيل جميع الأطفال، واحتضان جميع النساء، ومثافحة أيدي جميع الرجال، فاخرجوا جميعًا ولتعزف الموثيقى اثتعدادًا للفثل الثاني!

وما إن خرجوا حتى استطرد بصوت خافت:

- والآن يا ثيثليا، أنا لا أطلب الاطلاع على الأثرار، ولكني أظن أن هذه هي الآنثة كريمة الثيد.

- نعم، هي شقيقة الشاب.

- وابنة الثيد الكبير الآخر، هذا ما أعنيه، أتمنى أن تكوني بخير يا آنثة. وكذلك الثيد؟

فقالت لويزا وهي متلهفة على أن تجعله يدخل في الموضوع:

- سيكون أبي هنا بعد قليل، هل أخي في أمان؟

- بخير وأمان. أريد منك أن تلقي نظرة على الحلقة يا آنثة من هنا. وأنت يا ثيثليا تعرفين الطريقة، فابحثي لنفسك عن خثاث (خصاص) تنظرين منه.

ونظرت كل منهما من شق بين الألواح الخشبية، وكذلك هو، ثم قال:

- هذا الدور اثمه جاك قاتل الجبابرة، وهو دور من أدوار ألعاب الأطفال وهذا بيت ترينه هناك يختفي فيه جاك، وهذا مهرجي ومعه غطاء مقلاة في دور خادم جاك، وها هو جاك الثغير نفثه في حلة رائعة من الزرد، وها هما خادمان مضحكان أسودا اللون حجم كل منهما ضعف حجم البيت، مهمتهما الوقوف قرب البيت والإتيان به ثم إخراجه. أما الجبار (وهو عبارة عن ثلة هائلة) فلم يظهر بعد. والآن هل تريان كل هؤلاء؟

فقالت كلتاهما: (نعم).

- انظرا إليهم مرة أخرى، انظرا إليهم جيدًا، أتريانهم جميعًا؟ حثن جدًّا. والآن يا آنثة (ووضع لهما مقعدًا مستطيلًا لتجلسا عليه) لي آرائي، وللثيد والدك آراؤه. وأنا لا أريد أن أعرف ما أقدم عليه شقيقك. خير لي ألا أعرف. وكل ما أريد أن أقوله أن الثيد وقف بجانب ثيثليا، وأنني كذلك ثأقف بجانب الثيد. وأخوك هو أحد الخادمين الأسودين.

فأطلقت لويزا صيحة بعضها عن أسى وبعضها الآخر عن ارتياح، وقال سليري:

- إنها الحقيقة، وحتى إن كنت تعرفينها فليث في اثتطاعتك أن تضعي أثبعك عليه. دعي الثيد يحضر وثأبقي شقيقك هنا بعد العرض، وثوف لا أخلع عنه أو أغثل عنه طلاءه. دعي الثيد يحضر إلى هنا بعد العرض، أو تعالي بنفسك بعد

العرض وثتجدين أخاك هنا وثيكون المكان كله تحت تثرفك لتتحدثي إليه. ولا تبالي بمنظره، فالمهم أنه متخف تمام التخفي.

وشكرته لويزا وقد خف عن كاهلها العبء المبهظ ولم تحتجز مستر سليري أطول من هذه المدة وحملته حبها لأخيها وقد اغرورقت عيناها بالدموع، ثم انصرفت هي وسيسي على أن تعودا فيما بعد عصر ذلك اليوم.

ووصل مستر جراد جرايند بعد ذلك بساعة، ولم يلتق هو أيضًا بأحد يعرفه. وقد اشتد حماسته للاستعانة بسليري على إبلاغ ابنه الموصوم ليفربول تحت جنح الليل ولما كان من غير الممكن أن يصحبه أحد من ثلاثتهم من غير أن يدل ذلك عليه مهما كان تنكره، فقد أعدّ خطابًا إلى مراسل يثق به يرجوه أن يركب حامل الرسالة سفينة بأي ثمن تحمله إلى أمريكا الشمالية أو الجنوبية أو أي بقعة بعيدة من بقاع العالم يمكن إرساله إليها سرًّا وبأقصى سرعة وبعد أن فرغ من ذلك خرجوا يتجولون في انتظار خلو السيرك من الناس تمامًا، لا من النظارة فحسب، بل والفرقة وخيولها. وبعد مراقبة طويلة رأوا مستر سليري يخرج كرسيًّا ويجلس عند الباب الجانبي ويأخذ في التدخين، كأنما هذه إشارته إليهم كي يقتربوا. فلما مروا به داخلين من الباب كانت تحيته الحذرة:

- خادمك يا ثيدي، إن أردتني وجدتني هنا. ولا تكترث لارتداء ابنك كثوة مضحكة.

ودخل الثلاثة، وجلس مستر جراد جرايند محزونًا فوق المقعد الذي يؤدي عليه المهرج ألعابه وسط الحلقة، وعلى أحد المقاعد الخلفية بعيدًا عن الأضواء ووسط وحشة المكان جلس الجرو الخسيس واجمًا غاية الوجوم... ذلك الجرو الذي شاء سوء طالعه أن يدعوه ابنه.

وفي معطف لا يتصوره العقل كمعاطف القواسين، وقد بولغ في أكمامه ورفارفه إلى حد غير معقول، وصدار هائل وسراويل منتفخة وحذاء ذي إبزيم وقبعة ذات عرف كعرف الديك مدبب، وما من شيء في هذا كله يتناسب مع حجمه، وهي إلى ذلك أشياء مصنوعة من أغلظ الخامات أكلتها العثة، وكثرت فيها الخروق، وفي وجهه الأسود خطوط حيثما استطاع الخوف والحرارة أن يجعلا العرق ينفذ من الطلاء الشحمي الذي تلطخ به محياه كله... في هذه الحال التي ما من شيء يدانيها كآبة وكراهة وسخافة وخزيًا بدا الجرو في كسوته المضحكة، حتى إن مستر جراد جرايند ما كان ليصدق عينيه مع أنها الحقيقة الواقعة الملموسة التي تخضع للقياس والوزن. وإلى هذه الحال وصل أحد أبنائه النموذجيين!

وظل الجرو في البداية لا يريد أن يدنو، ولبث مستمسكًا بالمكث هناك بمفرده، وأخيرًا أذعن إن كان الانقياد على مثل ذلك المضض يمكن أن يسمى إذعانًا، لمناشدات سيسي (لأنه تجاهل لويزا بالكلية) وأقبل يهبط الصفوف صفًّا صفًّا إلى أن وقف على نشارة الخشب عند حافة الدائرة في أبعد نقطة داخل حدودها عن الموضع الذي جلس فيه أبوه. وسأله الأب:

- كيف حدث هذا؟

فأجاب الابن في انكسار:

- كيف حدث ماذا؟

فقال الأب رافعًا باللفظ صوته:

- هذه السرقة.

- اغتصبت الخزانة بنفسي في الليلة السابقة وتركت بابها عند إغلاقه غير محكم قبل انصرافي، وكنت قد اصطنعت المفتاح الذي عُثر عليه قبلها بزمن طويل وأسقطته في الصباح حتى يُظن أنه استخدم ولم آخذ النقود كلها مرة واحدة وكنت أتظاهر بضبط ميزان حسابي كل ليلة، بيد أني لم أكن أضبطه وها أنت الآن عرفت كل شيء.

- لو أن صاعقة نزلت عليَّ لكان أثرها فيَّ أقل من هذا!

فزمجر الابن قائلًا:

- لست أرى ما يدعو لهذا، قدر معين من الناس يستخدمون في وظائف تقتضي الأمانة. وقدر معين من هذا القدر المعين يتضح عدم أمانتهم. وقد سمعتك تتكلم مائة مرة عن أن ذلك قاعدة مقررة. فما حيلتي (أنا) في القواعد المقررة؟ لطالما عزيت سواك بمثل هذه الأقوال يا أبي. فعزِّ نفسك!

فدفن الأب وجهه بين يديه، ووقف الابن في تبجحه المخزي يعض القش، ويداه وقد انجاب السواد عن راحتيهما بعض الشيء تشبهان يدي قرد. وكان المساء يطبق بسرعة وهو بين الفينة والفينة يوجه بياض عينيه في قلق ونفاد صبر صوب أبيه. فعيناه هما الموضعان الوحيدان في وجهه اللذان ينمان على أي حياة أو تعبير؛ لأن الصباغ على وجهه كان كثيفًا جدًّا.

- يجب أن يراح بك إلى ليفربول لترحيلك إلى الخارج.

فقال الجرو بنبرة التشكي:

- لا مناص من هذا فيما أظن. ولن أكون في أي مكان آخر أشقى مما كنت هنا منذ وعيك حالي. وهذا شيء مقطوع به.

وذهب مستر جراد جرايند إلى الباب ثم عاد بسليري ووجه إليه السؤال عن (كيفية إبعاد هذا المخلوق البغيض؟).

- كنت أُفكر في هذا يا ثيدي، وليث أمامنا وقت طويل، ولذا يجب أن تقول نعم أو لا، فالمثافة بيننا وبين الخط الحديدي عشرون ميلًا. وهناك عربة ثتذهب بعد نصف ثاعة إلى الخط الحديدي للحاق بقطار البريد، وثيحمله هذا القطار مباشرةً إلى ليفربول.

فتأوه مستر جراد جرايند وقال:

- ولكن انظر إليه، هل تقبل أي عربة...

- أنا لا أعني أنه ثيذهب في هذه الكثوة المضحكة، مُرْ وأنا مثتعد أن أجعل منه حوذيًّا في مدى خمث دقائق، ولدينا الملابث. بِثْ في الأمر بثرعة يا ثيدي، إذ يجب إحضار الجعة، فأنا لم أرَ في حياتي شيئًا كالجعة في تنظيف المهرجين من الطلاء الأثود.

ووافق مستر جراد جرايند بسرعة، وبسرعة أخرج مستر سليري من أحد الصناديق قميصًا مما يرتديه الفلاحون في أوروبا فوق ثيابهم وقبعة من اللباد ومستلزمات أخرى. وبسرعة بدل الجرو ثيابه خلف ساتر من القماش، وبسرعة أيضًا أتى مستر سليري بالجعة وغسله حتى ارتد إلى بياضه، ثم قال:

- والآن تعال إلى العربة واقفز خلفها، وثأذهب معك فيخالونك أحد رجالي. ودع أثرتك، والثرعة هي الشعار!

وانسحب الرجل على الأثر بلباقة، فقال مستر جراد جرايند:

- هذا هو خطابك، وستقدم إليك جميع الوسائل الضرورية، فكفر بالندم وتحسين سلوكك عما ارتكبته من إثم مروع، وعن العواقب الوخيمة التي أفضى إليها هذا الجرم. أعني يدك يا ولدي المسكين وليغفر لك الله كما غفرت لك.

فذرف الأثيم قطرات من دمعه المهين تحت وطأة هذه الكلمات ونبرتها المؤثرة، ولكن عندما فتحت لويزا ذراعيها أعرض عنها:

- أما أنت فلا، لا أريد أن أكلمك!

- توم، توم، أهكذا تختم كل ما كان من حبي!؟

فأجابها لاجًّا في عناده وتحجر قلبه:

- كل ما كان من حبك! ما أجمله حبًّا! لقد غادرت باوندربي العجوز وحيدًا، وطردت خير أصدقائي مستر هارتهاوس، وعدت إلى البيت في الوقت الذي تهددني فيه أشد الخطر. إن هذا لهو الحب المليح! واعترفت بكل شيء عن ذهابنا إلى ذلك المكان حينما رأيت الشبكة تتجمع خيوطها. هذا هو الحب المليح! لقد خذلتني بانتظام ولم يعنك أمري في أي وقت.

وقال سليري وهو عند الباب:

- الثرعة هي الشعار!

وخرجوا جميعًا مضطربين، ولويزا تبكي قائلةً له إنها غفرت له ولم تزل تحبه وأنه سيندم يومًا ما على أنه فارقها هكذا، وسيسره أن يفكر في كلماتها الأخيرة هذه وهو بعيد، وإذا بشخص يصطدم بهم وهو يجري. وكان مستر جراد جرايند وسيسي في المقدمة - أما أخته فكانت لم تزل متعلقة بكتفه - فوقفا وتراجعا، إذ كان القادم بتزر، يلهث منفرج الشفتين، متسع المنخرين، وأهدابه البيضاء ترتجف، ووجهه الشاحب أشد شحوبًا من مألوفه، كأنما هو من فرط حرارته

بالجري قد ابيض، في حين يجري غيره من الناس فيتوهجون. وها هو الآن واقف يلهث ويلقف أنفاسه كأنه لم يكف عن الجري منذ تلك الليلة التي تقادم عليها العهد التي اصطدم فيها بهما من قبل.

وقال بتزر وهو يهز رأسه:

- يؤسفني أن أتدخل في خططكم، ولكني لا أرضى لنفسي أن يغلبني على أمري مروضو الخيول، لا بد لي من مستر توم الصغير، وينبغي ألا يهربه مروضو الخيول، وها هو هناك في ذلك الزي، ولا بد لي أن آخذه معي!

وبتلابيبه أيضًا فيما يبدو، فهكذا وضع يده عليه.

الفصل الثامن

تفلسُف

ورجعوا إلى الخيمة، وأغلق سليري الباب ليحول دون دخول المتطفلين، وكان بتزر لم يزل ممسكًا بتلابيب الأثيم المذهول، ووقف في الحلقة يُرمش صوب مولاه القديم في عتمة الغسق، فقال مستر جراد جرايند متداعيًا وخانعًا له في مسكنة:

- ألك قلب يا بتزر؟

فأجاب بتزر باسمًا في سخرية من غرابة السؤال:

- إن الدورة الدموية يا سيدي لا يمكن أن تمضي في عملها من غير قلب. وما من رجل يا سيدي له معرفة بالوقائع التي أرساها هارفي فيما يتصل بدورة الدم يمكن أن يشك أن لي قلبًا.

فصاح مستر جراد جرايند:

- أهو قابل للتأثر بأي عاطفة؟

فأجاب الشاب الممتاز:

- إنه قابل لما يشير به العقل يا سيدي ليس إلا.

وكانا واقفين، كل منهما ينظر إلى الآخر، ووجه مستر جراد جرايند في مثل بياض الفتى القائم بالمطاردة، فقال مستر جراد جرايند:

- وما هو الباعث (حتى ولو كان باعثًا عقليًا) الذي يمكن أن يدعوك إلى الحيلولة دون هرب هذا الشاب المنكود وإلى تحطيم والده الشقي؟ انظر إلى أخته ها هنا وارحمنا!

فأجاب بتزر في لهجة ومنطق عمليين:

- ما دمت تسألني يا سيدي عن الباعث الذي يحدو بي عقلًا لإعادة مستر توم إلى كوكتاون، فمن المعقول أن أخبرك، لقد اشتبهت في أمر مستر توم الصغير بخصوص سرقة المصرف منذ البداية، وكانت عيني عليه قبل ذلك الحين لأني كنت أعرف أساليبه. أجل كنت أحتفظ بملاحظاتي لنفسي، بيد أني كنت أستجمعها، ولديَّ الآن قرائن وافية ضده فضلًا عن هربه وفضلًا عن اعترافه الذي وصلت في اللحظة المناسبة بالضبط لكي أتسمعه. وقد حظيت بمراقبة منزلك صباح أمس وتبعتك إلى هنا. وسأعود بمستر توم الصغير إلى كوكتاون كي أسلمه إلى يد مستر باوندربي ولا يخالجني أدنى شك يا سيدي في أن مستر باوندربي سيرقيني إلى منصب مستر توم الصغير، وأنا أرغب يا سيدي في الحصول على منصبه لأنه سيرفع من قدري وسيجدي عليَّ.

فشرع مستر جراد جرايند يقول:

- إن كانت المسألة مجرد منفعة شخصية...

وإذا بتزر يرد عليه قائلًا:

- أستميحك العفو لمقاطعتك يا سيدي، ولكني واثق أنك تعلم أن النظام الاجتماعي كله قائم على المصلحة الشخصية، فما ينبغي أن تخاطبه دائمًا هو مصلحة الفرد الشخصية إنها موئلك الوحيد. وهكذا جبلنا جميعًا وقد ربيت على هذه السنة عندما كنت حديث السن جدًّا يا سيدي كما تعلم.

- ما المبلغ الذي تحدده للتخلي عن ترقيتك المرتقبة؟

- أشكرك يا سيدي على إشارتك إلى هذا العرض، ولكني لن أحدد أي مبلغ مقابل الترقية، فإني قدرت أن ذهنك الصافي سيقترح هذا العرض، ولذا أجريت العمليات الحسابية اللازمة في ذهني فاتضح لي أن التستر على جريمة ولو مقابل مبلغ ضخم جدًّا لا يمكن أن يكون مأمونًا ومجديًا لي مثل أمن تحسين مركزي في المصرف وجدواه.

فقال مستر جراد جرايند وهو يمد يديه كأنه يقول له انظر مبلغ ما أنا فيه من شقاء:

- لم يعد أمامي يا بتزر إلا باب واحد لألين قلبك. لقد لبثتَ سنوات طويلة في مدرستي، فإن كانت ذكرى الجهود التي أضفيناها عليك هناك كفيلة بإقناعك بحال من الأحوال بالتغاضي عن مصلحتك الراهنة وإطلاق سراح ابني، فإني أناشدك وأتوسل إليك أن تدعه يحظى بما لهذه الذكرى من عارفة عندك.

فأجاب التلميذ القديم بلهجة المجادلة:

- إني لأعجب يا سيدي إذ أراك تقف مثل هذا الموقف غير المعقول. فتعليمي بالمدرسة كان بأجر أديته، فكان الأجر صفقة، وعندما تخرجت انتهت الصفقة.

وكان من المبادئ الأساسية في فلسفة جراد جرايند أن لكل شيء ثمنًا يجب أن يؤدى، وما من أحد مهما كانت الظروف يجوز له أن يعطي أي شيء لأي إنسان أو يقدم العون لأي أحد من غير مقابل، فعرفان الجميل يجب أن يُلغى والفضائل النابعة منه يجب ألا توجد، وكل أنملة من الوجود البشري، من المولد إلى الممات، يجب أن تكون صفقة تعقد في مصفق، فإن لم توصلنا هذه

الطريق إلى السماء، فالسماء ليست مكانًا يهيمن عليه الاقتصاد السياسي، فلا يوجد ما يدعونا للذهاب إليها.

واستطرد بتزر:

- ولست أنكر أن تعليمي المدرسي كان رخيص الأجر، وهذا لا غبار عليه يا سيدي، فقد صُنعت في أرخص سوق، وينبغي أن أبيع نفسي في أغلى الأسواق.

وأزعجه بعض الشيء عندئذٍ بكاء لويزا وسيسي فقال:

- أرجوكما ألا تبكياه فلا جدوى من هذا معي ولا ثمرة له سوى الإزعاج، إنكم تظنون أنني أضمر عداء لمستر توم الصغير، والحقيقة أنني لا أضمر له أي عداء وكل ما هناك أني بناء على الأسباب المعقولة التي ذكرتها سأعيده إلى كوكتاون وإذا قاوم سأثير صيحة (أمسكوا اللص!) ولكنه سوف لا يقاوم، ثقوا بهذا.

وكان مستر سليري يستمع لهذه الآراء باهتمام عميق، وفمه مفغور وعينه المتحركة في مثل ثبات زميلتها الساكنة في رأسه، وفي هذه اللحظة تقدم إلى الأمام وقال:

- ثيدي، أنت تعلم تمام العلم، وكريمتك تعلم تمام العلم أيضًا (بل خيرًا مما تعلم أنت لأني قلت لها) إني لا أعلم ماذا صنع ابنك، ولا أريد أن أعلم، قلت إن ذلك أفضل ولم يخطر لي عندئذٍ ثوى أن الأمر كله من قبيل الشيطنة المعهودة في الشبان. أما وهذا الشاب قد عرفني بأنه اقترف ثرقة مثرف، فالأمر خطير، أخطر بكثير من أن أتثتر عليه على حد التعبير الدقيق لهذا الشاب. ولذا يا ثيدي تثخط عليَّ إذ أنحاز لجانب هذا الشاب وأقول إنه على سواب وإنه لا حيلة في ذلك. ولكني ثأخبرك بما ثأثنع يا ثيدي، ثوف أوثل ابنك وهذا الشاب إلى الخط

الحديدي لأحول دون الفضيحة هنا. ولا أثتطيع أن أثنع أكثر من هذا الذي ثأثنعه.

وناحت لويزا وأعولت، وازداد غم مستر جراد جرايند لتخلي هذا الصديق الأخير عنهم. بيد أن سيسي نظرت صوبه بإمعان شديد ولم تخطئ في أعماق سريرتها فهمه. وحينما هموا جميعًا بالخروج ثانيةً خصها بنظرة ذات مغزى من عينه المتحركة كي تتخلف في المؤخرة، وقال لها بتوفز وهو يغلق الباب:

- لقد وقف الثيد بجانبكِ يا ثيثيليا، وثأقف أنا بجانب الثيد وأكثر من هذا: إن ذلك الوغد الزنيم ينتمي إلى ذاك المخلوق المتغطرث الثاخب الذي كاد رجالي أن يلقوا به من النافذة. وثتكون الليلة حالكة الظلام. وعندي حثان قادر على كل شيء فيما عدا الكلام. وعندي مُهر يثتطيع أن يُجبر أي شخص على عدم مبارحة موضعه أربعًا وعشرين ثاعة. فبلغي الثيد الثغير بينك وبينه أنه عندما يرى حثاننا يشرع في الرقث ينبغي ألا يخاف من الثقوط، بل عليه أن يترقب عربة ثغيرة يجرها مُهر عند لحاقها بنا وقولي له إنه يجب عندما تثبح العربة الثغيرة موازية لنا أن يقفز إلى الأرض، وثتذهب به العربة الثغيرة بأقثى ثرعة. ولن يثمح كلبي لذلك الشاب الآخر بالتحرك خطوة واحدة. وكذلك حثاني لن يتحرك من تلك البقعة التي بدا يرقث فيها إلى أن يطلع الثباح. ألثت أعرفه؟ الثرعة هي الشعار!

وكان الشعار من السرعة بحيث لم تنقضِ عشر دقائق حتى كان مستر تشيلدرز المتسكع في السوق لابسًا خفين قد تلقى التعليمات، وكانت مركبة مستر سليري قد أُعدت. وكان منظرًا يستحق المشاهدة، وقد أخذ الكلب المدرب ينبح حولها ويصدر إليه تعليماته بعينه الناشطة أن بتزر هو الذي سيكون محل عنايته الخاصة. وسرعان ما ركب الثلاثة العربة بعد حلول الظلام

وانطلقوا. وكان الكلب المدرب (وهو مخلوق هائل) يرشقه بنظراته فيثبته في مكانه، وقد إلتزم العجلة إلى جواره كي يكون على أتم أهبة له إذا ما أبدى أي استعداد للترجل.

وجلس الثلاثة الآخرون في الخان ساهرين طول الليل في قلق شديد. وفي الثامنة صباحًا ظهر مستر سليري والكلب وكلاهما في غاية الانشراح. وقال مستر سليري:

- كل شيء على ما يرام يا ثيدي وقد يكون ابنك على ظهر ثفينة في هذه اللحظة، فقد مضى به تشيلدرز بعد ثاعة ونثف من رحيلنا ليلة أمث وقد رقث الحثان البولكا إلى أن جعله كالخرقة البالية (وكان حريًّا أن يرقث الغالب لو لم يكن مشدودًا بثرجه إلى العربة) وبعد ذلك أذنت له أن ينام ولما قال الوغد الزنيم أنه يريد أن يثتأنف الثير على قدميه تعلق الكلب برباط عنقه وقوائمه الأربع في الهواء وألقاه على الأرض ودحرجه فعاد إلى العربة وجلث فيها إلى أن اثتدرت بالحثان في منتثف الثابعة هذا الثباح.

وأهال مستر جراد جرايند عليه آيات شكره بطبيعة الحال، ولمح بأقصى ما يستطيع من اللباقة إلى رغبته في تقديم مكافأة جزيلة نقدًا، فقال:

- أنا لا أريد شخثيًّا مكافأة مالية يا ثيدي. ولكن تشيلدرز رب أثرة، فإن تفضلت وقدمت إليه ورقة من ذات الخمثة جنيهات لعله لا يأبى قبولها. وكذلك إن تفضلت بإهداء طوق للكلب أو مجموعة أجراث للحثان، ثأكون ثعيدًا بقبولها. وشرابي دائمًا هو البراندي والماء (وكان قد طلب كأسًا فطلب الآن أخرى) وإن لم تجد في الأمر مُغالاة يا ثيدي وتفضلت بمنحة للفرقة بمعدل ثلاثة شلنات وثتة بنثات لكل رأث فيما عدا لوثي، فثوف يثعدهم ذلك.

وتعهد مستر جراد جرايند بكل سرور أن يؤدي هذه التعبيرات الصغيرة عن عرفانه للجميل، وإن رآها تافهة جدًّا كما قال بالنسبة لمثل هذا المعروف.

- حسنًا جدًّا يا سيدي، إن أنت قمت بتشجيع ألعاب الخيل كلما اثتطعت لأثديت من الفضل ما يرجح الكفة. والآن يا سيدي، بعد إذن كريمتك، أحب أن أقول لك كلمة ختامية.

فانسحبت لويزا وسيسي إلى حجرة مجاورة، وهز سليري الكأس وشربها وهو ينهض قائمًا واستطرد:

- لثت بحاجة يا ثيدي إلى أن أقول لك إن الكلاب حيوانات رائعة.

فقال مستر جراد جرايند:

- غريزتها مدهشة.

- ثمها ما شئت، وأنا شختيًّا لا أعرف ماذا أثميها. مدهشة فعلًا الطريقة التي يثتطيع بها الكلب أن يعثر عليك... ومدهشة المثافة التي يقطعها في هذا الثبيل.

- ذلك أن حاسة الشم عنده مرهفة جدًّا.

فقال سليري وهو يهز رأسه:

- لا أدري ماذا أثميها، ولكن حدث لي أن كلابًا عثرت عليَّ يا ثيدي بطريقة جعلتني أعتقد أن الكلب ربما ذهب إلى كلب آخر وقال له: (ألا تعرف بالثدفة شختًا إثمه ثليري؟ شختًا إثمه ثليري يشتغل بترويض الخيل. وهو بدين ذو عين واحدة؟) فيجيبه الكلب الآخر: (أنا لا أثتطيع أن أقول إني أعرفه شختيًّا، ولكني أعرف كلبًا أعتقد أنه ربما كان يعرفه) ثم ذلك الكلب الثالث ربما قال بعد طول التفكير: (ثليري! طبعًا أعرفه! أحد أثدقائي حدثني عنه ذات مرة، ثأوافيك

بعنوانه فورًا) وحيث إنني أمثل باثتمرار أمام الجمهور، واتنقل بكثرة، فلا بد أن عددًا كبيرًا من الكلاب يعرفني يا ثيدي. ربما كان الأمر كذلك يا ثيدي!

وبدا على مستر جراد جرايند الذعر التام لهذه الفروض، وقال سليري بعد أن رشف شيئًا من البراندي الممزوج بالماء:

- على كل حال فمنذ أربعة عشر شهرًا يا ثيدي كنا في تشثتر، وأثناء قيامنا بعرض (الأطفال في الغابة) ذات ثباح إذا بكلب يدخل الحلقة من باب المثرح، ولا بد أنه قطع مثافة طويلة؛ لأنه كان في حالة ثيئة. كان يعرج ويكاد يكون ضريرًا. وطاف بأطفالنا واحد واحد كأنه يبحث عن طفل يعرفه بالذات، ثم جاء إليَّ وأقعى ثم وقف على قائمتيه الأماميتين رغم هزاله الشديد، ثم هز ذيله ومات. وكان هذا الكلب يا ثيدي هو (مريلجز).

- كلب والد سيسي!

- كلب والد ثيثليا العجوز، والآن يا ثيدي أثتطيع أن أقثم من معرفتي لهذا الكلب أن ذاك الرجل كان قد مات ودفن قبل أن يعود هذا الكلب إليَّ وقد تباحثنا طويلًا أنا وجوزفين وتشيلدرز في هل ينبغي أن أكتب لها أم لا ثم اتفقنا على أنه: (لا ينبغي ذلك، فليث في النبأ ما يثر الخاطر، فلماذا نقلق بالها ونشقيها؟)، وثواءً كان أبوها قد هجرها بخثاثة، أو كان قد حطم قلبه وحده مفضلًا ذلك على إيذائها بملازمته، فذلك ما لم نصل إلى معرفته الآن يا ثيدي إلا إذا عرفنا كيف تثل الكلاب إلى العثور علينا!

- إنها محتفظة بالزجاجة التي كان قد أرسلها لإحضارها إلى هذه الساعة، وستظل مؤمنة بحبه لها إلى آخر لحظة في حياتها.

فقال مستر سليري وهو ينظر أسوان في أعماق كأسه:

- يبدو أن هذا يثبت شيئين للمرء يا ثيدي: أولهما أن في العالم حبًّا، وأن المثلحة الشختية ليثت كل شيء بعد كل حثاب. والحب يختلف عن المثلحة الشختية غاية الاختلاف. والأمر الآخر أن الحب له ملكته الخاثة في الحثاب أو عدم الحثاب، وهذه الملكة من الثعب أن نطلق عليها إثمًا، فذلك لا يقل في ثعوبته عن إطلاق إثم على ملكة الكلاب الغامضة!

وتطلع مستر جراد جرايند من النافذة ولم يجب، وأفرغ مستر سليري كأسه ونادى السيدتين:

- ثيثليا يا عزيزتي، قبليني ووداعًا! وأنت يا كريمة الثيد إني إذ أراك تعاملينها كأخت، وكأخت تثقين بها وتكرمينها من كل قلبك وزيادة، أشعر بثعادة عظيمة. وأتمنى أن يعيش أخوك ليكون أجدر بك وأكثر مثرة لك. ولنتثافح يا ثيدي مثافحة ثقاء! ولا تتخط علينا نحن الأفاقين المثاكين، فلا بد للناث أن يتثلوا، وليث في مقدورهم طول الوقت أن يتعلموا، ولا أن يعملوا طول الوقت، فما خُلق الإنثان لهذا، فلا بد لكم منا يا ثيدي فمن الحكمة ومن الرقة أيضًا أن تحثنوا الظن بنا ولا تثيئوه! ولم أكن أظن من قبل (وأخرج مستر سليري رأسه من الباب مرة أخرى ليقول هذه الكلمة) إني مثتطيع أن أتكلم بهذه الطلاقة!

الفصل التاسع

خاتمة المطاف

من الخطر أن ترى شيئًا في فلك متنفج مغرور قبل أن يراه المتنفج المغرور بنفسه. وقد شعر مستر باوندربي أن مسز سبارست تجاسرت على استباقه وخالت نفسها أحجى منه، وقد ثار لديه سخط متأجج عليها لكشفها الظافر أمر مسز بجلر، وظل يقلب موضوع إقدام امرأة في وضعها التابع على ذلك الظن إلى أن غدا من كثرة التقليب ككرة عظيمة من الجليد ثم اكتشف أن تسريح هذه المرأة العالية النسب وأن يكون في مقدوره القول بأنها (كانت امرأة من أسرة عريقة وأرادت أن تلصق بي لولا أني لم أقبل وتخلصت منها) سيتيح له تحصيل كمية ممكنة من التباهي بهذه الصلة، ويكون في الوقت نفسه قد عاقب مسز سبارست العقاب الذي تستحقه.

ولما امتلأ غاية الامتلاء بهذه الفكرة العظيمة حضر مستر باوندربي للغداء واتخذ مجلسه في قاعة طعام الزمن الخالي حيث كانت صورته، وجلست مسز سبارست بجوار النار وقدومها في ركابها المصنوع من القطن غير عالمة إلى أين مساقها.

وكانت هذه السيدة المهذبة منذ مسألة مسز بجلر قد أخفت إشفاقها على مستر باوندربي بقناع من الحزن الهادئ والندامة، ولذا صار من عادتها أن تظهر

الأسى وهذا الأسى هو الذي تفضلت به الآن على مخدومها. فقال مستر باوندربي بلهجة حادة مقتضبة جدًّا:

- ما المسألة الآن يا سيدتي؟

- أتوسل إليك يا سيدي ألا تعض أنفي فتقطعه!

- أعض أنفكِ فأقطعه يا سيدتي! أنفكِ أنتِ!

وكان يعني كما أدركت مسز سبارست أنه أنف أضخم من أن يسمح بذلك، وبعد أن فرغ من هذا التلميح المسيء اقتطع لنفسه قطعة من الخبز ثم ألقى بالسكين محدثًا صوتًا، فنزعت مسز سبارست قدمها من الركاب وقالت:

- مستر باوندربي يا سيدي!

- ماذا يا سيدتي؟ فيم تحملقين؟

- هل لي أن أسألك يا سيدي إن كان شيء قد كدرك هذا الصباح؟

- نعم يا سيدتي.

فاستطردت المرأة المتأذية قائلة:

- وهل لي أن أسأل يا سيدي هل أنا السبب المنكود في إثارة غضبك؟

- سأقول لكِ الآن ما بنفسي يا سيدتي. أنا لا آتي إلى هنا لأجد التنغيص وقد تكون الأنثى عالية النسب ولكنه غير مسموح لها بالإثقال على رجل في مثل مركزي وإزعاجه. ولست مستعدًا أن أصبر على هذا (وشعر مستر باوندربي بضرورة المضي متوقعًا لنفسه الهزيمة إن هو أتاح الفرصة للإيضاح).

ورفعت مسز سبارست حاجبيها الكويولانيين ثم عقدتهما ولملمت شغلها في سلته الخاصة به، ونهضت وقالت في جلال:

- يبدو لي يا سيدي أنني أضايقك الآن بوجودي، ولذا سأنسحب إلى حجرتي الخاصة.

- اسمحي لي أن أفتح الباب لك يا سيدتي.

- شكرًا لك يا سيدي، أستطيع أن أفتحه لنفسي.

فقال باوندربي مارًّا بها واضعًا يده على المقبض:

- بل يحسن أن تسمحي لي بذلك يا سيدتي كي أنتهز الفرصة لأقول لك كلمة قبل ذهابكِ، ألا تشعرين يا مسز سبارست يا سيدتي أنه يُخيّل إليَّ أن المكان هنا مكتظ بنا؟ يبدو لي أنه لا مكان تحت سقفي المتواضع يكفي لحلول سيدة لها هيمنتك على شؤون سواها من الناس.

فرمقته مسز سبارست بنظرة ازدراء نكراء وقالت بأدب شديد:

- حقًّا يا سيدي؟

- كنت أُفكر في هذا الأمر منذ وقعت الحوادث الأخيرة يا سيدتي، ويبدو في رأيي المتواضع...

فقاطعته مسز سبارست قائلةً بمرح مُعابث:

- أوه من فضلك يا سيدي لا تستصغر شأن رأيك. فكل إنسان يعرف مدى ما لرأي مستر باوندربي من عصمة. وقد ثبت ذلك بالدليل لدى الناس جميعًا. ولا بد أنهم يتخذون من ذلك موضوعًا لأحاديثهم العامة. فلك أن تصغر أيما شيء فيك ما عدا رأيك يا سيدي.

وضحكت مسز سبارست، فاحمر وجه مستر باوندربي احمرارًا شديدًا وشعر بالحرج واستطرد:

- يبدو لي يا سيدتي أن مؤسسة تختلف عن هذه المؤسسة اختلافًا كليًّا ربما كانت أنسب لسيدة لها مواهبك. ولتكن مؤسسة قريبتك ليدي سكادجرز. ألا تظنين إنك قد تجدين هناك يا سيدتي شؤونًا تتدخلين فيها؟

- لم يخطر لي هذا قط من قبل يا سيدي، أما وقد أشرت إليه فينبغي أن أرى ذلك ممكنًا جدًّا.

فقال باوندربي وهو يضع في سلتها الصغير مظروفًا بداخله شيك:

- إذن هلا حاولت يا سيدتي، ولك أن تتمهلي ما شئت في الرحيل يا سيدتي، ولكن لعل من الأوفق حتى ذلك الحين لسيدة لها مواهبك العقلية أن تتناول وجباتها بمفردها وألا يزعجها فيها أحد. وأرى من الواجب عليَّ حقًّا أن أعتذر لك عن طول ما فرضت شخصي على أنوارك، وأنا لست سوى جوشيا باوندربي من أعيان كوكتاون.

- لا تذكر هذا يا سيدي، فلو أوتيت هذه الصورة القدرة على الكلام يا سيدي - ولكن لها على الأصل مزية العجز عن التورط وتقزيز الناس - لشهدت بأن ردحًا طويلًا قد انقضى منذ بدأت عندي عادة توجيه الخطاب إليها باعتبارها صورة تمثل فدمًا، وما من شيء يضعه الفدم يمكن أن يستثير الدهشة أو الاستنكار، فكل ما يبدر من الفدم لا يوحي بشيء سوى الازدراء.

وما إن قالت مسز سبارست ذلك وملامحها الرومانية أشبه بميدالية ضربت تخليدًا لاحتقارها مستر باوندربي، حتى أخذت تتفحصه من فرعه إلى قدمه ثم تجاوزته مستهينة بأمره وتسنمت الدرج. وأغلق مستر باوندربي الباب وجلس قبالة النار مستعرضًا على طريقته المتفجرة القديمة أمام صورته ومتدبرًا أمر المستقبل.

أي مدى من المستقبل نفذ إليه بصره؟ لقد رأى مسز سبارست تخوض معركة يومية مستخدمة جميع الأسلحة المتاحة للأنثى ضد ليدي سكادجرز الحقود المؤذية لاشك المعذّبة التي لم تزل مستلقية في فراشها برجلها المحفوفة بالأسرار مستنفدة إيرادها غير الكافي بحاجتها منتصف كل مدة تقريبًا من مدد السنة الأربع، في مسكن حقير صغير لا ينفذ إليه الهواء، فهو لشخص واحد خزانة ولشخصين زنزانة، ولكن هل تُراه رأى ما هو أكثر من هذا؟ هل رأى لمحة من نفسه وهو يُرِي بتزر للغرباء باعتباره الشاب الصاعد المتعلق بإخلاص بمواهب سيده العظيمة والذي فاز بمنصب توم الصغير، وكاد يقبض على توم الصغير نفسه عندما قام بتهريبه حفنة من الأوغاد؟ وهل تُراه أبصر انعكاسًا واهنًا لصورته وهو يكتب وصيته متنفجًا، وبمقتضاها يتحتم على خمسة وعشرين محتالًا تجاوز كل منهم الخامسة والخمسين من عمره، ومتخذًا كل منهم لنفسه اسم جوشيا باوندربي من أعيان كوكتاون أن يتناولوا العشاء دوامًا في قصر باوندربي، وأن يقيموا دائمًا في أبنية باوندربي، وأن يترددوا دائمًا على كنيسة باوندربي، وأن يرقدوا دائمًا تحت رعاية قس كنيسة باوندربي، وأن يعيشوا من فيض ضيعة باوندربي، وأن يغثوا جميع البطون الصحيحة بكمية ضخمة من تخليط باوندربي وهرائه المتنفج؟ وهل أوتي شيئًا من العلم بالغيب الذي سيتم بعد خمس سنين حينما يقضي جوشيا باوندربي من أعيان كوكتاون حتفه بالفالج في شارع كوكتاون فتبدأ هذه الوصية العصماء في النفاذ بمغالطاتها الطويلة ونهبها وتظاهرها الأجوف وقدوتها الوخيمة وجدواها الضئيلة وتحكمها الطائل؟

لعله لم يرَ شيئًا من هذا. بيد أن الصورة ستراه بحذافيره.

وها هو مستر جراد جرايند في اليوم نفسه وفي الساعة نفسها جالس يتفكر في حجرته الخاصة، فأي مدى من المستقبل نفذ إليه بصره؟ هل رأى نفسه رجلًا أبيض اللمة هرمًا يُخضع من بعد آراءه التي لا تلين للظروف المقدرة، ويجعل واقعه وأرقامه خدمًا للإيمان والأمل والرحمة، ولا يحاول من بعد أن يسحق هذا الثالوث المقدس في طواحينه الهزيلة الغاصة بالأقذار؟ هل رأى لمحة من نفسه حينئذٍ وقد ازدراه قُرناؤه القدماء في السياسة؟ هل أبصرهم في عصر تقرر فيه أن يتعامل الزبالون القوميون فيما بينهم وبين أنفسهم فحسب بحيث لا يربطهم واجب بالكائن المجرد المسمى الشعب، فإذا هم (يوبخون السيد المهذب الموقر) على هذا الأمر أو ذاك خمس ليالٍ في الأسبوع إلى الساعات الأولى من الصباح؟

لعله تنبأ بهذا القدر من الغيب، لما له من معرفة بأصحابه.

وها هي لويزا في ليلة ذلك اليوم نفسه ترقب النار كالعهد بها في الأيام الخوالي ولكن بوجه أكثر دقة وتواضعًا. فتُرى أي مدى من المستقبل تمثل أمام نظرها؟ إن اللافتات العريضة على جوانب الشوارع الممهورة باسم أبيها إبراءً لساحة المرحوم ستيفن بلاكبول النساج من التهمة الظالمة وإعلانًا لتجريم ابنه هو، مع التشفع له بما قد تتيحه حداثة السن والغواية من أعذار (ولم تطاوعه نفسه على أن يضيف إلى ذلك أسلوب تربيته)... ذلك كله من أمر الحاضر. وكذلك صُوَّة قبر ستيفن بلاكبول وقد نقشت عليها رواية أبيها لظروف مماته كانت من أمل الحاضر تقريبًا؛ لأنها تعلم أنها ستقام على ذلك النحو حتمًا، وهذه كلها أمور كان في وسعها أن تراها بوضوح. ولكن أي مدى من المستقبل نفذ إليه بصرها؟

وهذه امرأة عاملة تدعى باسم راشيل قد عادت للظهور بعد مرض طويل عند رنين جرس المصنع، وعادت للغدو والرواح في الساعات المقررة بين أيدي

كوكتاون العاملة، وهي امرأة ذات جمال حزين، لباسها السواد على الدوام، بيد أنها لينة العريكة مطمئنة النفس، بل إن فيها استبشارًا، وهي من دون سائر من في المنطقة تبدو عطوفًا على السكيرة الحقيرة المنكودة من بنات جنسها التي كانت تُرى أحيانًا في المدينة، وهي تستجديها أو تبكي أمامها. إنها امرأة عاملة، تعمل أبدًا، ولكنها قانعة بذلك، وتفضل العمل باعتباره نصيبها الطبيعي في الحياة الذي قُسم لها، إلى أن تعجزها سنها المتقدمة عن المضي في العمل؟

هل رأت لويزا هذا وإنه لشيء من الحتم أن يكون.

وهذا أخ وحيد على مبعدة آلاف الأميال يكتب على ورق يلطخه بدموعه أن كلماتها تحققت بغاية السرعة، وأن كل كنوز الدنيا لا تساوي عنده نظرة من وجهها الحبيب؟ وبعد زمن طويل إذ همَّ أن يدنو هذا الأخ شيئًا ما من الوطن على أمل أن يراها فعلَّته المرض، ثم ورد خطاب بخط غريب يقول إنه (مات في المستشفى بالحمى في يوم كذا. مات نادمًا محبًّا لك وكان اسمك آخر ما فاه به؟).

هل أبصرت لويزا هذا كله؟ هذ كله من الحتم أن يكون.

وهي شخصيًّا صارت زوجة مرة أخرى، تحب صِغارها وترعاهم وتحرص على أن تكون طفولة عقلهم ليست بأقل من طفولة بدنهم، لعلمها أنها نعمة أجمل وذخير، أهون قلامة منها تعتبر يمنًا وبركة لأحكم الحكماء؟

هل رأت لويزا هذا؟ هذا شيء لن يكون.

بيد أن أطفال سيسي السعيدة السعداء يحبونها، وكل الأطفال يحبونها، وقد غدت متبحرة في مدارك الأطفال، ولا ترى نزوة بريئة من نزواتهم جديرة بالاستخفاف، فهي تحاول جهدها أن تعرف رفاقها المتواضعين في البشرية

وتسعى لتجميل حياتهم المنقضية بين الآلات والواقع بطرف ومباهج متخيلة، لولاها لذوى قلب الطفولة وغدا عهد الرجولة البدنية مهما اشتد عوده جامد الروح جمود الموت، ولأمست الرفاهية القومية البارزة كأقصى ما تدل عليها الأرقام وكأنها الكتابة على الجدار وهي تقوم بهذا لا باعتباره جزءًا من ميثاق خرافي أو نذر أو عضوية في جماعة إخوة أو جماعة أخوات أو تعهد أو وعد، أو زي تنكري، أو مهرجان خيري، بل ببساطة باعتباره واجبًا يجب أن يُؤدى.

فهل رأت لويزا هذه الأمور عن نفسها؟ هذه الأمور من الحتم أن تكون.

عزيزي القارئ! بقي عليك وعليَّ أن نرى إن كانت مثل هذه الأمور حرية أن تقع أو لا تقع في محيط نشاطك ونشاطي. دعها تكن؟ وعندئذٍ سنجلس بنفوس مطمئنة إلى مجامرنا نشهد رماد نيراننا يحول لونه ويبرد.